الخبر والعيان

في تاريخ نجد

وهو شرح قصيدة تاريخ نجد البائية

بقلم ناظمها

خالد بن محمد الفرج

١٣١٦ - ١٣٧٤هـ

تحقيق ودراسة

عبد الرحمن بن عبد الله الشقير

مكتبة العبيكان

ⓒ عبدالرحمن بن عبدالله الشقير ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفرج، خالد بن محمد

الخبر والعيان في تاريخ نجد / تحقيق عبدالرحمن بن عبدالله الشقير. الرياض.

٥٩٥ ص، ١٧X٢٤ سم

ردمك: X-٧٣٤-٢٠-٩٩٦٠

١- نجد - تاريخ أ- الشقير، عبدالرحمن بن عبدالله (محقق)

ب- العنوان

ديوي ٩٥٣,١١ ٢١/٢٠٨٤

ردمك: X-٧٣٤-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢١/٢٠٨٤

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

ص.ب: ١٥٣٧٨٩ الرياض: ١١٧٢٦

البريد الإلكتروني: alshuqir@yahoo.com

يطلب الكتاب من

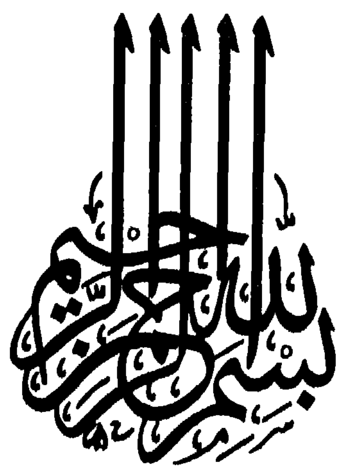
مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

صورة الغلاف: أطلال الدرعية (تصوير: ليتشمان ١٩١٢)



مقدمة

هذا كتاب **«الخبر والعيان في تاريخ نجد»** لمؤلفه المؤرخ الأديب الشاعر القاصّ خالد بن محمد الفرج «المتوفى سنة ١٣٧٤هـ» وهو صنو كتابه **«أحسن القصص»** فكلاهما في سيرة الملك عبدالعزيز - رحمه الله - وكلاهما في الأصل قصيدتان تولى المؤلف كتابتهما وشرحهما بنفسه، ويتميز كتابه **«الخبر والعيان»** بطول الفترة التي غطاها شعرًا وشرحًا.

وبالرغم من أهمية هذا الكتاب في تاريخ نجد الحديث، بل تاريخ الجزيرة العربية إلا أنه ظل مجهولاً مهجورًا بين الباحثين لم يفد منه إلا القلة القليلة منهم.

وقد اطلع على هذا الكتاب العلامة خير الدين الزركلي وأفاد منه كثيرًا عند إعداده كتابه "شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز" وأفاد بأن عنده نسخة من الكتاب.

قمت بالبحث عن نسخة الزركلي من هذا الكتاب ضمن مكتبته الخاصة المودعة بجامعة الملك سعود ولم أجد له أثرًا... وقد أفاد بعض الأفاضل بمكتبة جامعة الملك سعود بأن مكتبة الزركلي متفرقة في عدة بلدان والمحفوظ لديهم جزء من مكتبته.

وبتتبع النسخ المخطوطة من الكتاب تيسر لي الوقوف على ثلاث نسخ خطية جميعها بخط المؤلف - سيأتي وصفها - واحدة بمكتبة سمو الأمير مساعد بن عبدالرحمن المودعة بجامعة الإمام محمد بن سعود

الإسلامية بالرياض، واثنتان لدى الأستاذ علي ابن المؤرخ خالد الفرج بالكويت.

وبعد قراءة هذه المخطوطات والمقارنة بين نسخها قمت بتحقيقها مع وضع مقدمة تتضمن التعريف بالمؤلف، وبمؤلفاته، ودراسة كتاب «الخبر والعيان»، ثم بينت منهج التحقيق - كما سيأتي -.

ويسعدني هنا أن أتوجه بالشكر الجزيل للأخ الدكتور فهد بن عبدالله السماري - أمين عام دارة الملك عبدالعزيز - الذي لم يأل جهدًا في إمدادي بالرأي والمعلومة عند إعداد هذا الكتاب.

كما يسرني أن أتقدم بالشكر والامتنان للأخ الكريم الأستاذ علي بن خالد الفرج الذي فتح لي مكتبه ومكتبته للاطلاع على آثار والده وتصوير ما أحتاجه منها، كما بذل معي الكثير من جهده ووقته لتسهيل مهمتي، ولا يزال الشكر موصولاً بأهله فإن للأستاذ خالد سعود الزيد -الأديب الكويتي المعروف- جهوده الموفقة في تسهيل اتصالي بالأستاذ علي الفرج، فله الشكر. كما أشكر الأخ الأستاذ عبدالعزيز الخريف على مراجعة الكتاب لغويًا.

والله الموفق.

عبدالرحمن بن عبدالله الشقير

المؤلـــف

كتب خالد الفرج سيرته الذاتية متضمنة معلومات مهمة عن حياته وتنقلاته ومعلومات عن أسرته، وذكر أمراء القطيف - محل إقامته تلك الفترة - الذين عاصرهم، وقد جاءت هذه المعلومات على شكل فقرات مقتضبة، كتبها صاحبها في مقدمة ديوانه، ونشرها مع الديوان الأستاذ خالد سعود الزيد، وننقل من سيرة المؤلف هنا كما كتبها - ما يخص سيرته الشخصية - مع التعليق في الهامش على ما يحتاج إلى توضيح :

«خالد بن محمد بن فرج بن عبدالله بن فرج الصراف الدوسري من المساعرة. الأم شيخة بنت ثنيان بن عبدالرحمن آل ثنيان من قبيلة الخليفات في قطر.

المولد في الكويت ليلة النصف من ربيع الثاني سنة ١٣١٦هـ.

سنة ١٣٢٣هـ إلى (بومباي / الهند) حيث يقيم الوالد للتجارة.

سنة ١٣٢٦هـ رجوع إلى الكويت والتعلم في مدارسها، وأهمها المدرسة المباركية[1] المؤسسة سنة ١٣٣٠هـ.

سنة ١٣٣٣هـ رجوع إلى الهند ثم أوبة.

---

(١) **المدرسة المباركية:** أول مدرسة نظامية أسست في الكويت عن طريق اكتتاب أعيان البلاد. وافتتحت في ٢٢ ديسمبر ١٩١١م، وتقع في شارع سعود بن عبدالعزيز. السعيدان، الموسوعة الكويتية المختصرة ج ٣ ص ١٤٣٠.

سنة ١٣٣٤هـ سفر إلى القطيف، وإقامة بضعة أشهر.

سنة ١٣٣٥هـ رجوع إلى الكويت، وعودة إلى البحرين، وإقامة بضعة أشهر.

سنة ١٣٣٦هـ رجوع إلى الكويت، وسفر إلى الهند، وإقامة فيها.

سنة ١٣٤٠هـ توفي الوالد محمد بشهر (رجب) في الكويت.

سنة ١٣٤١هـ عودة إلى القطيف في آخرها.

سنة ١٣٤٢هـ في ١٧ ربيع الأول تحول الدواسر من (البديّع) في البحرين، وعمروا الدمام[1]، وفيها تزوج علية بنت أحمد بن سلمان أبو معجب الدوسري.

سنة ١٣٤٣هـ ولد محمد بن خالد غرة ذي القعدة.

سنة ١٣٤٤هـ إقامة في البحرين، وتولي سكرتارية المعارف.

سنة ١٣٤٥هـ تولي سكرتارية بلدية المنامة.

سنة ١٣٤٦هـ نفي الإنكليز لدواع سياسية إلى الكويت، ومنها عاد للقطيف، وفي جمادى الأولى تولي تأسيس بلدية القطيف.

---

(١) للدكتورة فتوح الخترش بحث عن «هجرة الدواسر من البحرين» (١٩٢٣-١٩٢٨م) نشر بمجلة حولية كلية الإنسانيات بجامعة قطر ١١ ص٣٠١-٣٣٤، ولخالد الفرج قصيدة بمناسبة العفو عن جماعته الدواسر وإرجاع أملاكهم المصادرة إليهم. ديوانه ص ٢٢٨.

سنة ١٣٤٧هـ في ذي الحجة توفي الأخ فرج.

سنة ١٣٤٨هـ زيارة للكويت واقتران بعائشة بنت عبدالله الفرج وعودة للقطيف.

سنة ١٣٥٠هـ شراء بيت ابن قضيب في قلعة (القطيف).

سنة ١٣٥١هـ الشروع في تعمير عين (البقيلة) بـ(الجش)[١] وشراء نخيلها و (العوامية)[٢].

سنة ١٣٥٤هـ سفر إلى (الأحساء) في شعبان بمناسبة وفاة الأمير (عبدالله بن جلوي)[٣] وتكليف من الحكومة بنظارة بناء قصر (قرية) على الحدود. وتوفيت الوالدة بـ(الخبر).

سنة ١٣٥٥هـ آخرها رجوع إلى (القطيف) وتولي وظيفة كاتب عدل.

سنة ١٣٥٧هـ عودة إلى بلدية القطيف والحج وميلاد الولد (بدر) ١٥ شوال.

سنة ١٣٥٩هـ انفصال من البلدية واستقلال بالأعمال الحرة والشروع في تعمير مقاطعة (العياشي).

سنة ١٣٦٠هـ ولدت البنت (شيخة) في ٢٢ رجب.

سنة ١٣٦٥هـ في صفر ولد الولد (علي).

(١) **الجش**: قرية معروفة تقع جنوب مدينة القطيف.

(٢) **العوامية**: قرية معروفة من قرى القطيف.

(٣) للمؤلف قصيدة رثاء في الأمير عبدالله بن جلوي، ديوانه ص ٩١.

تنقلات وزيارات وجولات:

البصرة: سنة ١٣٢٨هـ، ١٣٢٩هـ، وسنة ١٣٣٤هـ، أولها مع الوالد، وسنة ١٣٣٥هـ آخرها. وأول سنة ١٣٣٦هـ وسنة ١٣٤٨هـ.

البحرين: سنة ١٣٢٨هـ مع السيد محمد الزواوي. سنة ١٣٤٠هـ، وسنة ١٣٤١هـ، وسنة ١٣٥٨هـ.

القطيف: سنة ١٣٢٨هـ مع السيد محمد الزواوي لأول مرة.

الجبيل: سنة ١٣٢٨هـ مع السيد محمد الزواوي سنة تأسيسها أو بعده بسنة.

الكويت: شهران سنة ١٣٤٠هـ بمناسبة وفاة الوالد. شهران سنة ١٣٤٦هـ، وثلاثة أشهر سنة ١٣٤٨هـ، وشهران سنة ١٣٤٩هـ، وشهران سنة ١٣٦٣هـ.

في ١٨ ذي الحجة سنة ١٣٦٧هـ توفي الولد (بدر). وفي ١٨ ربيع الأول سنة ١٣٦٨هـ توفيت الأخت (مكية) بنت الوالد محمد الفرج ومولدها سنة ١٢٩٢هـ.

سنة ١٣٦٨هـ سافرنا في ١٢ ذي القعدة من (القطيف) إلى (الرياض) بالطائرة بطلب من جلالة الملك، للاشتراك في وضع الكتاب الذهبي بمناسبة تمام ٥٠ سنة لتوليه الملك، وفي يومنا توجهنا برفقة جلالته على الطائرات إلى الطائف. وفي أول ذي الحجة سنة ١٣٦٨هـ توجهنا إلى

(مكة المكرمة) للقيام بمناسك الحج.

سنة ١٣٦٩هـ في ٦ شعبان توجهنا من مكة إلى المدينة، وقبلها في أول ربيع الأول استقدمنا العائلة. وفي ٦ رمضان قدمنا الطائف.

في ٧ شعبان سنة ١٣٦٣هـ ولد لي ابن أسميته (علي). وفي ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٦٤ توفي بداء الحصبة، وكان جميلاً ممتلئًا صحة وجمالاً، ولم يمرض قبلها بمرض.

ذبلت زهرتي بأول آذار — وقد فتحت زهور سوايا

نشوة في الحياة أخرجني منها — بللته بمدمعي عينايا

كل طفل يمر فهو (علي) — هادمًا في مراحه سوايا

يا علي جنيت من حيث لا — تدري وأورثتني صنوف البلايا

كل من ينسب الجناية للوالد — ما ذاق ما يذوق البرايا[1]

يا طيور الربيع ذكرني جسمك — والصوت قطعة من حشايا

وقد حالت الأحزان دون إتمام المرثية، وهو الوحيد الذي استطعت أن أرثيه من أقاربي، لأن الحزن يحول دون الشعر.

---

(١) في البيت إشارة إلى قول أبي العلاء المعري:

هذا جناه أبي علي — وما جنيت على أحد

والمعري لم يتزوج، والفلاسفة يعدون اتخاذ الولد وإخراجه إلى الدنيا جناية عليه.

وفي ١٥ صفر سنة ١٣٦٥هـ ولد (علي) الثاني سميته عليًا لتعلقي بذكرى الماضي أبقاه الله.

أمراء القطيف الذين عاصرهم وشاهدهم:

الأمير عبدالرحمن بن عبدالله آل سويلم فتح القطيف من الترك في سنة ١٣٣١هـ وتعين أميرًا لها، وفي الوقت تعين يوسف بن عمر السويلم ابن عمه وكيلاً لبيت المال بالقطيف إلى أن عزل سنة ١٣٣٥هـ، وسافر الأمير عبدالرحمن إلى الرياض عدة مرات، وأناب عنه في إمارة القطيف ابنه عبدالله الذي توفي بالأنفلونزا سنة ١٣٣٧هـ، وأخاه سلطان بن عبدالله السويلم سنة ١٣٤٠هـ، ثم ابنه الأمير محمد سنة ١٣٤٢هـ، وابنه محمد ثانية سنة ١٣٤٥هـ، وبقي أميرًا بالوكالة إلى سنة ١٣٤٨هـ إذ توفي الأمير عبدالرحمن في ربيع الأول فجأة، وتولى الإمارة الأمير محمد بن عبدالرحمن بالأصالة إلى شوال سنة ١٣٤٩هـ، فحج وأناب عنه أخاه عبدالعزيز إلى سلخ سنة ١٣٤٩هـ فعزل، وتولى الإمارة عبدالله بن محمد بن ثنيان آل عبيكان من أول محرم إلى سلخ رمضان سنة ١٣٥٠هـ، فاستقال وعين خلفًا له الأمير عبدالرحمن بن سعدي بن خير الله من موالي آل سعود إلى ج ١ سنة ١٣٥٤هـ فاستقال، وفي أثناء إمارته سافر إلى الأحساء مرتين لزيارة أهله، وأناب عنه في الإمارة عبدالعزيز بن غنيم.

وبعد استقالته تولى الإمارة محمد بن عبدالله بن بتال المطيري إلى نهاية سنة ١٣٥٥هـ فعزل وعين بدله سليمان بن إبراهيم بن ثنيان إلى سنة

١٣٥٨هـ فعزل وعين ناصر بن ثنيان، وعزل في آخر السنة وخلفه حمود بن مطلق البقعاوي وكيلاً إلى ربيع ٢ سنة ١٣٥٩هـ، وصارت مقاطعة أميرها محمد بن عبدالعزيز بن ماضي وإقامته في الخبر، وعلى القطيف أخوه مشاري بن ماضي فتوفي فجأة سنة ١٣٦٣هـ وأمر بدله أخوه عبدالعزيز بن ماضي.

وفي سنة ١٣٦٤هـ تعين خالد بن أحمد بن محمد بن أحمد السديري أميراً على المقاطعة، وعلى القطيف ناصر بن عبدالله السديري إلى أول رجب سنة ١٣٦٥هـ فتولى الإمارة مباشرة حاكم ولاية الأحساء سمو الأمير سعود بن عبدالله بن جلوي وتعين حمود البقعاوي أميراً على القطيف في شعبان سنة ١٣٦٥هـ حال كتابة هذه السطور، وكل هؤلاء الأمراء شاهدتهم. خالد الفرج.

عن حياته وأسرته[١]:

الوالد محمد ابن الشيخ فرج بن عبدالله بن فرج الصراف الدوسري من المناديل المساعرة، أصلهم من بلدة نزوة[٢] في الوادي (وادي الدواسر).

---

(١) توسع المؤلف في سرد معلومات خاصة عن أسرته بتفاصيل لا تحتاج إليها هذه المقدمة، وقد اكتفي منها بما يعطي الملامح العامة لأسرة المؤلف.

(٢) **نزوة**: كذا في الأصل، والصواب نزوى بالألف المقصورة، وهي قرية من قرى وادي الدواسر. ابن خميس، معجم اليمامة ج ٢ ص ٤١١.

جدنا الشيخ فرج ولد بالكويت سنة ١٢٤٠هـ وتوفي فيها سنة ١٣١٢هـ وهو كفيف البصر.

حرره خالد بن محمد الفرج بالقطيف ليلة الخميس ١٨ ذي الحجة سنة ١٣٦٧هـ.

وتضمنت هذه النبذة على اختصارها مدى اهتمام خالد الفرج بتدوين تاريخ أسرته وتسجيل تواريخ الولادة والوفاة وصلة قرابتهم منه لكل فرد، وهذا يدل على المستوى الثقافي والاجتماعي المتقدم الذي تتمتع به أسرته ونشأ عليه، وفي إشارته إلى سيرته الذاتية وتنقلاته وزياراته ما يؤيد ذلك، ويشير بعض الباحثين إلى أن نبوغه المبكر في العلم ونشأته في بيت موسر محب للعلم أتاح له من أسباب التعلم ما لم يتح لأقرانه[1].

كما يعد تسجيله الدقيق لأمراء القطيف الذين عاصرهم وشاهدهم من أهم ما سجل عن تسلسل أمراء القطيف في عصر الملك عبدالعزيز، بل لم يدون أحد في كتاب بمثل ما دونه خالد الفرج من الدقة على كثرتهم وتولي بعضهم بالإنابة خلال فترة زمنية قصيرة.

وقد قضى خالد الفرج فترة حياته الأخيرة في المملكة العربية السعودية، وتملك فيها عقارات، وقد التقى به الشيخ مسعود عالم الندوي في الرياض سنة ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م أثناء مروره بها متجهًا إلى مكة المكرمة للحج، وكان خالد الفرج قد حضر إلى الرياض لمرافقة الملك عبدالعزيز إلى

(١) الصباح، الشعر الكويتي الحديث ص ٣٨١.

مكة أيضًا، ووصفه الندوي بأنه أصلاً من سكان الكويت، وأنه يقيم تلك الفترة في الخبر. وأشار إلى أنه ثريّ يمتلك مساحات كبيرة من الأراضي، وأنه يتمتع بمكانة طيبة لدى الملك عبدالعزيز[١].

ومن الطريف أن خالد الفرج لم يجد صعوبة في بناء علاقة جيدة مع مسعود الندوي، نظرًا لتردد الفرج على الهند مرات عدة، ومعرفته باللغة الأوردية، لذلك أبدى للندوي معرفته بالقادة السياسيين في الهند وإدراكه للأوضاع السياسية هناك، كما أشار إلى علاقته بأدباء وشعراء الهند المسلمين مثل ظفر علي خان، ومحمد إقبال[٢].

مؤلفاته :

اشتهر خالد الفرج بالأدب والشعر أكثر من اشتهاره بالتاريخ، بل إن أثره التاريخي المتداول عبارة عن ملحمة شعرية كتبها بأسلوب قصصي سماها «أحسن القصص».

ومن أهم مؤلفاته وآثاره المنشورة ما يلي :

١ - «أحسن القصص» ملحمة شعرية في سيرة الملك عبدالعزيز منذ ولادته حتى دخول الحجاز سنة ١٣٤٣هـ، جعل كل صفحة شعرية منها تقابلها صفحة نثرية. قال الزركلي: كتبها بأسلوب عصري لطيف[٣]

(١) الندوي، شهور في ديار العرب، ص ٣٦١.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٦٢.
(٣) الزركلي، الأعلام ج٢ ص ٢٩٨.

وعنوان الكتاب مقتبس من قوله تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

طبع الكتاب للمرة الأولى في القاهرة سنة ١٣٤٨هـ تقريبًا، واحتوى (١٣٥ صفحة) مع المقدمة والفهارس[١]. وطبع مرة أخرى على نفقة الشؤون الدينية بدولة قطر عام ١٩٨٢م في (١٣٦ صفحة) مع المقدمة والفهارس.

٢ - «الخبر والعيان في تاريخ نجد» وسيأتي الحديث عنه.

٣ - «ديوان النبط، مجموعة من الشعر العامي في نجد»[٢] جزآن، قدم المؤلف لكل جزء بمقدمة ضمنها خلاصة تجربته في دراسة الأدب العامي في نجد، وتوصل إلى أنه «صورة صادقة على ما كان عليه أدب اللغة العربية في العصر الجاهلي»[٣]، ولهذا انتقد المؤلف كتاب «في الأدب الجاهلي» لطه حسين. . . ، واتسع الجزء الأول لأربعة شعراء رتبهم بحسب الأقدمية

---

(١) د. علي جواد الطاهر، معجم المطبوعات العربية ج١ ص ٣٩٧. وقد أشار مترجم كتاب «شهور في ديار العرب» للندوي د. سمير عبدالحميد إبراهيم (ص٣٧٩ هامش ٢٢) أن للكتاب قسمًا آخر أكمل فيه سيرة الملك عبدالعزيز منذ دخوله الحجاز حتى وفاته عام ١٣٧٢هـ [كذا] وأنه طبع بالقاهرة. ولم يذكر مستنده، والواقع أنه لا يعرف له كتاب بهذا الوصف.

(٢) الزيد، خالد الفرج حياته وآثاره ص ٢١، و د. الطاهر، معجم المطبوعات العربية ج١ ص ٣٩٨.

(٣) الفرج، ديوان النبط ج ١ ص ٣.

وهم: حميدان الشويعر، ومحمد بن لعبون، وعبدالله بن ربيعة، وعبدالله بن سبيل.

وتضمن الجزء الثاني خمسة شعراء هم: محمد العبدالله القاضي، وعبدالعزيز المحمد القاضي، وإبراهيم المحمد القاضي، ومحمد الصالح القاضي، ومحمد العوني.

وكان المؤلف ينوي إصدار كتابه «ديوان النبط» على شكل «أجزاء متسلسلة تحتوي على أشعار أهم شعراء الجزيرة العربية»[١].

٤ - «ديوان خالد الفرج» وهو أشهر آثاره الأدبية، وقد تناوله النقاد والأدباء بدراسات متعددة[٢]، ويقع في جزأين طبع الجزء الأول بإشراف ناظمه في مطبعة الترقي بدمشق عام ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م وكان موضوعه في التاريخ والسياسة، وقد توفي قبل طبع الجزء الثاني[٣]، ثم تولى الأستاذ خالد سعود الزيد إعادة نشره مع إضافة الجزء الثاني وهو عبارة عن أشعاره التي نظمها في الكويت، والهند، والبحرين، ولم يتضمنها الجزء الأول[٤] ومنها الشعر الوجداني، وقد طبع في الكويت عام ١٩٨٩م.

(١) الفرج ديوان النبط، ج١، ص ١١، وانظر ج ٢ ص ٤.

(٢) انظر مثلا عواطف الصباح، الشعر الكويتي الحديث ص ص ١٧٧-٢٧٢.
و د. علي عبدالخالق علي، الاتجاه الوجداني في شعر خالد الفرج...، نشر بمجلة حولية كلية الإنسانيات بجامعة قطر س٤ ع ٤ ص ١٦٣ - ٢٠٨ وانظر مراجعه.

(٣) الزيد، المرجع السابق ص ٢٠.

(٤) الزيد، ديوان خالد الفرج، ص ٢٠، ٢١.

٥ - «علاج الأمية في تبسيط الحروف العربية» رسالة لطيفة تناولت إصلاح الكتابة العربية بثلاثة نواحي أساسية كما بينها مؤلفها، وهي:

«**الأولى الحروف:** بإيجاد نوع من الحروف بسيط، متناسب، مرن، مختصر، بشرط أن يكون مقتبسًا من الحروف العربية.

الثانية النطق: أي ضبط النطق بالحركات الواضحة، وذلك بإيجاد حركات ثابتة لازمة ترسم في صلب الكلمة حتى يعتاد النشء على النطق بالكلمات صحيحة، ولا تخل بوضعية الكتابة.

الثالثة الإملاء: إذ يجب أن تكتب الكلمات كما تنطق، بحيث لا يرسم المقصور إلا بالألف سواء كان واويًا أو يائيًا وتحذف واو عمرو وأولئك وهمزة الوصل و "أل" الشمسية وتثبت ألف هذا إلى ما هنالك من الشواذ»[١].

وقد كانت هذه الرسالة في الأصل بحثًا نشر بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج١ س ١٠ (كانون الثاني سنة ١٩٣٠م الموافق شعبان سنة ١٣٤٨هـ).

ونشرها المؤلف مرة أخرى سنة ١٣٧٣هـ بعد تطويرها، ثم أعاد نشرها الأستاذ خالد بن سعود الزيد في كتاب "خالد الفرج حياته وآثاره" (ص١٤٥-١٧٠).

(١) الزيد، خالد الفرج حياته وآثاره، ص ١٥٩.

بالإضافة إلى أن المؤلف ترك عشرات المقالات كان يشارك بكتابتها في الصحف والمجلات التي كانت تصدر في وقته في العالم العربي[1].

كما أن له مشروعًا، يبدو أنه شبه موسوعة عن تاريخ نجد وجغرافيتها رسم هيكلها وكان ينوي إصدارها، لكنه توفي قبل إتمامها، وقد أطلعني الأستاذ علي بن خالد الفرج مشكورًا - بمنزله في الكويت - على ما تبقى من تراث والده، فكان من بينها ما يلي:

١ - مسودة (البلدان)، وصف لبلدان نجد.

٢ - مسودة (الرجال)، فهارس وتراجم الأمراء والعلماء والأعيان بنجد.

٣ - مسودة شجرة نسب آل سعود.

وهذه المسودات لا جديد فيها ولا تعد من الأعمال المنجزة للمؤلف؛ لأن خطتها لم تكتمل، لذلك كانت كل مسودة لا تزيد عن صفحة أو صفحتين، ولكن من المهم التنويه بقيمة التفكير المبكر بمثل هذه المواضيع في تلك الفترة.

٤ - كما أن له تراجم لبعض مشاهير الخليج ضاع معظمها، وكانت

(١) انظر مثلاً مقالات تاريخية مهمة نشرها في مجلة البعثة الكويتية سنة ١٩٥٣م، نقل بعضها المؤرخ الكويتي سيف مرزوق الشملان في كتاب من تاريخ الكويت ص ٢٢٦ و ٢٣٧ ومقال نشره بجريدة الحج سنة ١٣٧١هـ نقله ابن بليهد في صحيح الأخبار ج٣ ص ٢٦٠-٢٦٩.

جزءاً من كتاب له بعنوان "رجال الخليج"[1]. وقد نشر الأستاذ الزيد نماذج مما استطاع الحصول عليه وتمثل ترجمتين هما «الشيخ قاسم بن ثاني مؤسس أمارة قطر» و «ابن لعبون متنبي الشعر النبطي»[2]. بالإضافة إلى مشاركته في كتابة القصة القصيرة، ونشر في هذا المجال عدداً قليلاً من القصص، وتوقف بعدها. وهو بهذا يكون من أوائل من كتب القصة القصيرة في الخليج العربي والجزيرة العربية في الأدب الحديث والمعاصر.

ومن جانب آخر فقد كان له مشاركة في ترجمة شعر محمد إقبال من اللغة الأوردية إلى اللغة العربية[3].

كما أن هناك جانبًا علميًا مهمًا في حياة خالد الفرج لم يشر إليه أحد ممن كتب عنه، وهو عنايته بالبحث الأثري والتنقيب عن المخلفات الأثرية، وعلى الرغم من أنه لم يوجد ضمن آثار خالد الفرج المتبقية من كتب وأبحاث ومقالات ما يشير إلى عنايته بهذا الفن، إلا أن الرحالة فلبي أشار إلى ذلك في كتابه «أرض الأنبياء - مدائن صالح»، ونبه إلى أن خالد الفرج قد زار منطقة روافه[4]، وجمع لديه معثورات أثرية مهمة، يقول عنها

(١) الزيد، خالد الفرج حياته وآثاره، ص ٢١ و ٤٣.

(٢) الزيد، خالد الفرج ص ١٧٥ - ١٩٠.

(٣) الندوي، شهور في ديارالعرب، ص ٣٦٢.

(٤) **روافه**: جبل يقع جنوب حسمي، وجنوب غرب تبوك ويبعد عنها بنحو ٩٤ كيلاً. وفي الجبل معبد نبطي عثر عليه عن طريق موزل سنة ١٩١٠م، ثم زاره فيلبي سنة ١٩٥١م، ووصفه في كتابه المشار إليه. الجاسر، شمال المملكة ج ٢ ص٦٠٥. والقثامي، شمال الحجاز ج ١ ص ٥١٢.

فيلبي: «لقد أتيح لي فرصة رؤيتها عن طريق بعض خبراء شركة أرامكو الأميركيين من أصدقاء خالد»[١]. ومثل هذه الأنشطة غير مستبعدة من خالد الفرج الذي كان يمثل الشاعر الأديب المؤرخ النشط المتعدد الميادين. إلا أن فيلبي يحمل الفرج مسؤولية اختفاء وتلف بعض آثار المنطقة، وهذا تحامل لم يوثقه فيلبي، فالمنطقة في تلك الفترة متاحة للجميع، وقد زارها موزل وغيره قبل الفرج، فلماذا لا يكون أحد منهم أخذ معه ما يمكن حمله من الآثار شأن بقية الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية[٢]؟ وقد اتصلت بورثة خالد الفرج في الكويت، وزرت ابنه الأستاذ علي، وتباحثت معه عن تراث والده، فلم أجد لديه أي معثورات أثرية أو نقوش قديمة، وأفاد أنه لايعرف شيئًا عن ذلك، وتحدث الدكتور حمود القثامي عن آثار روافه، وأشار إلى الكثير من النقوش المنتشرة حولها، ووصف بعضها، ونسب تلف النقوش التي محيت إلى العوامل الجوية[٣].

(١) فليبي، أرض الأنبياء- مدائن صالح ص ٢٢٠، ولعل فيلبي يشير إلى جورج رنس فقد كان صديق خالد الفرج وله معه مراسلات، اطلعت على بعضها في الكويت. ولرنس مذكرات ومكاتبات كانت محفوظة في أحد المكتبات الخاصة في قطر. ثم انتقلت إلى مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض.

(٢) من طرق بعض الرحالة الأوربيين في الحصول على الآثار في مناطق بحثهم الإعلان عن مبالغ نقدية بين أهالي المنطقة لكل من يدلهم على الآثار أو النقوش، وقد استخدم هذه الطريقة في شمال المملكة موزل، وفلبي، وقبلهم عالم الآثار الألماني أويتنغ الذي زار المنطقة، ونقل معه «حجر تيماء» الذي يعد من نفائس متحف اللوفر.

(٣) القثامي، شمال الحجاز ج ١ ص ٢٢١.

«الخبر والعيان»

سمى المؤلف كتابه: «الخبر والعيان في تاريخ نجد» كما في عنوان النسختين أ و ب، وعندما أعاد كتابته زاد على العنوان الإيضاح التالي: (وهو شرح قصيدة "تاريخ نجد" البائية).

وورد اسم الكتاب عند الأستاذ خالد سعود الزيد «الخبر والعيان في تاريخ نجد وما يجاورها من البلدان»، ووصفه بأنه يقع في ثلاثة أجزاء[1]، وبين المؤلف - في المقدمة - سبب تسمية كتابه بعدما أشار إلى المصادر التاريخية التي اعتمد عليها منذ ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب حتى دخول الملك عبدالعزيز الحجاز بقوله: «واعتمدنا فيما كتبناه عن كتب من المشاهدين الثقاة؛ ولذلك أسميته «الخبر والعيان». ولهذا فإن تسمية الكتاب الأساسية «الخبر والعيان»، وما جاء بعدها زيادة توضيحية لمضمون الكتاب.

وأصل الكتاب قصيدة بائية من البحر الطويل، رفعها المؤلف إلى جلالة الملك عبدالعزيز في ١٢ شوال سنة ١٣٤٦هـ، ووصفها بأنها الحلقة الأولى من قصيدة «تاريخ نجد»، وهي منظومة ضمنها خلاصة تاريخ نجد من أول قيام الإمام محمد بن سعود إلى دخول جلالة الملك الحجاز، وتقع في (٢٢٩) بيتًا. «وقد وقعت من جلالته موقعًا، ونالت عطفه واستحسانه، ونشرتها جريدة أم القرى الرسمية تباعًا في تلك السنة، ووعدت أن تذيلها

(١) الزيد، خالد الفرج، ص٢٢.

بشرح وتطبعها على حدة»[1].

أما الحلقة الثانية فقد كانت شقيقة لأختها على الوزن والقافية كما يصفها المؤلف، وقد رفعها إلى جلالة الملك يوم تشريفه الجبيل في ٢١ رمضان ١٣٤٨هـ بعد فراغه من القضاء على فتنة الأخوان، وتقع في (١٧٤) بيتًا، ولهذا فقد خصص المؤلف هذه الحلقة لتدوين تاريخ حركة الإخوان وما آلت إليه.

«وقد تألفت من الحلقتين قصيدة تبلغ أبياتها أربعمائة بيت أو تزيد».
نشرت القصيدة كاملة في جريدة أم القرى[2]، ثم نشرت فيما بعد في «ديوان خالد الفرج»[3]، ونُشِر جزء من القصيدة في مجلة الكويت[4].

وقد أشار المؤلف إلى أنه علم من السيد يوسف ياسين أن جلالة الملك يرتاح إلى وضع شرح على القصيدة يفسر منها ما غمض. . وقد قام المؤلف بشرح القصيدة بعد فراغه من كتابه الآخر «أحسن القصص» مضيفًا إليها كثيراً من الحوادث والوقائع التي أهمل ذكرها في المنظومة[5].

---

(١) من مقدمة المؤلف لهذا الكتاب.
(٢) جريدة أم القرى الأعداد: ١٨٠ ص ١، ١٨٤ص ٤، ١٨٦ص ٤، ١٨٧ص ٤.
(٣) ص ٥١ - ٧٢.
(٤) مجلة الكويت يصدرها المؤرخ عبدالعزيز الرشيد سنة ١٣٤٨هـ، ج٢، ص ٣١١ - ٣١٣.
(٥) انظر مقدمة المؤلف لهذا الكتاب، ص ٦٧.

تاريخ كتابته :

نظم المؤلف القصيدة على حلقتين في مناسبتين مختلفتين -كماتقدم- فالحلقة الأولى من القصيدة رفعت إلى الملك عبدالعزيز في ١٢ شوال ١٣٤٦هـ، والحلقة الثانية رفعت أيضًا إلى جلالته في ١٣٤٨هـ، ثم حالت بين المؤلف وشرحها أشغال جمة[١]، حتى تيسر له كتابة مسودة الكتاب للمرة الأولى دون أن يوضح تاريخ فراغه من كتابتها، والمرجح أنه كان سنة ١٣٥٠هـ كما يدل على ذلك سياق الأحداث - كما سيأتي -، وأعاد تبييض الكتاب وانتهى منه في سنة ١٣٥١هـ، ثم كتبه للمرة الثانية دون تغيير في ذي الحجة سنة ١٣٥٢هـ. وقدم الشرح كما قدم الأصل إلى الملك عبدالعزيز.

منهج المؤلف :

صدر المؤلف كتابه بمقدمة بين فيها أصل الكتاب وفكرته، ثم أشار إلى القصيدة وصنفها ضمن الشعر السياسي، وناقش من يضعها ضمن أبواب المديح، واستطرد في شرح مفهوم المدح والهجاء في الشعر العربي... ثم حدد المنهج الذي اتبعه في كتابه، وهو المنهج التحليلي، وقد أشار إلى ذلك بقوله: «وقد اعتنيت بذكر الأسباب وتعليل الحوادث ونتائجها أكثر من اعتنائي بسرد وقائعها .. كما أني اختصرت الحوادث الشهيرة، وأسهبت فيما هو خاف منها ..، واستطردت عند ذكر كل أحد من مشاهير الأعلام

(١) انظر مقدمة المؤلف لهذا الكتاب.

بفذلكة تاريخية عنه»[١].

ثم أدرج المؤلف كامل القصيدة البائية مقسمة إلى حلقتين، في كل حلقة عدد من المقاطع التي تتحدث عن موضوعات مختلفة، وقد أعطى المؤلف لكل موضوع عنوانًا خاصًا به ورقم تسلسل، وأحال في الهامش إلى مكان شرح الموضوع من الكتاب، كما أنه وضع أمام كل موضوع مشروح في الكتاب رقم الصفحة التي تقع فيها تقع فيها الأبيات المتصلة بها.

وقد اتبع المؤلف طريقة عرض الأحداث بحسب التسلسل التاريخي دون أن يعنى بتحديد سنوات وقوعها في الغالب.

ويلاحظ أن المؤلف أفاد بإضافة منهجية في كتابه، هي تقسيمه حكومة آل سعود إلى دورين، حيث جعل الدور الأول: الإمارة (٨٥٨ - ١١٥٨هـ) والدور الثاني: الإمامة (١١٥٨هـ - حكم الملك عبدالعزيز قبل إعلان توحيد المملكة)[٢]، وهذا التقسيم بخلاف التقسيم المألوف الذي يبدأ تصنيف حكومة آل سعود من فترة الإمامة، وهي: الدولة السعودية الأولى، والثانية، والثالثة. ويتميز تقسيم المؤلف بطول الفترة التي شملها، وإن كان دور الإمارة لم يتميز بشيء، شأن بقية أمراء نجد في تلك العصور، لكل بلد أميرها كما يشير إلى ذلك المؤلف. ومع ذلك فإن

(١) مقدمة المؤلف، ص ٦٨.
(٢) الخبر والعيان، ص ١٣٣، ١٣٥.

المؤلف يشير ضمنيًا إلى التقسيم المتعارف عليه في بعض العبارات، مثل حديثه عن سقوط الدرعية بقوله: «بعد انتهاء مأساة الدرعية أُسدل الستار على تلك المملكة الكبيرة للمرة الأولى»[1]، وتسميته الفترة التي بين سقوط الدرعية وظهور الإمام تركي بعهد الفوضى[2].

ويعد المؤلف سقوط الرياض بيد ابن رشيد بعد وقعة المليدا سنة ١٣٠٨هـ وجلاء الإمام عبدالرحمن إلى الكويت نهاية الدور الثالث من أدوار الدولة السعودية[3].

وهذا التقسيم وإن لم يشرحه المؤلف بصورة واضحة كما فعل في تقسيمه الأول، إلا أنه يعد بذلك من أوائل من تحدث عن تقسيم أدوار الدولة السعودية.

مصادر المؤلف:

بين المؤلف المصادر الأساسية التي اعتمد عليها في تأليف كتابه، وذكر أن من أهمها «عنوان المجد في تاريخ نجد» لابن بشر، ويرى المؤلف أن «كل من كتب بعده فهو عالة عليه؛ إذ هو الكتاب الوحيد في هذا الباب»[4]. وقد ظهر أثر كتاب ابن بشر واضحًا في هذا الكتاب خلال الفترة التي

(١) الخبر والعيان، ص ٣١٤.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٣.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٦٣.
(٤) من مقدمة المؤلف ص ٦٩.

غطاها. بل لا مبالغة إذا وصف التقرير التاريخي في كتاب «الخبر والعيان» منذ بدايته حتى فترة إمامة فيصل بن تركي بأنه إعادة صياغة عصرية لتاريخ ابن بشر مع استيعاب دقيق؛ لهذا فإن السهو الذي يقع في «عنوان المجد» قد ينسحب تباعًا على كتاب «الخبر والعيان».

كما أن هناك عددًا من المصادر الأخرى اعتمد عليها المؤلف في بعض الفترات التاريخية، مثل كتاب «تاريخ الجبرتي» الذي أفاد منه في الحوادث المصرية النجدية، وتاريخ عثمان بن سند - أحد المعاصرين للشيخ محمد بن عبدالوهاب - ، وقد أشار المؤلف إلى هذين الكتابين، كما ذكر إلى أنه أفاد من كتابات الرواد الأجانب المترجمة، وقد أفاد المؤلف أيضًا من الروايات الشفوية، واستعان بها على تصحيح أغلاط الذين كتبوا عن نجد وليسوا من أهلها[1].

أما الحوادث الأخيرة التي كتب عنها المؤلف فهي عن معاصرة وقرب، وقد اعتمد فيها على ما كتب في النشرات الدورية وبخاصة جريدة أم القرى، وما سمعه عن كثب من المشاهدين الثقات.

بالإضافة إلى ذلك فإن ثقافة المؤلف العالية وتنوع المعارف عنده وتمكنه من عدة لغات[2] أتاحت له الاطلاع على ثقافات الشعوب

(١) انظر مقدمة المؤلف ص ٦٩.

(٢) تعلم خالد الفرج اللغة الإنجليزية، ودرس اللغات الهندية أثناء إقامته في الهند سنة ١٣٣٦هـ. الزيد، خالد الفرج، ص ١٧.

والبلدان، وكان لذلك الأثر الكبير في تميز الكتاب وظهوره بهذه الصورة، وهذا يعد من أهم مقومات الكتاب، فقد استطاع المؤلف أن يوظف معلوماته الأدبية في صياغته، وذلك بتضمين كتابه الشواهد القرآنية، والأبيات الشعرية، وتحليل الأحداث التي يتحدث عنها مع ربطها بقرائنها من التاريخ الإسلامي أو التاريخ العالمي، وتسجيل ملحوظاته، بل إنه استطاع من خلال استيعابه للأحداث التي غطاها أن يربط فيما بينها بشكل دقيق، ويؤكد المؤلف بهذه الطريقة التي اتبعها ما قاله في كتابه بأن التاريخ يعيد نفسه(١).

كما يُلْحظ تأثر المؤلف بالدراسات الاجتماعية، ويظهر ذلك من خلال أثر مقدمة ابن خلدون في كتابه عند تحليله لبعض الجوانب الاجتماعية مثل حديثه عن أعمار الدول(٢)، وانقياد الشعوب للعصبية والدين(٣)، وأسباب شجاعة البدو(٤). ونحو ذلك.

الخبر والعيان مصدر للباحثين :

امتلك الزركلي نسخة مخطوطة من «الخبر والعيان» ناقصة الورقة الأولى، اعتمد عليها كثيراً في بناء كثير من الفصول في كتابه «شبه الجزيرة

---

(١) هو اعتقاد يوناني قديم يقول بأن التاريخ دورة من الحوادث تعيد نفسها دون نهاية. وانظر مثلاً مقارنة مأساة الدرعية، ص ٣٠٦.

(٢) ص ٢٧٥، وانظر مقدمة ابن خلدون، ج ٢ ص ٥٤٥.

(٣) ص ٣١٤، وانظر مقدمة ابن خلدون، ج ٢ ص ٥٢٨، ٨١٧.

(٤) ص ٤٧٥، وانظر مقدمة ابن خلدون، ج٢ ص ٤٧٨.

في عهد الملك عبدالعزيز»، وكان إذا نقل منها أحال إليها باسم مخطوطة خالد الفرج، أو مذكرات خالد الفرج، وأحيانًا يكتفي باسم خالد، أو الفرج. ووصفها مرة، وقال: «لعلها كتاب الخبر والعيان»(١)، ونقل منها نحو سبعين نصًا، ويعد الزركلي من أهم من استفاد من هذه المخطوطة، وقد أشار إلى ذلك في أكثر من موضع من ذلك قوله عن خالد الفرج: «وهو صاحب المخطوط الذي اعتمدت على كثير من فصوله»(٢).

كما استفاد منه الزركلي أيضًا في كتابيه «الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز»(٣)، و«الأعلام»(٤).

وقد استفاد بعض المؤرخين المعاصرين والباحثين من كتاب «الخبر والعيان» من خلال النصوص التي نقلها الزركلي في كتابه «شبه الجزيرة»، منهم محمد جلال كشك في كتابه «السعوديون والحل الإسلامي»(٥)، وعلى ضآلة النصوص التي نقلها كشك إلا أنه أبدى إعجابه بهذه المخطوطة

---

(١) الزركلي، شبه الجزيرة ص ٩٠٥.

(٢) الزركلي، شبه الجزيرة ص ٦٧٨. وهذه الصفحة هي الموضع الوحيد الذي أُشير إليه في فهرس الأعلام من شبه الجزيرة وبقية الإحالات حصلت عليها بتتبع صفحات الكتاب.

(٣) الزركلي، الوجيز ص ١٧ وتكرر الخبر المنقول في أحسن القصص ص١٢.

(٤) الزركلي، الأعلام، ج٣ ص ٩٠، ٩١، وج ٤ ص ٨٩، ٩٠، وج ٥ ص ١٦٤، ١٦٦.

(٥) ص ٢٣١ (في هامشه رقم ٤٣ ص ٧٧٠ قال كشك: مخطوطة خالد الفرج عن الزركلي)، و ٤٦٣.

التي عرف قيمتها قبل أن يعرف اسمها، وقد أثنى على طريقة مؤلفها في تحليل الأحداث، وأيده في وجهات نظره[1].

كما استفاد المؤرخ الروسي فاسيلييف من هذه المخطوطة عن طريق الزركلي أيضًا[2].

واستفاد منها أيضًا عن المصدر نفسه أبوعبدالرحمن بن عقيل في كتابيه «العجمان، وزعيمهم راكان بن حثلين»[3]، و «ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد»[4].

والجدول التالي يوضح أماكن وجود نقول الزركلي في كتاب «شبه الجزيرة» من كتاب «الخبر والعيان» التي اعتمدت عليها في التحقيق، إضافة إلى تحديد أماكنها بالصفحة في هذه الطبعة، أما النقول التي لم ترد في النسخة الأصلية فيتم تخريجها في خانة الملحوظات من النسخة الأولى التي رمزت إليها بالحرف (ب) وهي النسخة التي ينقل منها الزركلي، والجدول كما يلي:

---

(١) وصفها بمخطوطة خالد الفرج العجيبة ص ٢٥٢، و ٣٧٠، وبالمخطوطة العتيدة ص ٢٨٠.

(٢) فاسيلييف، تاريخ العربية السعودية، ص ٢٦٦.

(٣) ابن عقيل، أبوعبدالرحمن، العجمان ص ٨٣ ، ٩٦.

(٤) ابن عقيل، ديوان الشعر العامي ، ج٢ ص ٢٣٣.

م	«شبه الجزيرة» للزركلي	الخبر والعيان (النسخة الأصل)	الخبر والعيان (هذه الطبعة)	ملحوظات
١	٣٧	١١٦	٢٥٢	
٢	٣٧	١٢٤	٢٦٤	
٣	٤١	١٦٢	٣٢٤	
٤	٤٣ هامش ١	١٦٤	٣٢٨	
٥	٥٢	١٨١	٣٥٤	فيه أن تعيين آل رشيد على جبل شمر : ١٢٥٠هـ نقلاً عن النسخة بٌ، ثم عدله المؤلف في الأصل إلى ١٢٥١هـ.
٦	٥٢ هامش ١	١٨٢	٣٥٦	
٧	٥٣	١٨١	٣٥٦	
٨	٥٥	١٨٤ و ١٨٧	٣٦٠	تتمة ما نقله الزركلي في ص ١٨٤ هامش ١
٩	٥٦	١٨٥	٣٦١	
١٠	٥٨	-	٣٦٤ هامش ٢	النص في هامش النسخة ب ج ٤ ص ٣٦٣ (وهي التي ينقل منها الزركلي).
١١	٦٠	١٥٨	٣٦٨	وتكرر النص في أحسن القصص ص ١٢

م	«شبه الجزيرة» للزركلي	الخبر والعيان (النسخة الأصل)	الخبر والعيان (هذه الطبعة)	ملحوظات
١٢	٦٤	-	٣٦٢ هامش ١	النص في النسخة ب ج ٣ ص ٣٥٦
١٣	٦٨	-	٣٦٢ هامش ١	النص في النسخة ب ج ٣ ص ٣٥٦
١٤	٩٠	١٩٧	٣٨٣	-
١٥	٩١	-	٣٨٤ هامش ٢	النص في النسخة ب ج ٤ ص ٣٩١ هامش ١
١٦	٩٢	١٩٨	٣٨٤	
١٧	٩٣	١٩٨	٣٨٥ وينظر هامش ١	والزيادة في النسخة ب ج ٤ ص ٣٩٢
١٨	١١٤	١٧٠	٣٣٧	
١٩	١١٥ هامش ١	١٧٣	٣٤١	ينظر أيضًا ص ٣٥٤ هامش ٣
٢٠	١١٥ هامش ٦	٢١٣	٤١٣	
٢١	١١٦ هامش ١	٢١٣	٤١٣	
٢٢	١١٦	٢١٣	٤١٤	
٢٣	١١٧	٢١٤	٤١٥	
٢٤	١١٩	٢١٥	٤١٦	
٢٥	١٣٣	٢٠٠	٣٨٧	
٢٦	١٣٥	-	٣٨٨ هامش ١	النص في النسخة ب

م	«شبه الجزيرة» للزركلي	الخبر والعيان (النسخة الأصل)	الخبر والعيان (هذه الطبعة)	ملحوظات
٢٧	١٣٦ هامش ١	-	٣٨٨ هامش ١	النص في النسخة ب ج ٤ ص ٣٩٧
٢٨	١٣٦	-	٣٨٨ هامش ١	النص في النسخة ب ج ٣ ص ٣٩٧
٢٩	١٣٦	-	٣٨٨ هامش ١	النص في النسخة ب ج ٣ ص ٣٩٨
٣٠	١٤٠	٢٠٠	٣٨٩	
٣١	١٤١ هامش ١	٢٠٠ ، ٢٠١	٣٨٩	
٣٢	١٥٢	٢٠٣	٣٩٢ هامش ٢	النص في النسخة ب ج ٤ ص ٤٠١
٣٣	١٥٣	٢٠٣	٣٩٢	
٣٤	١٦٠	-	٣٩٤ هامش ٣	النص في النسخة ب ج ٤ ص ٤٠٣
٣٥	١٦٣	-	٣٩٥ الهامش	النص في النسخة ب ج ٤ ص ٤٠٣
٣٦	١٦٤	٢٠٤	٣٩٥	
٣٧	١٦٩	٢٠٤	٣٩٦	
٣٨	١٧٢	٢٠٥	٣٩٩	النسخة ب ج ٤ ص ٤٠٨ وانظر أحسن القصص ص ٢٥

م	«شبه الجزيرة» للزركلي	الخبر والعيان (النسخة الأصل)	الخبر والعيان (هذه الطبعة)	ملحوظات
٣٩	٢٠٢	٢٠٧	٤٠٣	
٤٠	٢٠٢	٢٠٧	٤٠٣	
٤١	٢٠٣	٢٠٧، ٢٦٠	٤٠٤، ٤٩٠	
٤٢	٢٠٤	٢٠٩	٤٠٦	
٤٣	٢٢٢	٢١٧، ٢٦٠	٤١٩، ٤٩٠	
٤٤	٢٢٧ هامش ١	٢٦١	٤٩٠	
٤٥	٢٢٧ هامش ٢	-	٤٩٢ هامش ١	النص في النسخة ب ج ٤ ص ٤٦٤
٤٦	٢٤٧	-	٤٢٨ الهامش	النص في النسخة ب ج ٤ ص ٤٧٠
٤٧	٢٤٩	-	٤٢٩ الهامش	النص في النسخة ب ج ٤ ص ٤٧٠
٤٨	٢٤٩	-	٤٢٩ الهامش	النص في النسخة ب ج ٤ ص ٤٧٠
٤٩	٢٤٩	-	٤٢٩ الهامش	النص في النسخة ب ج٤ ص ٤٧٠
٥٠	٢٥١	-	٤٣٠ الهامش	النص في النسخة ب ج ٤ ص ٤٧٤
٥١	٢٥٤ هامش ٢	-	٤٢٨ هامش ١	النص في النسخة ب ج ٤ ص ٤٥٨

م	«شبه الجزيرة» للزركلي	الخبر والعيان (النسخة الأصل)	الخبر والعيان (هذه الطبعة)	ملحوظات
٥٢	٢٦٥	–	٤٧٨ الهامش	ذكر الزركلي أن عدد الهجر (١٥٢) هجرة، وأحال إلى مخطوطة خالد الفرج، وعند الفرج في النسخة ب: (ج ٥ ص ٥٤٨): (١٣٤)
٥٣	٢٨٢	٢١٧	٤١٠ الهامش و٤٢٠	
٥٤	٢٨٥	–	٤١٠ الهامش	
٥٥	٣٣٠، ٣٣١	–	٤٥٢ هامش ٢	النص في النسخة ب ج ٥ ص ٥١١ هامش ١
٥٦	٣٣٢ هامش ١	–	٤٥٩ هامش ١	النص في النسخة ب ج ٥ ص ٥٢٠
٥٧	٤٥٦	٦	٥٨	
٥٨	٤٦٤ هامش ١	٢٥٦	٤٨٤	
٥٩	٤٦٤	٢٥٥	٤٨٣	النص في النسخة ب ج ٥ ص ٥٦٤
٦٠	٤٦٥	٢٥٦، ٢٥٧	٤٨٥	
٦١	٤٦٨	٢٦٢	٤٩٤	

م	«شبه الجزيرة» للزركلي	الخبر والعيان (النسخة الأصل)	الخبر والعيان (هذه الطبعة)	ملحوظات
٦٢	٤٧٢ هامش ١	-	٤٩٨ هامش ١	النص في النسخة ب ج ٥ ص ٥٧٨ ، ٥٧٩
٦٣	٤٨٥ هامش ١	-	-	قال الزركلي : «اعتمدت في أكثر ما ذكرته عن ثورة الدويش ، على مذكرات خالد الفرج ، لمعاصرته الحوادث ، وقربه من أماكن حدوثها ، وقد أسهب في تفصيلها إسهابًا مفيدًا» .
٦٤	٤٩٠ هامش ١	٢٨٧ ، ٢٨٨	٥٢٧ ، ٥٢٨	
٦٥	٤٩٧	-	٥٥٣ هامش ١	النص في النسخة ب ج٦ ص ٧١١ هامش١
٦٦	٥١٤	-	٥٦٢ ، ٥٦٣ الهامش ١	النص في النسخة ب ج٧ص ٧٣٤-٧٤٢
٦٧	٥١٦	-	٥٦٦ الهامش ١	النص في النسخة ب ج ٧ ص ٧٤٢
٦٨	٥٥٧	-	٥٦٧ الهامش ١	عد الزركلي كتاب خالد الفرج من مصادره في فصل فتنة ابن رفادة .

م	«شبه الجزيرة» للزركلي	الخبر والعيان (النسخة الأصل)	الخبر والعيان (هذه الطبعة)	ملحوظات
				انظر النسخة ب ج ٧ ص٧٤٤
٦٩	٦٧٨	-	-	عد الزركلي خالد الفرج من أدباء نجد وذكر أنه «صاحب المخطوط الذي اعتمدت على كثير من فصوله».
٧٠	٩٥٣	١٩٣	٣٧٤	وانظر: النسخة ب ج ٤ ص٤٧٨، ٣٧٩

يضاف إلى هذه القائمة نصوص أخرى نقلها الزركلي متأثراً بكتاب «الخبر والعيان» مع إبهام الرواية[1].

(١) انظر مثلاً: الزركلي، شبه الجزيرة ص ١٣٤ وفيه: «ذكروا أن شجاعته - أي عبدالعزيز بن رشيد - بلغت حد الهوس». ووصف شجاعة ابن رشيد بالهوس من تعليقات الفرج. وفي ص ٤٥٢ هامش ١ قال: «قال مؤرخو هذا الحادث»، ثم نقل حادثة مقتل سعود بن عبدالعزيز المتعب الرشيد وفق رواية الخبر والعيان.

أهمية الكتاب ومميزاته :

١ - أن المؤلف استوعب قراءة الأحداث من مراجعها، ثم أعاد صياغتها بأسلوب أدبي رفيع، مستعينًا بالاقتباسات الكثيرة من القرآن، والحديث النبوي، والشعر، والأمثال، بل وحتى الأقوال غير المشهورة. ولم يكثر المؤلف من نقول النصوص التاريخية إلا ما تدعو إليه الحاجة.

٢ - أن المؤلف عُني كثيرًا بالشواهد التاريخية ومقارنتها بالأحداث المحلية التي يتحدث عنها، وأحيانًا وضح أوجه التشابه بينهما، مثل مقارنة مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بمقتل الإمام عبدالعزيز بن محمد من حيث تشابه الخنجر والموضع والوضعية والمغزى، لذلك جعل عنوان مقتل الإمام عبدالعزيز: (أبو لؤلؤة الدرعية)[١].

٣ - تحدث المؤلف عن نظام الجند والحرب في الجزيرة العربية - قبل دخول الآلات الحربية الحديثة - بشكل واسع، وقد استوعب أهم الجوانب فيه بشكل لم يسبق إليه بين معاصريه[٢].

٤ - اهتمام المؤلف بتحليل الصفات الذاتية للشخصيات التي يمر ذكرها في سياق الأحداث من خلال أسلوب تلك الشخصيات في التعامل مع الأحداث، بالإضافة إلى اهتمامه بالجوانب الاجتماعية فيهم؛ من حيث تحديد نسب الشخص، ومنزلته في مجتمعه، بالإضافة إلى العلاقات

(١) ص ٢٥٣.

(٢) ص ص ٣١٨ - ٣٢٢.

والروابط الأسرية بين الشخصيات. ويظهر ذلك بوضوح في النصوص التي تنفرد بها النسخة: (ب) والمثبتة في الهامش[١].

٥ - يعد خالد الفرج من أوائل من دون تاريخ نجد، بل والجزيرة العربية شعراً بطريقة الملاحم من خلال تدوين تاريخ الملك عبدالعزيز، وذلك من خلال كتابيه «أحسن القصص»، و «الخبر والعيان» ثم توالت بعده -بفترة- الملحمات الشعرية التي تؤرخ للحوادث الواقعة في الجزيرة العربية أو لبعض شخصياتها مثل[٢] «الملحمة الشعرية في الملك عبدالعزيز» لمحمود شوقي الأيوبي، وكتاب «بطل الجزيرة» لفيكتور البستاني، و «ملحمة عيد الرياض» لبولس سلامة، و «الملحمة الشعبية» لعبدالله العلي الزامل، و «الملحمة السعودية» لمحمد محمود خاطر.

٦ - يعد المؤلف من أهم من كتب عن حركة الإخوان ومعركة السبلة، فقد كان قريبًا من مجريات أحداثها ومطلعًا على ما تنشره الصحف في حينه وقريبًا من بعض الشخصيات المشاركة في الأحداث، وقد توسع المؤلف في كتابة أحداث الفتنة في حينها، وَبَيَّن وجهة نظره في كثير من تفاصيلها حتى إن الزركلي اعتمد في ما كتبه عن حركة الإخوان على كتابة خالد الفرج، وأثنى على تقصيه في هذا الموضوع[٣].

---

(١) انظر مثلاً كلام المؤلف عن حروب دهام بن دواس مع الدرعية، وآل حميد.

(٢) يستثنى من ذلك قصائد المديح، وقصائد المناسبات كالتهنئة بفتح بلد، أو انتصار في معركة.

(٣) الزركلي، شبه الجزيرة ص ٤٨٥.

٧ – أن مخطوطة «الخبر والعيان» لم تنشر حتى الآن.

٨ – أن المخطوطات الثلاث التي حقق على ضوئها الكتاب جميعها بخط المؤلف.

٩ – أن الملك عبدالعزيز سمع القصيدة بكاملها ونالت استحسانه، وتمنى أن تشرح – كما تقدمت الإشارة إلى ذلك –.

الملحوظات:

إن كان لابد – اتباعًا لمنهج التحقيق – من إبداء الملحوظات على كتاب «الخبر والعيان»، فإن أهم ما يلاحظ على المخطوطة ما يلي:

١ – من المعروف أن خالد الفرج شديد الإعجاب بشخصية الملك عبدالعزيز، وهذا الإعجاب له ما يبرره، لأنه يرى فيه القائد العربي الذي استطاع أن يوحد أجزاء الجزيرة العربية، فكان من تأثير هذا الإعجاب التشدد في نقد الذين ناوؤا إنجازات الملك عبدالعزيز وعارضوا نظرته إلى تطوير البلاد – ولو في بعض الفترات –، ومثل هذا الخطأ لا يقره أحد، حتى وإن كان نقد الفرج خصوم الملك عبدالعزيز حبًا لعبدالعزيز لا بغضًا لهم.

وكان لابد في مثل هذا الموقف من التعامل مع آراء المؤلف بإثباتها والتعليق عليها ما أمكن ذلك، باستثناء عدد من الأسطر أسقطت من الكتاب؛ لأنها تجاوزت حد القبول في مجال النقد، فكانت شخصية بحتة

ليس لها علاقة مباشرة بالحقائق العلمية التي نحرص على إبرازها والإفادة منها، وقد نبه إلى مواضع الحذف في مكانها من الكتاب.

وإذا كانت بعض آراء المؤلف التي تمس الآخرين مما لايقبل منه الآن، أو تغيرت النظرة إلى بعض الأحداث بتغير الزمن، فإنه من المهم التنبيه إلى أن الكتاب كتب قبل سبعين سنة من الآن تقريبًا، وكان المؤلف وقتها واقعًا تحت تأثير أحداث معينة، وقد كتب آراء كانت هي السائدة في وقتها، بل إن كثيراً من تواريخ المملكة العربية السعودية التي كتبت في تلك الفترة كانت تسير في اتجاه واحد تجاه بعض القضايا المثارة آنذاك، لذلك من الأنسب التعامل معها على أنها أحداث وقعت وانتهت، وألا ينظر إلى المؤلف على أنه يقصد أحداً بعينه. وفيما عدا هذه الملحوظة فإن المؤلف كان موضوعيًا في نظرته إلى تاريخ نجد، وقد وفق في طريقة عرضه إلى حد كبير.

٢ – اعتمد المؤلف في تدوينه لتاريخ الدولة السعودية الأولى والثانية اعتمادًا كبيراً على تاريخ ابن بشر، وبرغم دقة تاريخ ابن بشر، إلا أن الفرج لم يتلاف الأخطاء التي وردت فيه نتيجة عدم مقارنتها مع التواريخ الأخرى، وقد نُبِّه إلى ذلك في مواضعه.

٣ – يعتمد المؤلف عند الاستشهاد بالآيات القرآنية على ذاكرته أو مطبوعات رديئة مليئة بالتصحيف، ولذلك تأثرت بعض الشواهد القرآنية بالتصحيف وتغير اللفظ، وقد صححت الآيات على رسم المصحف،

ونبهت إلى ذلك في الهامش.

٤ - استخدم المؤلف كلمات وعبارات فيها مخالفات شرعية، وقد نبهت عليها في مواطنها من الكتاب. كما أكثر المؤلف من استخدام كلمات بحاجة إلى تنبيه مثل قوله: «لولا الملك عبدالعزيز لكان كذا» ونحوها. والضابط لمثل هذه الكلمات - كما قرره العلماء - أنه يجوز استخدامها في الأمور التي يقدر عليها البشر. أما الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله فإنه لا يجوز استخدامها.

٥ - لم يكن للمؤلف قاعدة إملائية محددة التزم بها في سائر الكتاب، مثل كلمة (شئون) و (شؤون)، فقد وردت بكلتا الصيغتين وقد يراهما المؤلف صحيحتين؛ لذلك أبقيتهما كما أوردهما المؤلف، مع الالتزام بالتنويه على الصيغة الثانية باعتبارها الأصح، ونظرًا لكثرة مثل هذه الكلمات نسبيًا فقد اتبعت طريقة التنويه على الأخطاء الإملائية ونحوها بأن يوضع الصواب بين حاصرتين بجانب الكلمة مثل: شئون [شؤون]. وضرمه [ضرما] وهكذا.

مخطوطات الكتاب:

النسخة الأولى: كتبت بخط المؤلف، وقد كتب المقدمة والعناوين والقصيدة بخط النسخ، وبقية الكتاب بخط الرقعة، تقع النسخة في (٣١٤) صفحة، وبها تعليقات هامشية قليلة، وإضافات على النص ملحقة بالهامش أكثرها بخط المؤلف، وقد انتهى من نسخها في ذي الحجة سنة

١٣٥٢هـ بمدينة القطيف. وهي النسخة الأخيرة التي كتبها المؤلف، وقد أضاف إليها في المقدمة المصادر التي اعتمد عليها، وهذه النسخة تابعة لمكتبة سمو الأمير مساعد بن عبدالرحمن المحفوظة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

وقد اعتمدت على هذه النسخة في التحقيق، ورمزت إليها بـ: الأصل.

النسخة الثانية: وهي بخط المؤلف أيضًا وتقع في (٣١٤) صفحة، وهي نسخة طبق الأصل من النسخة الأولى إلا أنها تزيد عليها بكثرة الإضافات والتصويبات الملحقة بالهامش، وقد أُثبتت في الهامش عند ورودها، وهي تخلو من الإشارة إلى المصادر التي اعتمد عليها المؤلف.

وقد فرغ المؤلف من كتابة هذه النسخة سنة ١٣٥١هـ، وهي محفوظة لدى الأستاذ علي بن خالد الفرج بالكويت، ورمزت إليها بالحرف: (أ).

النسخة الثالثة: وهي المسودة الأولى التي كتبها المؤلف سنة ١٣٥٠هـ، ولم يبين تاريخ كتابتها في المقدمة، ولكن كتب على أغلفة بعض الأجزاء أنه كتب سنة ١٣٥٠هـ واختصر وزيد عليه، وآخر زيادة مؤرخة في هذه النسخة كانت سنة ١٣٦٧هـ عندما أشار إلى وفاة عبدالله بن متعب الرشيد في الرياض. وبعدها بخمس سنوات أشار إلى عبدالله بن نفيسة الملقب بعمعوم الذي تسور سور الأحساء أثناء فتحها. قال المؤلف: «لايزال

سنة ١٣٧٢هـ» أي ما يزال حيًا. وهي مع ذلك لا يمكن أن تعد النسخة الأخيرة المعتمدة عند المؤلف لسببين:

الأول: أن زيادات المؤلف عبارة عن إضافات تواريخ معاصرين استجدت فيما بعد، أما فيما عدا ذلك فإن المؤلف لم يتعرض لسائر هذه النسخة بزيادة معلومات، أو إسقاطها، أو تصحيحها غير التي كتبها للمرة الأولى، يضاف إلى ذلك - وهو السبب الثاني - أن هذه النسخة ترك فيها المؤلف مواضع خصصها لعناوين بعض الفصول فبقيت بياضًا لم تكتب، فتكون بذلك نسخة ناقصة، ومن قواعد التحقيق المرعية أن النسخة الكاملة أفضل من النسخة الناقصة.

وقد كتبت هذه النسخة في دفاتر مسطرة وتقع في ٧ دفاتر (سعة كل دفتر ٦٠ ورقة) ومجموعها (٧٥٠) صفحة.

وطريقة المؤلف أن يكتب شرح القصيدة في الصفحة اليمنى، ويترك الصفحة اليسرى حاشية للتعليقات والهوامش، وقد خلت هذه النسخة من القصيدة ومقدمتها وبعض المواضيع - سيأتي التنبيه على ذلك عند وروده في الكتاب - ، وبدايتها من مقدمة الشرح، وتعرضت عند تبييضها وإعادة كتابتها إلى إضافات كثيرة وحذف بعض النصوص والتعليقات، وقد أثبتُّ التعديلات في الهامش، وتركت التعديلات الطفيفة التي لا تغير المعنى.

ويظهر أن هذه النسخة تعرضت للمراجعة من قبل أحد المعنيين بتاريخ الجزيرة العربية الحديث الذين أطلعهم المؤلف عليها قبل تبييضها، ولهذا يوجد على هوامش بعض الصفحات تصويبات وزيادات واقتراحات كتبت بخط مغاير رديء وبقلم مختلف، وأحيانًا تكتب بطريقة الرواية الشفهية باستخدام بعض الألفاظ الشعبية.

ويبدو أن هذه النسخة هي التي اطلع عليها الزركلي واستفاد منها، وتبين ذلك من مقارنة النصوص التي نقلها الزركلي من هذه النسخة (ب) وانفردت بها عن النسختين الأصلية و أ - كما تقدم -. وقد رمزت إلى هذه النسخة بالحرف: (ب).

منهج تحقيق الكتاب:

وتتمثل فيما يلي:

١ - إخراج نص الكتاب كما أراده مؤلفه على النسخة الخطية الأخيرة التي كتبها دون تغيير مع مقابلة النسختين: (أ) و (ب) على الأصل وإثبات الاختلافات في الهامش مع إغفال الاختلافات الإملائية الطفيفة ونحوها.

وقد التزمت بهذه المنهجية في سائر الكتاب؛ لذلك استبعدت طريقة إخراج نسخة مجمعة من عدة نسخ ومزجها مع بعضها - كما يفعل بعض المحققين، حتى وإن كانت النسخ جميعها بخط المؤلف -؛ لأن هذا العمل يعد إخراج شيئ لم يكن موجودًا من قبل، ومهمة المحقق إبراز جهد المؤلف

لا مزجه مع بعضه، وقد نبه إلى ذلك المستشرق الألماني جوتهلف برجستراسر (المتوفى سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٢م) وهو يرى أن هذه القاعدة يشارك فيها علم نقد النصوص علم القراءات القرآنية، وأن من أصول النشر منع الخلط، وهو أن يجمع القارئ وجوهًا بين عدة قراءات في السورة الواحدة.

٢ - مقابلة القصيدة المنشورة في الكتاب بالقصيدة المنشورة في جريدة أم القرى، وديوان المؤلف، وإثبات الاختلافات في الهامش.

٣ - أثبت في الهامش جميع التعليقات التي كتبها المؤلف في حواشي النسخة الأصل، وبعض تعليقاته على القصيدة المنشورة في الديوان ونسبتها إليه باسم (المؤلف) مع تخريجها. كما أوردت كل ما وجدته في جميع النسخ التي كتبت بخط المؤلف في نسخة ثم تركت في نسخة أخرى، أو التي كتبت بخط مغاير لخط المؤلف؛ لكي لايسقط شيء من مخطوطات الكتاب.

٤ - تخريج الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية.

٥ - تخريج أكثر الأشعار، والأمثال، والشواهد التاريخية. مع عدم الالتزام بمقارنة رواية الشعر أو المثل بما ورد في مصادر تخريجه مع رواية المؤلف؛ لأن المؤلف يروي الشواهد الشعرية من ذاكرته بقصد توظيفها أدبيًا لا أكثر.

٦ - التعريف بالأعلام والقبائل والمواضع الجغرافية الواردة في الكتاب مع الاقتصار على ما يحتاج إلى تعريف، وترك المشهور منها.

٧ - شرح الكلمات الغامضة بإيجاز.

٨ - كتابة مقدمة تتضمن التعريف بالمؤلف ودراسة كتابه.

والله الموفق ،،،

الخبر والعيان

في

تاريخ نجد

وهو شرح

قصيدة (تاريخ نجد) البائية

بقلم ناظمها

خالد بن محمد الفرج

صفحة العنوان من النسخة الأصل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وبعد ففي ١٢ شوال سنة ١٣٤٦ رفعت الى جلالة الملك عبد العزيز
ابن عبد الرحمن الفيصل السعود أيده الله تعالى: الحلقة الاولى من
قصيدة (تاريخ نجد) وهي منظومة ضمنتها خلاصة تاريخ نجد من
اول قيام الامام محمد بن سعود الى فتح الحجاز على يد جلالة الملك
وقلت في كتاب تقديمها الى جلالته: "انني نظمتها للحقيقة والتاريخ
فهي خالية من المبالغة لا مجاملة فيها لصديق ولا تحامل على عدو"

وان احسن بيت انت قائله   بيت يقال اذا انشدته صدقا

وهذا ما يرغب فيه جلالته ويأمر به فهو لا يحب الا الصدق وقول الحق.
وقد وقعت من جلالته موقعا ونالت عطفه واستحسانه ونشرتها جريدة
ام القرى الرسمية تباعا في تلك السنة ووعدت ان تذيلها بشرح وتطبعها
على حدة.

* * *

وتاريخ آل سعود مملوء بالاعمال الجميلة، والبطولة الفذة، وهو مجموعة مكارم
اخلاق، وصورة ماثلة للبطولة الحقة والمآثر الخالدة.
فالتقوى والعدل ونشر الأمن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واقامة
الحدود الشرعية ومقاومة البدع والخرافات والعمل بما انزل الله على رسوله
قوام ملكهم.
والجود والحلم والتواضع والشجاعة والفروسية وارتكاب الاخطار والصبر

الصفحة الأولى من النسخة الأصل

كتاب

الخبر والعيان

في

تاريخ نجد

بقلم

خالد بن محمد الفرج

١٣٥٦

صفحة العنوان من النسخة أ

ويظهر عليها تهميش وشطب بخط مغاير لخط المؤلف

الخبر والعيان

في تاريخ نجد

بقلم

خالد بن محمد الفرج

الدوسري

صفحة العنوان من النسخة ب

لكل شيء غاية. ولكل بحث خلاصة وخلاصة هذا البحث صورة عربية
اسلامية محضة... تعطي لمستطلع حقائقها مثالاً حقيقياً للجزيرة
العربية المحصنة وتقدم له برهاناً على ما بلغه تاريخ آل سعود
وسير ملوكهم مجسماً في شخصية جلالة الملك عبد العزيز الذي
اضاف الى مجموع التسلسل التاريخي تراثاً طريفاً كبيراً شيده بعزيمته
واخلاقه الكريمة المتينة فقد سار بسيرة آبائه واجداده
وحذا حذوهم في الحزم والكرم والحلم والعدل ونشر الامن
وتأييد الدين والمحافظة على اوامره ونواهيه متخذاً طريق
الحكمة — الشدة بدون عنف والدفع والموعظة الحسنة
بدون ضعف — متطوراً تطوراً حسناً وتكيف زمانه
متبعاً في ذلك السياسة الرشيدة آخذاً من محاسنها ومقاربها
طلباً وسيراً مدخلاً للرقي والتقدم لمملكته برزانة
الحذر المميز الذي يزن الامور ويجربها فيضعها في مواضعها
محافظة على دينه وعادات قومه ووطنيته متجنباً طرق الطفرات
والطيش في الوثوب الذي يؤدي بالامة الى رد فعل قد
يكون ضرره اشد من نفعه ما في هذا الوقت الذي تغلغلت فيه
المدنية الاوربية في البلاد الشرقية وطغى تيار التمدن حتى
في اشد البلاد تعصباً

ونصيب المسلمين خارج جزيرة العرب ليس بأقل من سواهم
بل هم اسرع انقياداً واكثر اندفاعاً وليت المقلدين المندفعين
اخذوا من تلك المدنية منافعها واتبعوا ما وافق مجتمعهم

بداية النسخة ب

الخبر والعيان في تاريخ نجد

وهو شرح قصيدة «تاريخ نجد» البائية

تأليف

خالد بن محمد الفرج

تحقيق ودراسة

عبدالرحمن بن عبدالله الشقير

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد، ففي ٢ شوال[١] سنة ١٣٤٦هـ رفعت إلى جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل السعود - أيده الله تعالى - الحلقة الأولى من قصيدة «تاريخ نجد» وهي منظومة ضمنتها خلاصة تاريخ نجد من أول قيام الإمام محمد بن سعود إلى فتح الحجاز على يد جلالة الملك. وقلت في كتاب تقديمها إلى جلالته: إنني نظمتها للحقيقة والتاريخ، فهي خالية من المبالغة لا مجاملة فيها لصديق ولا تحامل على عدو.

وإن أحســن بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته: صدقا[٢]

وهذا ما يرغب فيه جلالته، ويأمر به، فهو لا يحب إلا الصدق وقول الحق. وقد وقعت من جلالته موقعًا، ونالت عطفه واستحسانه، ونشرتها جريدة «أم القرى» الرسمية تباعًا في تلك السنة، ووعدت أن تذيلها بشرح وتطبعها على حدة.

***

---

(١) في النسخة أ: (١٣ شوال).

(٢) البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه في ديوانه بشرح البرقوقي ص ٣٤٥.

وتاريخ[1] آل سعود مملوء بالأعمال المجيدة، والبطولة الفذة، وهو مجموعة مكارم أخلاق، وصورة ماثلة للبطولة الحقة والمآثر الخالدة.

فالتقوى، والعدل، ونشر الأمن، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود الشرعية، ومقاومة البدع والخرافات، والعمل بما أنزل الله على رسوله قوام ملكهم.

والجود، والحلم، والتواضع، والشجاعة، والفروسية، وارتكاب الأخطار، والصبر على الشدائد أظهر خصال ملوكهم.

وليميز الله الخبيث من الطيب جعل لهم أضدادًا ليست لهم من خصالهم ولا أفعالهم ولا أقوالهم أشياء تذكر، وبضدها تتميز الأشياء.

والواجب التاريخي يقضي على المنصف أن يذكر حقائق الأمور، ويصف الأشياء كما هي، على أن هذا الواجب - وفي تاريخ آل سعود خاصة - قد يجعل صاحبه في صف المؤرخين المغرضين الذين يتبعون الأهواء في نظر من لم يطلع على تاريخ نجد ويسبر أغواره؛ لأن المؤرخ ملزم بأن يذكر الخير والشر، ويسرد أفعال من يؤرخهم، ويستخلص منها الحكم

(١) في النسخة أ تأخر هذا النص - من هنا حتى قول المؤلف: والشموس لاتغطيها الستائر - ، بعد أربع صفحات (ص ٦١) فقد ذكره المؤلف بعد: الدور الثاني: الإمامة. وقبل: الإمام محمد بن سعود.

عليهم أو لهم، فيتوصل إلى تعليل النتائج التي تصدر على دولتهم من رفع أو خفض.

ومؤرخ آل سعود لا يجد أمامه إلا سلسلة من المكارم والأعمال العظيمة لا تكاد تصدق لولا أنها مشاهدة ملموسة، ليست مبالغات حتى تخفف، ولا ترهات حتى تزيف، بل أعمال عظيمة خالدة شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء والأجانب البعداء.

وهذا السيد دحلان[1] الذي وقف نفسه على الطعن فيهم وبث الدعايات ضدهم لم يسعه في رسالته التي سماها «الدرر السنية في الرد على الوهابية» إلا أن يعترف بأن من خصالهم «أمرهم البوادي بإقامة الصلوات والمحافظة على الجمعة والجماعات، ومنعهم من الفواحش الظاهرة كالزنا واللواط وقطع الطريق، فأمنوا الطرقات، وصاروا يدعون الناس إلى التوحيد».

وإن يكن دحلان سمى هذه الفضائل بلية ابتلى الله بها عباده، ولو وجد مجالاً لأنكر تلك الأعمال العظيمة التي هي روح الدين وحكمته، ولكنه اضطر إلى الاعتراف بها، لأنها أشهر من الشمس رابعة النهار، وجعلها أموراً ثانوية؛ لأن المهم في نظره تقديس القبور وحمل النذور ورقص أصحاب الطرق ونباحهم.

(١) أحمد زيني دحلان، فقيه، مؤرخ، من أهل مكة، له: «الفتوحات الإسلامية»، و «خلاصة الكلام في أمراء البلاد الحرام» وغيرهما، توفي بالمدينة سنة ١٣٠٤هـ. الزركلي، الأعلام، ج ١ ص ١٢٩.

أما أوامر الدين الإسلامي وزواجره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فبلية عظيمة وفتنة جسيمة، فلندع له قشوره وقبوره وطقوسه، ولنأت بمؤرخ أقدم منه، ومن معاصري الشيخ محمد بن عبدالوهاب ومكابريه، وهو الشيخ عثمان بن سند البصري الفيلكاوي[1]، إذ يقول في «تاريخه»: «. . . ومن محاسن الوهابية أنهم أماتوا البدع ومحوها، ومن محاسنهم أنهم أمنوا البلاد التي ملكوها، وصار كل ما كان تحت حكمهم من هذه البراري والقفار يسلكها الرجل وحده على حمار بلا خفر خصوصًا بين الحرمين الشريفين[2]، ومنعوا غزو الأعراب بعضهم على بعض، وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم من حضرموت إلى الشام كأنهم إخوان أولاد رجل واحد، وهذا بسبب قسوتهم! في تأديب القاتل والناهب والسارق - يعني إقامة الحدود الشرعية - إلى أن عُدِمَ هذا الشر في زمان ابن سعود، وانتقلت أخلاق الأعراب من التوحش إلى الإنسانية، وتجد في بعض الأراضي المخصبة هذا بيت عنزي، وبجنبه بيت عتيبي، وبقربه بيت حربي، وكلهم يرتعون كأنهم إخوان، وبهاتين الدسيستين! خدعوا جميع العوام - يعني بمحو البدعة وتأمين الطرقات والسبل خصوصًا بين الحرمين - ورأيت لهم عقيدة منظومة يحفظها حتى رعاة غنمهم منها:

(١) عثمان بن سند، أصله من عنيزة بنجد، وسكن البصرة، وتوفي ببغداد، مؤرخ، أديب، له كتاب «مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود» وله غير ذلك، توفي سنة ١٢٤٢هـ. وقيل في وفاته غير ذلك. الزركلي، الأعلام، ج ٤، ص ٢٠٥.

(٢) هذا نفس ما نشاهده الآن رأي العين في المملكة العربية السعودية المترامية الأطراف. (المؤلف).

وما الدين إلا أن تقام شعــائر وتأمن سُبْلٌ بيننــا وشعــابُ

فكأنهم جعلوا تأمين الطرقات ركنًا من أركان الدين. ويفهم عقلاً من سياستهم أنه إذا فقد القاتل والسارق والناهب فأي سبب يمنع عموم الناس من الاشتغال بالزراعة أو التجارة أو اقتناء المواشي في البادية المخصبة للتكسب من ألبانها وأصوافها وجلودها، وإذا اشتغلوا بالكسب الحلال فلا يسرقون ولا ينهبون ولا يقتلون، فكأن المسألة شبيهة بالدورية؛ أي أنه متى وجد الأمان ارتفع السارق والقاتل لاشتغالهم بمعاشهم الحلال، ومتى اشتغلوا بالمعاش الحلال وجد الأمان، ولكن هذا الدور منفك الجهة».

هذا كلام خصوم أهل نجد أتينا به على سبيل الاستشهاد، والفضل ما شهدت به الأعداء[1]، والغريب من الشيخ عثمان أن يعترف هذا الاعتراف، ويكلف نفسه التمحل والتعليلات والافتراضات، ويجشم فكره الرد عليها، فيأتي بمنطق معكوس مناقض للواقع، وينسى أو يتناسى أن الوهابيين[2] لم يأتوا بجديد وأن ما يصفه عنهم هو روح الشريعة الإسلامية وأركان تشريعها الذي يدرسه الشيخ عثمان وأضرابه نظريًا، ويطبقه الشيخ محمد بن عبدالوهاب عمليًا، وليقل لنا الشيخ عثمان ما هي

(١) عجز بيت مشهور للسري الرفاء، وصدره: وشمائل شهد العدو بفضلها.
ابن أيدمر، الدر الفريد وبيت القصيد ج ٥ ص ٢٨٤.

(٢) يستخدم المؤلف مصطلح (الوهابيين) مجاراة لخصوم الدعوة السلفية الذين حاولوا تشويهها وتنفير الناس منها بإطلاق مثل هذه المصطلحات. وقد نبه المؤلف إلى ذلك ص ١٦٨.

الفائدة من وجود الحكومات والشرائع والقوانين إذا لم تنشر الأمن والسلام في بلادها، وتحمل الناس على العمل والمكسب الحلال(؟!) ولكن التعصب الأعمى والتزلف إلى ولاة الأتراك حمل الشيخ وأضرابه على إنكار الحقائق وتجاهلها والتعامي عن روح التشريع الإسلامي وحكمته، متفانين في تقديس القبور وحمل النذور إليها مجاراة للأتراك الذين لا يتوج سلاطينهم إلا رئيس البكطاشية(1)، تلك الطريقة التي لا تمت إلى الإسلام بشيء من تعاليمها إلا بالاسم، فلندعهم في غيهم يعمهون ما داموا قد اعترفوا بالحقيقة:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا مثله ... فالكل أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسدًا وبغضًا إنه لذميم(2)

وكفى باعتراف الخصوم حجة.

أما الأجانب فلم يطرق الجزيرة من سياحهم أحد إلا وسجل لهم من الفخر وحسن الأحدوثة ما لم يسجله أهل نجد أنفسهم، حتى إن الأوروبيين الذين رافقوا حملة محمد علي لم يؤثر عليهم ماكانوا يسمعونه من زملائهم

(1) **البكطاشية أو البكداشية:** من الطرق الصوفية التي ينتمي إليها الأتراك العثمانيون، وهي ما تزال منتشرة في ألبانيا، وقد كان لهذه الطريقة سلطان عظيم على الحكام العثمانيين. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص٣٤٨.

(2) البيتان لأبي الأسود الدؤلي. البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ج ٨ ص ٥٦٧.

من مختلقات التشهيرات التي تبث لإغراء الجنود، فكتبوا للحقيقة، والشموس لا تغطيها الستائر.

***

والذي يقرأ هذه القصيدة يضعها - ولا شك - في أبواب المديح ولا يلام على ذلك، لأن الناس اعتادوا أن يقرؤوا آيات الثناء البراق في من يستحق ومن لا يستحق، ولا يهتمون بعد ذلك بحقيقة ما قيل إن صدقًا وإن كذبًا؛ لأنه مديح ليس إلا، ولا نلوم نقادنا إذا نعوا على شعراء العربية نهجهم منهج القدماء ووقوفهم عند تلك التعابير التي لاتؤدي إلى فهم حقيقة الممدوح.

وليس في هذه القصيدة من المديح -المصطلح عليه- إلا مطلعها، وإلا فكل ما فيها حقائق لا غبار عليها يعرفها كل من درس تاريخ نجد وكان من المنصفين. وإذا كان وصف الشيء كما هو يعد مديحًا أو هجاء، فالشعر كله لايتعدى المديح أو الهجاء؛ لأن الشعر ماهو إلا الوصف وتصوير المشاهدات والمرئيات والمرويات، فما التغني بأوصاف الرياض الناضرة، والنجوم الزاهرة، والبحور الزاخرة، والغيوم الماطرة، والنسيب والتشبيب بجمال الحبيب، والتفلسف في الطبائع والأخلاق ونقدها وتحبيذ بعضها وتمجيده واستهجان البعض وتسخيفه، وما تمجيد المكارم، وتحقير الرذائل والنظر إلى الحياة بالتفاؤل أو التشاؤم، والحض على العمل والغض من الكسل، والإعجاب ببطولة العظام وتحقير عسف الطغاة،

إلا مديح وهجاء.

حتى فيما هو خيالي كالقصص في أبطالها وما ترمي إليه أعمالهم من تحبيذ بعض العادات والأخلاق، أو الحط منها كل ذلك داخل في بابي المديح والهجاء، ولا نخطئ إذا قلنا في تعريف الشعر: إنه مديح وهجاء، أوليس هو ترجمان النفس وأغنية الحس؟

وبه يعبر الضمير عما يخالجه، وهل يخالج النفس سوى الاستحسان أو الاستهجان؟

وإن تعجب فعجب إجماع هؤلاء النقاد على اعتبار المديح من بعض عيوب الشعراء، بل ينعون على شعراء العربية هذه الخصلة التي يعدونها من تراث القديم البالي، ومن التقليد الأعمى الذي يجب أن يمحى من الأساليب العصرية، وهؤلاء النقاد لا يفرقون في كتاباتهم بين الشاعر وشعره، فإذا ساغ لهم أن ينتقدوا الشاعر المداح وينسبوه إلى التكسب بالشعر ما شاؤوا أن ينسبوه إليه، فلا يسوغ لهم أن ينتقدوا الشعر، لأنه مديح، بل عليهم أن يحللوه بصفته شعر وصفي [شعراً وصفياً]، وينظروا قيمته من حيث دقة الوصف وجمال التصوير وسلاسة التعبير، وهل هو صادر عن شعور حقيقي يرسم الأشياء كما هي ويكسوها روعة من جمال التصوير، أو أنه ترديد مستعار وأوصاف لا تنطبق على الموصوف، ومبالغات شاذة يمجها الذوق وتعافها النفس؟.

ولا نراهم في منحاهم هذا إلا مقلدين لنقاد الإفرنج؛ لأن طريقة التكسب بالشعر عن طريق المدح غير موجودة فيهم لانعدام الأريحية العربية بالطريقة العربية عندهم، ولكل أمة أخلاقها ومناحيها في الحياة ، ولنتساءل عن هذه الكلمات التي يتشدق بها أولئك الكتاب تقليداً كلمات هاوي [هاوٍ] ومحترف، أولا تدلنا الأخيرة على أن كل فني في أحد الفنون يتكسب بفنه وإن اختلفت الطرق باختلاف الأمم والعادات.

وها هم يقدسون أشعار هوميروس القديمة مع أنها لا تتعدى المديح، كما أنهم لا يرون بأساً في نظم المدائح والقصائد الرنانة في الموتى من رجال العصور السالفة، وقد يتغاضون عن المراثي في الوقت الذي يقيمون فيه القيامة على الشاعر ينظم المدائح في الأحياء ويصف من يشاهدهم بعينه، فيعبر عما في نفسه، وتعبير المشاهد الخبير يكون أصدق بكثير من الوصف الذي يعتمد فيه الشاعر على الآثار والأقوال؛ لأن الشعور المتولد في نفس الشاعر من المشاهدة أقوى تأثيراً وأفعل سرياناً في نفسه.

وهل الشعر إلا صدى ذلك الشعور الذي هو كالروح لدمى القصيد يلقى عليها ماء الحياة وروعة الجمال الخلاب، وإلا فهي صور جمادية ليس لها إلا الشبح، وماعدا ذلك فهو جاف جامد، أو هي كالجثث المحنطة لا روح فيها ولا جمال.

وكمنهج هؤلاء النقاد العصريين في انتقاد كل ما هو مديح على علاته طاب أو خبث، منهج أولئك النقاد القدماء في مآخذ الشعراء وتتبع مصادر

معانيهم في أقوال من سبقهم من الشعراء ونسوا أن الناس كلهم من طينة واحدة، وعلى مشرب متقارب، خصوصًا إذا كانوا من أمة واحدة متفقة المشارب والعادات متشابهة البلاد والبيئات، ونسوا ما يسمى بتوارد الخواطر، وأن الشاعر لا يستطيع أن يلم بأشعار كل الشعراء، ولئن ألم بها كلها واستطاع أن يأخذ معانيها لهو الماهر المتضلع، وإلا فبماذا نفسر اتفاق كثير من معاني الأمثال السائرة والحكم والعادات عند كثير من الشعوب المتباعدة بحيث لا تربطها أية علاقة من جنس ولغة ودين؟ ذلك هو توارد الخواطر والواجب أن ينظر إلى ذلك المعنى المسروق من حيث حسن سبكه وبلاغة تركيبه والمقارنة بينه وبين ذلك المعنى الذي سبقه، هذا إذا لم تكن السرقة كذلك الاغتصاب الممقوت، كأن يعتدي الشاعر على أشياء مشهورة متداولة، أو ينسب لنفسه قصائد لم يتعب فيها فكره ولا كلف بها دماغه. ولنضرب مثلاً بالمخترعات وما يدخل عليها من تحسينات تجعل النموذجات الأصلية لا قيمة لها بينما المخترع له مقامه وأياديه التي لا تسقط فضل الذين حسنوا اختراعه.

* * *

لم أعتد أن أمدح جلالته بما اعتاد الشعراء أن يترامو به إلى أعتاب الملوك من القصائد التي موضوعها واحد وهي صدى لما قبلها، وكل ما تشرفت بتقديمه هو من الشعر السياسي في ما أعتقده صالحًا للإسلام والعرب.

وكانت الحوادث التي ختمت بفتح الحجاز تجعل للقول في إبّانها ميدانًا، وتبسط للشاعر لسانًا، ثم انتهى كل شيء ورفرف السكون وشمل الأمن، وكانت سنة ١٣٤٦هـ سنة اطمئنان وسكون، وكان العيد عيد الفطر يوجب علي أن أرفع لجلالته تهنئة، وليس لدي إلا «أهنيكم بالصوم والفطر»، ولم أشأ أن أرفع إلى جلالته ما لا يحب من القول وهو القائل: «أحب الشعر، ولكنَّ شيئين منه لا أحبهما: الهجاء، والغلو في المديح». وفي سيرة جلالته وتاريخ آبائه وأجداده ما يفتح أمام الشاعر جوًا لخياله فسيحًا، ومرتعًا لقريحته خصبًا، فلم أر مخلصًا إلا في استخلاص تاريخ نجد ونظمه في قصيدة أرفعها لجلالته بمناسبة عيد الفطر، وحوادث نجد كثيرة متعددة والوقت ضيق والشعر العربي لا يسمح بالتطويل الذي يستوعب تاريخ قرنين كلها أعمال وحوادث على روي واحد وقافية واحدة، وإذا أمكن وطالت القصيدة وتجاوزت الحد صارت مملة لعدم تنوع بحورها وقوافيها، فاضطررت أن ألمح إلى بعض الحوادث تلميحًا، وأجمل في بعض المواضع، وقد اضطر إلى الإسهاب في البعض لاقتضاء الحال بذكر العلل والأسباب، ولم آل جهدًا في انتقاء الحوادث المهمة وسردها وذكر عللها وأسبابها ونتائجها حسبما تسمح به دوائر الشعر الضيقة على قريحة مثلي من المتطفلين على الأدب والشعر.

الحلقة الأولى

بدأتها بظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب وختمتها بفتح الحجاز على يد جلالته، ولم تكن لديَّ يومئذ مصادر أعتمد عليها؛ لأن الفكرة بنت يومها، وكنت في القطيف وليس لدي من الكتب ما يساعد، فاعتمدت على ما وعته الذاكرة من مطالعاتي السابقة وما سمعته من مستفيض الأخبار والأحاديث الدائرة على الألسن، ولهذا فاتني ذكر بعض الحوادث والإشارة إلى بعض الأعمال.

وقد حظيت لدى جلالته بموقع لم أتوقعه لها، ونشرتها جريدة أم القرى الرسمية تباعًا في عدة أعداد.

والقصيدة محتاجة إلى شرح يبسط ما اختصر فيها، ويفصل ما أجمل خصوصًا ما يتعلق بضبط سنين الحوادث وتفصيل وصف الوقائع المشار عنها والحوادث الملمح إليها، وكان الشيخ عبدالله بن بليهد[1] أحد علماء نجد المعدودين، والشاعر المفلق المشهور قد وعد إدارة أم القرى بوضع الشرح المطلوب، وهو خير من يستطيع أن يكتب عن تاريخ نجد لتضلعه فيه ومعرفته بدقائقه وجلائله، ولكن أشغاله الكثيرة وأسفاره وتنقلاته حالت دون تشريف القصيدة باعتنائه وتطريزها بقلمه البليغ.

---

(١) مراد المؤلف محمد بن عبدالله بن بليهد صاحب كتاب «صحيح الأخبار» وغيره، توفي سنة ١٣٧٧هـ. أما الشيخ عبدالله بن سليمان بن بليهد فهو فقيه، تولى القضاء بحائل، ثم مكة، ولم يذكر عنه أنه شاعر، توفي سنة ١٣٥٩هـ.

الحلقة الثانية

وكان من قضاء الله وقدره أن قام أولئك العصاة من الإخوان بما قاموا به من الفتنة والضلال والخروج عن الطاعة ومفارقة الجماعة، فأدى ذلك إلى وقوع حوادث خطيرة وحروب مستطيرة كادت تضر بالبلاد والعباد لولا حكمة جلالة الملك وحسن تدبيره إلى أن انتهت بقمعهم وخضد شوكتهم ورجوع المياه إلى مجاريها.

وهذه الحوادث يجب أن يسجلها التاريخ شاهداً عدلاً على حكمة جلالته ورزانته وحلمه وتدبيره، فلم أر بدًا من إتمام «تاريخ نجد» بشرح تلك الحوادث شرحًا مستفيضًا؛ لأنها لم يصنَّف فيها بعد حتى يكتفى بالإشارة عما هو مسطر في سجلات التاريخ وكتبه كما فعلت في الحلقة الأولى، فنظمت الحلقة الثانية شقيقة لأختها على الوزن والقافية، ورفعتها إلى جلالته يوم تشريفه الجبيل (عينين)[1] بعد فراغه من القضاء على الثوار، فحازت القبول كأختها.

وقد تألفت من الحلقتين قصيدة تبلغ أبياتها أربعمائة بيت أو تزيد، وعلمت من مرافق جلالته السيد يوسف ياسين، ذلك العربي الغيور أن جلالته يرتاح إلى وضع شرح على القصيدة يفسر منها ما غمض، وكنت آنئذ مشغولاً في نظم ووضع كتابي «أحسن القصص» في سيرة جلالته،

(١) وافق قدوم جلالته إلى عينين هذا التاريخ (شرفتم عينين أيها الملك ١٣٤٨) (المؤلف).

وحالت بعد ذلك أشغال جمة، والآن استعنت بالله ووضعت هذه التعليقات مستعينًا بما صنف من تواريخ نجد قديمها وحديثها، وتواريخ البلاد المجاورة لها، وذكرت على سبيل الإجمال كثيراً من الحوادث والوقائع التي أهملت ذكرها في المنظومة، أو ألمحت عنها عند ذكر رجالها.

وقد اعتنيت بذكر الأسباب وتعليل الحوادث ونتائجها أكثر من اعتنائي بسرد وقائعها؛ لأنها مشهورة مستفيضة، كما أني اختصرت الحوادث الشهيرة، وأسهبت فيما هو خافٍ منها مجاريًا فصول المنظومة وترتيبها، واستطردت عند ذكر كل أحد من مشاهير الأعلام بفذلكة تاريخية عنه على قدر الإمكان حتى تتم الفائدة، فجاء سجلاً مختصراً لتاريخ نجد[1].

(١) في النسخة أ: (ونسأل الله التوفيق والهداية. الدمام، القطيف. خالد بن محمد الفرج، رمضان سنة ١٣٥١هـ)، ولم ترد بعدها تتمة المقدمة.

المصادر

كتاب «عنوان المجد في تاريخ نجد»[1] للعلامة عثمان بن بشر النجدي أهم المصادر، وكل من كتب بعده فهو عالة عليه؛ إذ هو الكتاب الوحيد في هذا الباب.

وهناك عدة كتب لم تخل من إشارات مفيدة، أهمها «تاريخ الجبرتي» وما كتبه المعاصرون عن الحوادث المصرية النجدية، وتاريخ الشيخ عثمان بن سند الفيلكاوي البصري أحد المعاصرين للشيخ محمد بن عبدالوهاب، وما ترجم من كتابات الرواد الأجانب.

وإذا استثنينا «عنوان المجد»، فإن ما كتب عن نجد لا يخلو من أغلاط استعنا على تصحيحها بالأخبار المنقولة المتداولة، واعتمدنا فيما كتبناه عن الحوادث الأخيرة على ماكتب في النشرات الدورية وما سمعناه عن كثب من المشاهدين الثقاة ولذلك أسميته :

---

(١) أصله مذكرات كتبها معاصر للشيخ محمد بن عبدالوهاب اسمه حمد بن لعبون من أهل حريملة [كذا والصواب: حرمه]، وهو والد الشاعر المشهور محمد بن لعبون، وآلت هذه المذكرات إلى الشيخ عثمان بن بشر، فرتبها، وزادها، وأوصل سنواتها إلى عصره، وهي الترسيمات التي أشار عنها في مقدمة تاريخه. (المؤلف).

تعليق : لم يذكر المؤلف مصدره في هذا الرأي. ويبدو أن ترسيمات ابن لعبون - المشار إليها - هي التاريخ الذي ألفه في نسب قبيلته آل مدلج، فقد تضمنت أيضاً معلومات وأخباراً مقتضبة ذات علاقة بتاريخ نجد، ولكن حجم هذه المعلومات لا يتيح لها أن تكون أصلاً لكتاب ابن بشر.

«الخبر والعيان»

ولم آل جهداً في التمحيص والتحقيق، ومن الله التوفيق.

وها أنا أقدمه كما قدمت أصله إلى حامي العرب والإسلام أطال الله بقاءه.

القطيف

في ذي الحجة سنة ١٣٥٢هـ

خالد بن محمد الفرج

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ نجد

الحلقة الأولى

مقدمة[1]

إلى مجدك العلياء تعزى وتنسب وفي ذكرك التاريخ يملى ويكتب
وفي عدلك الشرع الشريف ممثل وفي حلمك الأمثال تتلى وتضرب[2]
ولم يبق للإسلام غيرك ناصر يؤيده في الله يرضى ويغضب

(١) انظر ص ١٢٥ (المؤلف) . والعنوان في أم القرى : جلالة الملك ونسبه (ملحوظة : عدلت إحالات المؤلف لصفحات المخطوط بما يوافق الصفحات من المطبوع) .
(٢) في الديوان : (وفي حكمك) مكان (حلمك) .

١

آل سعـــود[١]

نمتك جـدود مـن ربيعـة أصلهـم بهـم فَخَـر الحَيَّان : بكـر وتغلـب
محمـد ينميــه سعـود بن مقـرن فعبـدالعـزيز الفـاتح المتغلـب[٢]
سعـود، وعبـدالله، تركيٌّ، فيصـل ومن عابد الرحمن مجدك أعقبوا[٣]
أولئك درُّ المجـد في السلك نُظِّمـوا لقـد ولـدوا للباقيـات فـأنجبـوا
فسادوا وشادوا المجد بالدين قائمًا فـمـا وهنوا والدهر بالناس قُلَّـبُ

---

(١) انظر ص ١٣٠ (المؤلف).

(٢) رواية الديوان:

أساطين مجد من سعود بن مقرن إذا مات منهم طيب جاء أطيب

(٣) في الديوان (محمد ، عبدالله) مكان (سعود ، وعبدالله). وعلق (المؤلف) على هـذا البيت بقولـه: الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود بن مقرن، وليس في سلسلة آبائه من لم يملك سوى عبدالله، ولد في ذي الحجة سنة ١٢٩٧هـ[الأصوب : ١٢٩٣هـ] وملك في شوال سنة ١٣١٩هـ وتوفي في ربيع الأول سنة ١٣٧٣هـ. الديوان ص ٥١ .

٢

محمد بن سعود[١]

أساس متين ركنه العدل والتقى يد الله عنه بالعناية تضرب
بناه على الدين القويم محمد وليس له غير الهداية مطلب[٢]
ومن نصر الله استعز بنصره فعز وجند الله بالنصر أغلب[٣]

---

(١) انظر ص ١٣٧ (المؤلف).

(٢) محمد بن سعود جد آل سعود الأعلى، فقد كان آل سعود حكامًا على الدرعية فقط منذ منتصف القرن التاسع الهجري، ومحمد هو الذي وسع الملك وأسس الوحدة النجدية (المؤلف) الديوان ص ٥١.

(٣) في أم القرى: (يقينًا وجند الله)، مكان: (فعز وجند الله).

٣

الشيخ محمد بن عبدالوهاب[(١)]

أجـاب دعـاء الشـيخ لما نبت به ... مـواطنه حـتى لقـد كـاد يعطب

إمـام أتى من بيت علم مـسلسل ... توارثه عن جـده الإبن والأب[(٢)]

فـوالده قـاضي العـيينة علمـه ... غـزير له رأي ابن حنبل مـذهب

غـذي بلبـان العلم طفـلاً ويافـعًـا ... وأصـبح في أثوابه يتـقـلب

تلقى عليـه العلم والفكر ثاقب ... يطبق بالأعـمـال مـا كـان يطلب[(٣)]

ومـا العلم إلا مـاهدى الناس نوره ... إلى الحق لا أسْـفَـارَ تتلى وتكتب

وقـد خـصـه البـاري بنور بصـيـرة ... وعـقل عن الحق الصـراح ينقب

---

(١) انظر ص ١٤٤ (المؤلف).

(٢) الشيخ محمد بن عبدالوهاب التميمي، رجل الإصلاح الديني المشهور، ولد سنة ١١١٥هـ وتوفى سنة ١٢٠٦هـ وقـام بالدعـوة سنة ١١٥٧هـ (المؤلف) الديوان ص٥٢.

(٣) أي يطلب العلم وطلب العلم دراسته ويقال للتلميذ: طالب (المؤلف).

٤

الدعـــوة (١)

فمــا كـاد أن يُلقي إلى القــوم نظرة وكُلُّهُمُ عَنْ دينه مـــتنكب
تناقض نصَّ الدين أفــعـالُ قـومـه عـلى أن ذاك الزيغ لـلـدين ينسب
على حين ضل الناس بالغي والعـمى وكادت شموس الدين والهدي تغرب
وغطت منار الدين سـحب ضـلالة كـمـثل نمـير الماء غطاه طحلب
عكوف على أجـداثهم يعـبـدونهـا وكل لهـا في غـيِّـه مـتـعـصب
فـهـذاك يدعـو عندها دون ربه وهذا لهـا من دونه يتـقـرب

(١) انظر ص ١٦٨ (المؤلف).

٥

الهجرة الأولى[١]

أتى الشـيخ والإيمان يملأ صـدره على حين أن الناس للغي أقـرب

فنادى فـصمّوا عن سـماع ندائه وأقـصـوه عنهم خـائفًـا يتـرقب

لقـد خسرت فيـه العيينة منقـذًا بإبعـاده والجهل بالعقل يلعب[٢]

ولو أن عـثمـان الأمـير أجـاره للاح له بالعـز والسعـد كـوكب

ولكنه أرضى الحـمـيـديّ صـاغـرًا وأصـبـح من خـوف به يتـذبذب

لقد كان في الأحساء جلفًا صفت له زمـانًا به أهل البـلاد تشـعـبوا

فبـاعوه بالدنيا فجوزوا بفقدها وقـد أغضبوا الله القدير فعوقبوا

فأضحوا وأضحت بالخراب ديارهم خـوالٍ على أطلالهـا البوم ينعب[٣]

---

(١) انظر ص ١٧٣ (المؤلف) والعنوان في أم القرى : مقاومة آل معمر للشيخ .

(٢) كانت العيينة وأمراؤوها[أمراؤها] آل معمر (من تميم) تتزعم نجدًا في القرن الثاني عشر، وبها بدأ الشيخ دعوته، وكان أميرها عثمان بن معمر قد استجاب لدعوة الشيخ، وحاول تنفيذ الإصلاح لولا أن هدده سليمان بن محمد بن غرير الحميدي الخالدي حاكم الأحساء، وكان ذا قوة وسطوة تخشاه أمراء نجد لتفرقهم (المؤلف) الديوان ص ٥٢ .

(٣) في الديوان : (فأضحوا وها هي)، مكان : (فأضحوا وأضحت) .

٦

الهجرة الثانية[١]

وآواه في الدرعـيـــة البطل الذي تلقـــاه بالإجـــلال وهو يرحب

مـحـمـد أصل المجد في آل مـقـرن به اشـتـد للشـيخ المبـجل منكب

وبايعــه في نصــرة الدين والهــدى كمـا بايعت في وفدها قبل يثرب[٢]

هنالك عض الإصبع ابن مـعـمـر وأصـــبح ينحى نفـســه ويؤنب

وهيــهـات أن يثني مـشـيـئـة ربه بأحكامــه وهو العليم المســبب

فـعـاد على الدرعـيـة الخيـر والغنى وحق لأهليــهـا بأن يتـغلبـوا[٣]

---

(١) انظر ص ١٨١ (المؤلف) والعنوان في أم القرى نصرة آل سعود للشيخ.

(٢) يشير إلى بيعة العقبة الثانية سنة ١٢ هـ، وفيها قال الأنصار للرسول ﷺ: . . . ثم أظهرك الله علينا أن ترجع إلى قـومك وتدعنا؟ فأجابهم الرسول ﷺ: بل الدم الدم، والهدم الهدم. ابن هشام، السيرة النبوية ج ٢ ص ٦١-٦٤ وبنحو هذا الموقف استفهم الإمام محمد بن سعود وأجابه الإمام محمد بن عبدالوهاب كما ذكر ابن بشر.

(٣) في الأصل: (فعاد لأهل الدرعية)، والتصويب من أم القرى، و الديوان.

٧

إعلان الجهاد [(١)]

وقـام لهم عـبـدالعـزيز بصـارم ... يتـمم فـتـحًـا مـده قـبله الأب [(٢)]

فـشن السـرايا بالسـرايا مـغـيـرة ... لأهل العـمى في دورهم تتـعـقب

وولى دهام لم يفـده دفـاعـه ... ولا مكره أو غـدره والتـقلب [(٣)]

وجـاء سـعـود بعـده بجـمـوعـه ... ولم يبق للضد المشتت مـهـرب [(٤)]

فـأخـضع أكناف الجـزيرة كلهـا ... ودان له بالسـيف شـرق ومـغـرب

ولاحت نجوم المجد وسط سمـائه ... لآل سـعـود بالسـعـادة تثـقب [(٥)]

---

(١) انظر ص ١٨٤ (المؤلف).

(٢) تأخر هذا البيت عن الذي بعده في أم القرى، والديوان.

(٣) دهام بن دواس أمير الرياض، قاوم آل سعود مقاومة عنيفة وطالت الحرب بينهم نحو ثلاثين سنة، انتهت بفرار دهام سنة ١١٨٧هـ (المؤلف) الديوان ص ٥٣ .

(٤) سعود بن عبدالعزيز تولى سنة ١٢١٨هـ بعد اغتيال أبيه، وكان هو القائد في حياة أبيه وهو الملقب بالكبير، والفاتح، لأنه مد سلطة آل سعود من الربع الخالي إلى الشام، ومن الخليج إلى البحر الأحمر، توفي سنة ١٢٢٩هـ (المؤلف) الديوان ص ٥٣ .

وفي الديوان تقديم وتأخير بين عجز هذا البيت والبيت الذي يليه.

(٥) ثقب النجم ثقوبًا: أضاء. (المؤلف) وورد في الديوان: (نجوم السعد).

٨

تبدل الحال [١]

ومن سنن الله التي في عباده   شؤونهم في دهرهم تتقلب
فكل رخاء سوف تتلوه زعزع   وكل نهار سوف يتلوه غيهب
وكل سرور سوف يعقب غصة   وكل خصيب في البسيطة يجدب
وكم دولة شادت من المجد والعلى   لها العز ثوب والسيادة مركب
فإن لم تثقفها الحوادث أخلدت   إلى الذل واستولى عليها التشعب
وجاءت إلى الأبناء عفواً فأترفوا   وغايتهم في الملك ملهى وملعب
قلوبهم شتى هواء من الهوى   إلى أن قضوا في لهوهم وتشعبوا
وكان عليه أن يرى أولياءه   ويبليهم كي يشكروا أو يكذبوا [٢]
ليبلوهم والله بالغ أمره   وميزان شكر العبد أيام ينكب [٣]
فيظهر منهم كل عصر مجدد   بساعده لاوارث متحجب [٤]
ويصدق فيهم قول من هو مادح :   إذا غاب منهم كوكب لاح كوكب [٥]

---

(١) انظر ص ٢٩٥ (المؤلف).

(٢) في الديوان. (ويبلوهم)، مكان : (ويبليهم).

(٣) لم يرد هذا البيت في الديوان.

(٤) في الديوان : (يساعده)، مكان : (بساعده).

(٥) فيه إشارة إلى بيت أبي الطمحان العينيّ – وينسب للقيط بن زرارة –:
نجوم سماء كلما غاب كوكب   بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

٩

موقف الترك والمصريين[١]

وفي مصر من بعد الفرنسيس نزعة تهب وبعد الذل للعز تطلب

تجيش بها للانقلاب مراجل وتوقدها نيران نفس تلهب

أتاها فأصلاها الخديوي محمد ببحران حمى ماؤها يتصبب

وكان له في آل عثمان مطمع تقاصر عنه في المطامع أشعب

فأردى المماليك الملوك بفتكه وظل بأرباب المناصب يلعب

يراوغ سلطان البلاد بمكره كما راوغ الصيادَ بالمكر ثعلبُ

وما عاد والي مصر في مصر عاملاً يزال بفْرَمَان المليكِ ويُنْصَبُ

غدا العاهل التركي وهو خليفة وباسم أمير المؤمنين يلقب

يرى الضعف والأخطار محدقة به وأظلم في عينيه شرق ومغرب

ففي مصر قام الأرنؤوط بدولة ومن نجد قامت دولة تتأهب[٢]

وقد أقلقت أبناء جنكيز فكرة تحاذر أن يحيا نزار ويعرب

فتصبح نجد دولة عربية سيغدو لها نحو الخلافة مأرب

---

(١) انظر ص ٢٧٩ (المؤلف) والعنوان في أم القرى، والديوان: موقف المصريين والترك.

(٢) الأرنؤوط: والي مصر محمد علي باشا المتوفى سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م، وقد حكم مصر سنة ١٢٢٠هـ وغدر بالمماليك في حادثة القلعة الشهيرة سنة ١٢٢٦هـ. الزركلي، الأعلام ج ٦ ص ٢٩٨.

فقاموا يشون الدسائس نحوها ولم يخجلوا أن يفتروها ويكذبوا
تؤازرهم باسم الديانة عصبة لها الدين في الدنيا احتيال ومكسب
(وفرق تسد) عند السياسة حكمة تراعى وضرب الضد بالضد أصوب
وما خسر الضدان فهو غنيمة وقد ضربوا نجداً بمصر وحزبوا
ولم يخش نجداً عاهل الترك وحده فإن جوار الأرض في مصر أرعب
وقد صادفت دعوى فروق هوى لها بقلب الخديوي وهو يقظان يرقب[1]
فراح لإنقاذ الحجاز بزعمه وباسم أمير المؤمنين يحزب[2]
ومقصده كف الخليفة برهة وفي نجدٍ الجيش الجديد يجرب
وقد وقفت نجد لطوسون وقفة وكادت عليه الدائرات تدولب
فطارت له وسط الحجاز حشاشة من الخوف حتى هاج في مصره الأب
فجهز إبراهيم باشا وجيشه كسلسلة موصولة حين تسحب
سحائب دهم والمدافع رعدها ونيرانها وسط الفضا تتلهب
بجيش كقطر المزن عداً وكثرة إذا زل منه صيب جاء صيب
بها اصطدمت آساد نجد فأثخنت فكل سنان أو فرند مخضب
ولو قوبلوا وجهًا لوجه لبرهنوا على أنه نعم الكماة وأعربوا
ولكنهم في ألسن النار عزل وهل يتقي نار القنابل أعضب؟!
وقد يقنص العقبان والأسد دارع كمين ولا يثنيه ناب ومخلب

---

(١) فروق أو الآستانة من أسماء إسطنبول العاصمة (المؤلف).

(٢) في الديوان: (يخرب)، مكان: (يحزب).

هم جاهدوا حق الجهاد بعزمهم ... وما استسلموا حتى أبادوا وأعطبوا

لقد لاقت الدرعية الهدم والفنا ... ولكنها قامت بما كان يوجب

فأمست لدين الله لحدًا مهدمًا ... وعارًا بتاريخ الخديوي يكتب

فوا عجبًا هم مسلمون وقد أتوا ... بما ليس يأتي الكافر المتعصبُ

وهم نقموا من أهل نجد تقاهم ... فلم دَمَّروا لما تولوا وَخَرَّبوا؟

وكان عليهم أن يجيروا أسيرهم ... فلم قَتَّلوا من بعد ذاك وصَلَّبوا؟

١٠

ظهور تركي[١]

وقـــد أنقـــذ المولى لشـــأن يريده — من الترك «تركيًا» له النصر مركب[٢]

كـأن اسـمـه رمـز لسـرٍّ قـضـاؤه — عـجـيب ولكن عـزمـه منه أعـجب

أتى نَجْدَ والفـوضى يعج عـجيـجها — بهـا زال ذاك الأمن والربع مـجـدب

وكل دَعُـيٍّ بالإمـــــامـــــة يدعي — قـد افتـرقـوا مـا بينهم وتشـعـبوا[٣]

ومـا عـاد حتى استرجع الـمُلْك عنوة — وبالأجـرب المشـهـور يمناه تضـرب

فطهَّـرها بالسيف والسـيف فـيـصل — به المجـــد يبنى والتـــراتُ تُطَلَّبُ

ولا يسلم الناجي السليم من الأذى — وآفـــاته مـــا دام في الدار أجـــرب

---

(١) انظر ص ٣٣١ (المؤلف).

(٢) عند تسليم الدرعية هرب تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، وظل يتنقل في القرى والبوادي إلى أن استرجع نجداً ١٢٣٨هـ، وقتل سنة ١٢٤٩هـ، قتله ابن أخته مشاري بن عبدالرحمن آل سعود (المؤلف) الديوان ص ٥٦ .

(٣) في أم القرى، و الديوان (بالإمارة)، مكان : (بالإمامة).

١١

إمامة فيصل[١]

ومن بعده حاز الإمامة فيصل   فقامت به كل البلاد ترحب[٢]
وعاد به المجد القديم مؤثلاً   كما قد بدا، كالتبر حين يُذوَّبُ

(١) انظر ص ٣٤٠ (المؤلف).

(٢) حينما قتل الإمام تركي كان ابنه فيصل في القطيف يحاصر سيهات، فلما بلغه الخبر عاد مسرعًا، فقتل مشاري وتولى الإمامة سنة ١٢٥٠هـ، وفي سنة ١٢٥٤هـ قدم إلى نجد خورشيد باشا، فأسر الإمام فيصل، وأرسله إلى مصر، وولى خالد بن سعود فخلعه أهل نجد، وتولى عبدالله بن ثنيان، وفي سنة ١٢٥٨ [الأصوب: ١٢٥٩هـ] عاد فيصل من مصر، فاستقام له الأمر إلى أن توفي سنة ١٢٨٢هـ (المؤلف). الديوان ص٥٦.

١٢

الاضطراب والاحتراب[١]

وخلّف عــبــدالله والملك واسع دعـا بذوي الأطمـاع أن يتـألبـوا[٢]

فـجـاهدهم بالسـيف حـتى أذلهم ولكن قـضـاء الله للمـرء يغلب

فـمـا حـال من يدني إليـه عـداته تدسُّ له في الشهد سمًا فيشرب[٣]

فـأبدى عـداه ابن الرشيـد مكشـراً وباعــده بالفــعل وهو المقــرب

ومـا فـتئ الطمـاع يلقي شـبـاكـه ويبـــسم في أسنانه وهي أنيب[٤]

ومـا زال حتى استـحـوذ الملك كله وشن السـرايا فـيـه تغـزو وتسلب

وقـد يكره الإنسـان مـا فـيـه خيـره ومــعــرفــة الأشـيــاء حين تجـرب

---

(١) انظر ص ٣٤٩ (المؤلف).

(٢) بعد وفاة فيصل تولى ابنه عبدالله، فنازعه أخوه سعود الملك إلى أن تم له الاستيلاء على الرياض بعد حروب داخلية طويلة سنة ١٢٩٠هـ. وقد تسبب عن ذلك استيلاء الترك على الأحساء والقطيف سنة ١٢٨٨هـ [الأصوب: ١٢٨٩هـ]، وفي تلك السنة تولى محمد بن عبدالله الرشيد عامة جبل شمر، فاستغل خلاف أبناء فيصل، وقد مات سعود سنة ١٢٩٢هـ وعبدالله سنة ١٣٠٧هـ فاستولى على نجد كلها بعد انتصاره في وقعة المليدة [المليداء] سنة ١٣٠٨هـ، وهاجر الإمام عبدالرحمن بأهله إلى أن استقر بالكويت (المؤلف) الديوان ص ٥٦.

(٣) زاد في الديوان قبل هذا البيت:

وأدى شقاقٌ بينه وشقيقه إلى كل ما من مثله يترقب

(٤) في أم القرى تقدم هذا البيت على الذي قبله.

ولله في آل سـعـود مـشـيـئـة لكي يعرفوا من ضدهم فيحببوا[1]

وشـتـان مـا بين المليكين شـيـمـة يعـمّـر هذا حين ذاك يخـرّب

هم أمّـروهـم إذ تولـوا بلادهـم فـمـا فـعل الأعـداء حين تغلبـوا؟

ومـن يحـمِ دين الـله أيام عـزه يُجِـرْه ويحـفظ ملكه حين ينكب[2]

(١) في ص ٣٩٠ من هذا الكتاب ورد البيت برواية: (إرادة)، مكان: (مشيئة).

(٢) في الديوان: تنكب.

١٣

[ظهور جلالته][١]

وما فتحت عيناك إلا عَلى عُلًى   من المجد لا تألو لها تتطلب
ولم يكفك الميراث حتى استعدته   وعزمك كالفولاذ بل هو أصلب
فأحييت ما عبدالعزيز أقامه   على أن هذا الوقت من ذاك أصعب
وقفت أمام المستحيل تهزه   وكلٌّ يقول الفوز عنقاء مغرب
وكلك آمال وكلك عزمة   وغيرك من ذكر اسمها يتهيب
كجدك تركي الذي جاء وحده   وفي كفه من صنعة الهند أجرب[٢]

(١) انظر ص ٣٦٤ (المؤلف). وعنوان هذه الأبيات مثبت من النسخة أ، وفي أم القرى، والديوان: ظهور جلالة الملك.

(٢) في الديوان: أعضب.

١٤

فتح الرياض العجيب (١)

وقد أخذ المولى بيمناك مفردًا | وضدك مرهوب المكانة مرعب
له خضعت نجدٌ بُدَاةً وحُضَّرًا | له الباج يجبى والضرائب تجلب (٢)
سريت بلا جيش سوى العزم والمضا | لك الحق هادٍ والشجاعة مركب (٣)
وعاجلت عجلانًا بضربة ثائر | فلاقى الذي لاقى بخيبر مرحب (٤)
وأعظم ما تُمْنَى به شيمة الفتى | وضيع بألقاب الأمير يُلَقَّب
إذا كان كافورٌ بمصر عجيبة | فعجلانُ في قصر الإمارة أعجب (٥)
لقد ثكلته أمه من مؤمر | يسير به نحو المهالك منصب
فما سره لما رآك فراره | ولم يبق في الحصن المحصن مهرب
وأمست بعلياك الرياض عزيزة | وغابًا به الآساد للحرب وثّب

---

(١) انظر ص ٣٧٢ (المؤلف). والعنوان في الديوان: إنقاذ الرياض.

(٢) **الباج**: العشر (المؤلف).

(٣) خرج الملك عبدالعزيز عبدالعزيز من الكويت بستين رجلاً يتعاقبون الركوب على ٤٠ جملاً شوال سنة ١٣١٩هـ (المؤلف) الديوان ص ٥٧.

(٤) **ثائر**: فاعل من ثأر والغضبان أيضًا (المؤلف). وفي الديوان: عجلان بن محمد العجلان، من موالي أهل حائل، ولاه ابن رشيد إمارة الرياض بعد ابن ضبعان فقتله عبدالعزيز سنة ١٣١٩هـ (المؤلف) ص ٥٧. ومرحب: يهودي من حِمْير قتله محمد بن مسلمة رضي الله عنه يوم خيبر سنة ٧هـ.

(٥) في الديوان: (الإمارات)، مكان: (الإمارة).

تعجب كل الناس منك وأكبروا   وحق لهم أن يكبروك ويعجبوا
هنالك آلت شمر وابن متعب   ليسترجعنَّ الملك أو يتغربوا
ووسوس للأتراك حتى أتى بهم   إلى الموت في أرض القصيم ليعطبوا
فمرت به سبع كأعوام يوسف   مكرًا مفرًا لا يني وهو مُتْعَبُ[1]
إلى أن قضى بالسيف وهو شفاؤه   لداء به من غيظه يتعذب
هنالك عاد الحق نحو نصابه   لجور الأعادي جولة ثم يذهب

(١) منذ استيلاء الملك على الرياض المرة الأولى سنة ١٣١٨هـ إلى مقتل ابن رشيد سنة ١٣٢٤هـ سبع سنين (المؤلف).

١٥

فتح الأحساء (١)

وقد كانت الأحساء للظلم مرتعًا — من البدو والفوضى تئن وتصخب
بها دخل الأتراك كالضب غارهم — ولم يغن عنهم فيه جيش مدرب
فللبدو أرباض البلاد وريفها — وللترك ما دون الجدار محجب
يعيشون في السكان نهبًا وغارة — وأنهابهم جهرًا إلى السوق تجلب (٢)
مشيت إليها مشية عنبسية — ولم يحمها السور المنيف المبوب (٣)
وما ذكر التاريخ قبلك فاتحًا — يغامر بالجند القليل فَيَغْلِبُ (٤)
وما ليلة الأحساء إلا شقيقة — لليلة عجلان، بل الكوت أرهب (٥)
هنالك لا جند ولا عصبية — لديك ونيران العدو تصوَّب
فبدَّلتها بالخوف أمنًا وبالفنا — حياة وأضحى ربعها وهو مخصب
ضربت ذوي الغايات والظلم ضربة — فشَتَّتَهم بالسيف لما تألبوا

---

(١) انظر ص ٤٠٣ (المؤلف) وفي الديوان: استعادة الأحساء.

(٢) في أم القرى، و الديوان : (ونهبهم . . . يجلب)، مكان: (وأنهابهم . . . تجلب).

(٣) في الديوان : (إليهم . . . السوق)، مكان: (إليها . . . السور). والعنبس: من أسماء الأسد.

(٤) في أم القرى، والديوان : (مثلك فاتحًا)، مكان : (قبلك فاتحًا).

(٥) الكوت في الاصطلاح: الحصن، ومنه كوت الأحساء (المؤلف).

فقد خنسوا للهاربين ووسوسوا ... ولاح لهم من بارق الطيش خُلَّب[1]

فلول سخاف في أوال تجمعت ... يوسوس فيها الأعجم المتعرب[2]

عدوٌّ بأثواب الصديق كأنما ... تلوّنه بالفعل حرباء تنضب[3]

فعادوا لكيما يستعيدون مجدهم ... وهيهات أن تلقى القساور أرنب

فأضحوا لعمر الله أضحوكة الورى ... وصدرك رحب، بل وحلمك أرحب

فحلمك لولا أنك اليوم قادر ... لظنوه عجزاً بالتجاوز يحجب

ولكن أخلاقًا سموت ببعضها ... تعزُّ على كل الأنام وتصعب

فرفرف في الأحساء عدلك شاملاً ... وفي الخط بات الأمن وهو مطنب[4]

---

(١) **الخلب**: السحاب الذي لا مطر فيه. وبرق خلب: السحاب الذي يبرق ويرعد ولا مطر معه. ابن منظور، لسان العرب ج ١ ص ٣٦٤ (مادة: خلب).

(٢) المتعرب والمستعرب: المتشبه بالعرب وأخلاقهم. وأوال: اسم جزيرة البحرين الأصلي (المؤلف). وأضاف على هامش الديوان: أوال: جزيرة البحرين، وقد كان الترك بعد وصولهم إلى البحرين أعادوا الكرة ونزلوا العقير، ولكن الحامية هناك استطاعت أن تصدهم. الديوان، ص ٥٩.

(٣) **حرباء تنضب**: كعنقاء مغرب، وتنضب صفة غلبت على الحرباء لملازمتها الشجر التنضب (المؤلف). وفي أم القرى، و الديوان: (في الفصل)، مكان: (بالفعل).

(٤) الخط: بلاد القطيف، وإليه تنسب الرماح الخطية (المؤلف).

١٦

فتح حـــائل [١]

عـلاك إلى عليـا الكواكب أقـرب ... ومـجـدك من شم الشـوامخ أصـعب

ومـا زلت بالنصـر العـزيز مـؤيدًا ... وشخصك في قلب الرعايا محبب [٢]

ولكن أعـــداء الســـلام تألبــوا ... ومـا اتعظوا والجـهل جـهل مـركب

يحـيكون في طي الخـفـاء دسـائسًـا ... تدب لهــا في وسط حــائل عنكب

فــمن حــانق والحـقــد ملء إهابه ... ومن خـــائف في شــأنه يتــرقب

لهم من بني جنكيـز والله حــافظ ... سـموم حـوتها بالدسائس عقرب [٣]

هم الترك خابوا في الحروب وشردوا ... وفي شـمَّـرٍ للإنتـقـام تجلببـوا [٤]

إذا مـا نشرت الأمن في الناس أقلقـوا ... وإن جئت تبغي السلم بالحلم أحربوا

ولكن فـرند السـيف خيـر مـحكم ... به الحق يعلو والحـقـيـقـة تخطب

فـشـمَّـرت في عـزم ورفق ورحـمـة ... كـأنك فـيــهمْ والد أو مـؤدب

مـشـيت إلى وكـر الدسـائس حـائل ... لأن اجتثاث الأصل أولى وأوجب [٥]

---

(١) انظر ص ٤١٢ (المؤلف). وفي الديوان: سقوط حائل.

(٢) في الديوان : (في نفس الرعايا).

(٣) في الديوان: (لهم من بني الأعداء).

(٤) في الديوان : (هم القوم). ورواية الديوان فيها تعفف.

(٥) يقصد الناظم ما فعله حاكم حائل الأمير عبدالعزيز بن رشيد وأمراء حائل من بعده، ويلحظ أن الناظم لايتعفف كثيراً عن استخدام بعض الألفاظ الجارحة.

فمن شاء حربًا فهو قاتل نفسه ومن شاء سلمًا نال ما يتطلب

فأعتقت أرواحًا لديهم رخيصة ولولاك كادت للجهالة تذهب

دخلت دخول الفاتحين مهللاً تطمنهم من خوفهم وتطيب[1]

ملكت فما عاقبتهم بل وصلتهم بوقت يكاد النصر بالحزم يلعب[2]

وما سمعت أذناي قبلك فاتحًا يفيض على الأعداء خيرًا ويسكب

أبحت لهم جودًا ولم تستبحهمُ فأصبحت منهوبًا وأعداك تنهب

ولو شئت قابلت الفعال بمثله ونال جزاء الفعل عات ومذنب

---

(١) في الديوان : (وتطبب).

(٢) في أم القرى : (فما عقبتهم) خطأ مطبعي.

١٧
موقف جلالته في الحرب العامة[1]

ومن قبل لم تنقم على الترك غدرهم وقد أوشكوا أن يستباحوا وينكبوا

فواليتهم إذ خانهم أصدقاؤهم ومالوا إلى أعدائهم وتقربوا

وما كنت في استرجاعك الإرث باغيًا وما كنت في غير العدالة ترغب

وغرْتَ على الإسلام والحق غيرة على كل صعب دونها تتغلب

---

(١) انظر ص ٤٣٤ (المؤلف). وفي الديوان: الموقف في الحرب العامة. وهذا المقطع قُدِّم في الديوان على مقطع: فتح حائل.

١٨

جلالته والحسين[١]

هنالك قامت في الحجاز دعاية ... تبث بستر الدين والجنس تحجب[٢]

يقوم بها بين الحطيم وزمزم ... دعيٌّ إلى بيت النبوة ينسب[٣]

وقد وقف الإسلام أحرج موقف ... وكل عدو ضده متألب

ولكنها للأشعبيين فرصة ... ولو فكروا في أمرهم لتهيبوا

وأغرتهم أحلام ملك قوامها ... وعود على ظهر القراطيس تكتب

دعوا لأفاعيل الشقاق فطبلوا ... وللعُرْب فيما يزعمون تعصبوا

فما هي إلا برهة ثم أصبحوا ... تقاذفهم أيدي الوعود وتكذب

لقد وجدوا أن الشراب مصحف ... سرابًا، وأن الملك حلم مذهب

وكانوا بأموال الأجانب رتعًا ... فأسقط في أيديهم حين سُيِّبوا

فظلوا ملوكًا بالمظاهر والسُمَى ... إذ الجند يفنى والخزينة تنضب[٤]

لقد صدَّق الشيخ المعمَّم حلمه ... فلاقى الذي لاقت من السيل مأرب

وأصبح في البيت الحرام بعسفه ... يصول على الحجاج يسبي ويسلب

فضجت له أم القرى ومقامها ... وضاقت بأهليها من الظلم يثرب

---

(١) انظر ص ٤٣٨ (المؤلف). وفي الديوان: الموقف مع الحسين.

(٢) رواية الديوان: تبث بستر الجنس والدين تحجب.

(٣) في البيت قدح لا مسوغ له، ورواية الديوان: (زعيم)، وهي الأنسب.

(٤) في الديوان: (في المظاهر... إذا الجند).

وربك بالمرصاد يمهل عبده ... يعاقبه في فعله ويؤدب

قد اغترَّ ذاك الشيخ من ذلٍّ شعبه ... وأسمائه اللاتي بها يتلقب[1]

وحلمك عن أخطائه وهو معتد ... يوتر من أعصابه ويصلب

تلاقيه في تكشيره متبسمًا ... ويشرق منك الوجه حين يقطب

فَعَنَّ له تفسير أضغاث حلمه ... بنجد وفيها جنده يتدرب

ومن غَرَّهُ لين الشعابين فاعتدى ... عليها فبالسم الذعاف سيعطب[2]

فأرسل عبدالله بالجيش فاتحًا ... يحف به من قاذفي النار موكب[3]

ليفتح أسوار الرياض وبعدها ... إلى الخط تغريه الأماني فيطرب[4]

وما كاد أن يلقى بتربة أهلها ... وقد كبَّروا عند اللقا وتأهبوا

فداخله الرعب المخيف وجنده ... تولوا على أدبارهم لم يعقبوا

فما اهتز حلم أنت شامخ طوده ... بوقت به ذو الحلم لاشك يغضب

سكوت أراب الناس حتى تساءلوا ... وراحوا يظنون الظنون فأسهبوا

---

(١) في الديوان: (من ضعف شعبه)، مكان: (من ذل شعبه).

(٢) في الديوان: (الزعاف).

(٣) في الديوان: (غازيًا)، مكان: (فاتحًا)، وعنوان هذا البيت والأبيات التي تليه في الديوان، وأم القرى: وقعة تربة. وقد علق (المؤلف) على هذا البيت بقوله: «بعد استسلام فخري باشا بالمدينة توجه الأمير عبدالله - ملك الأردن فيما بعد - بالجنود النظامية والبادية ليفتح نجدًا بزعمه، ولما وصل إلى تربة على الحدود بين الحجاز ونجد هاجمه الإخوان في شعبان سنة ١٣٣٧هـ فانهزم هزيمة شنيعة وسلم كل ما استلمه من فخري، وهذه الوقعة مقدمة لاستيلاء الملك عبدالعزيز على الحجاز». الديوان ص ٦١.

(٤) في الديوان: (إلى البحر). والخط: القطيف.

أيشمخ مغلوب ويهدأ غالبٌ ويصفح مظلوم ويترك مذنب

***

دعوتَهُمُ لما تمادوا لمجمع ليظهَر مَنْ عن رشده يتنكب(١)

فجاؤا رياءً يعرضون شروطهم على أنها للمستحيلات أقرب(٢)

وحلمك عمن لا يراه مذلة وعفوك قبل الاقتدار يكذب(٣)

وحتَّام هذا الحلم والبغي ظاهر وفيم التراخي والعدى تتصلب؟

ألم يمنعونا عن شعائر ديننا كما صَدَّ عنها القرمطيُّ المخرب(٤)

هنالك أضحى السيل قد بلغ الزبى لقوم بأرواح العداء تشربوا

وما لك فيهم مأرب قبل بغيهم فعادوك حتى كدت بالصفح تذهب

***

وما كدت تعطي الأذن قومًا تأهبوا لحربهمُ حتى استجابوا ورحبوا

(١) مؤتمر الكويت سنة ١٣٤٢هـ (المؤلف).

(٢) بالرغم من هزيمة جيوش الملك حسين في تربة فإنه ظل معاديًا لآل سعود سراً وعلانية، وقد توسطت بريطانيا لحل الخلاف بمؤتمر الكويت بين نجد وبين الحجاز والعراق وشرق الأردن، فانفض في شعبان سنة ١٣٤٢هـ بدون نتيجة لاشتطاط الأشراف فيما لا يعنيهم كإرجاع آل رشيد وآل عايض، بمعنى تفكيك المملكة النجدية، مما أدى إلى مهاجمة الملك عبدالعزيز الحجاز في صفر سنة ١٣٤٣ (المؤلف). الديوان ص ٦٢.

(٣) في أم القرى والديوان: (مكذِّب).

(٤) القرمطي المخرب: هو أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابي، قائد الحركة القرمطية، قام بعدة حملات اعترض فيها قوافل الحجيج، من أشهرها ما قام به عام ٣١٧هـ حينما قتل جمعًا من الحجيج ونهب الحجر الأسود وغيره من محتويات الكعبة. ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٢٠٤.

فراحوا كأن السيل مسرى جموعهم وقد شمروا للملحمات وأجلبوا

كأن ارتفاع النقع فوق رؤوسهم سحاب أَحَمٌّ طَبَّق الجو هيدب(1)

كأنهم إن هللوا ثم كبروا رعود إذا حنَّت تصمٌّ وترعب

صداها دويٌّ بالبنادق مرجف وخيل على تلك السهول تدبدب(2)

مشوا ليس يثنيهم عن القصد معقل ولم ينج إلا الطائع المتجنب(3)

وفرّت جنود ابن الحسين أمامهم سراعًا، كأن الجند بالرعب جندب(4)

وبالطائف المشهور طافت جموعهم وكان سكابًا لا يباع ويوهب(5)

ولكنه الرعب الرهيب كأنما قلوبهم من هوله تتكهرب(6)

(1) **النقع**: الغبار الساطع، وفي التنزيل: ﴿**فأثرن به نقعًا**﴾ أي غبارًا. ابن منظور، لسان العرب ج ٨ ص ٣٦٢ (مادة: نقع)

والسحاب الأحم: أي الأسود. والأحم: الأسود من كل شيء. المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٥٦ (مادة: حمم).

ويقال: **طبق السحاب الجو**: غشاه. ابن سيده، المخصص ج ٩ ص٩٤.

والهيدب: السحاب الذي يتدلى ويدنو مثل هدب القطيفة. المصدر السابق ج٩ ص ٩٨.

(2) في الديوان: (للبنادق).

(3) لم يرد هذا البيت في الديوان.

(4) رواية الديوان: سراعًا، وهل من دون بطشك مهرب.

(5) في الديوان: وكان منيعًا لا ينال ويصعب. وسكاب - بفتح السين - اسم فرس، قال الشاعر:

أبيت اللعن إن سكاب علقٌ نفيس لا تعار ولا تباع

ابن منظور، لسان العرب ج١ ص ٤٧١ (مادة: سكب).

(6) في الديوان: (المهيب)، مكان: (الرهيب).

ولم يبق للشـيخ المتـوج مـهـرب سوى البحر إذ آواه في اليم مركب
وراح قـد استـوعى مـلايينه التي جباها وأضحت في الصفائح توعب
وألـقى علـى تلـك الأباطح نظـرة يفـيض عليـهـا قلبـه المتلهب
وأبصـر مـا جـرت عليـه فـعـاله ولا شك أن الظلم للذل يعـقب
وجـاءت جنود الله للبيت خُشَّعًا تطـوف به تدعـو الإله وتطـلب
ملكت فـأنقـذت البـلاد وأهلها وكـانت بنار الاضطراب تلهب
فـهـذاك مـقـتـول، وهذاك قـاتل، وهذاك منهـوب، وذلك ينهب
وفي كل قطر، بل وكل قـبيلة إغارات يذكيها العمى والتعصب
فـمـا هي إلا برهة ثم أصـبحت بعـدلك والأمن العـمـيم مطنب
وكل شـقـاق عـاد وهو تآلف إلى الله في إعـزازه يُتَـقَـرَّب
فـيـا أيهـا الملك الذي اتجـهت له ضـمـائرنا تبـدي مناها وتعـرب
مـحط المنى للمسلمين جـمـيعـهم وحـامي الحمى تحنو عليه وتحدب
وأبصـارهم ترنو إلى قـبلة الهـدى تصـعـدها أنَّى غـدت وتصـوب
فـأنت إذا شـرقت بالأمـر شـرقـوا وأنت إذا غـربت بالنهْي غَـرَّبوا
ملكت قلوب الناس قبل جسومهم وسـيـان فـيـهم مـبعـد ومـقـرب
فـدم سـالمًا للدين والعـرب مـعـقـلاً إلى مـجـدك العلياء تعزى وتنسب

القطيف

في ١٢ شوال سنة ١٣٤٦هـ

تاريخ نجد

الحلقة الثانية

١

مثال الكمال[1]

فعالك تستهوي القلوب فتطرب ... فيعرب عنهن اللسان فيطنب
صحائف مجدٍ ناصعات يخطُّها ... بفخرٍ يراع الكاتبين فيسهب
ففيهن للإنسان أسمى بطولة ... يمجدها التاريخ دهراً ويدأب
وفيها من الإلهام للشعر مصدر ... غزير وروض للأناشيد مخصب
فأنت مثال للكمال مجسم ... تذل لك الأقران قهراً وتجذب
وأنت بميدان السياسة سابق ... متى جاءك الأقطاب منهم تكهربوا
فهم أكبروا منك الصراحة والمضي ... ومن ذلك الإكبار هذا التأدب

---

(١) انظر ص ٤٧٣ (المؤلف).
رفعت إلى جلالة الملك على أثر قدومه إلى الجبيل يوم ٢١ رمضان سنة ١٣٤٨ بعد فراغه من تأديب البغاة والقبض على الدويش ومن معه وإرسالهم مصفدين إلى الرياض (المؤلف). الديوان ص ٦٤.

٢

تحضير البدو[1]

وقـمت بتـدبيـر المـمالك حـازمًـا ... وملكك من كـبـرى المـمالك أرحب

فـمن شـرفـات الشـام باتت حـدوده ... شـمـالاً، إلى نجران أو هو يـجنب[1]

ومن سـاحلي بحـر الخليج مشـرِّقًـا ... إلى القلزم المشـهـور حـيث يغـرِّب

عـسـيـر المطى لولاك صـعب قـيـاده ... وإصـلاحـه في كف غـيـرك أصـعب

به الخلف من عـصر الصحابة منشب ... مـخـالـب مـا إن تنثني حين تنشب

ومن أكـبـر البلوى عليـه قـبـائل ... من البـدو في تلك المـمالك تضـرب

يسـيـل دم الثـارات بين بطونهـا ... وديدنهـا في الغـزو تسطو فـتنهب

ومن رام إحـيـاء الشـعـوب فـلا أرى ... يتمّ له وسـط البـداوة مطـلب

ولا رأي فـيـهـم والجـهـالة طبـعـهـم ... وعـادات سـوء عندهم وتعـصـب

وأنت النـطـاسـي الحـكـيـم بـرأيـه ... تشخص أصل الداء والداء مرعب[1]

فـأيقنتَ أن المُلْكَ في البـدو زائل ... إذا لم يُحَـضَّـر أهله ويُهَـذّبوا

فـقـمتَ بنشـر الدين فـيـهم وإنه ... دواء لأدواء النفـوس مـجـرب

---

(١) انظر ص ٤٧٥ (المؤلف).

(٢) في الديوان: (بل هو يجنب).

(٣) **الرجل النطاسي**: العالم بالأمور. ابن منظور، لسان العرب ج ٦ ص ٢٣٢ (مادة: نطس).

وليس سوى الدين الحنيف مطهر لعادات شعب أهله قد تشعبوا

فلما استجابوا للهدى وتشربت نفوسنهم من هديه وتشربوا

أكبوا على القرآن يتلون آيهِ وكلهم يقرا الحديث ويكتب

ومن أمة أمية جئت للورى بشعب على نيل العلا يتدرب

وناديتهم نحو الحضارة داعيًا فلبوا وعن نهج البداة تنكبوا

وتلك الفيافي القاحلات مدائن بها الزرع ينمو والمتاجر تجلب

أولئك جند الله أنت زمامهم تقودهم نحو العلا وتهذب

بك اجتمعوا بعد الشقاق فألفوا قوًى ترجف الضد العنيف وترهب[1]

وهم سيفك البتار أنى تَوَجَّهَتْ مضاربه يفري ويمناك تضرب

حمائم تقوى في المساجد خُشَّع وآساد غاب في الوغى تتوثب

---

(١) في الديوان: (العنيد)، مكان: (العنيف).

٣

سلطان بن بجاد ، فيصل الدويش ، ضيدان بن حِثلين [١]

على أن هذا الهدي لم يرض معشرًا ... أجابوه لكن بالنفاق تجلببوا

رَفَعْتَهُمُ عَنْ مستواهم تألفًا ... فزادوك إبعادًا وأنت تقرب

وما ضربوا إلا بيمناك مضربًا ... وما نصروا إلا وسعدك يغلب [٢]

فغرهم النصر الذي بك أحرزوا ... وأطغتهم النعمى التي منك تسكب

ومن هم؟ فقد كانوا إلى قبل مدة ... جفاة بهم روض المعيشة مجدب [٣]

ولم يك سلطان رئيس عتيبة ... فأنت له دون الأنام المرتب

نفيتَ ابن هنديْ عنه ثم نصبته ... ولولاك بعد الله ما كان ينصب [٤]

وهذا ابن سلطان الدويش ولم يطل ... له أمد حتى عن البال يعزب

وما كان ضيدان ليخلص سره ... وفيه من الأحساء نار تلهب [٥]

أولئك ثالوث الجهالة غرهم ... نوالك والحسنى التي أنت ترغب

---

(١) انظر ص ٤٨١ (المؤلف).

(٢) في الديوان : (وما سعدوا)، مكان : (وما نصروا).

(٣) في الديوان : (صقع المعيشة).

(٤) في الأصل : (نفيت ابن هندي عنده). ولا يستقيم به الوزن ولا المعنى، والتصويب من الديوان.

(٥) ضيدان بن خالد بن حزام آل حثلين، رئيس العجمان، رأسه الملك على العجمان بعد مقتل سحمان (المؤلف). الديوان ص ٦٥ .

فظنوا وظن البعض أنك قائم   عليهم وأن الجود منك تحبب
ومن ذلَّ خوفًا لا يطيعك رغبة   إذا زالت الأسباب زال المسبب
أبوا غير نكران الجميل تسوقهم   نفوس إلى الفوضى تحن وتطنب(1)

***

وأول غلٍّ أظهروه فعالهم   لدى الطائف المسكين أيام ينكب
وقول الدويش الفدم في أهل يثرب   جزاؤهمُ أن يُقْتلوا أو يصلّبوا(2)
وقد ساءه فتح الأمير محمد   لها والسعودي الصميم محبب
وطاغية الصَّرَّار جاء بقومه   كَراعٍ لآراض الكلا يتطلب(3)
فأرجعتهم سود الوجوه كما أتوا   وتم لك الفتح الذي أنت تطلب
وما كنت ترضى أن يمسّوا سواهم   بسوء وهم قد قتلوا ثم خربوا
وجدة لولاهم لسلّم أهلها   إذا بودروا من قبل أن يتأهبوا(4)
فأوقفتَهُمْ كي لا يعيدوا فعالهم   وأنت لها ما تأتلي تتجنب

***

(1) في الديوان: (وتقنب)، مكان: (وتطنب).

(2) الفدم: الأحمق الغليظ الأحمر، وهي صفات الدويش (المؤلف).

(3) **آراض الكلأ:** الأماكن الكثيرة العشب، يقال: ما آراض هذه الأرض! أي: ما أسهلها وأنبتها وأطيبها. ابن منظور، لسان العرب ج ٧ ص ١١٤ (مادة: أرض). والصرار: بلدة ضيدان (هجرته) في وادي المياه شمال الأحساء (المؤلف). الديوان ص ٦٦.

(4) في الديوان: (متى بودروا)، مكان: (إذا بودروا).

فبات (أثافيٌّ النفاق) ثلاثةً ... ومن فوقهم قدر المروق مركّب
وزادهم الإصلاح في المُلْك سخطة ... وأين من التمدين عنقاء مغرب
رأوا من فعال الكهرباء عجائبًا ... وذاقوا عناها في الحروب وجربوا
لقد علموا أن اقتناءك عدةً ... سواهم سترميهم بها إن تألبوا
وما السائرات المدرعات حقيقة ... سوى عدد منها العصاة تؤدب[1]
وما الطائرات المسرعات إذا رمت ... قنابلها إلا الدمار المخرب
وما البرق يحصي عنهم حركاتهم ... وينقلها إلا رقيب مُعَقِّب
فغروا عقول الساذجين بقولهم ... صناعات كفار إلى السحر تنسب
فأبطلت دعواهم وأظهرت غشهم ... بأن لها نص الشريعة يوجب
فعادوا إلى الإفساد بين بلادكم ... وجاراتها تغزو السرايا وتسلب
وشجعهم أن المخافر تنبني ... خلافًا لميثاق العقير وتنصب[2]
وقد كان أحرى بالعراق قيامه ... بما هو أولى للوئام وأقرب
ولكنه أمر أتوه وحجة ... كواهي نسيج الريح حاكته عنكب[3]
وقد كان سهلاً حلها بمودة ... على أنه في الأمر للقوم مأرب

(١) في الديوان: (فيها العصاة)، مكان: (منها العصاة).
(٢) في الديوان: تبتنى. وفي هامش هذا البيت: معاهدة العقير بين العراق والمملكة العربية السعودية تمنع بناء الحصون على الحدود، ولكن العراق بنت حصونًا في البصية والسلمان؛ مما أدى إلى تمرد الإخوان واتخاذهم لها حجة للخلاف (المؤلف). الديوان ص ٦٦.
(٣) في الديوان: ولكن أمرًا قد أتوه.

مشاكل لولا أنك اعتدت وقعها لضقتَ ولكن صدرك الرحب أرحب[1]

فداريت جيرانًا وداويتَ علة تسيل دماها بينما هي تندب

وعدت وأوعدت البغاة فلا العطا يفيد ولا التهديد بالقول يرهب[2]

إذا عاهدوا عهدًا به نكثوا غدًا وإن وعدوا خانوا وعاثوا وأحربوا

يشنون غارات الفساد نكاية على أنهم باسم الجهاد تحجبوا

---

(١) في الديوان: (دفعها)، مكان: (وقعها).

(٢) الوعد يستعمل في الخير والإيعاد في الشر، قال الأزهري: «كلام العرب: وعدت الرجل خيراً ووعدته شراً، وأوعدته خيراً وأوعدته شراً، فإذا لم يذكروا الخير، قالو: وعدته فلم يدخلوا ألفًا، وإذا لم يذكروا الشر قالوا: أوعدته فلم يسقطوا الألف، وأنشد لعامر بن الطفيل:

وإنيَ إنْ أوعدته أو وعدته لأخلف إيعادي وأنجز موعدي»

الأزهري، تهذيب اللغة ج٣ ص ١٣٥. وابن منظور، لسان العرب ج ٣ ص ٤٦٣ (مادة: وعد).

٤

الجمعية العموميـــة [١]

ولما تمادوا في الضـــلال دعـــوتهم ... وهيـهـات أن يلقى العـدالة مـذنب

لمؤتمر يحـــوي القـبــائل كلهـــا ... تنحَّيت فيـه كي يشيـروا وينصبـوا

فلبَّاك فـيـه المخلصـون جـمـيعـهـم ... يضيق بهم سهل من الأرض مرحب

وهبك تركت الحكم أنت فـمن لهم ... سـواك مليك في القلوب مـحبب [٢]

أمِن فـئـة شـاهت وجـوهًا؟ وهذه ... وفــود الرعــايا لا تـعــد وتحـسـب

أجـابوا الدعـا إياك نختـار مـالكًا ... يســوس الرعـــايا كـلهـــا ويؤدب

(١) ص ٥٠٥، (المؤلف). وزاد في الديوان: ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٤٧هـ.

(٢) في الديوان: (فيهم فمن لهم)، مكان: (أنت فمن لهم).

٥

وقعة السبلة[١]

ولكن طواغيت البغاة تقاعسوا خوارج فيما بينهم قد تحزبوا

وبانت نواياهم ولاح خداعهم وإن هم بجلباب الجهاد تجلببوا

ولم يكفهم قتل الأجانب غيلة فقد قتلوا أهل القصيم وسَلَّبوا

هنالك فاض السيل والحلم غرهم وفي مثل هذي الفتك كالحلم طيب[٢]

ولما دعا داعي النفير أجبنه كتائب في أبطالها تتكتب

ويا لك من صبح رأت فيه شمسه وقد طلعت سهلاً من الدم يخضب

على (سِبْلَةِ الزلفي) أفاق طغاتهم وليس لهم بعد الهزيمة مهرب

وبانت لهم أحلامهم وظنونهم هباء وهل في الآل ماء فيشرب

أتتهم جنود الله من كل جانب وحل محل البندقية أعضب

ولو لم يهب عبدالعزيز بقومه إلى المنع فيهم لاستبيحوا وأعطبوا[٣]

وجاء الدويش الفدم في النعش مثخنًا وأجهش يبكي ضارعًا وهو ينحب

ومنذ رأى عبدالعزيز نساءه حواليه أغضى عنه وهو يؤنب

وقال : ألا تبّت يداك من امرئ خؤون فهذا ما تحب وترغب

---

(١) ص ٥١٣ (المؤلف). وزاد في الديوان : ١٩ شوال سنة ١٣٤٧هـ.

(٢) في الديوان : (فاض الكيل . . . وفي مثل هذا).

(٣) منعه: كف عن قتله في اصطلاح البدو (المؤلف).

ومـا ابن بجـاد غـيـر طيـر مـحلق   سيـهـوي وإن طال المجـال ويتـعب

وقـد عـاد من بعـد الفـرار بذلة   فـلاقى جـزاه الغـادر المتـقلب

٦
مقتل ضيــــدان [١]

وثالثــة الاثْفيّ (ضيــدان) قــابع بصــرّاره سيــرَ الحــوادث يرقب
إذا ذكــر الأحــساء والعيث هاجه غليـل به من حَــرِّه يتــقلب
وَمنْ قـومه العـجمـان فالغدر خلقه غـذي دره حـتى غـدا وهو أشـيب
وما (الطبعة) الكبرى وما جر بعدها و (كنزان) إلا غـدرهم والتـقلب[٢]
هُمُ غـدروا فـهـدًا فكان جـزاؤهم من الله أن ينفـوا وأن يتـغـربوا[٣]
وياغـدرة ([. . .] الكلاب) أتى بها لهـا كل غـاوٍ غـادر يتـهـيب
وشــر الأعــادي ذو النفــاق فـإنه على مـا به يغـريك إذ يتـحـبب
لقـد ظن أن الجـو للحكم قـد خـلا بمقـــتل ضـيــدان لما يتطلب
ولكن أبى مــولاك إلا فـضـيـحـة فـقـد قلبـوا ظهـر المجن وحـزبوا[٤]
رأوك بعـيـدًا في الحـجاز ومـا دروا بأن إله العــرش دونك أقـــرب
فـولوا إلى (الوفـراء) والقـيظ لافح لكي يشبـعوا الأطماع والكل أشـعب[٥]

(١) انظر ص ٥٢١ (المؤلف). وزاد في الديوان: ١٩ ذي القعدة سنة ١٣٤٧هـ.
(٢) **الطبعة**: وقعة عند كاظمة قرب الكويت بين العجمان وعبدالله ابن الإمام فيصل سنة ١٢٧٨هـ. **وكنزان**: بقرب الأحساء بينهم وبين الملك عبدالعزيز سنة ١٣٣٣هـ (المؤلف) الديوان ص ٦٨.
(٣) الأمير فهد ابن الأمير عبدالله بن جلوي أمير الأحساء، كان قائدًا للحملة التأديبية فقتل مع ضيدان سنة ١٣٤٧هـ (المؤلف) الديوان ص ٦٨.
(٤) في الديوان: (وخربوا)، مكان: (وحزبوا).
(٥) **الوفراء**: ماء بقرب قرية على حدود الكويت (المؤلف). الديوان ص ٦٩.

٧
وقعة رضى[1]

وإن أنس للتاريخ لن أنس موقفًا ... لآل عطا في صدقهم إذ تصلبوا[2]
بداة وأخلاق الحضارة هذبت ... حواشيهم في فعلها فتهذبوا
فظلوا على إخلاصهم وولائهم ... وليس لهم إلا ولاؤك مذهب
على قلة لكن لها الله كالئ ... ومن حولهم أعداؤهم تتألب
وما (العازمي) عند العدى غير لقمة ... تساغ وإلا شربة الماء تشرب
هناك على الوفراء باتت جموعهم ... وشادوا بيوت الحرب فيها وطنبوا
وقد أرسلوا نحو الدويش بداره ... فأغروه، إن الجهل بالعقل يلعب
وساقوا ألوف المارقين أمامهم ... وليس لهم غير العوازم مأرب
فأرضاهم القوم الميامين في (رضى) ... بضربة مَنْ للحقِّ يرضى ويغضب[3]
فولوا ولم يلووا فلا الإبن منقذ ... أباه ولا يلوي على ابنه الأب

---

(١) انظر ص ٥٢٧ (المؤلف). وفي الديوان : ١٧ محرم سنة ١٣٤٨هـ.

(٢) **آل عطاء :** قبيلة العوازم التي كانت مخلصة، فقاومت الثوار وهزمتهم في رضى (المؤلف). الديوان ص ٦٩.

(٣) **رضى :** ماء في وادي المياه بقرب نطاع شمال الأحساء (المؤلف). الديوان ص٦٩.

٨

نكصة الدويـــــش[(١)]

وعــادوا وقـد كــان الدويش وقـومـه   لدعــوتهم قــد جــردوا وتغــربوا

ولما درى بـالأمـــــــر عض بنانـه   كـمـا غصّ قبل الخـائن المتـذبذب

ومــا عنده غــيــر التـجلد بعــدها   وقـد خاب فـيـمـا يرتجيـه ويحسب

فــآوى إليــه كل جــمع مــشــرد   وقـد قـام فـيـهم بالحـمـاسـة يخطب

فلول ولكن الدســائس شـــجـعـت   ولـلناس آمـــال ولله مـــأرب[(٢)]

دســائس عـــادت بالوبال لأهلهــا   ومــا شَـفَّت الأحـقـاد والدهر قُلَّب

فـوا عـجـبًا فـالحـرب كـانت لأجلهم   فكيف أعـــانوهم؟ ألما يجـــربوا؟

ولـكن ألـغــاز الســيــاســة حلهــا   عـجـيب وأطوار السـيـاسـة أعـجب

فــســر في سـبـيل الله فـالله كـالئ   وقم بلواء الله فـالنصـر مُـصْـحِـب

---

(١) انظر ص ٥٣٣ (المؤلف). وفي الديوان: نكصـــة الدويش ثانيـــة، خــرج في الأرطاوية في ١٢ محرم سنة ١٣٤٨هـ.

(٢) في الديوان: وللدهر مأرب.

٩

وقعة القاعية وأم رضمة[(١)]

هنالك سار ابن الدويش لغارة	بنجد ونيران السموم تلهب[(٢)]
فخاب لدى (القاعية) الفدم خيبة	بخفي حنين عاد، بل هو أخيب[(٣)]
وقسم أجناد الضلال عصائبًا	وفرقهم إن المشيئة تغلب
فأرسل للغرب (الدهينة) داعيًا	فكان غرابًا بالمصائب ينعب
وخلى ابنه عبدالعزيز وركنه	بسبع مئين في السباسب يضرب
فلاقاه في أقوامه ابن مساعد	فأفناهم قتلاً. أبالسيف يلعب؟
فنوا كلهم سبع مئينًا وتسعة	طعام تغداه نسور وأذؤب

(١) انظر ص ٥٣٧ (المؤلف). وفي الديوان: القاعية في ٣٠ ربيع الأول، وأم رضمة في ٥ ربيع الثاني سنة ١٣٤٨هـ.

(٢) في الديوان: (هناك استعد)، مكان: (هنالك سار).

(٣) **القاعية**: ماء بنجد كانت قبيلة سبيع ومن معها من الموالين نازلين عليه، فجاءتهم النذر بغارة الدويش. والدهينة: من رؤساء عتيبة الثائرين (المؤلف). الديوان ص ٧٠.

١٠

وقعة النقاير[1]

لقد هاله فقد ابنه وهو ساعد ... ومن معه من خيرة القوم منكب

فأدركه اليأس المميت فما له ... سوى الضربة القصوى وهل ثم مضرب

فقرر إتيان العوازم حاسبًا ... بأن اسمه عند العوازم مرعب

ولم يدر أن الجد بالأمس جدكم ... وأكبر ذل غالب ظل يُغْلَب

وما كاد يلقى في (النقاير) جمعهم ... إذا هو من أيدي العوازم يعطب

ويكفيه أن الله أخزى عتوه ... فَذَلَّله من لم يكن قط يُحْسَب[2]

تنازل يبغي الصلح عن كبريائه ... وأي دويش للعوازم يرهب

ولكنه أمر من الله نافذ ... يعز ويعطي أو يذل ويسلب

---

(١) انظر ص ٥٤٥ (المؤلف). وفي الديوان : في ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٤٨هـ.

(٢) في الديوان : (إذ لم يكن)، مكان : (من لم يكن).

١١
عاقبة المفسدين (١)

وفي الغرب قد كانت عتيبة أخلدت	لغدر فلا تنأى ولا تتقرب
إلى أن أتاها ابن الدهينة ناعقًا	يبث أساليب الفساد ويكذب
فمحصهم هذا سليم مسالم	- عصاه - وهذا في الغواية أجرب
فجئتهم كالماء للنار مطفئًا	فأدَّبتهم والسيف نعم المؤدب
وإن الذي صادرته منك أصله	وأنت لهم أضعاف ذلك توهب

***

وجئت بجند الله تزجي جموعه	تضيق به الأرض الفضا وهي سبسب
فلا مرتع يكفيهُمُ بنباته	ولا مورد إلا من الورد ينضب
ولكن سقاك الله بالغيث أينما	توجهت فالسحب الغزيرة تسكب
فأنت لهم كالغيث بالجُود مَطْعَمٌ	وغيث سماء الله بالجَوْد مشرب
إلى أن أتيت (الباطن الحفر) فانتحت	جنودك جمعًا للعدى تتطلب
فضاقت بهم سبل الفضا وفجاجه	من الرعب حتى عندها الكف أرحب
قد اعتورتهم للنسور مخالب	وقد ساورتهم للقساور أنيب
ومن سر حكم الله أنهمُ طغوا	عتواً وفي صغرى السريات أدبوا

---

(١) انظر ص ٥٤٩ (المؤلف).

ومن سر حكم الله أنهم التجوا   إلى من عليه بالجهاد تحجبوا

فقد سلمت للإنكليز كبارهم   فأين تقاهم؟ بل وأين التعصب؟[1]

عمائمهم صف البرانيط حولها   تصافحهم أيديهم وترحب

ألا هل درى (الخوّان) أن دويشهم   له فوق متن السحر مأوى ومركب

أينكره بالأمس واليوم يمتطي   من السحر طياراته حين يركب

وذلك كيما يظهر الله خزيه   فيؤتى به للشرع أيان يذهب

وقد أسلمته الإنكليز بحالة   يودُّ لها لو أنه متنقب

كأني به -لاعاش- ودَّ بأنه   من الخزي، ثاوٍ في التراب مغيب

وقد قرنوا جنبًا لجنب ثلاثة   ينوؤن بالأغلال والوجه مقطب

وقد فقدوا أموالهم وعيالهم   وأضحوا وبرّاق الأماني خلّب

وتم لك النصر المبين عليهم   يحفك بالتأييد والعز موكب

(١) لم يرد هذا البيت في الديوان.

١٢

ولتحـــي (١)

لك الحلم بعـــد الاقـــتــدار وأنه ... لطبـــعك إن الطبع لا شك يغلب

ومـا الناس في تقـدير حلمك واحـد ... فـعند اللئـام الحلم عـجـز مـهـذب

وعند اللئـــام الجـــود منك تودد ... وعند اللئـام البـشـر منك تحـبب

أريتك لو صـبُّت مـلايينك التي ... منحـتهم في الترب هل كـان يجدب

ولو غـيـرهم زودت من بعض زادهم ... وجدك مـاكانوا ليطووا ويسغـبوا(٢)

وكــانوا يرون المشـــهـديَّات زينة ... فـأطغـاهـمُ منك الحـرير المقـصَّب(٣)

نلوم ولكن كلمـــا صـار شــاهد ... بأنك فـيـمـا أنت تفـعل أصـوب

***

فـتـحت لنا عـصـر الرقيِّ بحكمـة ... سـديدَ خطًى، لا مــا أتى المتـوثب

بدأت لنا بالأمن، والأمن نعــمـــة ... هو الروح يحـيـا الملك منهـا ويرأب

وثنَّيـتـه بالعـدل بالشـرع حـاكـمًـا ... ألا إن حكم الله للعـــدل أقــرب(٤)

---

(١) انظر ص ٥٦٨ (المؤلف).

(٢) قوله: (وجدك) قسم بغير الله، وهو لا يجوز، والأنسب أن يقول مثلاً: وربك.

(٣) **المشهديات:** نوع من العباءات الصوف الخشنة تصنع في طوس (المؤلف).

(٤) في هذا البيت والذي قبله خلل في المعنى؛ فإن الملك عبدالعزيز بدأ بتحكيم الشرع أولاً، ثم جاء الأمن تبعًا له. وهنا خطأ آخر لدى المؤلف وهو أنه جعل حكم الله للعدل أقرب، والواقع أن حكم الله هو العدل الحق.

وأدخلت آثار الحـــضـــارة ناشـــراً   فـــضـــائلهـــا حـــتى بنا تتـــشـــرب
وأبهج مـــا شـــاهدته ورأيتـــه   نسورك في الأجواء تعلو فتصخب
نســور من الفــولاذ باســمك حلّقت   تغــرّد باسم ابن الســعــود فــتطرب
وسوف نرى هذي الممالك قد سمت   إلى الدول الكبرى تدارى وترهب[1]
فــيــعــربُ جــسمٌ أنت روح حــيــاته   بحقٍّ، ألا فلتــحي وليــحي يعــرب

القطيف

في ٢٠ رمضان سنة ١٣٤٨هـ

خالد بن محمد الفرج

(١) في الديوان : (تدار وترهب).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة[1]

(ص ٧٣)

لكل شيء غاية، ولكل بحث خلاصة، وخلاصة هذا الكتاب[2] صورة عربية إسلامية محضة، تعطي متطلب الحقائق مثالاً حقيقيًا باهرًا للعربي المحض، وتقدم له برهانًا جليًا من تاريخ آل سعود وسير ملوكهم مجسمًا في شخصية جلالة الملك عبدالعزيز الذي أضاف إلى مجده التليد الباهر مجدًا طريفًا مجيدًا، شيده بعزيمته وأخلاقه الكريمة المتينة، فقد سار بسيرة آبائه وأجداده، وحذا حذوهم في الحزم، والكرم، والحلم، والعدل، ونشر الأمن، وتأييد الدين، والمحافظة على أوامره ونواهيه، متخذًا طريق الحكمة - الشدة بدون عنف، والرفق والموعظة الحسنة بدون ضعف- متطورًا بتطور عصره وتكيف زمانه، متبعًا في ذلك السياسة الرشيدة آخذًا من محاسنه، ومقاومًا لمساويه، مدخلاً للرقي والتقدم إلى مملكته برزانة الحذر المميز الذي يزن الأمور ويعجمها، فيضعها في مواضعها محافظةً على دينه وعادات عنصره ووطنيته، متجنبًا طرق الطفرات والطيش في الوثوب الذي يؤدي بالأمة إلى رد فعل قد يكون ضرره أشد من نفعه، في هذا الوقت الذي تغلغلت فيه المدنية الأوربية في البلاد الشرقية وطغى تيار

---

(١) من هنا تبدأ النسخة ب

(٢) في النسخة ب: هذا البحث.

التمدن حتى في أشد البلاد تعصبًا[1] وأكثرها محافظة على اتباع التقاليد القديمة الموروثة كالصينيين، فإنهم كانوا يعبدون آباءهم كأنهم آلهة، ويقدسون عاداتهم وطقوسهم، ولم يقصد متشرعوهم ومتشرعو البراهمة أيضًا إلا إيجاد سد قوي متين يحول دونهم ودون الأجانب، ولكن المدنية الغربية أحدثت في تلك السدود الثغرة بعد الثغرة إلى أن طمى التيار الجارف فاكتسح أمامه كل تلك العادات والأخلاق الموروثة المقدسة.

ونصيب المسلمين - خارج جزيرة العرب - ليس بأقل من سواهم، بل هم أسرع انقيادًا وأكثر اندفاعًا، وليت المقلدين المندفعين أخذوا من تلك المدنية منافعها، واتبعوا ما وافق مجتمعهم من صالحها، بل ليتهم أخذوها على علاتها نافعها وضارها وحسنها وقبيحها، لكنهم اتبعوا الناحية الخلابة الضارة فقط، ناحية العادات المضرة التي يشتكي مفكرو الأوربيين أنفسهم منها؛ لأنها الطريق السهل المعبد، أما الناحية النافعة المفيدة ناحية الأخلاق الفاضلة والتقدم في العلم والتفكير فقد ضربوا عنها صفحًا، وتجنبوها لصعوبة الوصول إليها إلا بالكد والعمل والسهر وبذل نفيس الأعمار والأموال.

ولقد ابتلي المسلمون في أنفسهم وزلزلوا زلزالاً شديدًا[2]، وغلبوا

(١) من قول المؤلف: «وأكثرها محافظ» حتى قوله: «الموروثة المقدسة»، لم يرد في النسخة ب.

(٢) من قول المؤلف: «وغلبوا» حتى قوله: «يهدمون بيوتهم بأيديهم»، لم يرد في النسخة ب.

على أمرهم في أغلب بقاع المعمورة واستعبدهم الأوربيون.

ومن كانت حكومته في منجى ومعزل واستقلال ولم يغزه الغربيون بالقنابل والطيارات فقد غزوه بسموم المدنية القتالة ورموه بداهية الإلحاد بواسطة إرساليات التبشير التي ينفقون عليها عن سعة ويبثونها في كافة الأقطار بحجة نشر الدين المسيحي، وهم كاذبون؛ لأنهم يعلمون حق العلم أن تنصير المسلم تنصيراً حقيقاً من قبيل العبث بالمحال، ولا يتكبدون هذه الخسائر الفادحة في أمر عقيم يثقون بضعف نتيجته.

ولكنا لا نخطئ إذا قلنا : إن مهمة تلك الإرساليات هي نشر الإلحاد في المسلمين وحملهم على التهاون في أمور دينهم وإضعاف إيمانهم بدينهم القويم الذي هو سر اتحادهم ورابطتهم المتينة، وقد عرف الغربيون كيف يفككونها ويضعفونها في نفوس أولئك المسلمين، وهذه نشراتهم تتضمن الطعن في الدين الإسلامي أكثر من الدعاية لنشر الدين المسيحي؛ لأن غايتهم الوحيدة فصم عروة المسلمين الوثقى، وتشتيت شملهم حتى يسهل تملكهم واستعمارهم.

ومتى فقد المسلمون ديانتهم التي هي قوام حياتهم وصلاحهم في الدارين، فقد فقدوا كل شيء، ولا يهم الغربيين بعد ذلك أي دين يتخذونه وأي سبيل يختارون ما دامت النتيجة أنهم لن يتفقوا. ومتى ألقينا نظرة على حالة الدول الإسلامية المستقلة الحاضرة في الترك والأفغان وإيران نعلم مقدار ما حدث من الانقلاب العظيم والتطور الذي جعلهم

يهدمون بيوتهم بأيديهم.

ولم يسلم من تلك الآفات القتالية والبلايا في العالم الإسلامي إلا المملكة العربية السعودية، فهي المملكة الوحيدة التي حافظت وما زالت تحافظ على العمل بتعاليم الإسلام الحنيف والسير على سننه والتأدب بآدابه بفضل رأسها المفكر وقائدها الحازم في هذا البحر المتلاطم والتيار الجارف الذي لم يستطع أن يقف في وجهه سواه.

وجلالته يعلم حق العلم ما في هذه المدنية من شرور وما فيها من منافع وخيرات، فجعل غاية سياسته في تدبير هذه المملكة الواسعة الحيلولة دون تسرب تلك العادات المهلكة والأخذ بالنافع من إنتاج تلك المدنية العظيمة.

ففي الوقت الذي يختط الإخوان فيه مدنهم في قلب الصحراء ويجعلونها دور هجرة يتعبدون فيها ويتدارسون القرآن حيث تحتضر الأمية ويحل محلها عرفان الدين والعمل بأحكام الكتاب والسنة، وفي الوقت الذي تكتض [تكتظ] فيه المساجد بالمصلين في حواضر المدن والقرى وترى كل شيء مصبوغًا بالصبغة الإسلامية البحتة، نرى الطيارات تحلق في فضاء أجوائها، والسيارات تجوب خلالها وتطوي فيافيها وقفارها، والبرق اللاسلكي يومض في جميع مدنها وحواضرها وصحاريها، والجنود يجهزون بأحدث طرز من الأسلحة والاستعدادات الحربية، والكتب والمطبوعات النافعة توزع مجانًا، وتؤسس المستشفيات والمصحات

والمدارس ومشاريع الإصلاحات العديدة.

أما شرور المدنية من ملاهي [ملاهٍ] ومآكل ومشارب وكماليات وخمور ومخدرات وفواحش وفسق وفجور، والعقائد الإلحادية والمذاهب المتطرفة والنظريات الهدامة ونزغات النزعات، فقد جعل إرادته القوية دونها سدًا متينًا محكمًا، ولا جرم إذا ما افتخرت الأمة العربية بهذا الملك العادل المصلح المحبوب وسمته بحق ناصر الإسلام والمسلمين:

ولم يبق للإسلام غيرك ناصر

يؤيده، في الله يرضى ويغضب

١

آل سعـــود

(ص ٧٤)

ربيعة أحد أركان قبائل نزار الأربعة التي تتكون منها القبائل العدنانية (مضر، وربيعة، وإياد، وأنمار) وربيعة هو ربيعة الفرَس بن نزار بن معد بن عدنان.

ومن ربيعة تتفرع عدة قبائل، أشهرها بكر وتغلب ابنا وائل، وعبدالقيس، وبنو حنيفة، وعنزة، ويمتاز الربعيون بحب الزعامة والنزعة إلى الاستقلال والحرية، وهم أول من رفع نير اليمن عن القبائل العدنانية جمعاء بقيادة البطل الشهير كليب بن ربيعة في وقعة خزاز[١] المشهورة.

ومساكنهم: اليمامة والعروض لبني حنيفة، وبلاد البحرين (من قطر إلى حدود العراق)[٢] لعبد القيس، والعراق العربي لبكر وتغلب، ومشارف الشام لعنزة بن أسد.

وعنزة بن أسد إحدى قبائل ربيعة الكبرى، وهي لا تزال تحافظ على

---

(١) في النسختين: أ و ب: خزازى، وهما لغتان كما ذكر ياقوت، وخزاز: جبل أحمر يقع جنوب مدينة الرس بنحو ٥٠ كيلاً بمنطقة القصيم، وقعت عنده معركة خزاز، وهي من أشهر أيام العرب في الجاهلية. ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج١ ص ٣١٠. وياقوت، معجم البلدان ج٢ ص ٤١٧ (مادة: خزاز وخزازى). والعبودي، معجم بلاد القصيم ج٣ ص ٨٨٩.

(٢) في النسخة ب: من عمان إلى العراق.

اسمها القديم إلى الآن، وهي التي أنجبت هذه الأسر الحاكمة في جزيرة العرب وأكبرها وأهمها أسرة آل سعود[1].

***

وإذا قلنا ربيعة، فإننا نعني به ربيعة بن مانع المريدي حجر الزاوية في بناء مجد آل سعود ومؤسس مملكتهم. وقد كان أبوه مانع من سكان الدرعية[2] أو بلد الدروع إحدى بلدان القطيف (البحرين)، وآل درع من عنزة يحكمون نواحي القطيف وإمارتهم في العارض من نجد، ولهم قربى ورحم مع مانع المريدي، ولأمر ما استقدموه إلى العارض، وأقطعوه ضياعًا بقرب الرياض في منتصف القرن التاسع للهجرة، فنزلها واستثمرها وأوت إليه أفئدة من الناس.

ومن المألوف في التاريخ أن المهاجرين من بلاد إلى أخرى يسمون مساكنهم الجديدة بأسماء أوطانهم القديمة؛ ولهذا أطلق مانع ومن معه اسم (الدرعية) على تلك الضياع التي أقطعت لهم والنواة تكون شجرة فدوحة.

(١) جاء في هامش النسخة ب: «ذكر محمد أمين التميمي صاحب شجرة آل سعود نسبهم إلى بكر بن وائل، وذكر فؤاد حمزة في (قلب الجزيرة) أنهم من ولد علي من عنزة، والمشهور عند عموم الناس أنهم من المصاليخ من عنزة، وفيه قول أنهم من بني حنيفة». ثم كتب بجانبه: «يحقق عن ذلك» انتهى.

(٢) جاء في هامش النسخة ب: «هذه البلدة الآن خراب قد دفنتها الرمال، وهي تقع شرقي جوف الأحساء وغربي القطيف على بعد ٧٥ كيلو متراً منها». ويصفها حمد الجاسر بأنها آبار ارتوازية تقع في الشمال الشرقي من مدينة بقيق، جنوب سبخة (أبالدفوف). الجاسر، المنطقة الشرقية، ج ٢ ص ٦٩٣.

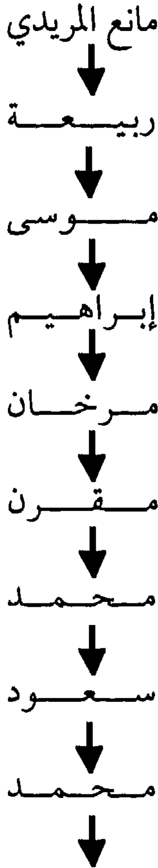
وهكذا فضيعتا المليبيد وغصيبة نواة دوحتهما مدينة الدرعية أكبر مدينة بنيت في نجد.

وبعد مانع ظهر ابنه ربيعة أول من سمت نفسه إلى الإمارة والحكم في الدرعية التي أخذت تتمركز في العارض وتكونت منها قرية فبلد تعد من بلدان نجد المشار إليها بالبنان. [ويمكننا](1) أن نقسم حكومة آل سعود إلى دورين.

(1) في الأصل: يمكنا والتعديل من النسختين أ و ب.

الدور الأول

الإمارة (٨٥٨ - ١١٥٨)[1]



هؤلاء الأمراء توارثوا الإمارة في ثلاثة قرون كاملة على الدرعية فقط، شأن بقية أمراء نجد في تلك العصور لكل بلد أميرها، ولم يذكر التاريخ لهم حوادث ذات بال غير وقائع صغيرة مع جيرانهم أو للدفاع عن حوزتهم لا تتعدى قتلاها العشرات من الطرفين[2].

استقل موسى بن ربيعة بإمارة الدرعية في أوائل القرن العاشر بعد أن قضى على آل يزيد مُزَاحِمِيه وأبادهم حتى ضرب المثل بذلك، وحكم بعده ابنه إبراهيم[3]، فخلف ابنه مرخان، وبعد وفاته تأمر على الدرعية ابناه مقرن وربيعة إلى قريب سنة ١٠٥٠، وبعدهما تنازع على الإمارة ابناهما مرخان بن مقرن ووطبان بن ربيعة، فقتل وطبان مرخان سنة ١٠٦٥، وفر إلى الزبير، فأسس أبناؤه إمارة لهم في الزبير مدة طويلة.

(١) الأصح: ١١٥٧هـ كما سيأتي تحقيقه.

(٢) في النسخة ب: (وقد تخلل حكم هؤلاء الأمراء حكم لبعض المتغلبين من أبناء عمهم، كما سيأتي).

(٣) في هامش النسخة ب: (سنة ١١٠١ فيها قتل مرخان بن وطبان قتله أخوه شقيقه إبراهيم غدراً. ابن بشر ١/ ١٠٢).

وتولى في الدرعية محمد بن ناصر[1]، ثم قتل سنة ١٠٨٤، فخلفه محمد بن مقرن وتوفي سنة ١١٠٦، وتأمر بعده إدريس بن وطبان، وقتل سنة ١١٠٧، ومن بعده ملك الدرعية سلطان بن حمد القيس[2] إلى سنة ١١٢٠ حيث قتل وخلفه أخوه عبدالله، ثم قتل وتولى موسى بن ربيعة بن وطبان، وبعد وفاته خلفه سعود بن محمد بن مقرن الذي توفي سنة ١١٣٧، فتأمر فيها زيد بن مرخان الذي قتله مقرن بن محمد بن مقرن وقتل به[3]، وصفت الإمارة لمحمد بن سعود سنة ١١٣٩، وبحكمه ابتدأ دور الإمامة.

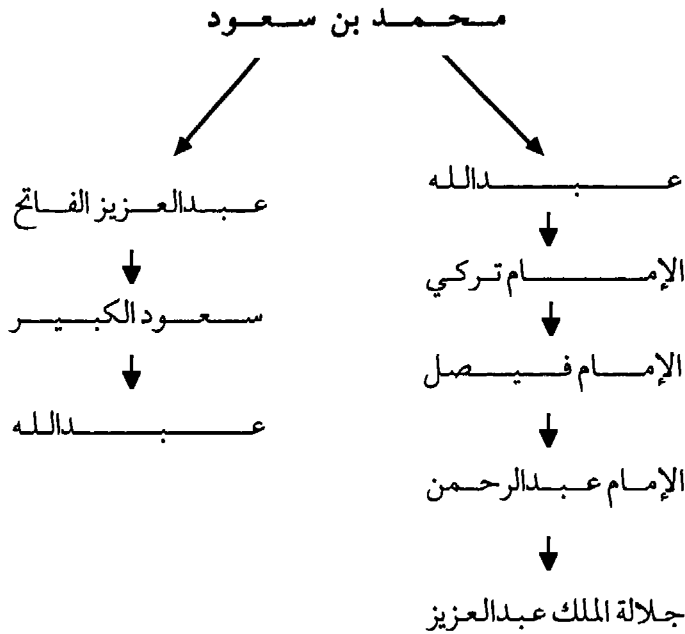
(١) زاد في النسخة ب: العائذي، والصواب أن اسمه ناصر بن محمد كما ذكر ابن بشر في عنوان المجد ج ٢ ص ٣٣٢، وهو مصدر المؤلف.

(٢) في النسخة ب: القبس، وفي هامشه: بضم القاف وسكون الباء الموحدة، ضبطناها إذ كثيراً ما تلتبس باسم قيس.

(٣) الأصوب أن مقرن بن محمد حاول اغتيال زيد بن مرخان سنة ١١٣٩هـ، وحال دون ذلك محمد بن سعود ومقرن بن عبدالله بن مقرن، فقد منعاه وقتلاه لهذا السبب، وردوا زيداً إلى مكانه، وفي السنة نفسها غدر محمد بن حمد بن عبدالله بن معمر الملقب خرفاش صاحب بلد العيينة بزيد بن مرخان وقتله، وبمقتل زيد صفت الإمارة لمحمد بن سعود. ابن بشر، عنوان المجد ج ٢ ص٣٦٨.
وفي النسخة ب تعديل جاء فيه: «فتأمر فيها زيد بن مرخان الذي قتله ابن معمر وصفت الإمارة...».

الدور الثاني
الإمـــامـــة
(١١٥٨[1] - ....)

يبتدئ هذا الدور بالإمام محمد بن سعود، وقد خلف عدة أولاد منهم فيصل، وسعود، قتلا في حروب دهام بن دواس سنة ١١٦٠، وعبدالعزيز ولي عهده، وهو المسمى بالفاتح، وخلفه ابنه سعود الكبير، ثم ابنه عبدالله بن سعود، وبه انتهت الإمامة في الدرعية على يد محمد علي.



(١) الأصوب سنة ١١٥٧هـ. وعند ابن غنام (ط. مصر) (في حدود سنة ١١٥٧هـ) وفي تاريخ ابن غنام (ط. الأسد) جعلها المحقق ٥٧ أو ١١٥٨هـ، واختار ابن بشر سنة ١١٥٧هـ. ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ٤٢. وجاء مكان النقط التي بعد التاريخ في النسخة ب: «الآن» أي سنة تأليف الكتاب.

ومن أبناء محمد بن سعود أيضًا عبدالله، وهو لم يل الحكم؛ لأنه أصغر من أخيه الإمام عبدالعزيز، ولكنه كان يده اليمنى وسيفه القاطع في جميع غزواته وفتوحاته، ولقد أراد الله أن تكون استعادة مجد الإمامة على يد ابنه الإمام تركي ليورثها أبناءه إلى الآن وإلى الأبد إن شاء الله تعالى.

وأسماء الأئمة المذكورة على التوالي في القصيدة لا نقصد بها النسب، وإنما قصدنا ذكر الأئمة الذين تولوا الحكم بالترتيب كما سيأتي مفصلاً.

٢

محمد بن سعـــود

(ص ٧٥)

أمير ١١٣٩ - ١١٥٨

إمام ١١٥٨ - ١١٧٩

أربعون سنة قضاها في دست[١] الحكم أبرز فيها تلك الشخصية المحبوبة المهابة، وأسس بقوة إرادته، وصلابة عزيمته مملكة كبرى، رن صوت فتوحاتها فردد صداه الخافقان. ولهؤلاء العباقرة الطامحين والغزاة الفاتحين أخلاق وصفات يمتازون بها عن سواهم هي درجات المجد يرتقون بها إلى أوجه. تلك الأخلاق العظيمة نراها واضحة بارزة في تاريخ محمد بن سعود الكبير[١] في أيام صباه ووقت إمارته وبعد ما تسنم الذروة من مجده وجنى غرس آماله الكبيرة.

محمد الفتى :

لنعد إلى تلك الشخصيات التاريخية التي لا يزال صداها يرن في الآذان وأشباحها تتصور للمخيلات بما نمقه التاريخ من أعمالها وأسبغت

(١) **الدست** : كلمة فارسية الأصل، لها عدة معان في اللغة العربية منها صدر البيت والمجلس، جمعها دسوت. البستاني، محيط المحيط ص ٢٧٩.

(٢) لقب (الكبير) يطلق على الإمام سعود الكبير بن عبدالعزيز، ويبدو أن المؤلف أضاف اللقب إلى الإمام محمد بن سعود تمجيداً لا تمييزاً.

عليها الأساطير والروايات مختلف الأصباغ والألوان، حتى أصبحت في مستوى أعلى من مستوانا البشري، شخصيات حاتم، والسموأل، والأحنف، وبطولة عمر، وعمرو، وخالد، وسعد، ولنا أن نقول: إن التاريخ يعيد نفسه. فهذا محمد بن سعود في شرخ شبابه وقوة آماله وعواطفه، وهي ليست بالآمال الصغيرة كما تدل على ذلك سيرته. يموت أبوه سنة ١١٣٧هـ ويتولى بعده أحد أبناء عمه الأبعدين زيد بن مرخان بن وطبان بن ربيعة بن مرخان، ولم يذكر لنا التاريخ سبب تقدم زيد في نيل الإمارة، ولا نستطيع أن نقول: إن للاغتصاب أو القوة يداً في ذلك مادمنا نرى محمد بن سعود من أنصاره وأعوانه والآخذين بيده، بينما هو في العرف التاريخي التقليدي ولي عهد أبيه الشرعي، ولعل زيداً تقدم لها بأحقية تقدم السن، وأنه رئيس العائلة المرضي بعد سعود بن مقرن، وكثيراً ما تكون هذه القواعد مرعية في البيوتات الكبيرة والعائلات المالكة.

ولئن أقر محمد بن سعود لزيد بن مرخان بالأحقية وقاوم نزعة هواه وآماله وتلهب عواطفه في شرخ شبابه وإبان تطلعه إلى المجد والرفعة والسؤدد وكان موقفه هذا مشرفًا له في نظر عشيرته وقومه، فإن عمه مقرن بن محمد بن مقرن بن مرخان كان على النقيض من ذلك، فهو لم يطق صبراً أن يرى إمارة أخيه تذهب من بعده إلى ابن عمه الأبعد، فنافس زيداً على إمارته وقاومه وكاد له عدة مكائد.

ولمقرن هذا نزعة ميكافيلية[1] يرى بها أن الغاية تبرر الواسطة، وكأن

---

(١) نسبة إلى نيقولا مكيافيلي (١٤٦٩-١٥٢٧م) كاتب وسياسي إيطالي، من =

زيداً أفلت من يده، فحاول استدراجه والقضاء عليه، وكانت مفاوضات ومراسلات أنتجت صلحًا يحفظ لكلي [لكلا] الأميرين حقه، قبلها مقرن على علاتها، ولم تكن في نظره سوى وسيلة لإدراك الغاية المنشودة التي يتوخاها على أن زيدًا لم يكن جاهلاً بأخلاق بني عمه وهو يعرف من أخلاق مقرن ما يجعلنا نعذره على شكه فيه وفي إخلاصه وعهوده، فلم يفرط في نفسه قبل أن يستوثق، وكانت الوثيقة عروة وثقى وحبلاً متينًا يعتمد عليها، هي كفالة محمد بن سعود على عمه.

ومن هذه النقطة نستنتج صورة واضحة لتلك المكانة السامية التي يتمتع بها ذلك الفتى المحترم لدى قومه حتى أمراءهم [أمرائهم] الكبار، وما ذلك إلا لأنهم يقدرون له فتوته ومضاءه وغيرته وحميته. تلك الأخلاق التي أظهرت صورتها مكبرة نتيجة تلك الكفالة. كفل محمد على عمه، وتعهد لزيد بتنفيذ شروط المعاهدة بالدقة، وعاد زيد إلى مسند[1] إمارته، ولكن مقرنًا لا يرى تلك المعاهدة إلا قصاصة ورق، ولا ينظر إلى ابن أخيه إلا نظرة شبان عائلته الذين يجب أن يخضعوا خضوعًا أعمى في سبيل تنفيذ مآربه وغاياته حسنت أم ساءت، فلم يحسب لهذه الموانع

= أعلام عصر النهضة الأوربية، له مصنفات كثيرة أهمها كتاب «الأمير». موسوعة السياسة ج ٦ ص ٣٠٣-٣٠٧. وعن نظريته «الغايات والوسائل في السياسة». انظر المرجع نفسه ج ٤ ص ٣٢٢-٣٢٥.

(١) في هامش النسخة ب: «مسند الإمارة في اصطلاح أهل نجد يقابل التخت والعرش».

حسابًا، وسولت له نفسه الغدر بزيد وأنصاره. وهنا ثارت النخوة في رأس محمد بن سعود حفظًا لكرامته وصونًا لذمامه، فانتصر للمظلوم، وضحى بعمه سنة ١١٣٩، ووفى لزيد، وأعاده إلى إمارته في الدرعية.

وأمثال التاريخ تكاد تكون عامة تصدق على كل أحد، ولكنها تشذ أحيانًا، بل إن البطولة قد تتناولها فيما تناوله بالقلب والتبديل، فإن قاعدة (الملك عقيم)[1] مرعية عند المؤرخين، فكذّبها محمد بن سعود، فهو لم يضح بعمه ليستأثر بالملك لنفسه، وكان قادرًا على ذلك، بل تركه لصاحبه إلى أن يأتيه دوره الشرعي. هو إيثار ما بعده إيثار، ولا نظن أن السموأل الوفي الشهير أكبر تضحية من هذا الغيور العظيم.

وللدرعية منافس قوي وخصم ألد، هي بلدة العيينة وأمراؤها آل معمر، والمنافسة تجر أحيانا إلى الخصام، فامتشاق الحسام، وقد يتخلل ذلك وئام وسلام، وكان للعيينة ذلك الوقت أمير يشار إليه بالبنان، ومن أكبر شخصيات ذلك الزمن، مهاب الجانب قوي الشكيمة، هو الأمير عبدالله بن معمر[2] ممدوح حميدان الشويعر الشاعر المشهور، وكان أكبر أمراء نجد في زمانه سطوة وهيبة، وقد تكون الدرعية نالها شيء من سطوته، فسكتت على مضض.

---

(١) الميداني، مجمع الأمثال ج ٣ ص ٣٢٩. أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال ج٢ ص ٢٤٧.

(٢) في النسخة ب: عبدالله بن محمد بن معمر.

وأصيبت العيينة سنة ١١٣٩[(١)] بطاعون سار ووباء جارف قضى على أكثر أهلها ومن جملتهم أميرهم، وخلفه حفيده محمد بن حمد بن عبدالله، فغزاه أهل الدرعية بقيادة الأمير زيد بن مرخان وبمعيته محمد بن سعود، وكان ابن معمر في حالة لا تساعده على الدفاع، فمال إلى المراوغة والمخادعة، وبعد المفاوضة اصطلحوا على أن يدفع لهم شيئًا من المال، وبعد الصلح دعاهم إلى وليمة في قصره، فلباه زيد ومعه محمد بن سعود وأربعون من كبار قومهما، وكانت المائدة رصاصتين اخترقتا صدر الأمير زيد، واعتصم محمد بن سعود ومن معه بحصن وقاهم شر الغادرين، ولم ينزلوا إلا بعد أخذ العهود والمواثيق، ورجعوا إلى الدرعية سالمين.

محمد الأمير:

عاد محمد بن سعود إلى الدرعية وهو أميرها الشرعي، وأجمع قومه على توليته، فساسهم ودبر أمورهم بحكمته وسداده، وسد الفراغ الذي خلفه عبدالله بن معمر في أمراء نجد بحسن السمعة والكرم والحلم وقوة البأس، وكان مهاب الجانب في رعيته، ونرى تلك الهيبة واضحة في خشية ابن سويلم مع وجاهته ونفوذه حينما استضافه الشيخ محمد بن عبدالوهاب وقت مجيئه إلى الدرعية وتسلُّلِ الآخرين إليه سرًا وبذلهم المساعي والوسطاء الذين يثقون بنفوذهم عنده.

(١) في الأصل كتب فوق التسعة رقم ٨. وهو الصحيح. ابن بشر، عنوان المجد ج ٢ ص ٣٦٧.

كل هذا يعطينا صورة حقيقية لما كان عليه من الهيبة والمنعة؛ لأن الأمراء في ذلك العصر ليست لهم السلطة التي تؤدي معنى الإمارة المفهوم في وقتنا هذا. وما كان الأمير إلا بمثابة الرئيس الذي ينقادون إليه بحكم الطبع الاجتماعي والعصبية، يستمد سلطته منهم ما صلحت أموره ووافق مشاربهم وأهواءهم، وإلا فهو فرد لا يقيمون له وزنا. أما محمد بن سعود فلم تكفه تلك السلطة، بل كان يجبي الخراج من نخيلهم وزروعهم.

وكفانا برهانًا على تلك الإرادة الحديدية والعزم الجبار إيواؤه للشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقيامه بنصرته، وهو جد عالم بما يحف ذلك من الأخطار وتألب الملوك والأمراء وعامة الناس عليه، ولم يكن عثمان بن معمر بأقل منه قوة ماديًا وأدبيًا، ولكن لم تكن له صفاته، فقام بذلك العبء حينما ناء عثمان تحته، ولو لم يكن رجلاً بمعنى الكلمة لما نجح في تثبيت دعائم ملكه ونشر سلطته على كافة بلدان نجد وتوحيدها تحت لوائه بين خطوب سود وخصوم أقوياء، وتكالب من جميع أطراف جزيرة العرب، فضلاً عن أولئك الخصوم الألداء المجاورين، والجار المعادي أعظم خطرًا من الأعداء البعيدين.

كل ذلك يحتاج إلى دماغ مفكر، وسياسي محنك، وقائد باسل، ورجل فضائل، ومكارم أخلاق، يزن الأمور بموازينها، ويضع الأشياء في مواضعها، وهذه الأخلاق عناصر اجتمعت، فكونت شخصية بارزة محبوبة، هي شخصية محمد بن سعود.

محمد الإمام :

لم يصبح محمد بن سعود إمامًا إلا بعد أن ضحى بمورده الوحيد إطاعة لنصائح الشيخ وتجنبًا لنواهيه، فقد تنازل عن جباية الخراج في صك بيعته[1] للشيخ، وما قام بنصرته والأخذ بساعده إلا عن اعتقاد راسخ وإيمان قوي، ويُظْهِر لنا الإيثارَ والتواضعَ في أخلاقه إلقاؤه بزمام الحكم والأمر والنهي إلى الشيخ، واكتفاؤه بتنفيذ أوامره بالدقة التامة والحزم، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكلما ازدادت سلطته قوة ومملكته اتساعًا ازداد تواضعًا، ولقد شد الله عضده بشبليه الإمام عبدالعزيز الفاتح، وعبدالله جد جلالة الملك، فكانا يديه في تدبير مملكته وحروبه وغزواته.

ومما يذكر له من المواقف المهمة موقفه الحازم أمام جنود عريعر بعد وقعة حائر سبيع المشهورة[2]، وفيما يأتي من أعماله ومواقفه ما ينم عن عبقريته وكونه رجل عصره، ذلك الرجل الذي هَزَّ سلطنة آل عثمان، وأشغل بالها ردحًا من الزمن.

ومن نصر الله استعز بنصره   فعز وجند الله بالنصر أغلب

---

(١) الذي يبدو أن البيعة التي يشير إليها المؤلف كانت التزامات أدبية، ولم تكتب في صك بيعة، ولم يذكر ابن غنام وابن بشر - وهما مصدر الحدث - أن البيعة كانت مكتوبة.

(٢) وقعة حائر سبيع سنة ١١٧٨هـ بين الدولة السعودية الأولى، وحاكم نجران السيد حسن بن هبة الله ومن معه من قبيلة العجمان. ابن بشر، عنوان المجد ج ١ ص٩٣-٩٨.

٣
الشيخ محمد بن عبدالوهاب
(ص٧٦)

آية من آيات ربه ورجل من أولئك الرجال الذين لا يجود بهم الدهر إلا في فترات بعيدة، أولئك هم المصلحون الذين يقيضهم الله لترميم ما يتهدم من بناء الاجتماع البشري، وإصلاح ما تفسده عوامل الانحطاط في الأمة[١]، فلا يكاد يرتفع صوته عاليًا إلا والأمة فتية قد تجددت فيها روح الشباب بما تحتوي هذه الكلمة من معان، وإذا بأحوال المجتمع قد أصلحت، ورسخت على أركان وطيدة تسيّر الناس لخيرهم في الدارين.

وكثير هم الذين يرون الفساد بالغًا أشده، والاعوجاج حد ميله، والأمة في فوضى من الأخلاق والعادات الفاسدة الطارئة على سننها القويمة، فينكرونها، ولكنهم لا يجدون سبيلاً إلى الإصلاح، ولا يد لهم في مقاومة التيار، فيتوجعون ويتأوهون ويقتلون نفوسهم حزنًا وألمًا دون أن يفكروا بكلمة حق يقولونها، أو اتخاذ خطة لملاقاة ذلك الخطر الداهم الذي يحسون به ومنه يتألمون. وهم على كثرتهم لا يفيدون أمتهم ولا يستفيدون.

---

(١) في النسخة ب كتب فوقها بخط مغاير: «البدع والخرافات».

يقال: إن سبب تعلق الشيخ محمد إبان طلبه العلم بالشيخ محمد حياة السندي المدني[1] أنه تعرف إليه بواسطة الشيخ عبدالله بن سيف النجدي[2]، وزاد تعلقًا به أنه وجده يومًا في الحرم المدني أمام مشهد من الزائرين وهم يتمسحون بالقبة[3] ويتضرعون إليها[4] بما يخالف سنة الزيارة المسنونة، فسأله: مارأيكم في هؤلاء؟ فأجابه الشيخ محمد حياة: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩]. ومن المعلوم أن الشيخ محمد حياة قضى معظم عمره في المدينة المنورة، فلم يحرك ساكنًا، ولم ينكر على أحد عمله وتجاوزه الحدود الشرعية، وهو يعلم حق العلم مخالفتها للدين، وأمثاله - رحمه الله - كثيرون، والمشائخ الذين تلقى الشيخ محمد عليهم لم يأخذ عنهم إلا لأنهم على مشربه وعقيدته، بل هم الذين لقنوه، ووضحوا له ما ينكرونه من الناس في أول عهده بالدراسة، ويقول المثل: رجل كألف وألف كرجل، ونحن لا نبالغ إذا قلنا: إن رجلاً كأمة، هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

---

(١) الشيخ محمد حياة السندي المدني، عالم بالحديث، وله في ذلك مصنفات. مولده في السند، وإقامته ووفاته في المدينة المنورة. توفي سنة ١١٦٣هـ. مؤلف مجهول، تراجم أعيان المدينة المنورة ص ٦٨. والزركلي، الأعلام ج ٦ ص١١١.

(٢) هو عبدالله بن إبراهيم بن سيف الشمري، من أهل المجمعة، ولد ونشأ بالمدينة المنورة، وسافر إلى دمشق لطلب العلم، توفي بالمدينة سنة ١١٤٠هـ. ابن بسام، علماء نجد خلال ستة قرون ج ٢ ص ٥٠١.

(٣) في النسختين أ و ب: الشباك. وهو الأصوب.

(٤) في النسختين أ و ب: إليه.

نسبه ومنشؤه:

الشيخ محمد ابن الشيخ عبدالوهاب ابن الشيخ سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد [بن محمد بن بريد][1] بن مشرف التميمي، من تميم القبيلة المضرية الكبرى، وهي إحدى القبائل التي حافظت على اسمها القديم إلى الآن كعنزة، وتسمى عائلته بآل مشرف إلى أن ظهر الشيخ، فصاروا يلقبون بآل الشيخ.

وكان جده الشيخ سليمان بن علي بن مشرف المتوفى سنة ١٠٧٩ وحيد زمانه في الفقه وعلوم الشريعة في نجد قاطبة، وإليه المرجع عند علماء نجد في حل المشكلات العويصة، وكانوا يشدون إليه الرحال في طلب العلم والاقتباس منه، وخلفه ابنه الشيخ عبدالوهاب، ونعم الخلف، فهو من أكابر علماء نجد وخيرتهم، وكان يتولى قضاء بلد العيينة أكبر بلدان نجد في ذلك الزمن، وأميرها يومئذ عبدالله بن معمر رجل نجد في زمنه، والرجال لا تختار إلا الرجال، إلى أن مات بالوباء سنة ١١٣٩[2]، وخلفه حفيده محمد بن حمد الملقب بخرفاش، فلم تصلح الحال بينهما لاختلاف المبادئ، فغادر الشيخ عبدالوهاب العيينة إلى حريملة [حريملاء]، وتولى قضاءها إلى أن توفي سنة ١١٥٣. ويكفيه فخراً أنه خلف أعظم شخصية في تاريخنا الحديث، وأحيا ذكره إلى ماشاء الله.

---

(١) زيادة من النسختين أ و ب، وابن غنام، تاريخ نجد (ط. مصر)، ج١ ص ٥٢، وابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ١٨٠.

(٢) الأصح سنة ١١٣٨هـ كما تقدم ص ١٤١.

فالشيخ محمد بن عبدالوهاب إذن من بيت علم غزير، ونسب عريق، جامع إلى طيب الأرومة حسن التربية، وطهارة البيئة. والبيئة هي التي تكيف الإنسان وتنشؤه على حب الفضيلة والتعلق بالأخلاق السامية، ويقول المثل:

وكل قرن ناجم في زمن　　فهو شبيه زمن فيه بدا[١]

فأبوه، وأجداده وأعمامه، وأخوه كلهم علماء أجلاء فلا غرو إذا ظهر محبًا للعلم جادًا في طلبه مضحيًا في سبيله كل مرتخص وغال، ولم يكفه حتى بَذَّ أهله ومشائخه في العمل بما علمه[٢].

---

(١) البيت من مقصورة ابن دريد التي مدح بها الحاكم عبدالله بن محمد الميكالي وابنه إسماعيل. ابن هشام اللخمي، الفوائد المحصورة في شرح المقصورة ص ٣٣٤.

(٢) جاء في النسخة ب وهامش النسخة أ بعد هذا النص ما يلي: «ولد في بلد العيينة سنة ١١١٥هـ، وشب في ذلك الوسط العلمي، وفضلاً عن ذلك فإن للعبقرية مخائل، وللنجابة دلائل، فالتربة الخصبة الريانة [زاد في أ: وحدها] لا تكفي إذا لم تكن البذور سليمة قوية الإنبات، فالطفل الذي يعزف عن لهو الصبيان وعبث الغلمان، ويحفظ القرآن قبل العاشرة من عمره طفل غير عادي، وهذا النضوج العَقلي يصاحبه أيضًا نضوج جسماني. يحدثنا عنه أبوه - ومن أعلم بالطفل من أبيه- في رسالة له إلى أحد إخوانه، فيقول: «قد تحققت أنه بلغ الاحتلام قبل إكمال اثنتي عشر[ة] سنة، ورأيته أهلاً للصلاة بالجماعة فقدمته لمعرفته بالأحكام، وزوجته بعد البلوغ في ذلك العام، ثم طلب مني الحج فأجبته، فحج وزار المدينة، وأقام بها شهرين». ويقول أخوه الشيخ سليمان إن أباه كان يتعجب من فهمه وإدراكه، ويقول: لقد استفدت من ولدي محمد فوائد من الأحكام. [في هامش النسخة ب إحالة إلى تاريخ ابن غنام] وأبوه رجل العلم والتقى فلا يلقي القول على عواهنه، وقد أخذ في القراءة على أبيه، ورزق مع الحفظ =

حالة نجد الدينية والسياسية في زمنه :

هي حالة الفوضى والاضطراب والقلاقل والفتن، ولا تكاد تجد أميراً في نجد يحكم بلدتين متجاورتين. هذا إذا لم يكن في البلدة الواحدة عدة أمراء يتنازعون السلطة والهيمنة على الشئون [الشؤون]، والناس ما بينهم أحزاب، لكل أمير أو متغلب حزبه، وتنشأ من تنازع السلطات كثرة الفتن والاضطرابات التي لا تقع تحت حصر، فتسيل الدماء الغزيرة في سبيل مطامع أولئك المتنازعين، وتترتب على تلك الدماء دماء أغزر تهدرها ثارات المقتولين. وهكذا لكل دم ثائر، وكل ثائر مقود.

هذه الحالة في الحواضر والبلدان، أما البادية فحدث ولا حرج، فهم أتباع كل ناعق ووراء كل مطمع، يستخدمهم أولئك الأمراء للقضاء على أعدائهم، فيقضون عليهم أجمعين، وقد تقطعت السبل، وقل الأمن بل انعدم، وكثرت الوقائع على المياه، يجملها حميدان شاعر ذلك العصر في قوله :

ما احلى صياح القيظ وِرْدٍ وصادر   والا فصيحـات الربيع تروع(١)

= سرعة الكتابة» انتهى.

وتنفرد النسخة ب بتقديم الحديث عن (طلبه للعلم ونزعته) قبل الحديث عن (حالة نجد. . .).

(١) لم يرد البيت في النسخة ب، وهو لحميدان الشويعر في : الحاتم، خيار ما يلتقط من شعر النبط ص ١٣٩ .

فكانت الجزيرة العربية في حالة مضطربة من الفوضى أشبه ما كانت عليه في عصر الجاهلية بل أشد، ولم تكن هناك إمارة يحترمها الجميع فينضوون تحت لوائها، بل كلٌّ حاكم بأمره، وفي شرقي نجد إمارة مستطيلة من قطر إلى الكويت طولاً، ومن خليج فارس إلى الدهناء عرضًا هي إمارة آل حميد من بني خالد، ولم يكونوا يصلحون للسياسة والإمارة؛ لأنهم برغم تملكهم للأحساء والقطيف قرنًا ونيفًا بدو جفاة ليسوا بأهل لذلك[1]، وكانت لديهم قوة لا يستهان بها، ولكنها ليست بالتي تخضع أمراء نجد وأهلها لسلطتهم، وإن كانت لهم سيطرة في نجد وهيمنة على شئونه [شؤونه]، فأصلها يرجع إلى المخصصات التي يدفعها آل حميد لآل معمر وأمثالهم، فقد كانوا ينالون طاعة أهل نجد بالمال متى عجزوا عنهم بالقوة، وإذا جارينا من يقول: إن أساس سلطتهم في نجد ترتكز على القوة، فمن المسلَّم أن البدوي مثل آل حميد لا يفكر قط في الاصلاحات الدينية والسياسية التي تنفر عقليته منها، وقد يكون المستجير به (كالمستجير من الرمضاء بالنار)[2].

وفي غربي نجد إمارة الأشراف في الحجاز، وقد حاولوا الاستيلاء على نجد مرارًا عديدة ففشلوا فشلاً مريعًا، وكثيرًا ما تتراجع جيوشهم الجرارة أمام حصن صغير من قصور الزرع وليس فيه من الحامية إلا عشرون أو ثلاثون رجلاً، وقوتهم ليست معنوية برغم ضخامة المظهر.

(١) في النسخة ب: للملك.

(٢) أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال ج٢ ص ١٦٠.

وهذا جدول يوضح تفرق أهل نجد وتعدد أمرائهم في ذلك الوقت، فوحّدهم المحمدان تحت لواء واحد، وحدة دينية قومية متينة[1].

وفي هذا الجدول ذكر البلدان والممالك المجاورة لنجد، وقد وضعنا ما لم يستول عليه آل سعود منها بين قوسين وما استولوا على بعض منه بين نجمتين، لتتم الفائدة.

(١) الواقع أن الدعوة التي يتحدث المؤلف عنها كانت دينية بحتة، يظهر ذلك من خلال سيرة الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولم يذكر أحد من المؤرخين أن للقومية أثرًا على الدعوة.

جدول بأسماء بلدان نجد وما حولها
وذكر أمرائها في عصر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب

أسماء البلدان	الولايات	الأمراء
	نجد	
السليل	قاعدة وادي الدواسر	الوداعين[1] من الدواسر
ليلى	قاعدة الأفلاج	آل حسن من الدواسر
الحوطة	وادي الفرع	بنو تميم
حريق نعام	وادي الفرع	الهزازنة من عنزة
الدلم	قاعدة الخرج	زامل آل عثمان[2]
اليمامة	الخرج	آل بجاد
الدرعية	العارض	محمد بن سعود بن مقرن
الرياض	العارض	دهام بن دواس
ضرمه (ضرما)	العارض	إبراهيم بن محمد الشيوخ[3]

---

(١) في هامش النسخة ب: «يقول الشيخ ابن زاحم: إن الوداعين منهم من قحطان والغبيثات من تميم».

(٢) زاد في النسخة ب: من عائذ.

(٣) سموا بالشيوخ؛ لأن نسبهم يلتقي مع آل سعود في إبراهيم بن موسى بن ربيعة، وإبراهيم هذا هو ابن محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم (المؤلف).

أسماء البلدان	الولايات	الأمراء
العيينة	العارض	عثمان بن حمد بن معمر
منفوحة	العارض	المزاريع (١)
حريملاء	قاعدة الشعيب	محمد بن عبدالله بن مبارك الوايلي
ثادق	قاعدة المحمل	ساري بن يحيى بن سويلم (٢)
البير	المحمل	آل حنيحن
رغبة	المحمل	الجرسة من العرينات (٣)
المجمعة	قاعدة سدير	حمد بن عثمان (٤)
التويم	سدير	بين أربع عائلات أشهرهم المدلج (٥)

(١) في النسخة ب : آل فارس والمزاريع من تميم .

(٢) في النسخة ب : أهل ثادق بدارين ، دواسر . ابن زاحم .

(٣) في النسخة ب : «سبيع : (١) بنو عمر من قيس عيلان (٢) العزه من تميم (٣) العرينات من تميم (٤) بنو ثور من تميم . ابن زاحم .

(٤) جاء بعدها في النسختين أ و ب : «الغاط . قاعدة سدير . آل السديري من الدواسر» . وزاد في ب : (من البدارين . فهد العيسى .) وفي هامش النسخة ب أيضًا : ابن زاحم : السدارى جدهم سليمان السديري . أول من انتقل من عنيزة إلى الغاط وغرسه . (فهد العيسى . وفيه يقول حميدان :

من شاهد خشم الونية ... فالخاطر منقول خطره

ومن قال : أنا مثل سليمان ... مكرم السامع ياكل بعره

وله أخ أسمه سليمان ذريته في جلاجل يقال لهم : آل سليمان) .

(٥) زاد في النسختين أ و ب : من وائل .

أسماء البلدان	الولايات	الأمراء
جلاجل	سدير	عبدالله بن جلاجل(١)
حرمه	سدير	آل مدلج(٢)
الحصون	سدير	آل تميّم
الحوطة	سدير	محمد بن مهيدب(٣)
الروضة	سدير	تركي بن ماضي
الزلفي	سدير	آل راشد
العودة	سدير	حمد بن سلطان(٤)
شقراء	قاعدة الوشم	آل جماز من بني زيد(٥)

(١) في النسخة ب: آل سويد. وفي هامشه: «آل سويد وآل بن عمر من بدارين الدواسر، وآل سعيد مساعرة، والحدبان وداعين».

(٢) في هامش النسخة ب: «آل مدلج من تميم وائل - آل تركي أهل حرمة - آل تركي أهل علاوة جلاجل بدارين».

(٣) الصواب: صعب بن محمد بن مهيدب. ابن بشر، عنوان المجد ج ١ ص ١٣٣.

(٤) قتله ابن عمه علي سنة ١١٦٣هـ. ابن بشر، ج١ ص ٦٢. وفي سنة ١١٧٠هـ كان أمير العودة عبدالله بن سلطان. ابن بشر ج ١ ص ٧٦، وفي سنة ١١٨١هـ استعمل الإمام عبدالعزيز بن محمد، منصور بن عبدالله بن حماد أميراً في العودة. ابن بشر ج١ ص ١٠٣. وفي النسخة ب: آل سلطان، وداعين. وفي هامشه: (آل عمران من بدارين الدواسر).

(٥) في النسختين أ و ب: (بني زيد). وأمير شقراء في عصر الإمام محمد بن عبدالوهاب: محمد بن جماز، ثم تولى بعده عبدالله بن محمد بن غيهب، وهما من بني زيد. الشويعر، شقراء، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

أسماء البلدان	الولايات	الأمراء
أثيثيا	الوشم	آل زامل[1]
أشيقر	الوشم	بين ثلاث عائلات
ثرمداء	الوشم	العناقر من تميم
مرات	الوشم	آل إبراهيم[2]
الفرعة	الوشم	النواصر من تميم
بريدة	القصيم	آل أبو عليان من تميم[3]
عنيزة	القصيم	آل رشيد من سبيع
حائل	جبل شمر	آل علي من شمر
الجوف	وادي السرحان	الرولة من عنزة

وهناك عدة بلدان لم نقف على أسماء أمرائها، ولكنها على كل حال مستقلة بنفسها عن جيرانها، وفيها من تتنازع رئاستها بضع عائلات.

(١) في النسخة أ بخط مغاير وفي ب: العزاعيز من تميم.
(٢) في النسخة أ بخط مغاير وفي ب: من العناقر.
(٣) في النسخة ب تعديل بخط مغاير: من فخذ بنو [بني] سعد.

البلاد المجاورة لنجد

أسماء البلدان	الأمـــــــراء
الحجاز	أشراف مكة وولاة الترك
تهامة	الأشراف من آل أبي نمي
عسير	إمام صنعاء[1]، وعبدالوهاب أبو نقطة
(صنعاء اليمن)	أئمة الزيدية
نجران	حسن بن هبة الله، وسادات نجران
* مسقط وتوابعها من عمان *	آل بو سعيد سلاطين عمان وشرق أفريقيا[2]
رأس الخيمة وساحل عمان	القواسم[3]
قطر وبلدان ساحله	كانت متفرقة واستولى عليها محمد بن خليفة العتبي
البحرين وخليج فارس	نصر الجبري، ثم آل خليفة أهل قطر والزبارة
الأحساء والقطيف وبادية النقرة	آل حميد من بني خالد
(الكويت) حدود العراق	آل صباح العتوب من الجميلات عنزة
(الزبير) بقرب البصرة	آل وطبان بن ربيعة بن مرخان

(١) في النسخة ب طمس على كلمة (إمام صنعاء)، ووضع مكانها: «رجال ألمع برئاسة عبدالوهاب أبو نقطة». وفيه أيضاً بخط مغاير لخط المؤلف: «لم نعلم أن إمام صنعاء استولى على عسير»، وهو الصواب.

(٢) في النسخة ب: أئمة اليعاربة، ثم آل بو سعيد.

(٣) في النسخة ب زيادة: وبنو ياس وآل بو فلاح.

إن إلقاء نظرة بسيطة على هذا الجدول تكفي لوصف ما كانت عليه نجد من التفرقة والانحلال.

هذه هي الحالة السياسية في إبان ظهور الشيخ محمد. أما الحالة الدينية فهي أسوأ من ذلك بكثير[1].

ولئن كان تسرب العقائد الوثنية والعادات المجوسية هو المعول الهدام في صرح الدين الحنيف في الهند وإيران والعراق، بل وسائر الإمبراطورية العثمانية خصوصًا البلاد المأهولة بالأعاجم الذين اعتنقوا الدين الإسلامي ولهم أكبر أثر في إحداث البدع والخرافات التي تخالف بساطة الدين وروحه وهدفه، بل ركنه الركين وهو التوحيد، وذلك لما رسخ فيهم من عقائد دياناتهم الأولى وعاداتهم الأعجمية كالنظريات الحلولية وتعظيم الأماكن وتقديسها؛ مما أدى إلى تشييد القبب والقبور والمزارات والحج إليها والانطراح على أعتابها في طلب الغفران وقضاء الحوائج والنظر إلى بعض المخلوقين كشبه آلهة، تمليها عقولهم الباطنة المتأثرة بالعادات الوثنية.

ومنهم من تعمد إدخال هذه العادات لغايات سياسية، يقصد منها هدم الدين الإسلامي بتضليل العامة بشتى الدعايات والبدع كالجمعيات اليهودية، والمجوسية السرية التي تأسست للانتقام من الإسلام والمسلمين

---

(١) زاد في النسخة ب: «إن القرن الثاني عشر الهجري هو عصر الانحطاط السياسي والفكري واللغوي، وتغلب العجز، وبدء تغلغل الاستعمار الأوربي في العالم الإسلامي كافة».

فوضعوا الأحاديث على لسان النبي ﷺ، واختلقوا أساطير الإسرائيليات، ونقلوا عن التوراة والإنجيل ما ليس فيهما، وزاد الطين بلة دخول الفلسفة اليونانية[1].

ولئن قام في تلك الأصقاع علماء موحدون أجلاء دافعوا عن التوحيد، وفندوا تلك الضلالات والشبهات، ونعوا على أهلها ما هم فيه، فإن جزيرة العرب وبالخاصة نجد منيت بالجهل المطبق والانقياد للخيالات والأوهام التي تسلطت على عقول حاضرتها وباديتها حتى لَتُرْوى لنا حكايات تصورهم في حياة الجاهلية الأولى، وقد تسربت إليها من الجوار. وللنَّوَر[2] الرحَّالة أكبر يد في نشر تلك الأضاليل والترهات، فتسربت تلك المفاسد إلى قلب الجزيرة التي هي حصن الإسلام الحصين، وغزته في عقر داره، وانتشر الدجالون من نور البدو وأساتهم وعرافاتهم، وبهم عادت الجاهلية إلى ما يشابه حالتها الأولى.

وسوء الحالة السياسية من سوء الحالة الدينية، لأن ارتفاع الوازع الديني، وموت الضمائر، وعدم الشعور بالواجبات الإنسانية، واحترام

---

(١) زاد في النسخة ب: «وتحكيم ملموسات العقول الناقصة القاصرة الإدراك في الإيمان الصحيح والتسليم بالمنزلات السماوية».

(٢) النور كثيرون في جزيرة العرب يجولون أرجاءها، ويسمون بالصّلب. والبدو يعدون الغارة عليهم عاراً، فأثروا [في ب: ولذلك أثروا]، وهم صناع البادية فمنهم الحدادون والنجارون والأساة والعرافون، ولهم طقوس دينية يكتمونها ويحافظون عليها، ولهم معرفة بمجاهل الجزيرة ومواردها (المؤلف).

المحرمات، والإحساس بقدسية الأوامر الشرعية التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وجهل الشريعة المحمدية، وعدم التمييز بين زواجرها وتعليماتها، بل تبديلها وتحريفها، وإلباس الباطل لباس الحق، وتصوير الرذائل بصورة الفضائل، والتعلق بأمور ليست من الدين في شيء، وإهمال كثير من أركان الدين وواجباته، وجعل التهاون بحدود الخالق يتطرق إلى النفوس، فأهملت الشرائع، وعُطِّلت الأحكام، وانتشرت المفاسد، وأبيحت علنًا، وانقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغلب السفيه على التقي، وصار القابض على دينه كالقابض على الجمر(١).

كل هذا يشرح لنا مقدار الفوضى التي ضربت أطنابها في نجد ردحًا من الزمن، وطمست آثارها، ولم تكن نجد في حالتها تلك لتخلو من علماء أجلاء، بل نبغ منهم فيها من يشار إليه بالبنان خصوصًا في الفقه وعلوم الشريعة، ولكنهم كانت تعوزهم الصفات المؤهلة للعمل، وكانوا متأثرين ببيئتهم تابعين لأمرائهم، ولا يدرِّسون العلوم، ولا يدرِسونها إلا نظريًا في حالة من التقليد والجمود، ولم يكن للعلم كبير شأن عند العامة بحيث يستطيع أولئك العلماء أن يتعدوا حدودهم التي تنحصر في إصدار بعض الأحكام كالمواريث والنكاح والمعاملات متى عرضت عليهم، ولا يجرأ [يجرؤ] أحد منهم أن يقدح في عادة شركية مقدسة، أو يقيم حدًا من حدود الشريعة، أو يحول دون عادة تخالف الشرع، كالثأر من عائلة

(١) إشارة إلى حديث: «يأتي على الناس زمان، الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر». رواه الترمذي في سننه في كتاب الفتن ج ٤ ص ٥٢٦.

لجناية ارتكبها أحد أفرادها، بل كانت الأمور تجري على مرأى ومسمع من أولئك العلماء، ويكتفون في استنكارها بأضعف الإيمان، ينكرونها بقلوبهم، ويدعونها تمر أمامهم جهرة وعلنًا، ومنهم من تتغلب عادات قومه على علمه. ولو ظلت نجد على تلك الحالة قرنًا آخر لأكل قويها ضعيفها، وآلت إلى الخراب والبوار، ولكن الله قَيَّض لها هذا المصلح العظيم، والحمد لله رب العالمين.

طلبه للعلم ونزعته:

تلقى العلم بادئ بدء على أبيه، فارتشفه حتى الثمالة، وانكب على المطالعة في كتب الحديث والتفسير وما كتبه الإمام ابن تيمية الحراني وتلميذه ابن القيم في أصول الدين وروح الإسلام، وأسرار الحكمة التشريعية، والعقائد السلفية، ولم يمر بذلك مرًا شأن غيره من تلامذة عصره، بل ناقش ذلك مناقشة دقيقة في نفسه، ورأى أن جميع تلك التعاليم السامية لا وجود لها إلا في بطون الكتب، وهي أصول الإسلام وروحه، وفي انتفائها انتفاء للإسلام، ولم يكن لتخدعه الظواهر والأسماء، وقد عز عليه أن يكون عالمًا غير عامل، وأبت همته ونفسه السامية أن يكتفي بحفظ الأحكام نظريًا ويرددها قراءة واستظهارًا جريًا على عادة طلبة العلم في زمانه وأوطانه الذين جعلوا دراسة العلم وسيلة لاكتساب المعاش، واكتفوا باستظهارها، وأهملوا العمل بأحكامها وإقامة حدودها.

وما هي الفائدة من العلم؟ ولماذ يكدح الإنسان في طلبه؟ لاشك أن الشيخ أعاد هذا السؤال على نفسه مراراً، وتدرج بإلقائه على خاصة أصحابه وتظاهر فيما بعد لعامة الناس الذين لا يجدون حجة يدفعونه بها سوى الموافقة على أقواله والتأسف والتوجع من حالة الزمن. لم يلق آذانًا صاغية ولم يطق الصبر على كظم ما تعتلج به نفسه، ولكن صغر سنه يحول بينه وبين مكافحة تلك الشخصيات الكبيرة التي حوله، فشد رحاله يفتش عن الحقيقة:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرامها الأجسام[1]

فحج وألقى عصا التسيار في المدينة المنورة والتقى هناك بأحد العلماء النجديين، وهو الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن سيف، من أهل المجمعة، وبواسطته تعرف بالشيخ محمد حياة السندي[2] العالم الكبير المشهور

(١) البيت للمتنبي في ديوانه بشرح البرقوقي ج ٢ ص ٦٤.

(٢) في هامش النسخة ب: «الشيخ محمد حياة السندي المدني، واسم والده ملاّ فلاريه من قبيلة جاجر الساكنة في أطراف عادل بور، بليدة من توابع بكر. ولد بالسند، ورحل إلى الحجاز، وحج، وتوطن مدينة الرسول، وتتلمذ على الشيخ أبي الحسن السندي نزيل المدينة المنورة، وبرع في الحديث، وأخذ الإجازة عن خاتمة المحدثين الشيخ عبدالله بن سالم البصري، وكان يعظ الناس قبل صلاة الصبح بالمسجد النبوي، وانتفع به خلق كثير من العرب والعجم، وعاش عيشة مرضية، ولقي الله يوم الأربعاء ٢٦ صفر سنة ١١٦٣هـ. ودفن بالبقيع. (أبجد العلوم) للسيد صديق حسن: ٨٤٩/ ٢» انتهى. وقد تقدمت ترجمة الشيخ السندي مختصرة، ص ١٤٥.

المتوفى سنة ١١٦٥[1]، فتبحر عليهما مع أن لمطالعاته وانكبابه على الدرس والتنقيب أثرًا عظيمًا في تضلعه من العلوم الإسلامية.

ولم يك علماء المدينة بأفضل من علماء نجد في عدم التنكير[2]، ولم تك المدينة بأحسن حالة من نجد، فلم يرق له المقام، وعزم على زيارة الشام عن طريق العراق، فأتى البصرة، وكأنما استجار من الرمضاء بالنار، وكاد اليأس يستولي عليه من الحالة التي كان عليها المسلمون في ذلك الوقت وبخاصة العراق لقربه من بلاد العجم منبع الخرافات ومهد البدع. ولما كان لا تأخذه في قول الحق لومة لائم، صدع بما يمليه عليه وجدانه، وحصلت بينه وبين بعض أهل البصرة مجادلات ومناقشات عن تلك البدع والترهات، فأحفظهم، وأغروا به بعض العامة والغوغاء، فاجتمعوا عليه ورجموه بالحجارة إلى أن أخرجوه من البصرة، فسار قاصداً بلدة الزبير في الظهيرة، وكاد يهلك من الظمأ في حَمَّارة القيظ لولا أن قيض الله له مكاريًا من أهل الزبير رقَّ له، فسقاه وحمله على دابته إلى البلد.

---

(١) نقل المؤلف وفاته متابعة لابن بشر، وتقدم أنه توفي سنة ١١٦٣هـ.

(٢) في حادثة المحمل المصري الأخيرة خير مثال على وقوف بعض العلماء موقف من لا تعنيه البدع والخرافات التي ينكرها في نفسه، فإن علماء الأزهر يعلمون أنه بدعة لئن كانت سياسية فقد انقلبت إلى صفة دينية، وصارت للمحمل هيئة قدسية تقدسها العامة فيتبركون بغطاء المحمل، ويتمسحون به، حتى إن بعضهم يعتقد أن جمل المحمل من جمال الجنة وأنه يحفظ القرآن! مما قد يتطور إلى ما هو أشد، وهو الشرك الأكبر، والعياذ بالله، ولكن علماء الأزهر ساكتون (المؤلف).

والاضطهاد يزيد النفس القوية قوة، ويصور لها اللذة في الألم، كما أنه يقضي على النفوس الضعيفة، ويثبطها عن القيام بالواجب، وهذا أول أذى لاقاه في سبيل الحق فلم يبال به، ووطن نفسه على العمل بما يعلمه محتسبًا أجره على الله. وفي هذا الحادث فقد الشيخ نفقته لحسن الحظ. أقول: لحسن الحظ، لأنه لو تسنى له السفر إلى الشام حسب خطته لربما يتبدل مجرى التاريخ؛ فعاد أدراجه إلى نجد لأمر يريده الله.

عاد الشيخ إلى أبيه في وطنه الجديد حريملاء وهو يتولى قضاءها بعد العيينة، وألقى عصا التسيار، والرجل الذي صدع بالحق في بلاد هو فيها غريب الدار نائي الوطن فاقد النصير، لايبالي بما يلاقي في سبيل إبداء رأيه، هل يسكت في وطن هو أحد أفراده، وله فيه جاه ونفوذ ومقام ونصراء وأصدقاء؟ كلا، فقد أخذ يندد بتلك البدع والعادات، ويفند أهلها ويحاربهم بكلما [بكل ما] أوتي من قوة وأيد. وللناس عادات ألفوها وشبوا عليها، فهم يحافظون عليها، ويدافعون عنها، ولها المقام المكين في زوايا أفئدتهم وأعماق ضمائرهم لا يتنازلون عنها بسهولة، بل يدينون بمقت كل من يحقرها وإذلاله، وبعضهم له مآرب مادية وأغراض شخصية يذود عنها، ويسعى لبقائها، لا يبالي أحلال هي أم حرام. ومنهم السفيه الذي يرتكب المحرمات، وينقاد للشهوات والأهواء، ويتفانى في أسباب السرور واللهو، وقد ألف هذه المحرمات فهانت عليه، فلا يردعه عنها رادع، ولا يزعه وازع، ومن هذه الأصناف الثلاثة يتكون سواد البلاد.

والذين يرون رأي الشيخ من أولئك الأفراد القلائل لا يحركون ساكنًا؛ لأن مقاومة هذا السواد العظيم ليس في طاقتهم، بل هم يرون من الحكمة تركه وشأنه والعمل في دائرة ما بين المرء وربه محافظةً على النفس والمعيشة، ولسان حالهم يقول:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم(١)

هزئ به المحافظون عباد العادات ومعتنقو الترهات لتهجمه على معتقداتهم وإهانته لمقدساتهم، وعاداه أصحاب الأغراض الشخصية والمصالح المادية، لأنه يحول دون استبدادهم بالمستضعفين، ويحدد أطماعهم الغير متناهية، وقاومه السفهاء؛ لأنه يحظر عليهم شهواتهم ويحول دونهم ودونها سراً وجهراً، وهم يتظاهرون قائلين:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر(٢)

وخالفه العلماء وطلبة العلم؛ لأنه ينعي عليهم سكوتهم واستكانتهم، ويؤنبهم لإهمالهم القيام بما يجب عليهم واتخاذ خطة (لا يعنيني). ولا يخلو بعض منهم من موافقة العامة على معتقداتهم وآرائهم(٣).

---

(١) البيت من معلقة زهير بن أبي سلمى. ديوان زهير بشرح أبي العباس ثعلب، ص٣٥.

(٢) صدر بيت لأبي نواس، وعجزه: ولا تسقني سراً إن أمكن الجهر. ديوان أبي نواس ص ١٤٩.

(٣) زاد في النسخة ب: «ولهم في ذلك تعصب مقيت وهذا السر الذي ملك على علماء عصره حواسهم، فعادوه وقاوموه».

وبالجملة فإن السواد الأعظم ضده، عَنَّفه أبوه، واستاء منه أخوه، وانبرى له زملاؤه، فأوسعوه نقداً وتنديداً، فلم يبال بهذا كله، ومضى لشأنه متكلاً على الله وحده، قوي العزيمة ثابت الجنان، يناقش ويجادل ويقاوم، وكان مركز أبيه القضائي جنة له من كثير من الأخطار التي تحيط به، ولكن ذلك لم يطل، فقد توفي أبوه سنة ١١٥٣[١]. فخلا الجو لأولئك الأعداء المتألبين، وكان أكثر من يتناولهم بزواجره ومواعظه أتباع الرؤساء المستبدين وعبيدهم؛ لأن تعدياتهم لا تقف عند حد، وفسادهم ما بعده فساد، فاضطهدوه، وتعرضوا له بالسخرية والأذى سنة الله في خلقه.

وبعضهم فكر في قتله للتخلص منه، أو كادوا، ولم ينج منهم إلا بأعجوبة حتى اضطر أن يهاجر من حريملاء إلى مسقط رأسه العيينة.

سيرته وأخلاقه وما يؤثر عنه:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥][٢].

***

بأي لسان أشكر الله إنه ... لذو نعمة قد أعجزت كل شاكر

حباني بالإسلام فضلاً ونعمة ... عليَّ وبالقرآن نور البصائر

(١) في النسخة ب: ١١٥٢هـ. وهو خطأ.

(٢) في الأصل: (وأنا من المسلمين).

وبالنعمة الكبرى اعتقاد ابن حنبل عليها اعتقادي يوم كشف السرائر

هذا ما يلهج به الشيخ ويردده[1]. وهذا ما ينم عن نفسيته الطاهرة وعقيدته المتينة وثقته بالله وتوكله عليه، وكان لا يفتر لسانه عن التسبيح والتحميد[2] والتكبير والتهليل وتلاوة هذه الآية والتمثل بهذه الأبيات في فترات الفراغ من التدريس والنظر في الأحكام وتدبير المهام.

وقد علمنا مما مر كيفية نشأته وجهاده وما لاقاه من صنوف الاضطهادات. ولما دانت له الرقاب وانقادت الأمة لأوامره ونواهيه ظهرت لنا منه أخلاقه المتينة وإيمانه القوي وتقواه. ليّن هيّن، متواضع عطوف شفوق، إلا أن تداس حرمات الله فلا هوادة في الحد الذي فرضه الله[3]. له هيبة، وشخصية محترمة، وإرادة تنفذ إلى أعماق النفوس، وما هي إلا الإرادة القوية والتأثير النفساني المنبعث من الضمير الحي النقي من أدران الأطماع وحب الذات والأنانية، وتلك القوى الخارقة للعادة مزيج من الشفقة التي هي الحلم ولين الجانب والإيثار والبر، ومن العزم، وفي العزم الشدة العادلة ألا وهي القيام مع الحق وتنفيذ ما أمر الله به، ومن الغيرة على حرمات الله والكره لأعدائه، واحتقار النفس والتضحية بها وبلذاتها حتى المباح منها في سبيل إسعاد الأمة مع حفظ كرامتها، فإذا اجتمعت هذه الخصال الفاضلة في نفس امرئ فقد صفت، والجسم وعاء شفاف يصفو

(١) ابن بشر، عنوان المجد ج ١ ص ١٨٤.

(٢) في النسختين أ و ب: والتقديس.

(٣) زاد في النسخة ب: «ولا تأخذه في الله لومة لائم ولا وجاهة ذي جاه».

ويتكدر بصفاء وتكدر روحه. ومتى صفا كسته المهابة ثوبًا من الوقار، وأبرقت أساريره بتلك الأنوار الوضَّاءة، ولمعت عيناه بتلك الأشعة الجذابة النافذة[1]، فإذا بالخصم خاضع، والتابع مخلص، وإذا بالجماهير تبسط قلوبها، وتبذل كل مرتخص وغال في سبيل إرضاء تلك النفس. وسيرة الشيخ محمد تدلنا على أن هذه الخصال كلها توفرت فيه، فسمت به إلى ذلك المقام السامي.

وكان رحمه الله يقضي أوقاته يدرِّس ويباحث ويذاكر، وينظر في الأحكام، ويدبر سياسة المملكة وشئون [وشؤون] الجيش، ويكاتب الخارج لبث الدعايات ونفي الأكاذيب والمختلقات. ومن بين هذه المشاغل الكبرى استطاع أن يخلف لنا مؤلفات عديدة، هي خير ما كتب عن خلاصة المذهب الحنبلي والتوحيد كـ «أصول الإيمان»، و «كتاب التوحيد»، و «كشف الشبهات»، و «فضائل الإسلام»، و «استنباط القرآن»، ورسائل كثيرة تقع في عدة مجلدات[2]. اعتنى جلالة الملك أيده

(١) زاد في هامش النسخة ب: (تعرفهم بسيماهم). وعلق على هامشه: «لقد أطنب ابن غنام وابن بشر في وصف أخلاق الشيخ ولم يشيروا إلى خَلْقه، فليبحث عن ذلك».

(٢) للدكتور محمد بن أحمد الضبيب كتاب «آثار الشيخ محمد بن عبدالوهاب» تتبع فيه أسماء مؤلفاته ورسائله بدقة. وقد طبعت جميع مؤلفات الشيخ ورسائله بمطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٤٠٠هـ في ١٥ مجلداً مع الكشافات (الفهارس). وذلك بمناسبة انعقاد مؤتمر أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب سنة ١٣٩٨هـ.

الله بطبعها ونشرها في الناس، لينتفعوا بها.

وله في الكرم حكايات لا تكاد تصدق، يتحمل لأجلها الديون الكثيرة لقرى الوفود وإكرام القادمين، وإطعام المتعلمين الطالبين، وكانت تؤمه الألوف، وتحط الرحال لديه الوفود والضيوف من أقاصي الجزيرة وأدانيها، لايخص نفسه بشيء، ولا يأبه لزخارف الدنيا ونعيمها إلى أن قضى تلك الحياة الطيبة النافعة سنة ١٢٠٦ عن ٩٢ عامًا(١).

(١) في النسخة أ: ٩٦ عامًا وهو خطأ.

٤
الدعـــــوة
(ص ٧٧)

إذا جارينا الناس وسمينا هذه الدعوة المباركة التي قام بها الإمام محمد بن عبدالوهاب (بالوهابية) فللتعريف بها فقط، إذ إن الشيخ - رحمه الله - لم يبتدع له مذهبًا جديدًا، أو طريقة اختص بها كبقية أصحاب الطرق والمذاهب ومؤسسي الفرق الكثيرة، وإنما قام بتجديد دعوة أهل الحديث الذين يدعون إلى المحافظة على حدود الدين كما كان عليه السلف الصالح.

والتاريخ يحدثنا كثيراً عن انتشار البدع والضلالات من أوائل الدولة العباسية بعد أن تغلبت العناصر الأعجمية على العنصر العربي في الدولة وأقصته عن منصة الأحكام، والعربي بفطرته يميل إلى دين الفطرة والبساطة، وهما روح الدين الحنيف، بخلاف الأعجمي المجبول على عادات وديانات آبائه وأجداده، وكانت تلك البدع تنتشر في بعض العصور انتشارًا هائلاً، فيروي لنا التاريخ قيام أصحاب مذهب السلف الصالح لمقاومتها ومكافحتها، وقد تؤدي بهم الأمور أحيانًا إلى الثورة على الحكومات وإحداث الانقلابات، وطالما ردد المؤرخون أسماء أولئك المصلحين، فدعوهم بالحنابلة تارة، وبأهل الحديث أخرى حتى في الأندلس والمغرب، ونبغ منهم علماء أجلاء ألفوا الكتب النافعة، ونفعوا الإسلام

بدعاياتهم القوية وحججهم الباهرة، فاستطاعوا أن يقاوموا تيار البدع الجارف، وجعلوا الناس على بينة من أمرهم، ولولاهم لضاعت معالم الدين، وطمست تحت أستار الجهالات والأضاليل، ونجحوا هذا النجاح الباهر، وأثَّروا هذا الأثر الظاهر، وهم مضطهدون منبوذون، وكافة السلطات السياسية والعناصر المادية القوية تقاومهم وتضطهدهم وتسومهم سوء العذاب ، ولو قُدِّر لواحد من أولئك العلماء العاملين من يشد عضده من بعض ملوك المسلمين ويأخذ بناصره كما قدر للشيخ محمد بن عبدالوهاب لرأينا حالة المسلمين على غير ما هي عليه الآن، وأولهم الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، وتعذيب المعتصم له أشهر من أن يذكر.

وفي الأندلس أبو محمد بن حزم الأندلسي الوزير الشهير المتوفى[1] سنة ٤٥٦ كان شافعي المذهب، ثم انتهى به تفكيره إلى مذهب السلف الصالح، وله المؤلفات الضخمة في العقائد والملل والنحل وإظهار بواطن البدع. وبلغ به ورعه إلى أن ترك كرسي الوزارة، وزهد في أمور الدنيا، وتجنبه الناس، وأبغضوه، ومن بينهم أبوه وأخوته (كالشيخ محمد) لإنكاره عليهم ما هم فيه. وأحرقت كتبه حتى مات منبوذاً في مسقط رأسه، ولكنه[2] خلف من مؤلفاته ما يستنير به متتبع الحقائق وينتفع به المسلمون أبد الدهر.

(١) في الأصل : الموفي. والتصويب من النسختين أ و ب.
(٢) في النسخة أ: ولكن.

وعَلَم هذه الفرقة الناجية وفخرها هو الإمام شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحراني، وتلميذه ابن قيم الجوزية، وكفى بهما فخراً لهذه الفرقة السلفية، وأقل ما لاقاه من ملوك عصره الحبس والاضطهاد، وأحر به أن يكون قدوة لمن يقوم بهذه الدعوة، ليتلقى ما يصيبه في سبيلها بالصبر وعدم المبالاة.

وهذا نفس ما لقيه الشيخ محمد بن عبدالوهاب أول دعوته، هناك في البصرة يرجم ويطرد ماشيًا حافيًا في سموم القيظ ولوافحه، وهو غريب الدار نائي الجار، وتصيبه نفس تلك الحالة بين أهله وذويه، بل من جماعته وعصبته، فيطرحه أبوه، ويقاومه أخوه، ويمقته أقاربه، ويتسور عليه سفهاء وطنه وعبيده الجدار؛ ليقتلوه ويستريحوا منه، وهكذا لا ينجو من محنة إلا ليقع في أكبر منها.

والدعوة لا تنتشر وتعتنقها الجماهير وتدين بها إلا بوسيلتين: الحجة والإقناع والدعاية والتبشير، أو القوة وبسط السلطة؛ حتى يذعن لها الخصوم، وينشأ عليها نشء جديد، وتكم بها أفواه المقاومين المعارضين، ووسيلة الحجة والتبشير وإن تكن أفضل وأرسخ في النفوس فهي لا تعم الجماهير ولا يدين لها العوام، وهم لا يكادون يفهمون منها إلا ما عندهم من عادات راسخة يجعلونها هي القاعدة، فلا ينظرون إلا بمنظارها، ولا يقيسون إلا بمقياسها، فلا سبيل إذن لإقناعهم، ولا بد من قوة تؤيدها، فالحجة تقنع صاحب تلك القوة فيميل إليها، ويؤمن بها، ويدعو إليها،

ويحمل الناس على اعتناقها، فمن خالفه أخضعه بالقوة التي عنده.

وفي التاريخ كثير من هذه العبر، فالنصرانية كانت مشردة مضطهدة قبل أن يدين بها قسطنطين[1]، ولم يخضع العرب لهذا الدين الحنيف إلا بعد أن أظهر الله نبيه وجاء نصر الله والفتح، وتلته الفتوحات الإسلامية الكبرى.

وكالأديان المذاهب، فمذهب الشيعة لم يعم في إيران إلا بعد طغيان[2] إسماعيل شاه الصفوي[3] بالقوة، فقضى على المذهب السني واللغة العربية جميعًا، وجميع المذاهب التي نراها باقية لم تكن لتبق [لتبقى] لولا أن السياسة ناصرتها يومًا ما.

وكثيرة هي المذاهب التي وضعها علماء لا يطعن فيهم، ولكنها تلاشت، ولم يأخذ بها أحد؛ لأنها لم توفق إلى سياسة تساعدها وتنشرها.

---

(١) **قسطنطين:** اسم لعدد من أباطرة بيزنطة، أهمهم قسطنطين (الأول) الكبير، إمبراطور روماني، أنشأ عاصمة جديدة بموضع بيزنطة أسماها القسطنطينية، وهو الذي أطلق الحرية للدين المسيحي وشجعه، توفي عام ٣٣٧م. الموسوعة العربية الميسرة ج ٢ ص ١٣٨٠ . والمنجد ص ٥٥٢.

(٢) في هامش النسخة ب: (محمد خدا بنده التتري، وبعده).

(٣) **إسماعيل شاه الصفوي:** ويقال له إسماعيل الأول، مؤسس أسرة الصفويين بفارس، استولى على عدة مدن في إيران وغيرها ولقب بلقب الشاه، ونشر بالقوة مذهب الشيعة في الأقاليم التي فتحها، توفي عام ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م بأردبيل حيث توجد مقابر الصفويين. دائرة المعارف الإسلامية ج ٢ ص١٧٥.

ومذهب السلف الصالح كان وما زال موجودًا وله علماؤه وكتبه وأنصاره، ولكنه قضى نيفًا وألف سنة لم يجد له معينًا من أحد الأمراء أو السلاطين، فكان حظه الاضطهاد والظلم.

وهذه الحقيقة التاريخية بل الناموس الاجتماعي يعرفها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ويحس بحاجته إليها، ويعلم أنه لا بد له من مناصر قوي ينصره، ويذود عنه، فتلفت حوله فلم يجد ألا أمراء وطنه ومسقط رأسه العيينة، وآل معمر[1] أمراء العيينة في ذلك الوقت من أقوى أمراء نجد، وأنبههم ذكرًا، وأكثرهم نفوذًا، وأوسعهم شهرة، والدين والسياسة كل منهما متمم للآخر كاليدين اليمنى واليسرى لا غنى للواحدة عن الأخرى، فلا يتأيد السلطان إلا بالدين، كما لا ينشر الدين، ويعم إلا بسياسة تؤيده وتدافع عنه، فلا يبعد أن يكون الشيخ اختار الهجرة للقيام بما أخذه على عاتقه، وكذلك كان.

(١) في النسختين أ و ب: (وآل معمر من العناقر من تميم). وعلى النسخة ب تعديل بخط مغاير فيه: (من بنو [بني] عمر، والعناقر من بنو [بني] سعد).

٥
الهجـرة الأولـى
(ص ٧٨)

كانت حالة الشيخ في حريملاء بعد وفاة أبيه داعية إلى الهجرة، وبالطبع إن أول البلاد في قائمة تفكيره هي وطنه ومسقط رأسه العيينه، وكانت قد أخذت زخرفها وازينت، وأميرها يومئذ عثمان بن حمد بن معمر، وللشيخ - رحمه الله - شخصيته الجذابة المؤثرة، وكانت شهرته قد سبقته إليها، وهذا ما جعل الأمير عثمان يقابله بحفاوة وإجلال، فأقام عنده مكرمًا معززًا، وصاهره، فتزوج الشيخ بالجوهرة بنت عبدالله بن معمر أمير العيينة الكبير.

وللشيخ حجة بالغة يخرس بها خصومه فضلاً عما في دعوته من البساطة بحيث لا يتردد في قبولها كل من له عقل سليم، وما لبث أن أقنع الأمير بوجوب إعزاز دين الله وتطهيره من البدع والخرافات، فانقاد له، وتبعه كثيرون من أهل العيينة.

والعامة قد لا يأبهون للنظريات، ولكن التنفيذ يحتاج إلى جرأة، وها قد بدأ دور التنفيذ، وها قد وقع الاصطدام بين الحق والباطل، وللباطل في العيينة آثار لها ما لها من المكانة في النفوس، هناك أشجار حامت حولها أحاديث متناقلة وأساطير متداولة وأحلام كثيرة وصدف غريبة، فهي تشفي

المرضى، وتقضي الحاجات، ويتوسل عندها، وتطمئن عندها[1] نفوس أولئك الأغرار البسطاء، فيعظمونها، ويقدسونها، وينذرون[2] لها بالنذور، ويذبحون لها الذبائح كالأوثان، فأمر الشيخ بإزالتها، وتولى بنفسه قطع كبراها، وأزال كلما [كل ما] في العيينة من هذا القبيل.

وحادثة ثانية لها صداها ورنتها، ففي القرب من العيينة بلدة اسمها الجبيلة، وفي الجبيلة قبة زيد بن الخطاب شقيق الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- وشهيد حروب الردة، فأقنع الشيخ الأمير عثمان بوجوب إزالتها، ولكن أهل الجبيلة يحولون دون ذلك، ولا يرضخون إلا بالقوة، فخرجوا إليها بستمائة مقاتل، وكادت الحرب تقع لولا أن [أهل][3] الجبيلة انتهوا، وتركوا الشيخ وشأنه واثقين أنه لن يصل إلى القبة وأنه لا بد أن يلقى حتفه.

وفي هذه الحادثة نقرأ تردد ضمير عثمان، ويظهر أن تعاليم الشيخ لم ترسخ في ذهنه بعد، وما كان اتباعه إياه إلا مزيجًا من المجاملة والحياء وانتظارًا للمستقبل البسام الذي وعده الشيخ به.

انتهى أهل الجبيلة، وأقلعوا، ولكن عثمان قال للشيخ: نحن لا نتعرضها، بل نتركك وشأنك، فأخذ الشيخ الفأس، وهدمها بنفسه، حتى

---

(١) في النسختين أ و ب: لديها.

(٢) في الأصل (وتنذرون) بالتاء. والتصويب من النسختين أ و ب.

(٣) زيادة يقتضيها السياق من النسختين أ و ب.

سوَّى القبر على الحكم المسنون، وبات السفهاء والغوغاء يتوقعون موت الشيخ تلك الليلة.

وما انتشر خبر هذه الحادثة في أقطار الجزيرة حتى تلاه خبر آخر له دويه وصداه لا عهد للناس به، فإن الشيخ قد رجم امرأة اعترفت عنده بالزنى بعد أن أجرى عنها التحقيقات والتحريات وثبت لديه زناها. نفخ الشيطان في بوقه، فرن صداه، وتجاوبت أرجاء الجزيرة بضجة كبرى.

وأمراء نجد وإن كانوا مستقلين فإنهم في حالة من الضعف والعسر لقلة إيراداتهم بحيث كانوا لا يستغنون عن جيرانهم أصحاب البلاد الغنية، وكانت الأحساء مرفأ لنجد الجنوبية، ومصدراً لكثير من حاجاتها الضرورية، ويحكمها آل حميد من قبيلة بني خالد، وكانت لهم دولة وصولة على الأحساء وما جاورها من بلاد نجد[(١)]، وهم بدو رحل يقيمون في الأحساء أيام القيظ، ويغادرونها إلى البادية في الشتاء. ولهم وزراء من أهل البلاد يتولونها بالنيابة عنهم، وكان أمراء نجد وقبائلها يهابونهم، ويدينون لهم، وأولئك يستميلونهم بالعطايا والمخصصات، فلهم عندهم عوائد وأعطيات، ومن جملتهم أمير العيينة عثمان بن معمر[(٢)].

وآل حميد استولوا على الأحساء سنة ١٠٨٠[(٣)] بعد أن أخرجوا الترك

(١) زاد في النسخة ب: وخصوصًا العارض.

(٢) في النسخة ب: عثمان بن حمد بن معمر.

(٣) في النسختين أ و ب: سنة ١٠٨٢. والمثبت في النص موافق لما ذكره ابن بشر، وهو مصدر المؤلف.

منها[1] وقد دخلها معهم[2] عناصر البدع والخرافات وشتى الطرق والاعتقادات، فضلاً عن كون أغلب السكان من الشيعة، ولا بد أن هناك أيضًا مخلفات من بقايا نظريات عهد القرامطة والجمعيات الإسماعيلية الباطنية، فكانت الأحساء وعلماؤها في أيام آل حميد أكثر تعصبًا ضد تعاليم الشيخ محمد، وأشد تمسكًا بتلك الترهات والأباطيل، وقد كانوا ينكرون جداله فكيف وقد أخذ ينفِّذ أقواله ويصدِّر أعماله، ففزعوا إلى رئيسهم سليمان بن محمد الحميدي رئيس بني خالد[3]، وهذا استعمل نفوذه عند ابن معمر، فكتب إليه يطلب منه إبعاد الشيخ عن العيينة، فهال ذلك ابن معمر، وهوَّن عليه أمر الحميدي، ووعده بالفوز والظفر على الأعداء والتسلط على كافة زملائه الأمراء إن هو تمسك ببث الدعوة وشاد ملكه على دعائم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنه ظل حائرًا مترددًا وقد لمسنا تردده في قضية قبة الجبيلة.

وما كان من سليمان الحميدي إلا أن عزز أمره بالتشديد والتهديد والوعيد، فأبدل طلب إخراج الشيخ بطلب قتله، وهدَّد عثمان بقطع ماله عنده من مخصصات، وبإشهار الحرب إن أحوجه إلى ذلك، فجاء هذا

(١) زاد في النسخة ب: «وكانوا من قبل جنداً للأتراك فيها».

(٢) في النسختين أ و ب: «مع الاحتلال التركي كثير من الأتراك والأكراد وعرب العراق وشيعتها، ودخلها معهم».

(٣) تولى زعامة بني خالد بعد مقتل أخيه علي بن محمد سنة ١١٤٢هـ، واستمرت زعامته حتى عام ١١٦٦هـ، وتوفي في الخرج تلك السنة. ابن بشر، عنوان المجد ج ١ ص ٦٧. الوهبي، بنو خالد وعلاقتهم بنجد ص ٣٥٨. وسيأتي ذكره.

التهديد يمحو ما أثره الشيخ بمواعظه في نفس عثمان، وما أشبه موقفه هذا بموقف عمر بن سعد بين ولاية الري ومقاتلة الحسين، وكلاهما فضل العاجلة على الآجلة، فخسرهما[1].

فقال عثمان للشيخ: لا طاقة لنا بحرب الحميدي ومقاومته، وهو يأمرنا بقتلك، ولكن ليس من المروءة أن نفعل ذلك؛ فلا بد من أن تغادر البلاد، ولك أن تختار من بلدان نجد ما تشاء، فاختار الدرعية، فأرسل معه من يوصله إليها. وهناك تهمة توجه إلى عثمان بأنه أوعز إلى العبد بقتل الشيخ[2]، ولكن ابن بشر المؤرخ نفى ذلك عن تحقيق.

---

(١) عمر بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أمير، استعمله عبيدالله بن زياد على الري وهمذان، فلما قدم الحسين بن علي - رضي الله عنهما - العراق أمر ابن زياد عمر بن سعد أن يسير إليه، وبعث معه أربعة آلاف من جنده، وقال له: إن هو خرج إليَّ ووضع يده في يدي وإلا فقاتله، فأبى عمر عليه، فهدده، فأطاع بالخروج إلى الحسين فقاتله حتى قتل الحسين، فلما غلب المختار بن أبي عبيد على الكوفة قتل عمر بن سعد وابنه حفصًا سنة ٦٦هـ. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٥ ص١٦٨.

(٢) ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ٤٠ وزاد في النسختين أ و ب: «ونحن نشك في ذلك لقرابة المصاهرة بينهما».

العيينة والدرعية[1]

العيينة والدرعية أختان توأمتان ولدتا في وقت واحد، ففي السنة التي أُقْطِع فيها مانع المريدي الضيعة التي صارت نواة لبلدة الدرعية، اشترى حسين[2] بن طوق جد آل معمر[3] ضياع العيينة، وأسس بلدته، وكانتا تتنافسان في العمران وفي السياسة وختام تلك المنافسة مقتل زيد بن مرخان سنة ١١٣٩ كما تقدم.

وظهر في العيينة أمير من خيرة أمراء عصره، وهو عبدالله بن معمر[4] الذي طار صيته في آفاق نجد لكرمه وحسن سياسته، وهو ممدوح حميدان الشويعر الشاعر الشهير، فتقدمت على يده في العمران وكثرة السكان، وتولت الزعامة، وصار لها التفوق على سواها إلى أن داهمها الطاعون سنة ١١٣٩، ومات به أميرها بعد أن حكم (٤٣) سنة من ١٠٩٦-١١٣٩.

---

(١) في النسختين أ و ب: الدرعية والعيينة.

(٢) كذا ورد الاسم في جميع النسخ والصواب أنه حسن بن طوق. ابن بشر، عنوان المجد، ج ٢ ص ٢٩٦.

(٣) في هامش النسخة أ: «من العناقرمن تميم. إبراهيم بن عيسى عن الشيخ حمد» وفي النسخة ب: «حسين بن طوق العنقري التميمي جد آل معمر» وكتب فوق العنقري بخط مغاير: (العمروي).

(٤) في النسخة ب: «عبدالله بن محمد بن حمد بن عبدالله بن محمد بن حمد ابن حسن بن طوق آل معمر». وأضيف إليها بخط مغاير (العمروي التميمي).

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما[1]

فاحتلت الدرعية مركزها بعد ولاية محمد بن سعود، وأصبحت قبلة أهل نجد ومحط أنظارهم، ومن ربوع الدرعية انطلق تيار الدعوة الدينية الحقة، فكهرب العالم الإسلامي عامة وجزيرة العرب خاصة، إذ التقت فيها القوتان الموجبة والسالبة، فكونتا ذلك التيار الهائل، وبعبارة أخرى: التقى المحمدان، فتصافحا، وتعاهدا، وكوّنا الاتحاد النجدي الذي كاد يكون اتحادًا عربيًا شاملاً، فجعلا نجدًا مملكة واحدة تدين لحاكم واحد، وأصبحت الدرعية محط الركبان وقبلة الوفود وعاصمة المملكة العربية السعودية[2].

وكان خروج الشيخ محمد من العيينة بمثابة خروج الروح من الجسد لا يلبث أن يتطرق إليه الفساد والتعفن، فقد تبعه كثيرون من محبيه ومريديه؛ لما رسخ في قلوبهم من تعاليمه ومحبته، والتحقوا بالدرعية ولهؤلاء عائلات وأقارب وأصحاب لحقوهم، فأثر ذلك في مجموع سكانها، وحول أنظار الناس عنها، فشعر ابن معمر بخطئه وغلطته السياسية الكبرى، فندم على ما فرط منه، وعاد إلى الشيخ متوسلاً يطلب منه أن يعود، ويصفح عنه، ولكن الشيخ أحاله إلى حليفه محمد بن سعود

(١) البيت لعبدة بن الطبيب يرثي فيه قيس بن عاصم. الأصفهاني، الأغاني ج ١٤ ص٨٣.

(٢) يلحظ أن المؤلف يستخدم اسم المملكة العربية السعودية قبل إعلانها مراعيًا ما آلت إليه فيما بعد.

الذي رفض بكل إصرار أن يوافق على عودة الشيخ إلى العيينة.

وما كان من ابن معمر إلا أن كَفَّر عن خطيئته بمبايعة الشيخ على العمل بالكتاب والسنة والدخول فيما دخل فيه الناس، وإقامة حدود الله، ولكنه أصبح تابعًا لا متبوعًا، وعاد وفي نفسه أشياء، وقد يكون ابن معمر صادقًا في ندمه، وقد يكون رجوعه إلى الشيخ عن صدق ضمير وحسن نية، ولكننا نشك في بيعته الأخيرة التي سلبته مركزه السابق الذي كان يصبو إليه. ولكنه بايع ليبرهن على صدقه وولائه وتوبته ومجاراة لأهل العيينة الذين اتبعوا الشيخ قلبًا وقالبًا.

وبالرغم من عهود عثمان وبيعته واشتراكه في عدة وقائع، فقد ظهرت منه بوادر خلاف ومباطنة للأعداء شعر بها أهل العيينة، فثاروا عليه، وقتلوه في المسجد سنة ١١٦٣.

وهكذا تغلبت الحمية الدينية على العصبية القومية، وهذه أول بادرة نتبين فيها تأثر الناس من تعاليم الشيخ وصدقهم معه وإخلاصهم له وإيمانهم بالله الإيمان الصحيح في عشر سنوات فقط من ١١٥٣-١١٦٣[١]. ولم تقم للعيينة بعدها قائمة، و:

تشقى البقاع كما تشقى النفوس وتسعد.

---

(١) في النسخة ب: ١١٥٢-١١٦٢هـ. وهو خطأ.

٦
الهجرة الثانيـة
(ص ٧٩)

لنعد إلى الشيخ وهو في الطريق بين العيينة والدرعية منفاه الجديد يسير معه فارس يحرسه من قبل ابن معمر، وهاهو يدخل الدرعية، ويستعرض في ذاكرته معارفه وأصدقاءه فيها، فيقع اختياره على عبدالله بن عبدالرحمن آل سويلم[(١)]، فينزل في ضيافته والشيخ قد سبقته أخباره، وقد لا تكون الدرعية أحسن حالاً من جاراتها، وابن سويلم وإن كان من محبي الشيخ ولكنه لا يعلم عن رأي الأمير محمد بن سعود فيه، ولمحمد بن سعود كلمته وهيبته، فضاقت على ابن سويلم الأرض بما رحبت وللضيف الكرامة، ومن العار الاعتذار إليه، فماذ يصنع؟

الحق أن مركز ابن سويلم كان دقيقًا جداً، لأن ضيفه طريد السياسة والحكومات، وقد يلاقي من صاحب الدرعية ما لاقاه من غيره، فمن يستطيع أن يؤويه، على أن المروءة قالت كلمتها الأخيرة - ولتكن إرادة الله - : أهلاً وسهلاً على الرحب والسعة، وكأن الشيخ أحس بحرج مركز مضيفه فوعظه، وهوَّن عليه أمور الدنيا الفانية. وسرعان ما زاره كبار أهل الدرعية؛ لأن مجلس ابن سويلم كان بمثابة منتدى لهم، وفيهم بعض أفراد

(١) في هامش النسخة ب: «ويقال: على تلميذه حمد بن سويلم وبعده على عبدالله المذكور».

العائلة المالكة، فسمعوا وعظ الشيخ وإرشاده، ومالت قلوبهم إليه، ولكنهم هابوا الأمير محمداً وهم لم يعرفوا غايته بعد، فاستعانوا عليه بأخويه ثنيان ومشاري[1]، وهما أطلعا زوجته[2] على جلية الأمر، وطلبا مساعدتها، وكانت ذات عقل راجح ومعرفة ودين، والنساء متدينات بفطرتهن.

هي خديجة عصرها، فاتحت الأمير بالأمر، وقالت له: إن هذا الرجل ساقه الله إليك غنيمة، فاغتنم الفرصة التي أضاعها جارك. وكأنها أحست بشعورها النسائي - وللنساء إحساس غريب يكاد يخترق الحجب - ما سيكون لزوجها من عظمة ومجد، فتأثر الأمير بكلامها وكلام أخويه، وانصاع إلى رأيهم، فقالوا له: سر إليه بموكبك، وأظهر له الإجلال والتكريم؛ فإن ذلك يكون أوقع في نفسه وتعظم منزلته في نفوس الناس، فمشى الأمير بموكبه إلى بيت آل سويلم للسلام على الشيخ، وقال له وهو يعانقه ويرحب به: «أبشر ببلاد خير من بلادك»، فكان جواب الشيخ: «أبشر بالعز والتمكين».

---

(١) في هامش النسخة ب: «ثنيان جد عبدالله بن ثنيان الذي تولى بعد خالد بن سعود، ومشاري جد مشاري بن عبدالرحمن قاتل الإمام تركي».

(٢) في هامش النسخة ب: «هي موضي بنت أبو وهطان». ولم يرد اسمها في نسخ عنوان المجد المطبوعة، ولا في مخطوطة المتحف البريطاني، وفي هامش عنوان المجد (ط. الدارة) أنها: موضي بنت [أبو] وطبان. من آل كثير، من بني لام.

البيعـــة

في ذلك اليوم المبارك، في بيت عبدالله بن سويلم تصافحت كفان، وفي ذلك التصافح انعقدت الرابطة القوية بعروتها الوثقى وحبلها المتين، ووضع حجر الأساس لدولة ساست بلاد العرب قرنين وهي لا تزال فتية قوية يحق لها أن تعد حامية للإسلام والعرب. يا لها من بيعة شرطها الأساسي دوامها! فقد قال محمد بن سعود: نخشى إنْ فتح الله علينا أن تؤثر غيرنا من البلدان. فكانت المصافحة على أن الدم بالدم، والهدم بالهدم[1].

وتعاهد المحمدان على تأييد دين الله ورسوله والجهاد في سبيله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

تمت البيعة، فنهض الشيخ داخلاً البلد، ونزل عند الإمام محمد بن سعود، وأقام يعلم الناس أمور دينهم، ويوضح لهم ما اشتبه عليهم، فأصبحت الدرعية وقد تطهرت من جميع المنكرات وتقاطر الناس إليها من كل صوب وحدب. ومن ذلك اليوم أخذت تزداد في النمو السريع المدهش حتى صارت في أقرب وقت أكبر مدينة في جزيرة العرب. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ٤٢.

٧

إعلان الجهاد

(ص ٨٠)

أما القتال فلم نقاتل أحدًا إلا دون النفس والحرمة فإنا نقاتل على سبيل المقابلة ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] من رسالة الشيخ إلى السويدي(١).

بعد أن تطهرت الدرعية من أدران البدع كان لزامًا على الشيخ والإمام محمد بن سعود أن يوجها الدعوة إلى الناس فبدأ [فبدءا] بالبلدان المجاورة للدرعية وقد أذعن بعضها طوعًا واختيارًا كالعيينة ومنفوحة.

وكانت غايتهما أن يدعوا الناس بالحسنى والإقناع، على أن خوف بعض الأمراء على ما كان لهم من خراجات غير مشروعة وضرائب جاهلية ممنوعة وقد رأوا محمدًا بن سعود تنازل عنها عن طيبة خاطر، وتعصب بعضهم لعقائدهم التي شبوا وشابوا عليها، اضطر المحمدين إلى امتشاق الحسام.

وكل من يتصفح تاريخ نجد ويتتبع حوادثه بالعين الناقدة البصيرة ورائده الحقيقة والإنصاف ويبحث عن علل الغزوات السعودية والحروب

(١) هو: **عبدالرحمن بن عبدالله السويدي، أبوالخير**، مؤرخ عراقي، ونص الرسالة في تاريخ ابن غنام (ط. مصر). ابن غنام، تاريخ نجد، ج١ ص١٥٢-١٥٤.

التي تلتها الفتوحات الكبيرة ويستقصي أسبابها يجد أنها دائمًا تبتدئ في الدفاع من آل سعود ضد المعتدين عليهم، كما قال الشيخ في رسالته إلى السويدي، ولكن تلك الحروب الدفاعية تنتهي بانخذال المعتدين، ويعقبها مقابلة المثل بالمثل ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] والأدلة على ذلك متوفرة ملموسة لا ينكرها إلا المكابر، وفي ما نأتي به من تاريخ هؤلاء المقاومين أكبر برهان وأظهر حجة.

(١)
دهـــــام بن دواس

هو من أولئك الفتاكين الجريئين الذين لا يحسبون للمستقبل حسابًا. يفتقـون ولا يرتقون، والفاتك من يتغلب بجرأته وشدة بأسه، ولكنه لا يحسن السياسة ولا التدبير، ودهام ممن يبررون الواسطة في سبيل الغاية مهما كانت، ثعلبي الطبع في المراوغة والختل، ليس لليد والعهد معنى في قاموسه، كما ليس للغدر والخيانة معنى متى سنحت الفرصة، ولا بأس من التضرع والتذلل إذا فاتت الفرص.

هو أمير الرياض جارة الدرعية والتي لا تبعد عنها سوى ساعتين وليس هو بالأمير الأصيل فيها، فقد كان أبوه من المزاريع[١] أهل منفوحة، تخطى إلى إمارتها على قنطرة من جثث أبناء عمه الذين قتلهم، ولم تطل مدة ولايته، فخلفه ابنه محمد، فثار عليه أهل منفوحة، وأجلوه مع إخوته ومن جملتهم دهام، فيمّموا الرياض، واستوطنوها، وتصاهروا مع أميرها

(١) في هامش النسخة أ: «يذكر الشيخ حمد أنه من سبيع ولا يمت إلى المزاريع الذين هم من تميم بصلة. أمراء منفوحة آل فارس؟؟ غير المزاريع» انتهى، وزاد في النسخة ب: «فأبوه دواس بن عبدالله بن شعلان (من سبيع) كان متغلبًا على بلد منفوحة. يذكر ابن بشر أنه قتل آل حمد الجلاليل وهم جيرانه سنة ١٠٩٣هـ وفي سنة ١٠٩٥هـ قتل المزاريع رؤساءها وملكها، فلما مات دواس تولى بعده ابنه محمد، فقام عليه ابن عمه زامل بن فارس بن عبدالله وقام معه أهل البلد، فقتلوه، وأجلوا إخوانه دهام وعبدالله ومشلب وتركي وفهد عن منفوحة، فيمموا الرياض . . .».

زيد بن موسى آل أبي زرعة، فقد تزوج أختهم، وللأمير ابن عم مجنون صعد إليه في غرفته وهو نائم فذبحه، فقام عبد للأمير اسمه خميّس أراد أن يمثل دور كافور الأخشيدي، فقتل القاتل المجنون، ونصَّب نفسه وصيًا على أبناء سيده القاصرين، وكانت إمارته إمارة عبد بمعنى الكلمة، فأحفض [فأحفظ] عليه أهل الرياض، وخاف منهم، وهرب، فاهتبل دهام الفرصة، لأنه خال الأمراء القاصرين، وكان من خدام القصر وذوي النفوذ في دولة العبد، فلما خلا قصر الإمارة نصَّب نفسه متستراً بالوصاية، ولكنه لم يلبث أن أظهر حقيقته، فنفى ابن أخته الأمير الصغير، فثار عليه أهل الرياض، وحاصروه في قصره، فاستنجد بجاره محمد بن سعود، فأنجده، ووطد مركزه في حكم الرياض.

ولكن الرجل الذي يغدر بابن أخته وينفيه حبًا بالرئاسة هل يؤمل منه أن يفي لمحمد بن سعود، ويعترف له بتلك الأيادي البيضاء التي عليه؟ فقد جازى آل سعود «جزاء سنمّار»، وهو أول من قلب لهم ظهر المجن، وجاهر بالعداوة والمقاومة، فقد أستهزأ بهم لما دعوه إلى الانضمام للجماعة والدخول فيما دخل فيه الناس وتنفيذ تعاليم الشيخ في الرياض، ولم يستعملوا معه القوة إلا بعد أن بادأهم بها، فقد كانت منفوحة مسقط رأس دهام قد دخلت مع الجماعة، وبايعت الشيخ على السمع والطاعة، فأغار دهام على حين غفلة وبلا سبب سابق على أهل منفوحة، واستجرهم بخدعة حربية، واستولى عليها، ولكنهم صابروه،

وحاصروه، فتركها، وخلف وراءه عشرة قتلى من رجاله، وجرح هو، وقطعت أصابع رجله.

ثارت القنبلة، وإن النار بالعودين تذكو[1]، فأعلنت الحرب بين الدرعية والرياض، واتصلت حروب دهام مع آل سعود، وكثرت تقلباته، وتعددت حيله، فكان أدهى من حاربهم وأخطرهم؛ لأنه جار الدار المطلع على العوار، المؤلب للأعداء، فكان يصالح وينكث، ويبايع ويغدر، يتلون كالحرباء، ولا يتقيد بوعود، ولا يفي بعهود، يتحين الفرص، ويبادر إلى اقتناصها، وبقي خطرًا داهمًا على أهل الدرعية ما يقرب من ثلاثين سنة، تخللتها حروب عظيمة كحروب البسوس، حتى قيل: إن وليدها طارد فيها واصطلى بنارها.

ولكي نتصور تلك الحروب يكفي أن نعلم أن مجموع قتلاها من الطرفين أربعة آلاف قتيل، وهي كثيرة بالنسبة إلى سكان الرياض والدرعية في ذلك الأوان؛ لأن الدرعية في أول مجدها، ولم تتسع بعد، ولم تكن أرقام قتلى تلك الوقائع المستمرة تتجاوز العشرات، ولكن اتصالها وتواترها أوصلاها إلى هذه الأرقام: ألفين وثلاثمائة من أهل الرياض،

---

(١) صدر بيت لأبي مريم البجلي، وروايته:

فإن النار بالعودين تُذكى ... وإن الحرب يقدمها الكلام

ابن أيدمر، الدر الفريد وبيت القصيد ج٤ ص ١٥٥. وقد استشهد به نصر بن سيار - أمير خراسان - ضمن رسالة إلى الوليد بن يزيد. الأصفهاني، الأغاني ج٧ ص ٦٧.

وألف وسبعمائة من أهل الدرعية. ومن هذه الآلاف أناس من خيرة أهالي البلدين وكبارهم، منهم فيصل وسعود ابنا الإمام محمد بن سعود.

وقد صدق أهل الرياض مع دهام لاحبًا به، لأنه كما تقدم لم تثبت قدمه في الإمارة إلا بسيف محمد بن سعود، فإن حكمه شبه أعجوبة لولا أن الظروف ساعدته بظهور الشيخ في الدرعية وانصياع أهل الرياض إلى جانب دهام، وإلا لما أذعنوا له ذلك الإذعان، وتفانوا في الدفاع عنه، وإن هي إلا العصبية الجاهلية.

وأعجب من ذلك هربه من الرياض، فقد كانت حروبه مع أهل الدرعية سجالاً والكفة متعادلة وقومه على أشد الإخلاص معه، ولكنه سئم الحرب، وتذكر من قتل من أولاده وأهله في سبيلها، فداخله الرعب وتغلب عليه مزاج التشاؤم، وعلى حين غفلة من أهلها جمع ماله وعياله، وخرج من قصره، ووقف في فنائه يخطب الناس قائلاً: إن هذه الحرب قد طالت بيني وبين ابن سعود، وقد سئمتها، وها أنا أترك البلاد له، فمن شاء منكم أن يتبعني أو ليقم[1].

فركب الناس بعضهم بعضًا، واستولت عليهم حالة نفسانية غريبة من الرعب، فخرجوا منهزمين زرافات ووحدانًا الشيوخ والنساء والأطفال، حتى أنهم تركوا الأطعمة مطبوخة في قدورها، والحيوانات مربوطة بسوانيها، وتركوا أبواب بيوتهم مفتوحة وفيها أموالهم كلها، ومضوا إلى

(١) في النسخة ب: «فليتبعني، ومن أراد الإقامة فليقم».

الخرج ماشين في حمّارة القيظ، فمات كثير منهم ظمأ وجوعًا. أولئك هم أهل الرياض الذين قاتلوا وجالدوا[1] ثلاثين سنة ينهزمون هذه الهزيمة، ويفرون هذا الفرار بلا حرب ولا داعي، وهذا ما يحير الفكر، ويجعل المرء يتساءل[2].

ولا ريب أن التي تسير الجماهير وتقودهم وتهيب بهم إلى التضحية هي القوى المعنوية الكامنة في قرارات النفوس كمون النار في الحجر، وزنادها بيد أولئك الرؤساء الذين يقودونها لخيرها أو لشرها. ودهام الذي لم يقم إلا بأهل الرياض لم يستطع أولئك أن يثبتوا بعده وهم يعلمون أن استيلاء محمد بن سعود عليهم معناه السلام والوئام، وفي استطاعتهم أن يعقدوا مع أهل الدرعية صلحًا شريفًا ينالون فيه الأولوية من بين بلدان نجد، وقد يحصلون فيه على حقوق وامتيازات في الإمارة إذا قلنا: إن دهام نفسه لم يهن عليه الاستسلام والخضوع، ولكن الإنسان في أمثال هذه المواقف يفقد شعوره، ويضيع توازنه كالآبدة الشاردة لا تقصد نقطة معينة.

هو الرعب الذي ينصر الفرد على الأمة، ومن المسلّم به أن أهل الدرعية لن يفعلوا بهم بعد الاستسلام كما فعلوا هم بأنفسهم في ذلك القيظ اللافح أسوة بمن بقي منهم، فإن عبدالعزيز بن محمد قد كان خارجًا بجيشه ووجهته الرياض، فلاقاه البشير في الطريق ينبؤه بالخبر، فبادر إلى الرياض

(١) زاد في النسخة ب: وصابروا.

(٢) زاد في النسخة ب: عن سر ذلك.

ودخلها وإذا هي خاوية على عروشها، فضبط البلد والأموال التي فيها، وأمَّن الباقين من أهلها سنة ١١٨٧ .

أما دهام فقد فر إلى نجد الجنوبية، ومات طريداً فريداً، وخلف وراءه جملة من الأحاديث والأساطير لا تزال العجائز يتحدثن بها إلى الآن .

(٢)

آل حميـــد

ويقال لهم : آل عريعر . هم رؤساء قبيلة بني خالد[1] ، وبنو خالد من قبائل الشمال أتوا إلى بلاد البحرين[2] في القرن العاشر للهجرة مع

---

(١) في هامش النسخة أ ما يلي : «هم مجموعة أحلاف ، وتتألف غالبيتهم من :
١ - **آل حميد** : وهم الرؤساء ويقال لهم : العريعر .
٢ - **آل خالد** : ولهم قربى ماسة بآل حميد ، ورؤساؤهم العقل .
٣ - **العماير** : وهم من عقيل أهل البلاد الأصليين ، ورئيسهم درباس المجدل .
٤ - **آل حسن** : ورئيسهم فارس الحسن ، وهم من؟ [كذا في الأصل ، وتتمته من : عقيل] .
٥ - **الصبيح** : وهم من قحطان ، ورؤساؤهم العجران ، وهم عدة أفخاذ .
٦ - **المهاشير**» .
وفي هامش النسخة ب ما يلي : «بنو خالد مجموعة أحلاف من عدة قبائل وحدت بينهم الجندية في خدمة الحكومة التركية إبان استيلائها على الأحساء والقطيف ٩٥٠-١٠٨٢هـ وأكبر بطونهم الجبور والعمائر من عقيل ، وهم من أهل البلاد القدماء ، والترك أخذوها من الجبور وآل حسن من عقيل ، وآل ضبيح من قحطان ، والمهاشير من بني هاجر ، والعمور من الدواسر . يغلب أن هؤلاء قدموا بصحبة الحملة التركية ، ولهجة الجميع تميل إلى لهجة بوادي الشمال والرئاسة فيهم لآل حميد» وجاء أمام كلمة : «وحدت بينهم الجندية» تعليق بخط غير الأصل فيه : «البدوي إلى الآن يكره الجندية ، فكيف المتنقل؟» .

(٢) بلاد البحرين في الاصطلاح القديم من قطر جنوباً إلى حدود العراق شمالاً ، ومن الدهناء غرباً إلى سواحل خليج فارس شرقاً ، وهذا الاسم الآن يطلق على جزيرة أوال فقط التي كان يقال لها : جزيرة البحرين بالإضافة . أما قلب البلاد فهي الأحساء والقطيف ، والقفر منه يدعى بالنقرة نقرة بني خالد (المؤلف) .

الجيوش التركية التي فتحت الأحساء والقطيف، وأخذتها من حكومة آل أجود العقيلي العامري، والأتراك كانوا يستعينون بقبائل البدو في غزواتهم لبلاد العرب، ويتخذون منهم أدلاء وجنوداً يطلقون عليهم اسم (عقيل)[1].

وكانت دولة العجم تنازع الأتراك في الاستيلاء على العراق، واستولت على البصرة وبغداد مراراً، وفي غضون هذه الفتن والانقلابات،

(١) في هامش النسخة أ ما يلي: «من بقايا العقيليين فخذ العماير سكان جزيرتي جنة والمسلمية شمالي الجبيل، ورئيسهم اليوم درباس بن مجدل، وقد اندمجوا في مجموعة الخالدية.
يذكر ابن سلوم العماني صاحب تحفة الأعيان جزء ٢ ص ١٣ : أن محمد بن عثمان بن حميد الخالدي غزا بلاد السر من عمان، وأن واليها ابن خلفان خدعه، وغدر به، وأسره، وسجنه إلى أن مات سنة ١٠٤٥هـ، فلعله عم براك».
وفي هامش النسخة ب ما يلي: «عقيل من سليم من بني عامر بن صعصعة، هاجر قسم منهم من نجد إلى الأحساء والقطيف، وأسسوا عصبية قوية قبلية، ثم عائلات حاكمة، منهم الجبور، آخرهم منيع بن سالم ممدوح الخلاوي الشاعر حين الاستيلاء التركي ٩٥٠هـ. ومنهم آل مقلة رؤساء القطيف وحكامها، أجلاهم الأتراك ٩٩٩هـ، ومنهم آل عصفور حكام جزيرة البحرين، وآخرهم الشيخ نصر الجبري الذي أخذ البلاد منه آل خليفة.
ومن بني عقيل قسم كبير من بني خالد الذين قدموا مع الحملة التركية؛ ومن ذلك الوقت أطلق الأتراك اسم (عقيل) على كافة البدو، وشملت أهل نجد الذين يقدمون إلى العراق والشام للتجارة وغيرها».
وفي هامش النسخة ب أيضاً شطب خفيف على فصل آل حميد بهوامشه، وكتب بخط مغاير «ينبغي اختصار هذا الفصل كله». وفي هامش الصفحة المقابلة أعيد اختصاره بنحو ما ذكر.

ضعف مركز الترك في بلاد العرب، وكادت المواصلات بينهم وبين حكومتهم تنقطع، فطمع بهم الأعراب، وكان لبني خالد يومئذ الحول والطول، ولهم السلطة والنفوذ على ذلك القطر وقبائله لكونهم جند الحكومة وأصحاب الكلمة النافذة فيها، فوثبوا بالترك، وأخرجوهم من البلاد سنة ١٠٨٢[١]، وحلوا محلهم.

وأول حكامهم براك بن غرير بن عثمان بن مسعود بن ربيعة الحميدي توفي سنة ١٠٩٣[٢]، وخلفه أخوه محمد بن غرير إلى سنة ١١٠٣[٣]، فتولى بعده ابنه سعدون بن محمد، ومات سنة ١١٣٥[٤]. وبموته حصل نزاع بين عشيرته إلى أن تمت الأمور لعلي بن محمد أخي سعدون، ثم تنازل عن الحكم لأخيه سليمان بن محمد الذي في وقته أظهر الشيخ محمد بن عبدالوهاب دعوته في العيينة، وهو الذي كتب إلى عثمان بن معمر بما مر ذكره، وبواسطته تحول مجرى التاريخ بهجرة الشيخ من العيينة إلى الدرعية، على أنه في تلك الأثناء قتل بسيف ابن أخيه دجيني بن سعدون الذي حكم إلى سنة ١١٦٦، فثار به المهاشير انتقامًا لعمه المقتول، وفر إلى نجد، وتولى الأمر عريعر بن دجيني، وهو عدو آل سعود اللدود؛ لأن بني

(١) الأصوب سنة ١٠٨٠هـ كما ذكر ابن بشر. وقد أشار المؤلف إلى ذلك في موضع آخر.

(٢) في النسخة ب: ١٠٩٢هـ.

(٣) في النسخة ب: ١١٠٢هـ. ويؤرخه ابن بشر في (سنة ثلاث أو اثنتين ومائه وألف).

(٤) في النسخة ب: ١١٢٥هـ.

خالد اعتادوا السيادة على أمراء نجد سيادة اسمية - وفي انصياع عثمان بن معمر أنبه الأمراء ذكرًا لأوامر سليمان بن محمد مرغمًا مثال لتلك السيادة والنفوذ - ولكن محمد بن سعود الذي ضحى بموارده الخاصة لا نظن أنه يبالي بما له في الأحساء من أعطيات.

وأمارة آل حميد تبتدئ من قطر إلى حدود العراق، ولم تكن الكويت[1] إلا بقعة من أراضيهم تنازلوا عنها لآل صباح، فبنوا فيها مدينتهم الكبيرة.

والسلطان سواء كان بدويًا أو حضريًا يعرف معنى سياسة «فرق تسد» ويتبعها بالدقة مع جيرانه وما يليهم؛ لئلا يتقووا عليه، فلا عجب إذا رأيناهم يقاومون أهل التوحيد؛ لأنهم يرون فيهم خطرًا كبيرًا على سلطتهم. ومع كونهم من البدو الرحل فقد ضربوا في الحضارة بسهم، فاقتنوا المزارع والنخيل، وتنعموا في عيشهم ولباسهم، وتمدنوا حتى في حروبهم، فهي لم تخل من آلات الحضارة ووسائلها[2]، فنرى عريعر

---

(١) الكوت في الاصطلاح الأخير القلعة أو القصر، وكان لبني خالد على ساحل جون كاظمة الجنوبي مقابل كاظمة في موضع اسمه القرين، كوت يضعون فيه أزوادهم أيام انتجاعهم في الشتاء، وعلى مقربة منه على الساحل قصر صغير أطلقوا عليه اسم الكويت، تمييزاً له عن الكبير، فاستأذن آل صباح بالنزول عند الكويت على الساحل، فبنوا مدينتهم (الكويت) التي كبرت فيما بعد، فابتلعت الكوت الذي صار حارة من حاراتها، ولا تزال تسمى بالكوت (المؤلف).

(٢) في هامش النسخة أ: «تراجع قصيدة رميزان لأخيه رشيدان».

يهاجم نجداً بالمدافع والبنادق والدبابات[1]؛ مما لا يخطر على البدوي ببال لقيامه مقام الترك في الأحساء واختلاطه بهم في العراق، وقد هاجم نجداً هو وخلفاؤه من بعده عدة مرات، فعادوا بالخيبة والخسران، ولكنهم استطاعوا أن يوقفوا قوة آل سعود ردحًا من الزمن، ومكنوا منافسيهم الداخليين من الثورات والاضطرابات، وخلقوا عدة مشاكل وعراقيل أتعبت الموحدين.

وسبب فشل عريعر وخلفائه يعود إلى تعدد أنواع جنوده واختلاف أهوائهم ومشاربهم وكونهم خليط [خليطًا] من بدو الشمال والجنوب وحضر السواحل الذين أوهت قواهم حمى الملاريا المنتشرة في تلك الأنحاء وأنهكتهم، وهي سبب ما نراه ظاهراً فيهم من الكسل والاستكانة وضعف العزيمة؛ لأنها تؤثر على المجموع العصبي، فتضعف الدماغ والبدن.

ومن الحكايات التاريخية الشائعة أن دهامًا [دهام] بن دواس لما فر من الرياض إلى الخرج جاء لزيارة صديقه أو زميله في معاداة آل سعود سعدون بن عريعر، فأضافه، وأكرمه، وأقام له حفلة استعراض كبيرة استعرض فيها قواته، وهم خليط من كل قبيلة وقطر، فخرجوا وهم شاكو السلاح ومعهم استعداداتهم حتى ملئوا [ملأوا] الفضاء بكثرتهم، فسرى تيار الحماسة والغرور في نفس سعدون، والتفت إلى دهام قائلاً: إن من

(١) في هامش النسخة ب بخط مغاير: «الدبابات كما كانت معروفة في ذلك الوقت هي . . .» كذا، انتهى.

عنده هذه القوة هل يخشى من ابن سعود؟ فتلكأ الضيف بالجواب، وبعد أن ألح عليه سعدون وأمَّنه من بوادر غضبه أجابه دهام قائلاً: لو أن فيهم خيراً لما خضعوا لك وأنت بدوي ترحل عنهم في الشتاء وتأتيهم في الصيف.

فدهش سعدون لهذه الصراحة التي لمست موضع الضعف من نفسه، والحق يقال: إن دهاماً محضه النصيحة، ولكنها ليست في محلها. وفي جواب دهام نقرأ سر انكسارات عريعر وسعدون وخلفائهما بالرغم من استعداداتهم الهائلة.

هاجم عريعر نجداً بجنوده سنة ١١٧٢، فوصل إلى الدرعية، واغتر به كثير من أهل نجد[١]، وخرجوا عن الطاعة، ولكنه رجع بدون طائل. وفي سنة ١١٧٨، اغتنم فرصة هزيمة أهل الدرعية في وقعة حائر سبيع أمام قوات السيد حسن بن هبة الله صاحب نجران الذي كان على موعد مع عريعر، فلم تكد جيوش النجرانيين تغادر العارض بعد الصلح حتى هاجم الدرعية بعساكره ومدافعه، ولكن الدرعية وقفت أمام هجماته وقفة المستميت حتى اضطر أن يرحل عنها، وما زال يشن الغارات، ويثير أهالي نجد بمؤازرة دهام بن دواس إلى أن قضى عريعر نحبه حتف أنفه على الخابية[٢] من

(١) في النسخة ب: الذين لم تخلص سرائرهم.

(٢) في النسختين أ و ب: (سنة ١١٨٨) وزاد في ب: قرب بلد النبقية. وانظر ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ١٢٢.

نجد، وله من الأبناء بطين وسعدون، ودجيني ودويحس، وزيد[(١)]، فتولى بطين فخنقه أخواه سعدون ودجيني غدراً، ومات دجيني بأكلة مسمومة من يد أخيه سعدون، فاستبد بالأمر، وساءت سيرته؛ مما أثار عليه الأهالي سنة [١١٨٩][(٢)]، فقمع الثورة بقسوة لا مزيد عليها، وقتل كثيراً من أهل الأحساء، ولكلمة دهام التاريخية أثرها في تلك الثورة[(٣)].

وفي سنة ١١٩٦، انتقض أهل القصيم على آل سعود ما عدا بريدة، فاستدعوا سعدوناً[(٤)]، فجاءهم بجموع لا تعد، وقبض على العلماء الدعاة، فقتلهم، ومثَّل بهم، وحاصر بريدة عدة أشهر، ورماها بالمدافع، وشدَّد عليها الهجوم، فسقطت جنوده تحت أسوارها، وعاد منها بخفي حنين.

ولأمير بريدة حجيلان بن حمد العليان[(٥)] حكايات مجد وبطولة في ذلك الدفاع سارت بها الركبان.

---

(١) في النسخة أ: وماجد. وفي ب: وماجد ومحمد.

(٢) في الأصل: سنة ١١٨١هـ. وهو سهو، والتصويب من النسختين أ و ب، وابن بشر، عنوان المجد ج١ ص١٢٧، وهو مصدر المؤلف.

(٣) في النسختين أ و ب: في إخماد تلك الثورة.

(٤) في هامش النسخة أ: «يذكر جواد ساباط في كتابه (البراهين الساباطية) أن سعدونًا أرسل أباه إبراهيم ساباط سفيراً إلى كريم خان الزندي سنة ١١٩١هـ، وأسفره ثانيًا سنة ١١٩٢هـ».

(٥) بقي حجيلان في إمارته إلى أن أخذه إبراهيم باشا معه أسيراً، ومات في المدينة سنة ١٢٣٣هـ (المؤلف). وفي النسخة ب: سنة ١٢٣٤هـ وقد ناف على الثمانين.

وفي سنة ١٢٠٠ زاد طغيان سعدون حتى على قومه بني خالد، فاتفق المهاشير وآل صبيح ورئيسهم عبدالمحسن بن سرداح آل عبيدالله وهو خال دويحس بن عريعر على عزل سعدون ونصب أخيه دويحس مكانه، واستعانوا بثويني بن عبدالله رئيس المنتفق فأنجدهم، وكانت وقعة جضعة[١] التي دارت الدائرة فيها على سعدون ومعه شقيقه زيد، ففرا إلى الدرعية مستجيرين بالإمام عبدالعزيز[٢]، وتولى أمر بني خالد عبدالمحسن السرداح[٣] باسم ابن أخته دويحس، فجاهر بعداوة آل سعود لإيوائهم خصومه، وتجهز لغزو القصيم مع ثويني سنة ١٢٠١[٤]، ولكنه رجع لرجوع ثويني كما سيأتي.

وفي سنة ١٢٠٤ أوقع بهم سعود على غريميل بالقرب من الأحساء، واستولى على كافة ما لديهم من الأنعام والأموال، وهرب عبدالمحسن إلى حلفائه المنتفق، وأعاد سعود زيداً [زيد] بن عريعر إلى إمارة الأحساء، فأذعن له بنو خالد، واجتمعوا عليه.

---

(١) ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص١٥٦.

(٢) في النسختين أ و ب: بالإمام سعود. وهو خطأ.

(٣) في هامش النسخة أ: «براك بن عبدالمحسن السرداح، ومحمد العلي رئيس المهاشير قتلا في وقعة الأبيض قرب السماوة مع سعود، وهي الوقعة التي قتل فيها مطلق بن محمد الجربا».

(٤) في النسختين أ و ب: سنة ١٢٠٠هـ. والمثبت في النص يتفق مع التاريخ الذي ذكره ابن بشر (ج ١ ص ١٥٩) وهو مصدر المؤلف.

وفي سنة ١٢٠٥هـ[(١)] أرسل زيد إلى عبدالمحسن، وأمَّنه، ثم غدر به، وقتله في مجلسه، فانشق بنو خالد على زيد، وانضموا إلى براك بن عبدالمحسن السرداح، فاجتمعت جموعهم الكثيرة للغزو، وكانوا غازين على قبيلة سبيع، فلم يشعروا في ورودهم ماء الشَّيِّط[(٢)] إلا وجيوش سعود قد داهمتهم، فأوقعت بهم، وكانت هذه الوقعة هي الفاصلة، إذ لم تقم لبني خالد بعدها قائمة، ولم ينج براك إلا مع شرذمة قليلة إلى المنتفق.

إن وقعتي غريميل والشَّيِّط جواب مسكت لاعتداءات عريعر وسعدون وابن سرداح ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[(٣)] [البقرة: ١٩٤] وهكذا كان، ودخل سعود الأحساء، فبايعه أهلها، ورتَّب فيها علماء وعمالاً، ولم يكد يرحل عنها حتى غدر زيد بن عريعر، وقتل مَنْ عنده من أهل نجد، وفر بعض الحامية، واستقل بحكم الأحساء، فلم يمهله سعود طويلاً، إذ أعاد الكرة على الأحساء ثانية سنة ١٢٠٧، فأوقع بقراها، ونهب كثيراً من نخيلها، وحاصر زيداً في المبرز[(٤)]. وبعد أن ضاق

---

(١) عند ابن بشر ١٢٠٦هـ.

(٢) زاد في النسخة ب: بقرب ماء اللصافة.

(٣) في الأصل: ومن اعتدى عليكم.

(٤) عاصمة الأحساء الهفوف، وهي الكوت الذي بناه الترك [في النسخة ب: وهي الكوت (القلعة) وفيه القصر المسمى بقصر إبراهيم الذين بناهما الترك] سنة ١٠٤٠هـ وما أحاط به من حارات النعاثل والرفعة، ولكن آل حميد بنوا بلد المبرز شمالاً عن الهفوف على مسافة نصف ساعة، وجعلوها عاصمتهم؛ لأنها تلائم طبيعة البداوة في موقعها، والمبرز الموضع الذي تبرز فيه القوافل، وتتجمع فيه، ومنه اشتق اسم البلدة، وهي الآن عامرة آهلة بالسكان (المؤلف).

الأمر بأهل الأحساء وسّطوا براكًا [براك] بن عبدالمحسن، فسعى للصلح وتجديد البيعة، وعاد سعود إلى الدرعية، ولكنهم خانوا براكًا أيضًا، فقاتلهم، وأجلى أولاد عريعر بعد قتال عنيف، وأطاعت له الأحساء، وصار نائبًا فيها لعبدالعزيز وكانت سنة ١٢٠٨ قد دخلت.

وانتهت دولة آل حميد بعد أن حكمت قرنا وربع قرن و ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

(٣)
سليمان باشا وثويني

سليمان باشا أبو سعيد أحد ولاة العراق، وكان في بدء أمره متسلمًا للبصرة، وفي سنة ١١٨٨ حاصرته جنود العجم أيام الشاه كريم خان الزندي صاحب شيراز بقيادة أخيه صادق خان، فدافع عنها دفاعًا شديدًا مجيدًا حتى أكل جنوده الكلاب والهرر والفيران، ولم يسلمها إلا بأمر مصطفى باشا الذي جاء على رأس جيش لإنقاذ البصرة، فخان، واستولى على بغداد، وقد استباح الأعاجم البصرة، وقبضوا على سليمان باشا وبعض أعيانها، وأرسلوهم إلى شيراز وعذبوهم عذابًا شديدًا، وظلوا إلى أن مات كريم خان، وأخلى أخوه البصرة، فعاد سليمان إلى الحويزة، وكاتب أمراء المنتفق، واستولى على البصرة، وطلب وزارة بغداد سرًا، فصدر له الفرمان الشاهاني[1] بذلك سنة ١١٩٤، وبقي فيها إلى أن مات سنة ١٢١٧.

وكانت الفوضى في تلك الأيام ضاربة أطنابها في المملكة العثمانية، وليس للسلطان إلا الاسم، وهو ألعوبة في يد رؤساء وجاقات الانكشارية[2] أصحاب الحل والعقد، وكل من طمحت نفسه للولاية

(١) **الفرمان**: كلمة فارسية تعني الأمر. والفرمان الشاهاني يعني كل أمر أو مرسوم من السلطان العثماني. موسوعة السياسة ج ٤ ص ٥٠٥.

(٢) **الانكشارية**: فرقة كان لها مركز ممتاز بين فرق الجيش العثماني. تمتعت في القرنين ١٧م و ١٨م بسلطة كبيرة، فكانت تنصب السلطان وتخلعه. قضى =

خطبها، وقدَّم بين يدي نجواه صدقة، والرشوة تلعب في وزراء الدولة وولاتها، والاضطرابات عامة حتى إن الوالي لا يهدأ لكثرة الانتفاضات والخارجين في أطراف ولايته.

وفي أيام سليمان باشا كانت نجد كلها قد خضعت تقريبًا لآل سعود، فأوجس خيفة منهم، وصمم على محاربتهم وخضد شوكتهم، وازداد حنقًا لما استولى الإمام سعود على الأحساء والقطيف وضمها إلى المملكة، وسولت له نفسه إعادة تلك الولاية إلى حضيرة [حظيرة] المملكة العثمانية تأييدًا لمركزه، فأظهر العداء لآل سعود، وشن الغارات عليهم، وساعده على ذلك عرب المنتفق وشمر العراق، وأهل نجد المقيمون في العراق والزبير ومتولي كبرهم ثويني بن عبدالله بن محمد بن مانع الشبيبي[1]، وهو هاشمي النسب، ورئاسة قبائل المنتفق ترجع إلى بيتهم من قديم؛ لأن المنتفق خليط من قبائل شتى تجمعهم رابطة التحالف والمجاورة والمصاهرات إلى أن كونوا قبيلة كبيرة تحكمت في نواحي العراق، وكادت تستقل بحكمه حتى إنهم كسروا جيوش العجم الذين استولوا على البصرة في وقعتي الفضيلة وأبي حلانة شَرَّ كسرة، وأوقفوهم عن التوغل في العراق، وبلغ بثويني نفسه أن استولى على البصرة سنة ١٢٠١، وخطب ولاية بغداد من

= السلطان محمود الثاني على فرق الانكشارية في مذبحة جرت في إسطنبول سنة ١٨٢٦م. موسوعة السياسة ج ١ ص ٣٧٣.

(١) مانع الشبيبي جد ثويني سبق له أن استولى على البصرة بعربه سنة ١١٠٦هـ (المؤلف).

الآستانة بطلب من أهالي العراق وسفارة مفتي البصرة، ولولا أنه عربي لصدر له الفرمان الشاهاني؛ لأن الفرمانات كانت تصدر بأقل من تلك الوسائل[(١)].

وثويني على علاته نصف متحضر، فهولا يخلو من طباع البدو في معاملته للولاة؛ فتراه تارة يخضع وينقاد، وتارة يعصي، وأخرى يتغلب، والولاة يحاربونه مرة، ويدارونه أخرى.

استعان به عبدالمحسن بن سرداح رئيس المهاشير من بني خالد[(٢)] على منافسه سعدون بن عريعر، فجرت بينهم وقعة جضعة سنة ١٢٠٠ في نقرة بني خالد، انتصر فيها ثويني، وفر سعدون إلى خصومه آل سعود، فاغتنم سليمان باشا الفرصة، وحرّض ثويني على قتال أهل نجد، وأمدَّه بالذخائر والأموال، فجهز جيوشه من المنتفق، وعشائر شمر العراق، وحضر عقيل[(٣)]، وأهل الزبير ومعه ما ينوف على سبعمائة حمل من الذخيرة

---

(١) ومن ذريتهم [في النسخة ب: وهم الآن يعرفون بالسعدون] من عينته الحكومة العثمانية والياً على البصرة وعشائر العراق - لأغراض سياسية في بلاد العرب - وهو ناصر باشا بن راشد السعدون، ولما أخذ مدحت باشا الأحساء سنة ١٢٨٨هـ على أثر وقعة جودة وحاصرها الإمام عبدالرحمن الفيصل بعد ذلك سنة ١٢٩٠هـ وكاد يستولي عليها كما سيأتي كلفت الحكومة ناصر باشا الوالي بأن يفك الحصار ففعل (المؤلف).

(٢) في النسخة ب: عبدالمحسن بن سرداح العبيدالله أحد رؤساء بني خالد. وفي النسخة أ تعديل على النص بنحوه.

(٣) عقيل من سليم نزحوا من نجد إلى بلاد البحرين في القرن السابع في الوقت =

والعتاد، فنازل القصيم، واستولى على قرية التنومة بخدعة، فاستباحها، وقتل أهلها، فأخاف بذلك بقية أهل القصيم، فاستعدوا للدفاع، ولكنه رفع الحصار فجأة، وعاد بدون سبب إلى البصرة، فاستولى عليها، ولعله كان يبطن ذلك، وأرسل مفتي البصرة بمحضر من أكابر أهلها ومن فيها من أهل العراق إلى الآستانة، وخطب ولاية بغداد[1]، فجهز عليه سليمان باشا عسكرًا من الأكراد يقوده بنفسه، وآزره حمود بن ثامر بن سعدون بن محمد بن مانع على عمه ثويني -لأن ثامرًا أخو ثويني لأمه وابن عمه- وتمت الهزيمة على ثويني في وقعة أم العباس سنة ١٢٠٢، فهرب إلى الجهرا بقرب الكويت، ثم إلى الصمان عند صديقه عبدالمحسن السرداح حيث هاجمهم الإمام سعود، وشتتهم، واستولى على جميع ما لهم، وتولى حمود بن ثامر إمارة المنتفق.

وعاد ثويني إلى سفوان بقرب الزبير، فخرج إليه حمود بن ثامر،

= الذي نزح فيه أبناء عمهم بنو هلال إلى مصر والمغرب لمجاعة وجدب نزل بهم، وقد استولوا على البحرين، ورؤساؤهم آل أجود الذين زالت دولتهم بدخول الترك الأحساء في القرن العاشر، ومن ذلك الوقت أطلق الأتراك اسم عقيل على كافة البدو، وبعدها تخصصت هذه اللفظة لحضر أهل نجد الذين يأتون العراق والشام للتجارة والإقامة في ربوعها، ولا يزال هذا الاسم شائعاً إلى الآن. (المؤلف).

(١) زاد في النسخة ب: «فاستشاط السلطان غضبًا، وكاد يفتك بالمفتي، وصدرت الأوامر بطرده من البصرة».

وقاتله، وأجلاه، فهرب إلى الدورق[1]، ومنها التجأ إلى[2] خصومه آل عريعر فلم يقبلوه، فأمّ الدرعية حيث أكرمه الإمام عبدالعزيز غاية الإكرام، وأعطاه عطاء جزيلاً، ولكنه ثويني في تقلباته وسياسته المكيافيلية. ومن الدرعية رجع إلى العراق، وطلب العفو من سليمان باشا، فعفا عنه.

وهكذا نرى ثويني يتقلب مع الدهر، ويلجأ إلى أعدائه، ولا يبالي أن يقلب لهم ظهر المجن، ويخلق من أصدقائه أعداء؛ لأنه لا يخلو من طباع البدو وهم غالبًا ليسوا بأهل سياسة، ولا يحسبون للمستقبل حسابًا.

ولما استولى آل سعود على الأحساء رأى فيه سليمان باشا خير من يدفعه لقتالهم، فعزل حمود بن ثامر، وولاه مكانه سنة ١٢١١، وأمره بقتال أهل نجد، وجهزه بالعساكر والقوات، فخرج من العراق بجموع لا تعد ولا تحصى، ولما تكاملت جنوده بالجهرا بالقرب من الكويت رحل منها يؤم الأحساء قاصداً الاستيلاء عليها.

وقد حشد له سعود جميع أهل نجد للدفاع، ولكن جموع ثويني هالته لكثرتها ووفرة استعداداتها، ونزل ثويني على ماء يسمى الشّبَّاك[3] في نقرة بني خالد، فكفى الله المؤمنين القتال، إذ قتل ثويني في معسكره، ولم

(١) خزعل، تاريخ الجزيرة العربية ٣٣٢. وفيه: الدورق، إحدى مدن عربستان.

(٢) في الأصل: إلى التجأ إلى سبق قلم، والتصحيح من النسختين أ و ب.

(٣) **الشباك**: جمع شبكة، وهي وصف للآبار المتقاربة سميت بذلك لتجاورها وتشابكها. وهو موضع يقع جنوب (أبو حدرية). الجاسر، المنطقة الشرقية، ج٢ ص ٩٠٧.

تنفعه قواته، قتله عبد اسمه طعيس بحربة لموجدة عليه في نفسه في غرة المحرم سنة ١٢١٢، فتخاذل جنود ثويني بعد قتله، وتفرقوا أيدي سبأ[١]، وتبعهم أهل نجد يقتلون وينهبون إلى حدود العراق، وعادت إمارة المنتفق إلى حمود بن ثامر ثانية.

وكان بديهيًا أن يقابل سعود حملة ثويني بمثلها، ويرد زيارته، فأغار على المنتفق في قرية أم العباس، فانتهبهم، وعاد، وتبعه حمود فلم يدركه، وكر ثانيًا على بادية شمر العراق، ففتك بهم، وقتل رئيسهم مطلق بن محمد الجربا الفارس الشهير سنة ١٢١٢، فغلت مراجل غضب سليمان باشا، وقامت قيامته.

وفي سنة ١٢١٣ جهز حملة كبيرة من العساكر الشاهانية بقيادة الكتخدا علي بيك ومعه حمود بن ثامر بالمنتفق وبادية العراق، وناصر بن محمد الشبلي من أهل القصيم، رئيس عقيل وجماعته، وفارس بن محمد الجربا الشمري بعربه، ومع الكتخدا محمد بن عبدالله الشاوي الحميدي أحد دهاة العرب، وجمع غفير من أهل الزبير برئاسة إبراهيم بن ثاقب بن وطبان.

(١) زاد في النسخة ب: «وكان سعود قد أرسل حسنًا [حسن] بن مشاري بن سعود في سرية مقدمة له. فقدم إليه براك السرداح منهزماً بعد مقتل ثويني وحصل الفشل في جنوده». وقول المؤلف: تفرقوا أيدي سبأ، مثل يضرب في الفرقة وعدم التجمع، وينطق بدون همز: تفرقوا أيدي سبا، وأيادي سبا. ابن منظور، لسان العرب ج ١ ص ٩٤.

مشت هذه الجموع العظيمة ووجهتها الأحساء، فاحتلتها بدون كبير مقاومة لمواطأة من أهلها، لأن أكثرهم شيعة، وأهل السنة منهم لا يزالون وفي نفوسهم شيء من وضعية الحكم، وتحصن المرابطون من أهل نجد بالحصون، فتحصنت فرقة برئاسة سليمان بن محمد الناصري[1] بقصر صاهود بالمبرز، والفرقة الأخرى برئاسة إبراهيم بن سليمان بن عفيصان أمير الأحساء تحصنت بالكوت معقل الهفوف، وفيه الحصن الكبير قصر إبراهيم المذكور، ولا يزال بهذا الاسم إلى الآن.

وكانت شدة الضغط موجهة إلى ابن ماجد الناصري في قصر صاهود؛ لأنه منفرد عن المبرز وعلى مقربة منها[2]، فلم يدع الكتخدا وسيلة من وسائل الهجوم إلا واستعملها فلم ينل طائلاً، وقد قاومت الفرقتان مقاومة الأبطال واستماتوا في الدفاع على قلتهم[3]، ولم تؤثر فيهم هجمات الجند العراقي ولا مدافعه شيئًا.

وطالت مدة الحصار والكتخدا لم يتمكن من الفتح، فاشتد القحط على عساكره لكثرتهم، وشاع في الجند أن هناك خيانة، والحقيقة أن ابن

(١) في النسخة ب تعليق بخط مغاير: «ابن ماجد الناصري التميمي. من أهل ثادق عاصمة المحمل».

(٢) زاد في النسخة ب: «وأقل مناعة من الهفوف، وسقوطه يؤثر على مركز ابن عفيصان».

(٣) زاد في النسخة ب: «وكانت السنة مجدبة والوقت قيظًا، فلم يتمكن سعود من إمدادهم لهزال الإبل وصعوبة تموين الجيوش في تلك المضامىء [المظامىء] المهلكة، ومع ذلك فقد ثبتوا».

شاوي كان في السابق سفيراً بين العراق والدرعية، وكان ذا فكر ثاقب، وقد أثرت فيه تعاليم الشيخ، واعتقد بصحتها، ومال إليها، وكتم ذلك في نفسه، ومثله إبراهيم بن ثاقب بن وطبان - وطبان الذي قتل ابن عمه مرخان جد آل سعود وفر إلى الزبير كما تقدم - وقد تأثر بالعصبية لأبناء عمه، فأخذا يهولان على الكتخدا، ويصفان له قوى سعود التي ستأتي لنجدة ابن عفيصان، وساعدهما على ذلك خازنداره؛ لأنه اختلس كثيراً من الأموال ومن صالحه أن تقع الهزيمة ويختلط الحابل بالنابل حتى لا يحاسب، فاستولى الرعب على الكتخدا، ورجع لا يلوي على شيء، واضطر الذين واطئوه [واطؤوه] من أهل الأحساء أن يتبعوه في حالة سيئة وأكثرهم من الشيعة.

وكان سعود قد أقبل بجموعه لنجدة ابن عفيصان، فبلغه خبر انسحاب الكتخدا علي بك، فجدَّ في طلبه حتى أدركه على ثاج، وجرت بين الجيشين وقعة، قُتِل فيها خالد بن ثامر أخو حمود بن ثامر، وتقهقرت الجنود العراقية، وجرت مفاوضات الصلح، فانعقد؛ لأن سعوداً كان خالي الوفاض من الزاد، فقد جد في أثر جند الكتخدا، ولم يعرج على الأحساء خوفًا من فوات الوقت.

أما الكتخدا فقد لمس الضعف في معنويات جيشه، ولم يعد يثق بالنصر خصوصًا بعد ما شاهده من قتال أهل نجد. ونحن نثبت نصوص مكاتبات الصلح هنا لكونها وثائق يثبت منها اعتداء حملة سليمان باشا،

وتدل على عقلية الكتخدا ومرونة سعود السياسية ودهائه، ولإشباع كبرياء الكتخدا، ومجاراة لأنفته العسكرية الموهومة اقتضت المفاوضات أن يكون سعود هو البادئ فكتب إليه ما نصه:

«من سعود بن عبدالعزيز إلى علي! أما بعد. فما عرفنا سبب مجيئكم إلى الحسا. أما أهل الحسا فإنهم روافض ونحن جعلناهم بالسيف مسلمين، وهي قرية ليست بداخلة في حكمكم، والذي يحصل منها قليل بالنسبة إلى تعبكم وإلى مصاريفكم، ولو أن جميع أهل الحسا وما يليها تؤدي إليكم دراهمها لم تعادل مصاريفكم في هذه السفرة فقط.

وما كان بيننا وبينكم من المضاغنة إلا ثويني، وقد لقي جزاءه، فالآن مأمولنا المصالحة، وهو خير لنا ولكم، والصلح سيد الأحكام».

فأجابه الكتخدا: «من علي باشا إلى سعود بن عبدالعزيز، أما بعد قد أتانا كتابك وكلما [وكل ما] ذكرته من أمر المصالحة صار معلومنا، لكن على شروط نذكرها لك، فإن قبلتها وعملت بها فحسن، وإلا فما نحن عاجزون عنك حيث لنا مدة أربعة أشهر نجوب بلادك وما قدرت تظهر من مكانك غير هذه الدفعة، وأيضًا اغتررت بقول ابن عفيصان.

فأما **الشرط الأول** فهو أن لا [ألاَّ] تقرب الحسا بعد الآن.

وأما **الثاني** فهو أن ترجع الأطواب التي أخذتها من ثويني.

وأما **الثالث** فهو أن تعطينا جميع ما صرفناه على هذا السفر.

وأما **الرابع** أن لا [ألاَّ] تتعرض للحجاج الذين يأتون إليك من طرف العراق مع الأمنية العمومية في جميع الطرق. فهذه الشروط التي أخبرناك عنها، والسلام على من اتبع الهدى».

والمضحك من الكتخدا أنه يملي شروطه وهو على تلك الحالة، ويطالب بالأمن وهو يعلم أن الأمن غير مفقود إلا في العراق وباديته، ولكنه لم يتردد في قبول الصلح بعد أن جاءه جواب سعود الذي ضرب بشروطه عرض الحائط حيث يقول:

«جاءنا كتابكم وفهمنا معناه، فأما الحسا فهي قرية خارجة عن حكم الروم - يعني الترك - ولا تساوي التعب وما فيها شيء يوجب الشقاق. وأما الأطواب فهي عند والدي بالدرعية إذا صدرت لديه أعرض الحال بين يديه، والوزير سليمان باشا أيضًا يكتب له، فإن صحت المصالحة، وارتفع الشقاق من الطرفين، فهي لكم وأنا الكفيل بها حتى أوصلها إلى البصرة. فأما مصاريفكم فإني لم أملك من هذا الأمر شيئًا، والشور[1] إلى والدي، وأما ما ذكرتم من عدم التعرض للحجاج فحبًا وكرامة. وأما الأمنية فهي التي لا نزال نقاتل الناس عليها حتى جعلنا الأرض كلها لله وجميع المسلمين مشتركين فيها، وصار الذئب لا يقدر يضر الشاة في أحكامنا».

وعلى هذا قبل الكتخدا الصلح وعاد كل إلى وطنه، ومن عبارة هذه المكاتبات نقف على نوايا الولاة العثمانيين ونفسياتهم، وإن كانت المسألة لم

(١) في هامش النسخة ب: «من الاستشارة، ويقصد: الرأي فيها لوالدي».

تكن إلا مهزلة من المهازل انتهت بعكس ما يريدون لسوء التدبير والفوضى، ولم يكن الدافع لهم إلى مقاومة آل سعود إلا خوف توسع مملكتهم وتكوّن دولة عربية في قلب الجزيرة يخشى منها على مقام الخلافة.

وقد يتساءل البعض عن سبب تأخر سعود عن إنجاد ابن عفيصان قدر أربعة أشهر إذا لم يكن له علم بطبيعة جزيرة العرب وصحاريها وصعوبة تجنيد الجيش في أيام القيظ لشدة الحر، وقلة المياه، وبالأخص إذا كانت السنة مجدبة، أما العليم بذلك فقد يعد حصوله من الخوارق.

وفي سنة ١٢١٦ أغار سعود بخيله ورجله على أطراف العراق وبواديه جوابًا على حملة الكتخدا[1]، فخرج علي بيك لقتالهم ومعه قوات من الجند والعرب، فإذا هم أمام سور نقال، أو متاريس جعلها النجديون من الإبل المصفوفة المقرون بعضها إلى بعض وزحفوا وراءها، وكثيراً ما استعملت هذه المتاريس في الحروب العربية (يقال لها مساويق والواحد مسيوق) فتقهقر الكتخدا، وعاد سعود بما غنمه.

وفي هذه السنة عاد سعود بصفة أكثر جدية، فهاجم كربلاء، وفتحها عنوة بالسيف، واستولى على مزار الحسين المقدس عند الشيعة، فهدم قببه، واستحوذ على كنوزه، ولم يخرج الكتخدا إلى قتاله إلا بعد أن قضى أربه من كربلاء، وغادرها سالمًا غانمًا، ولكنه أدى ثمنًا باهضًا [باهظًا] لهذا الفتح الذي أقام الشيعة وأقعدها، فتطوع أحدهم، وجاء إلى الدرعية بصفة

(١) زاد في النسختين أ و ب: وردًا لزيارته.

درويش، واغتال الإمام عبدالعزيز في المسجد سنة ١٢١٨، كما أنه أشغل بال الدولة العثمانية بصفة جدية خصوصا بعد استيلائه على الحجاز.

ويجب أن نتساءل هنا عن اكتفاء الإمام سعود بشن الغارات على العراق دون أن يفكر في امتلاكه مع مساعدة الظروف له لاختلال أمور الولاة وضعفهم.

ويظهر لنا أنه لم يفكر في ذلك قط، ويدلنا عليه جوابه لابن شاوي الذي أرسله سليمان باشا إلى الدرعية يطالب بالمنهوبات. فقال له: أما يكفي سليمان باشا أننا تركنا له بغداد وفي إمكاننا أن نحكم الجانب الغربي وندع له الشرقي. ومن قول سعود في جوابه للكتخدا عن الأحساء أنها قرية خارجة عن أملاك الروم.

فيظهر أنهم كانوا يتحاشون الاصطدام مع الدولة العثمانية، أو لم يكن لهم مطمع في أملاكها لولا أن الشريف غالب بتعدياته اضطرهم إلى دخول الحجاز، وقد كانت الحجاز شبه مستقلة، أما بعد موت سليمان باشا[1] فقد اشتغلوا بفتح الحجاز ومشاكله، ولم يأتهم من يبادؤهم بالعدوان من ولاة العراق؛ لأن خلفه داود باشا كان حكيمًا وسياسيًا حازمًا، وما كان آل سعود في جميع غزواتهم وفتوحاتهم إلا مدافعين.

---

(١) في النسخة ب: سنة ١٢١٧هـ.

(٤)

الشريف غالب

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[(١)] [البقرة: ١٩٤] هذا لسان حال آل سعود في فتحهم الأحساء ومهاجمتهم العراق، وعلى الأخص في فتحهم للحجاز. فقد تكالبت عليهم ولاة الدولة العثمانية من كل جانب، ومن أراد الزلفى منهم فما عليه إلا محاربة الوهابيين؛ ليحظى بالعطف الشاهاني، ومن جملة أولئك الولاة الشريف غالب بن مساعد الذي تولى إمارة مكة سنة ١٢٠٢، وكان في بداءة [بداية] حكمه مشتغلاً بمحاربة إخوته المناوئين له حتى استتب له الأمر، ولكي يوطد أركان حكمه ويتخذ له يداً عند السلطان يجب أن يحارب نجداً.

وهذا سليمان باشا أيضًا قد أخذ على عاتقه تنفيذ تلك الخطة نفسها للغرض نفسه فلم لا يكون زميله الشريف مثله، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

وقد هون عليه الأمر انقياد بادية الحجاز له تعصبًا ضد أهل نجد، فطفق يبحث عن سبب يتشبث به، فكتب إلى الإمام عبدالعزيز سنة ١٢٠٤[(٢)] يطلب أن يرسل إليه أحد علماء نجد؛ ليطلعه على حقيقة الدعوة الوهابية،

---

(١) وفي الأصل: ومن اعتدى عليكم.

(٢) في النسخة ب شطب على سنة ١٢٠٤هـ وجعل مكانها (١٢١١هـ)، وانظر الهامش التالي.

فأرسل له الشيخ عبدالعزيز بن حصين أحد علماء نجد، وأصحبه بكتاب من الشيخ محمد بن عبدالوهاب[1]، وأسلوب الكتاب يدل على إعظام أهل نجد لهم وعدم تفكيرهم في الاعتداء على الحجاز.

يقول الشيخ محمد في كتابه: «... فلما طلب منا الشريف غالب - أعزه الله ونصره - امتثلنا أمره، وأجبنا طلبه، وهو إرسال رجل من أهل العقل والعلم ليبحث مع علماء بيت الله الحرام حتى يتبين له -أعزه الله- ما عندنا وما نحن عليه، ثم اعلموا - أيدكم الله - أن المسألة إن كانت إجماعًا فلا كلام لنا ولا لغيرنا فيها، وإن كانت من مسائل الاجتهاد فمن عمل بمذهبه في محل ولايته لا ينكر عليه»[2].

هذا تنصل بديع وديع، وتمسك بحق شرعي لمن عمل بمذهبه في محل ولايته. تدلنا هذه العبارة على خطة آل سعود وقناعتهم بحكم نجد وما

---

(١) في هامش النسخة ب: «ذكر ابن غنام في حوادث سنة ١١٨٥هـ: وفيها أرسل الشيخ وعبدالعزيز إلى والي مكة أحمد بن سعيد الشريف هدايا، وكان قد كاتبهم وراسلهم، وطلب منهم أن يرسلوا فقيهاً وعالماً من جماعتهم يبين لهم حقيقة ما يدعون إليه من الدين، ويحضر عند علماء مكة، فأرسلا إليه الشيخ عبدالعزيز الحصين، وكتبا معه رسالة هذه نسختها. صفحة ٨٠ ج ٢، طبعة مصر.

وقال في حوادث سنة ١٢١١هـ: وفيها أرسل غالب الشريف رسلاً إلى عبدالعزيز يطلب منه علماء من أهل التوحيد، فعند ذلك أرسل إليه من أهل الدين من يكشف عنه شبه المبطلين، وكبيرهم حمد بن ناصر بن معمر ... إلخ. ص ٢٠٠ ج٢ طبعة مصر» انتهى.

(٢) نص الرسالة في ابن بشر، عنوان المجد ج ١ ص ١٧١.

يليه، ولم يسع الشريف غالب أمام هذه الحجج القاطعة والبراهين الساطعة إلا أن يتظاهر بأحقية كلام الشيخ، وأوعز إلى علماء الحرم بأن يقاطعوا الشيخ ابن حصين برغم استعداده للمناظرة ونفي ما ينسب إلى الوهابيين من الافتراءات والتهم، فلم يجد عندهم سوى السباب والتكفير والمغالطة.

واتخذ الشريف علماء الحرم حجة ووسيلة لإعلان الحرب على نجد، فجهز حملة قوية زهاء عشرة آلاف مقاتل، ومعها العتاد والمدافع والذخائر الكثيرة بقيادة أخيه الشريف عبدالعزيز، ووجهتها الدرعية وذلك سنة ١٢٠٥، ولم تكد تلك الحملة تتحرك حتى سبقتها أخبارها، وكانت فرصة سانحة للمعادين من أهل نجد والمنافقين من قبائل البدو الذين لا يروقهم انتشار الأمن وتوطد الأمور، إذ لا مكسب لهم إلا من النهب والسلب، فنقض أكثرهم البيعة، وانضموا إلى الحملة الحجازية.

وبعضهم كاتب الشريف يظهر استعداده، ويعرض مساعدته، ولكن الواقع كثيراً ما يظهر التزييف، فحملة الشريف التي جاءت لفتح الدرعية بتلك الكثرة والاستعدادات الهائلة ارتدت عاجزة أمام قصر بسام، وهو قصر صغير بقرب السر[(١)]، وليس فيه سوى ثلاثين رجلاً[(٢)]، ولم يكن بناؤه بالمتين، ولكن الجيش الهاجم تعوزه الشجاعة المعنوية وصدق العزيمة،

(١) في النسختين أ و ب: يسمى البرود.

(٢) زاد في النسخة ب: وهو قصر زرع.

فتركه الشريف، ونزل على السر أربعة أشهر ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] وأعاد الكرة على قصر بسام بحملة أشد وأنكى، فلم ينل منه شيئًا، ومن يعجز أمام هذا القصر الحقير فكيف يستطيع محاصرة الدرعية وأهلها على ما هم عليه من قوة وبطش؟

ولله قصر بسام وثلاثونه الأبطال من ميزان ناطق وبارومتر دقيق أفاد عن حقيقة الجيوش الغازية بما لا يستطيع الإتيان به مئات الجواسيس. إنها لفضيحة، وكأن الشريف عبدالعزيز أحس بهذا الضعف، فكتب إلى أخيه بحقيقة الحال، فتجهز غالب بجنود لا تعد ولا تحصى، ولحق بأخيه، وتولى القيادة بنفسه، ونازل قرية الشعرى(١)، وهي ليست أحسن من قصر بسام من حيث المتانة والبناء، وحاميتها لا تتجاوز الأربعين، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تصد الهجوم الحجازي، وبعد حصار شهر اضطر الشريف غالب أن يعود أدراجه راضيًا من الغنيمة بالإياب.

وما كان من سعود إلا أن عاقب الخائنين من بدو مطير، وشمر، وعنزة، فأوقع بهم على العِدْوَة(٢)، وشتت شملهم، وغنم أموالهم.

---

(١) الشعراء - بالعين الساكنة والألف الممدودة وهمزة - تنطقها العامة الشعرا بالعين المفتوحة والألف المقصورة، وهي بلدة في عالية نجد تابعة لمحافظة الدوادمي الآن. وحملة الشريف غالب على الشعراء أرخها ابن بشر في حوادث سنة ١٢٠٥هـ، وابن غنام في حوادث سنة ١٢٠٦هـ. ابن غنام، تاريخ نجد ج١ ص ١٧٧ (طبعة الأسد).

(٢) **العدوة**: وادٍ ينحدر من شمال سلسلة جبال رمان، ويطلق اسم العدوة =

ومن لم يعظه الدهر لم ينفعه ما   راح به الـواعـظ يومًا أو غــدا
مــن لــم تفـــده عبرًا أيـــامـــه   كان العمى أولى به من الهدى[1]

فإن الشريف غالب نسي الدرس الذي تعلمه في الشعرى [الشعراء] وقصر بسام بعد خمس سنوات فقط، ففي سنة ١٢١٠ - أي بعد أخذ آل سعود الأحساء والقطيف وازدادوا قوة إلى قوتهم - جهز فهيدًا الشريف ومعه كثير من البوادي الحجازية للانتقام من بوادي نجد، فأوقع بهادي بن قرملة[2] رئيس قحطان على ماء ماسل في عالية نجد، ولكن سعودًا لم يمهلهم، ففاجأهم في الحرة، وهزمهم، واستباح أموالهم.

وهاتان الوقعتان تمهيد لوقعة الجَمَّانية بالقرب من جبل النير في نفس تلك السنة، فقد تجهزت الجموع الحجازية بقضها وقضيضها بقيادة الشريف ناصر بن يحيى، فقابله هادي بن قرملة ومن معه من الجموع على ماء الجمانية، فانهزم الشريف ناصر، وترك خيمته ومدفعه وأموال قبائله غنيمة باردة لأهل نجد حتى بولغ في مقدارها[3].

= على منهلين في هذا الوادي، وبها قرية تقع شمال حايل بنحو سبعين كيلاً. الجاسر، شمال المملكة ج ٣ ص ٨٨٨.

(١) البيتان من مقصورة ابن دريد. ابن هشام اللخمي، الفوائد المحصورة في شرح المقصورة ص ٢٤٦.

(٢) في النسخة ب: هادي بن غانم المعروف بأمه قرمله.

(٣) أشار ابن بشر إلى نتائج المعركة ومقدار غنائمهما بتوسع. ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص٢١٤.

وفي تلك الأثناء كانت تربة، والخرمة، ورنية، وبيشة، قد دخلت في الطاعة وبايعت. والأشراف يعتبرون هذه البلاد مفاتيح الحجاز وقطعة منه، ولقد صدقوا؛ فتربة والخرمة مفتاح الحجاز، فتح الحجاز به عبدالعزيز الأول، وظل ذلك المفتاح إلى أن فتح به الحجاز مرة ثانية عبدالعزيز الثاني بعد قرن وربع.

وفي رمضان سنة ١٢١٢ غزا سعود إلى الشمال، فأوقع ببوادي العراق، وجاس خلاله، فاغتنم الشريف فرصة غيابه، فجمع ما لديه من قوة وبأس، وأقبل بجنود عظيمة واستعدادات ضخمة وفي عساكره أخلاط من الأمم والقبائل من بدوي وحجازي ويماني ومصري وتركي، وبدأ باسترجاع مفاتيح الحجاز.

نازل رنية، واكتفى بقطع نخيلها الخارجية، ونهب ما وصلت يده إليه، ولم يستطع الاستيلاء عليها، فرفع الحصار عنها؛ لأن في بيشة من مالأه من أهلها، وسلّموها له بعد قتال قليل، وشنت سراياه الغارة على بوادي نجد، فأتت ببعض الغنائم من الإبل وغيرها، وانتقل إلى الحزم [الراقي][(١)]، وهو يحلم بالانتصار والفتح، فكان التأويل أن داهمته القبائل النجدية التي جهزها الإمام عبدالعزيز على الخرمة، فكانت المجزرة الهائلة والخاتمة المحزنة.

(١) ما بين القوسين ليس في النسختين أ و ب، وهي ملحقة بالأصل.

فر الشريف غالب مع شرذمة من الخيالة لا يلوي على شيء، واستحر القتل في جنده ١٢٠٠، وقيل : ٢٤٠٠، فيهم كثير من الرؤساء والأشراف. أما العتادات الحربية والأموال والذهب، فحدِّث عنها ولا حرج. وهذه الوقعة من الوقائع الفاصلة في التاريخ بين الحجاز ونجد، إذ لم تقم للشريف غالب بعدها قائمة، وخشي أن تتقدم الجيوش النجدية إلى الحجاز بعد رجوع سعود من العراق، فبادر إلى طلب الصلح، وتم على شرط أن يأذن الشريف لأهل نجد بالحج.

وقد نازلت جنود سعود بلد بيشة سنة ١٢١٣، فاستعادتها، وحج سعود بالناس سنة ١٢١٤، وكان الحاج النجدي تلك السنة لا يعد ولا يحصى من جميع نواحي المملكة.

وحج في السنة الثانية أيضًا، وكانت العلاقة مع الشريف غالب علاقة مجاملة ومهاداة، وقد بذل سعود في الحجاز كثيرًا من الصدقات والخيرات، على أن مجاملة الشريف كانت صورية، وكان لا يملك عواطفه في إظهار كره النجديين والحط منهم والانتقام من كل من يأنس فيه الميل إليهم، ومن هؤلاء عثمان بن عبدالرحمن المضايفي[1] وزيره، فقد وشى به خصومه عند الشريف بأنه يمالئ أهل نجد؛ لأنه نجدي، وكفى بها جريمة لا تغتفر، فتنكر له، وكاد يفتك به لولا أن فر عثمان من مكة إلى بلدته العبيلة، وكتب إلى عبدالعزيز بما لقيه، وأن الشريف نقض العهد، واجتمع

(١) زاد في النسختين أ و ب: العدواني.

على عثمان جيرانه من رعايا آل سعود، وهم بوادي الحجاز، وأهل تربة والخرمة وبيشة ورنية، وأتاه هادي بن قرملة بقحطان، فزحف على الطائف، وفيها الشريف غالب، فلم يثبت لهم، وهرب إلى مكة، واستولى عثمان على الطائف بعد حصار قصير.

وكان سعود قد استنفر جميع بلدان نجد الحاضرة والبادية، وزحف إلى مكة وقت موسم الحج، وصادف أن سلطان مسقط وعمان كان حاجًا وهو أباضي المذهب، ففاوض عبدالله باشا العظم رئيس الحاج الشامي ومن هناك من رؤساء حجاج سائر البلدان، وقرروا الدفاع عن مكة، ولكن قوات سعود هالتهم، وأيقنوا أن لا طاقة لهم بها، فرجعوا إلى أوطانهم، وانهزم الشريف غالب إلى جدة، ودخل سعود وقومه محرمين بالعمرة، وولى على مكة الشريف عبدالمعين بن مساعد، و على الطائف عثمان المضايفي، وظل غالب في جدة يفاوض ويطاول، ليتسنى له تحصينها، وبالفعل حصنها، وخندق حولها.

فلما نازلها سعود وجدها حصينة لا تفتح إلا بالمطاولة والحصار، فتركها إلى أن يتسنى له ذلك، وهذا الفتح سنة ١٢١٧ .

وما دخلت سنة ١٢٢٠ إلا وجنود عبدالوهاب أبي نقطة أمير عسير تهاجم جدة، وقابلها غالب بما لديه من قوة، فانهزم، وأسلم البقية الباقية من الرجال والعدة، وأسقط في يده، وتوالت الأمداد، وشدَّد الحصار على مكة والمدينة وجدة، فاضطر غالب إلى التسليم والاستسلام، فعفا عنه

سعود، وجعله أميراً على مكة سنة ١٢٢١[1].

هذه خلاصة الحرب الحجازية النجدية وأسبابها التي انتهت بضم الحجاز إلى نجد، ولكن الشريف غالب ظل يبطن غير ما يظهر، ويكاتب الآستانة، ويرفع لها التقارير المطولة، وحدَّثته نفسه بالثورة بالرغم من الدروس القاسية التي تلقاها بين سنتي ١٢٠٤ - ١٢٢١، فأبقى لديه من حاج تلك السنة كثيراً من الأتراك والمغاربة بحجة أن رئيس الحاج الشامي أبقاهم بأمر السلطان، وهذا التمويه جر إلى قضية استثمرتها الدعاية التركية فيما بعد، وذلك أن الإمام سعوداً أدرك ما يجول في خاطر غالب، وفهم مغزى سياسته في إبقائه أولئك الجنود الغير رسميين، فمنع الحاج الشامي أن

(١) زاد في النسخة ب: «وفيها حج سعود حجته الثالثة، وتوالت حجاته بعدها ولنترك الكلام لشاهد عيان وهو المؤرخ الشيخ عثمان بن بشر، إذ يقول في تاريخ عنوان المجد، في حوادث سنة ١٢٢٥ . .» ثم نقل المؤلف ما في كتاب عنوان المجد ج١ ص ٣١٤، ٣١٥، وكتب المؤلف حاشية على قول ابن بشر: «وكسا الكعبة المشرفة بالقيلان» قال فيها: «القيلان نسيج من الحرير ووبر الإبل، تستعمل منه العباءات الثمينة، وهو ينسب إلى جيلان إحدى بلدان فارس. وذكر ابن بشر في حوادث سنة ١٢٢٣هـ أن القيلان كان أسود اللون».
وفي النسخة أ: «وفيها حج سعود حجته الثالثة. وفي سنة ١٢٢٢هـ حج حجته الرابعة، وفي كلتي [كلتا] الحجتين فرق الصدقات وأكثر الأعطيات، وكسا الكعبة بالقيلان الأسود الفاخر، وجعل إزارها وكسو بابها بالحرير المقصب بالذهب والفضة، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ونزل في قصر البياضية، وكان الشريف غالب يزوره أغلب الأحيان، ويظهر له التودد كالأخ الشقيق، وكثيراً ما كان سعود يدخل الحرم ويطوف بالبيت، وكان جلوسه مع خاصته فوق زمزم».

يأتي بتلك العساكر والعدد، وأن يتكلم باسم الدولة[1] إلا إذا تساوى مع سائر أمراء حجاج الأقطار الأخرى، ولم يظهر بذلك المظهر الممتاز، فانقطع الحاج الشامي لهذا السبب[2].

وما أشبه هذه الحادثة، بحادثتي المحمل المصري مع الحسين أولاً، ومع الحكومة العربية السعودية ثانيًا؛ لأن المنع سياسي لا ديني، ولكن الدعاية التركية[3] ذلك الوقت صورت المنع بصورة بشعة كما تمليها عليها أهواؤها؛ لأنهم لم يصدوا عن سبيل الله من آمن، بل من تسلَّح وكابر، والمؤمن لا يأتي إلا أعزلاً [أعزل] بخلاف منع غالب والحسين لأهل نجد عن قضاء فريضة الحج سواء كانوا جماعات أو فرادى، عزلاً أو مدججين بالسلاح، وشتان ما بين القصدين وطوايا النيتين، وإنما الأعمال بالنيات، وقد أظهر الله كلاً على نيته (وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون)[4].

---

(١) في النسخة ب: باسم السلطان.

(٢) زاد في النسخة ب: «ولكن الدعاية التركية أشاعت أن الوهابيين منعوا حجاج بيت الله».

(٣) في الأصل: الترك. والتعديل من النسختين أ و ب.

(٤) هذه ليست آية من القرآن كما أوردها المؤلف، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣، والنمل ٣٩]. وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

(٥)

نجـــــران

نجران وكور عقبان، وقنن جبال ضيقة المسالك وعرة الطرق تجعل سكانها في حرز حريز، وفي مأمن من هجمات الغزاة، ولأهلها طبيعة بلادهم من الصلابة والخشونة، وهي واقعة على ضفاف البحر السافي أو الأحقاف، وتسكنها قبائل يام من العرب القحطانيين (العاربة)[١].

ورؤساؤهم تلقب بالسادة، وهذا اللقب معروف لهم من أيام الجاهلية. فكان رئيس وفدهم إلى النبي ﷺ يقال له: السيد[٢]. ولا يذكرها التاريخ بشيء من الأهمية، وهي لبعدها وتغلغلها في قلب جزيرة العرب ظلت في معزل عن غزوات الهاجمين، ولقبائلها صفة التعصب لبعضها

(١) جاء في النسخة ب مكان ما تقدم عن نجران: «نجران أحد الأنهر القديمة في العصور الجيولوجية الأولى، وهو اليوم واد خصب تجري فيه السيول من جبال اليمن، وتصب في الربع الخالي، وله شهرة تاريخية محاطة بأساطير خيالية، وكان أهله يدينون باليهودية قبل الإسلام، وهم أصحاب الأخدود الذين حرقوا فيه من تنصر منهم، وأهلها من قبائل يام من العرب القحطانيين».

(٢) زاد في النسخة ب: «أما سادتها اليوم ويقال لهم: المكارمة، فيقال: إنهم حديثون أتوا إليها بعد القرن العاشر كدعاة، فصار لهم التغلب، وهي لبعدها وتغلغلها في قلب جزيرة العرب صارت ملجأ لدعاة الجمعيات السرية خصوصًا الباطنية مؤسسة عبدالله بن سبأ اليهودي الذي يقال: إنه كان نجرانيًا أو يمانيًا، ووليدتها الدعوة الإسماعيلية التي اتخذت الخفاء والحجب، ولا يزال لهذه العقيدة شيوع في تلك الأصقاع في طي التكتم والغموض» انتهى.

البعض، ومنها من انتقل إلى نجد في ظروف مخصوصة، فانتجعوها، وخالطوا قبائلها، وأهمها قبيلة العجمان المشهورة.

وللبدو خصلة الغارة والسلب وأخذ الثأر. وبينما كان عبدالعزيز بن محمد ينشر لواء الأمن في ربوع نجد، ويؤدب عصاة بلدة جلاجل من سدير جاءه الخبر بأن ركبًا من العجمان قد أغار على ناس من سبيع، وأخذ أموالهم، فجد عبدالعزيز في طلب ذلك الركب حتى أدركه في قذلة[1]، وأوقع برجاله، واسترد ما نهبوه بعد أن قتل منهم خمسين رجلاً، وأسر مائة وذلك سنة ١١٧٧.

وما كان من الفلول إلا أن يمموا شطر نجران، فاستصرخوا قبائلها، واستنفروها لأخذ الثأر، فأقبل أهل نجران بقضهم وقضيضهم بقيادة السيد حسن بن هبة الله، ولاقاهم عبدالعزيز بجنوده. وكانت وقعة الحاير (حاير سبيع) سنة ١١٧٨، انتصر فيها النجرانيون، فقتلوا من جيوش عبدالعزيز خمسمائة، وأسروا جمعًا غفيرًا، ورجع عبدالعزيز إلى أبيه في الدرعية، فلاقاه الشيخ بعبارات التشجيع، وعزاه بقوله تعالى: **﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ[2]﴾** [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فإن السيد النجراني

---

(١) **قذلة:** وتسمى حدبا قذلة، صحراء مستوية كانت تسمى قديمًا الهلباء، تقع شرق مدينة القويعية. ابن جنيدل، عالية نجد ج ١ ص ٣٦٢.

(٢) في الأصل: إن يمسسكم جرح فقد مس القوم جرح مثله . . . .

اكتفى بنتيجة الوقعة، ورآها كافية لشفاء نفسه، فمال إلى الصلح، وافتديت أسرى قذلة بأسرى الحائر، وعاد أدراجه راجعًا إلى بلاده بعدما كان قد مهد لغزوته تلك بمكاتبة عريعر وجملة المعادين من أهالي نجد لعقد تحالف وتعاون على حرب الدرعية وإشغالها من كل جهة، وكانت خطة محكمة، لو نُفِّذت كما وضعت لروى لنا التاريخ نتائج لا يعلم مداها إلا الله، ولكن سرعة تصادم النجرانيين بأهل الدرعية في الحاير عجل الصلح معهم، وتباطئ [تباطؤ] عريعر إلى ما بعد فوات الوقت أرجعه مدحوراً مكسوراً، والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء، والعاقبة للمتقين.

وقد تكون في بعض الجيوش من القعدة المتخاذلين أقلية تكفي لجرها إلى الهزيمة في ساعات النصر؛ لأن الجيش المحارب كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وقد يكون ذلك الانكسار الذي تسببه تلك الفئة بالنسبة لعدوه نصرًا يأتيه عفواً، وكأنما أحرزه بحنكته أو قوة أيده، فيسبغ عليه طلاء من الشهرة قد تكون مبالغ [مبالغًا] فيها أكثر من اللازم، وهكذا فقد كان جيش عبدالعزيز لم يخل من بعض الجراثيم التي سببت الهزيمة، ومتى علمنا أن في ذلك الجند جمعًا غفيراً من أهل الرياض أنصار دهام بن دواس - وكان دهام تلك السنة مسالمًا - نستطيع أن نلمس سر تلك الانكسارة التي ألبست النجرانيين صفة ليست لهم إلى أن انجلت حقيقتهم بعد عشر من السنين.

ففي سنة ١١٨٩ خالف أهل الخرج ورئيسهم زيد بن زامل، وأهل وادي الدواسر ورئيسهم حويل الودعاني، وجميع القبائل الجنوبية، فكاتبوا أهل نجران، وبذلوا لهم أموالاً لقاء مساعدتهم على حرب آل سعود، فأقبل أهل نجران، بتلك الجيوش التي غزوا بها سابقًا ومعهم أحلافهم أهل الجنوب، وليست النائحة كالثكلى هذه المرة؛ فإن أهل الحائر وحدهم وقفوا في نحور النجرانيين، وكبَّدوهم أربعين قتيلاً، فتركوهم، وهاجموا بلدة ضرمى [ضرما]، فكان نصيبهم الاندحار في نخيلها، فعادوا أدراجهم؛ لأن القوى التي صمدت لهم متحدة خالية من تلك الجراثيم الوبائية التي تعمل في الخفاء، وجيش قليل صادق خير من عرمرم متخاذل ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] والصابرون هم أولئك المتحدون الصادقون الذين لا يرد هجومهم، ولا تخترق جبهتهم.

ورجوع النجرانيين بتلك الصفة أفهم أهل نجد حقيقة قوتهم التي كانوا يرونها أكبر مما هي، فتواترت عليهم السرايا خصوصًا على البادية منهم، وأكبر تلك الجيوش التي جاست خلال نجران جيش عبدالوهاب أبو نقطة أمير عسير، وقدره زهاء ثلاثين ألفًا من أهل عسير وبيشة ووادي الدواسر سنة ١٢٢٠، فقد حاصر بدرًا[١] عدة شهور، وابتنى أمامها قصرًا للتضييق عليها، ولم يجد أهل نجران بدًا من التسليم والطاعة، فكاتبوا الإمام

(١) **بدر**: من قرى وادي حبونا بنجران.

سعود، وأرسلوا من قبلهم وفداً. وهذه صورة الكتاب الذي كتبه لهم الإمام سعود[١].

بسم الله الرحمن الرحيم: من سعود، إلى جناب الأشراف حسين بن ناصر، وحسن دهشا، وحمزة، ومحمد بن حسن، وحسين أحمد، ومقبل بن محمد، وصالح بن عبدالله، وأحمد معوض، وأحمد علي بن شما، وصالح حسين مسلي، سلمهم الله من الآفات، واستعملهم بالباقيات الصالحات.

وبعد. ألفى[٢] علينا مقبل بن عبدالله وأشرف على ما نحن عليه وما ندعو إليه وما نأمر به ومانهى عنه، ويا صف[٣] لكم من الرأس[٤] أكثر مما في القرطاس إن شاء الله، ونخبركم أننا متبعين [متبعون] لا مبتدعين [لا مبتدعون]، نعبد الله وحده لا شريك له، ونتبع رسوله فيما يأمر به وينهى عنه، ونقيم الفرائض، ونجبر من تحت يدنا على العمل بها، وننهى عن الشرك بالله، وننهى عن البدع والمحرمات، ونقيم الحدود، ونأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونأمر بالعدل والوفاء بالعهود والمكاييل والموازين وبر الوالدين وصلة الأرحام.

---

(١) أم القرى عدد ٣٨٨ في ١٤ محرم سنة ١٣٥١هـ. وقد نشرت صورته بالزنك (المؤلف).

(٢) في هامش النسخة ب: ألفى: قدم.

(٣) في هامش النسخة ب: ياصف: يصف.

(٤) في هامش النسخة ب: من الرأس: أي شفهيًا.

هذا صفة ما نحن عليه وما ندعو الناس إليه. فمن أجاب وعمل بما ذكرناه فهو أخونا المسلم حرام المال والدم. ومن أبى قاتلناه حتى يدين بما ذكرناه، وأنتم أخص الناس باتباع محمد ﷺ، والحق عليكم أكبر منه على غيركم[1]، والإسلام هو عزكم وشرفكم كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[2] [الزخرف: ٤٤] فالمأمول فيكم القيام والدعوة إلى الله؛ لأن الدعوة سبيل من اتبعه - صلى الله عليه وسلم - كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ونسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الداعين إليه المجاهدين في سبيله لتكون كلمته العليا ودينه الظاهر، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(ختم الواثق بالله سعود).

وقد أثبتنا هذا الكتاب بنصه لكونه وثيقة يتضمن ما يدعو إليه آل سعود من المثل العليا لخير الدارين. وقد بايع أهل نجران على ما جاء في هذا الكتاب، ودخلوا مع الجماعة إلى أن تفككت العرى بعد مأساة الدرعية كما سيأتي.

(١) في هامش النسخة ب: «إشارة إلى أنهم - أي المكارمة - أشراف من ذرية الرسول [ﷺ]».

(٢) في الأصل: ولسوف تسألون.

(٦)
اليمن وعسير

لا شيء يؤلف بين الأمم المتباعدة، المختلفة اللغات والعناصر والأشكال، ويجعل بينها رابطة أخوية متينة، أو يفرق بين الأخ وأخيه مهما قربت وشيجة النسب؛ كالدين. وكالدين المذهب والمعتقد في أبناء الملة الواحدة.

واليمن كانت منذ القرون الأولى حصنًا من حصون الشيعة وملجأ لدعاتها وتربة خصبة لبذور الدعاة الذين اختاروها لبعدها عن مراكز الدول التي يناوئونها وينشرون تعاليمهم الهادمة لكيانها كالدولتين الأموية والعباسية، ولمناعتها بجبالها ووعورة طرقها في سبيل الجيوش الهاجمة، ولهذا كانت اليمن وما زالت وطنًا من الأوطان الشيعية، والفرقة السائدة فيها الفرقة الزيدية التي تمتاز بصفات لا توجد لدى الفرق الأخرى.

لأن أظهر ما في صفات أكثر الفرق الشيعية اتخاذ «التقيّة» شعارًا ومنهجًا مرعيًا للسياسة تمشيًا مع ظروف الإرهاق والشدة التي تمنى بها تلك الفرق لقربها من بطش الدول التي تناوؤها [تناوئها] وأخصها الفرق الجعفرية، وحتى بعد بطش الشاه إسماعيل الصفوي بأهل السنة في إيران وقضائه على العربية هناك؛ لأنها صارت ظاهرة خلقية، ومثلها سياسة الفرق الإسماعيلية التي اتخذت الخفاء لها ستارًا، ونظمت طرق الجمعيات السرية والدعايات الباطنية، واستعملت سلاح الاغتيال السري تمهيدًا

للهجوم العلني. أما الزيدية فلم تمن بشيء من تلك الاضطهادات لمناعة بلادها الطبيعية. وعلة انتسابها إلى الإمام زيد بن علي؛ لأنه قام داعيًا بالسيف الذي هو عندهم أول شروط الإمامة.

وبالرغم من أن الفرقة الزيدية أكثر اعتدالاً من بقية فرق الشيعة؛ لأنها سالمة من العنصر الفارسي الذي أسس مذاهبه على بغض كل ما هو عربي، فالزيديون لا ينظرون إلى السني نظر الأخ إلى أخيه ولا يعترفون له بالمساواة، ولخلو الزيدي من صفات التقية التي منها المجاملة والمداهنة، فهو لايتردد في إظهار احتقار مواطنه الذي لا يتمذهب بمذهبه ولا يرى رأيه[1].

وإذا كانت الأكثرية في جبال اليمن للزيود، فإن عسير والتهائم لا يسكنها إلا سنيُّون على مذهب الإمام الشافعي، وهذه الفوارق أوجبت الانقسام من قديم، وتوارث الأبناء أحقاد آبائهم، والشافعي، أو الحنفي، أو المالكي الذي لم يتسمم فكره في ذلك الزمن، ويتأثر بدعايات الأتراك أو أكاذيب الجاهلين من القبوريين لا يرى فارقًا بينه وبين الوهابي الحنبلي ما دام غير حائد عن طريقة ابن حنبل المرضية من المذاهب الثلاثة، وما دام يدعوه

---

(١) في حاشية النسخة أكتب المؤلف: «يقول ابن بشر ١٣٦/ سنة ١٢٢٠هـ: وفيها بايع صالح رئيس الحديدة وبيت الفقيه سعوداً، ثم إن إمام صنعاء سير عساكر عظيمة وحاصروا بندر الحديدة، وأخذوه، وأسر ابن صالح المذكور، وقد استعمله أبوه فيها أميراً وهو في بيت الفقيه، فتجهز صالح المذكور إلى زبيد في جنوده وقومه، فأخذوها عنوة، ونهبوها، ولم يمتنع إلا القلعة الإمامية وما تحميه، ثم خرجوا منها، وعزل صالح الأخماس، وبعثها إلى الدرعية».

إلى العمل بما في نفس مذهبه ونبذ ما عدا ذلك من بدع وترهات. فالعسيري الشافعي يعد النجدي الحنبلي أقرب إليه من الزيدي الذي يحتقره ويضطهده.

لهذا لا نعجب إذا رأينا رؤساء عسير وأمراءها يلبون دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وينضوون تحت لواء التوحيد الذي يحمله الإمام عبدالعزيز وأبناؤه من بعده(١).

وكانت بلاد الساحل بيد الشريف حمود بن محمد آل أبي نمي المكنى بأبي مسمار، وما عدا ذلك تابع لعبدالوهاب [بن عامر المشهور بأبي نقطة رئيس ألمع وعسير](٢)، ومع أنهما دانا للحكومة السعودية، فقد كانت بينهما حزازات وضغائن ومنافسة إلى الاحتكام لدى الإمام سعود، وكأن

---

(١) جاء في هامش النسخة ب تعليق عام على فصل اليمن وعسير بخط مغاير: «يشار إلى فرقة الزيدية في اليمن الشافعية في المحل الذي هم فيه. وميل الشوافع بطبيعتهم إلى أهل السنة والجماعة بالنظر لما كانو يعاملون به من قبل الزيود الذين استولوا على الحكم». وجاء فيه أيضًا في الصفحة التالية: «يستعاض عن هذا بما يأتي: وبالنظر لما بين الزيود والشوافع من فروق مذهبية كان من المنتسبين لمذهب الإمام الشافعي أن فضلوا التعاون مع أتباع الإمام أحمد بن حنبل وقبول دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فقد لبى أهل عسير اتباعًا لرؤسائهم دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وانضووا تحت لواء التوحيد الذي يحمله الإمام عبدالعزيز وأبناؤه من بعده، وكانت بلاد الساحل (تهامة) بيد الشريف حمود بن محمد المكي».

(٢) في الأصل: با نقطة. والتصويب والتتمة من النسختين أ و ب.

[أبا مسمار][1] لم يرض بما تم، وفي تلك الأثناء هاجم إمام صنعاء بندر الحديدة، فاحتلها سنة ١٢٢٠[2]، فصدرت أوامر سعود إلى [أبي مسمار] بمقابلته بالمثل وغزو صنعاء، فتلكأ في إجابة الطلب، وعدَّ سعود هذا الامتناع خروجًا عن الطاعة والجماعة، فجهز عليه جيوشًا عظيمة تناهز الخمسين ألفًا من سائر بلاد نجد والحجاز وعسير، يقودها خصمه الألد عبدالوهاب [أبو نقطة][3]، فكانت وقعة وادي بيشة[4] التي قتل فيها عبدالوهاب، وانتصرت جنوده، واستولت السرايا بعدها على مدن الحديدة، واللحية، وجيزان وغيرها، وتم إخضاعها، وتولى بعد عبدالوهاب ابن عمه طامي بن شعيب الذي أبلى فيما بعد بحروب محمد علي، وأسر، وقتل في مصر[5].

(١) في الأصل: با مسمار. والتصويب من النسختين أ و ب.

(٢) جاء في هامش النسختين أ و ب مايلي: «يقول ابن بشر في حوادث سنة ١٢٢٠هـ: وفيها بايع صالح رئيس الحديدة وبيت الفقيه سعودًا، ثم إن إمام صنعاء سير عساكر عظيمة، وحاصروا بندر الحديدة، وأخذوه، وأسر ابن صالح المذكور، وقد استعمله أبوه فيها أميرًا وهو في بيت الفقيه، فتجهز صالح المذكور إلى زبيد في جنوده وقومه، فأخذوها عنوة، ونهبوها، ولم يمتنع إلا القلعة الإمامية وما تحميه، ثم خرجوا منها، وعزل صالح الأخماس، وبعثها إلى الدرعية» وقد تقدم الاستشهاد بالنص.

(٣) في الأصل و أ: با نقطة. والتصويب من النسخة ب.

(٤) كذا في الأصل والنسختين أ و ب. والصواب: وادي بيش - من أشهر أودية جيزان - . انظر ابن بشر، عنوان المجد ج ١ ص ٣٠٣.

(٥) زاد في النسخة ب: «وتولى أمور عسير بعد طامي، علي بن مجثل من قبيلة عسير، وقد كان رجل الساعة بعد القبض على طامي بن شعب [صح: شعيب] =

(٧)
عُمــان

من غـرائب الاتفـاق أن يكون الجبل الأخضر في المغرب والجبل الأخضر في عمان معقلين من معاقل الإباضية، بل لا نبالغ إذا قلنا: إن هذه الفرقة انسحبت من رقعة المسكونة إلى هذين الجبلين[١] الأخضرين بعد أن أرجفت العالم الإسلامي، وأقلقت دوله بثوراتها التي لا تكاد تحصى ولا تستقصى، فإن تكاتف الدول باختلاف نزعاتها ومذاهبها وإجماعها للقضاء على تلك الفرقة الثورية الخطرة مكَّنها من استئصالها في كثير من الممالك وإبعادها عنها، فانزوت في المغرب وعمان لبعد هذين الجبلين عن متناول تلك الدول.

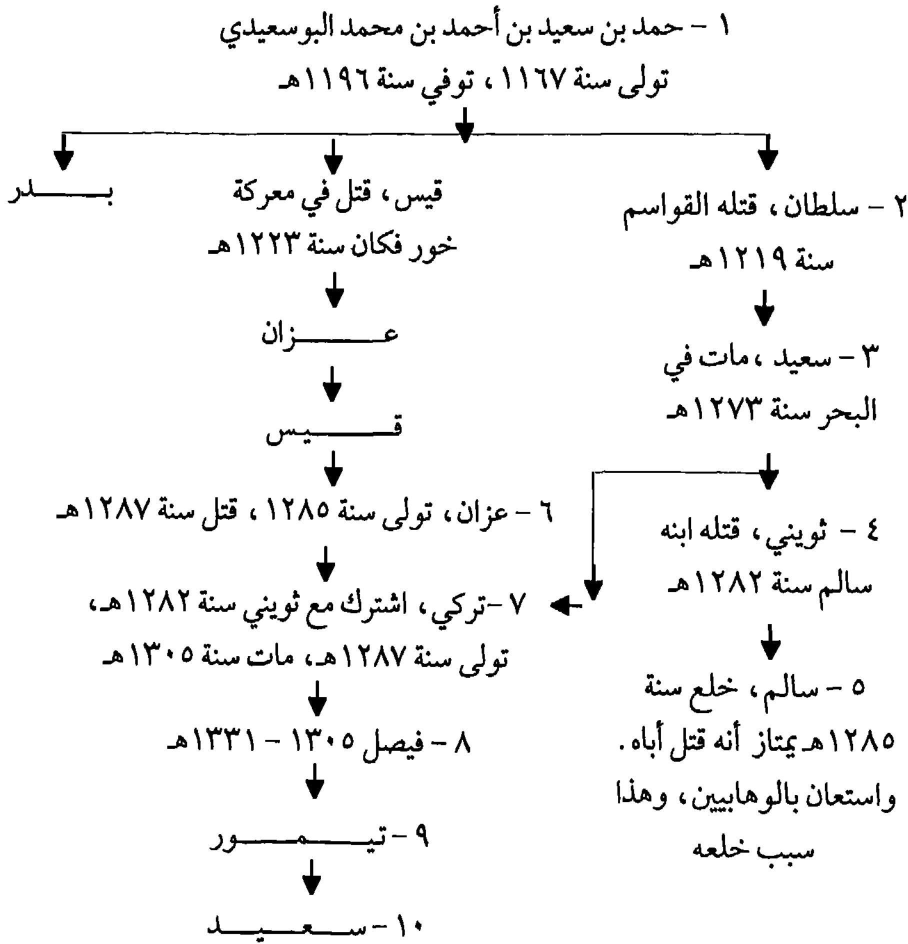
وعمان ثانية الأقطار العربية السعيدة بعد اليمن في الخصوبة وكثرة الزراعة، وهو ركن الجزيرة الجنوبي الشرقي، نصفه على الخليج الفارسي، والنصف على بحر العرب[٢]، وأهم مدنه مسقط، ومطرح، ونزوى، وسمايل، وصحار، وصور، وقد أسس فيه آل بوسعيد القحطانيين[٣] دولة بحرية قوية، كان لها أسطول ضخم فتحت به مستعمراتها الكبيرة في

= لما ظهر من شجاعته واستبساله، وقد حافظ على عسير إلى أن توفي سنة ١٢٤٩هـ، فتولى بعده ابن أخيه عايض بن مرعي. ابن بشر حوادث سنة ١٢٤٩هـ».

(١) زاد في النسخة ب: وما جاورهما.
(٢) زاد في النسخة ب: من المحيط الهندي.
(٣) في النسختين أ و ب: الأئمة النبهانيون القحطانيون.

أفريقيا، وهاجمت به ثغور الهند، ودوخت به خليج فارس وسواحل إيران، ومخرت سفنه في شط العرب مجمع الرافدين من زمن إمام عمان سلطان بن سيف بن مالك بن يعرب النبهاني القحطاني الذي تولى في أوائل القرن الثاني عشر وخلفائه من بعده[1].

(١) زاد في النسختين أ و ب: «وخلفته دولة آل بوسعيد». وزاد في النسخة ب: «سنة ١١٦٧هـ، وهذه سلالة سلاطينهم:



عن تحفة الأعيان في أخبار عمان لابن سلوم».

وساحل عمان الشمالي على خليج فارس مأهول بقبائل كثيرة على مذهب أهل السنة والجماعة، أهمها وأكبرها قبيلة القواسم الشهيرة. وهي تسكن بلدة رأس الخيمة، وتشتغل في استخراج اللؤلؤ وصيد الأسماك، وتزاول أعمال القرصنة في الخليج الفارسي(١) وبحر العرب حتى أصبح اسمها مرادفًا لكلما [لكل ما] هو مرعب مخيف(٢). وبنوياس، وآل بوفلاح من قحطان.

والفروق المذهبية التي جعلت شوافع عسير واليمن يقاومون إمامها الزيدي هي نفسها التي جعلت من القواسم ومن لف لفهم قذى مؤلمًا في جفن مملكة الإمام الإباضي، وقرحة لا تندمل إلا لتتقيح من جديد في جسم دولته، فما أن أتتها طلائع سرايا الإمام عبدالعزيز بن سعود حتى لبت الدعوة(٣)، وتم لها الاستيلاء على كثير من المملكة العمانية.

وبينما كان السلطان سلطان بن أحمد بن سعيد يجوس الخليج الفارسي بأسطوله قاصدًا مهاجمة البحرين وهو على يخته الصغير في مقدمة ذلك الأسطول هاجمه قرصان القواسم، فقتلوه سنة ١٢١٩،

---

(١) الواقع أن أسرة القواسم من الأسر الحاكمة الكريمة التي ناصرت الدعوة السلفية إبان ظهورها، وقد اتهمتها الدعاية البريطانية بأعمال القرصنة البحرية نظرًا لاعتراضهم السفن البريطانية في الخليج وإعاقة نفوذهم في المنطقة.

(٢) زاد في النسخة ب: «وهناك بنو أبو [أبي] علي أهل جعلان، فهم حنابلة وعلى مذهب السلف وآل وهيبة والهناوية آل بو فلاح».

(٣) زاد في النسخة ب: «وقد استعان القائد مطلق المطيري بالغافرية أهل الظاهرة وأهل جعلان بني أبو [أبي] علي».

واقتسم المملكة بعده أخواه بدر وقيس، وما عتم بدر أن قتله أبناء أخيه سلطان سنة ١٢٢٠، وتولى مكانه سعيد بن سلطان، وأقر عمه قيسًا على مملكته في صحار وما والاها.

وكان عليهما بعد هذا الاتفاق أن ينتقما من قتلة الإمام سلطان، فزحفا بجنود عظيمة تقارب العشرة الآلاف للقضاء على رأس الخيمة وأهلها، فقابلهم القواسم ورئيسهم يومئذ سلطان بن صقر بن راشد ومعه سرية آل سعود بجمع يناهز ثلاثة آلاف مقاتل، فكانت بينهم وقعة خور الباطنة[1] الحاسمة التي انجلت عن هزيمة قيس وقتله وهلاك ما يقرب من نصف جيوشه سنة ١٢٢٣، فأرسل سعيدُ بن سلطان عزانَ بن قيس إلى الإمام سعود، فبايعوا على السمع والطاعة، ودانت عمان كلها لآل سعود، وحصلت فيما بعد انتقاضات وخلافات حل معظمها إلى أن جاءت حروب الدرعية بعد بضع سنين[2].

(١) زاد في النسختين أ و ب: «ويسمى أيضًا خور فكان».

(٢) زاد في النسخة ب: «وفي زمن الإمام تركي جاء سعد بن مطلق المطيري، فاستولى على (توام) المعروف بالبريمي، وظلت عمال آل سعود تتوالى على تلك الناحية إلى أن حصل الخلاف بين آل فيصل».

(٨)

قطر والبحرين[1]

قطـــر: يطلق هذا الاسم على شبه الجزيرة الواقعة ما بين بحر البنات

(١) كتب في هامش النسخة ب تعليق بخط مغاير يقترح كاتبه اختصار هذه النقطة جاء فيه: (أرى أن يوجز القول في قضية احتلال البحرين والخلافات مع آل خليفة القديمة ببيان موجز يذكر فيه مقدار المدة التي دخلت فيه البحرين وما يليها في حكم آل سعود).

وفي هامش الصفحة التالية كتب المؤلف ما يلي: «٨ - البحرين: كان آل خليفة العتوب قد استولوا على جزيرة البحرين من الشيخ نصر آل عصفور الجبري سنة ١١٧٩هـ برئاسة أحمد بن محمد آل خليفة، وفي سنة ١٢١٥هـ جهز عليهم السيد سلطان بن سعيد سلطان عمان حملة استولى بها على البحرين. وعاد آل خليفة إلى مقرهم الزبارة في قطر، ووفدوا على الإمام عبدالعزيز في الدرعية مستنجدين به، فأنجدهم على شروط تبعيتهم له، وأن يدفعوا مبلغًا سنويًا لقاء ذلك، وأرسل معهم سرية بقيادة سليمان بن طوق، فعبروا بها إلى البحرين، فاستولوا عليها، وأخرجوا العمانيين، وبقيت في البحرين حامية نجدية، ولما انهزم العمانيون في وقعة خورفكان وضعف شأنهم وأمن أهل البحرين جانبهم ثاروا على الحامية النجدية، فأخرجوها، وقطعوا ما كانوا يؤدونه سنة ١٢٢٢هـ، ولكن الإمام سعود أرسل عدة سرايا بقيادة ابن طوق، استطاعت من الاستيلاء على البحرين والقبض على سلمان وعبدالله بن [ابني] أحمد آل خليفة حاكمي البحرين، وأرسلهما إلى الدرعية، وفي ذلك الوقت كانت سفن البحرين غائبة في الهند، وبعد عودتها هاجمت البحرين على حين غرة، فاستعادتها، وبعد ذلك تم الاتفاق بين الإمام سعود وسلمان وعبدالله الخليفة اللذين عنده في الدرعية على أن يطلق سراحهما، على أن تعود الأمور كما كانت سابقًا، فأطلق سراحهما، وبعد حوادث الدرعية انفصلت البحرين تمامًا، ووضعت فيما بعد تحت الحماية البريطانية كما هو معروف».

وساحل عمان في خليج فارس جنوبًا إلى دوحة سلوى عند ساحل العقير شمالاً.

والبحرين: خصص بالجزيرة التي كانت تدعى (أوال) بعد أن كان هذا الاسم يشمل كل بلاد الأحساء وساحل الخليج الممتد من عمان إلى مصب شط العرب.

وعلى ساحل قطر قرى عديدة تسكنها عدة قبائل تزاول الأعمال البحرية من صيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ، وليس لأهلها أعمال أخرى لقلة المياه هناك.

وكانت أوائل القرن الثاني عشر تابعة للقواسم أمراء رأس الخيمة، ولها أمراء يؤدون الخراج لهم، وأشهرهم آل مسلّم أمراء بلد الحويلة، والجلاهمة في الخوير، وآل بن علي في الزبارة. أما جزيرة البحرين (أوال) فكانت بيد الجبور الشيعة[1] الخاضعين لحكومة إيران، وفي هذه الأثناء جرى خلاف بين العتوب أهل الكويت أدى إلى انقسامهم، فنزح منهم آل خليفة، وبعض من آل فاضل، ونزلوا في ساحل قطر الشمالي ورئيسهم محمد بن خليفة، وكانت فيه صفات رجولة تؤهله للرئاسة والحكم، وقد اختار الزبارة، وسكنها، وحصّنها، فنمت في وقته، وازدهرت بالتجارة والغنى، وأدت المنافسة بينه وبين مجاوريه إلى القتال، فحارب آل مسلم،

(١) في النسختين أ و ب: «بيد آل عصفور من الجبور». ويلحظ أن المؤلف لم يذكر المصدر الذي يشير إلى أن الجبور كانوا شيعة في فترة من الفترات.

وأخرجهم من الحويلة، ودمرها، وهاجم الخوير، فاستولى عليه، وقتل صاحبه جابر بن عذبي الجلاهمة - ولكن دم جابر خلف لأبناء محمد بن خليفة ثائرًا لا يهدأ، هو رحمة بن جابر الذي أقلق راحتهم ردحًا من الزمن، فدانت قطر من أقصاها إلى أقصاها لحكمه، وقطع الإتاوة التي كانت تدفع للقواسم، فلم تحدثهم أنفسهم بحربه لما يعلمونه من بأسه.

وبعد وفاته(١) تولى ابنه أحمد، فحارب الجبور، وضم جزيرة البحرين إلى ملكه، ثم اختارها مسكنًا له، فاستوطنها، وجعلها عاصمة لولايته، ووطد حكمه على البلاد، ولكنه أوجد له خصومًا ومناوئين في السر والجهر، فهناك القواسم - وقد قطع عنهم الأتاوة القديمة - وآل مسلم والجلاهمة والشيخ نصر الجبري الموتورون بقتلاهم وبلادهم، وكان الشيخ نصر الجبري قد أقام مدة طويلة في أبي شهر يفاوض الحكومة الإيرانية لاسترجاع البحرين من آل خليفة، ولكنها كانت مشغولة بالاضطرابات الداخلية والحروب الأهلية بين آل كريم خان الزندي وبين زكي خان، وبينهما محمد خان قاجار مؤسس البيت القاجاري يعمل لحسابه الخاص، ولما لم

(١) في النسخة ب: «وفي أواخر أيامه عهد بالحكم إلى ابنه أحمد المعروف بالفاتح لاستيلائه على جزيرة البحرين، فقد غزا الشيخ نصر الجبري البحراني حاكم البحرين أهل الزبارة لتعديات ودماء بين الفريقين، ولكنه انهزم أمام أسوار الزبارة، ولم ينج من جيوشه وأسطوله إلا القليل، وفر بنفسه قاصدًا إيران طالبًا نجدته، فوجدها مشغولة بحروبها الداخلية إبان تكون دولة آل قاجار، فلم يجد مجيبًا، وبقي في أبي شهر، ولما سمع أحمد آل خليفة بفرار حاكم البحرين قدم إليها سنة ١١٩٧هـ، وضمها إلى ملكه، ثم اختارها مسكنًا. . .».

يجد التفاتًا[1] توجهت آماله إلى السيد سلطان بن أحمد، سلطان مسقط وإمام عمان برغم ما بين مذهبيهما من التنافر والتباغض[2]، فسافر إلى عمان ولسان حاله يقول:

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبًا فما حيلة المضطر إلا ركوبها[3]

وقد صادفت دعوته هوى في نفس السيد سلطان، فجهز أسطولاً قويًا شحنه بالمقاتلة، واستولى على البحرين، وانتقل آل خليفة إلى الزبارة سنة ١٢١٥، وولى على البحرين أخاه السيد سالمًا[4]، وكان على آل خليفة أن يولوا وجوههم شطر الدرعية، وقد فعلوا، فأتوا الإمام عبدالعزيز مستنجدين مستصرخين.

وفي الوقت الذي كان فيه الشيخ نصر الجبري يفاوض العجم وسلطان مسقط بعدهم، كان رحمة بن جابر الجلاهمة الموتور قد زار الدرعية مرارًا، وحسَّن للإمام عبدالعزيز غزو البحرين، وأخذها، ولكنه

---

(١) زاد في النسخة ب: «حار في أمره، فأتاه رحمة بن جابر، ورسم له خطة الاستعانة بسلطان مسقط».

(٢) في النسخة ب: «فسلطان مسقط إباضي، والشيخ نصر شيعي إمامي إثنا عشري».

(٣) البيت للكميت بن زيد. ابن أيدمر، الدر الفريد وبيت القصيد ج ٢ ص ٤٧.

(٤) في النسخة ب: «ولكنه بدل أن يعيد الشيخ نصر إلى ملكه ولى عليها أخاه السيد سالم، فصار كالمستجير من الرمضاء بالنار، ويرد رحمة بن جابر شيء من غليله».

لم ينجح في إقناعه، أما وقد أخذها سلطان عمان فلا مندوحة من الاستيلاء عليها، فأجاب الإمام طلب آل خليفة على شرط أن يدخلوا في طاعته ويكونوا ولاتها من قبله أسوة بسائر أمراء المملكة.

وجهز معهم سرية كبيرة يقودها سليمان بن سيف بن طوق سنة ١٢١٦، فوصلوا إلى الزبارة، ومنها ركبوا السفن إلى البحرين، فاستولوا عليها، وفر السيد سالم وأتباعه بعد أن قتل منهم جمع كثير.

ولما تجهَّز السيد سلطان للانتقام من آل خليفة[(١)] قتله القواسم في عرض البحر[(٢)] في طريقه إلى البحرين سنة ١٢١٩ كما تقدم، فأقام آل خليفة في الزبارة، ورابط سليمان بن طوق بسريته في البحرين خوفًا عليها من هجوم العمانيين.

وبعد وفاة الإمام عبدالعزيز في الدرعية أخرج آل خليفة سليمان بن طوق من البحرين[(٣)]، واستقلوا بحكمها على أن الإمام سعودًا ما عتم أن أعاد سليمان بن طوق مجهزًا بقوة كبيرة، وأردفها بسرية يقودها محمد بن معيقل، وعززهما بثالثة أميرها عبدالله بن عفيصان، فدخل ابن طوق الزبارة، وطلب من آل خليفة في البحرين أن يقدموا عليه، فأتاه بعد تردد الشيخ سلمان والشيخ عبدالله ابنا أحمد بن محمد آل خليفة ومعهما بعض

(١) في الأصل: «من آل من آل» مكررة، سبق قلم.

(٢) زاد في النسخة ب: «وهو متقدم أسطوله».

(٣) زاد في النسخة ب: «على أن آل خليفة بعد أن أمنوا جانب أهل عمان بعد معركة خور فكان أخرجوا سليمان بن طوق».

الوجهاء من أقاربهما وحاشيتهما، فأرسلهم إلى الدرعية، وضبطت البحرين، وتولى إمارتها فهد بن سليمان بن عفيصان.

جرت هذه الحوادث وبعض أهالي البحرين غائبون في الهند وزنجبار على سفنهم التجارية الكبيرة التي تمخر بحر العرب للتجارة، ومن جملتهم عبدالرحمن بن راشد الفاضل ابن أخت الشيخين، وقد عرج على مسقط في إيابه من سفره الطويل، وهناك سمع الأخبار عن أخواله وحوادث البحرين من السيد سعيد بن سلطان والسيد سعيد لا تزال نفسه تحدثه باستعادة البحرين، ويحب الانتقام من آل سعود وقد جاست سراياهم خلال دياره، فاتفق مع عبدالرحمن بن راشد، وأمَّده بالمال والذخائر على أن تدفع له البحرين تسعة آلاف ريال سنويًا.

ومضى عبدالرحمن بالمال والسفن إلى جزيرة قيس وسواحل فارس وجند منهم جنودًا مرتزقة[1]، وهاجم البحرين على حين غفلة، فاستولى عليها، ولم تكن حاميتها تتجاوز الثلاثمائة، فأسرها مع أميرها فهد بن عفيصان، وأبقاهم عنده رهائن بمن في الدرعية.

وهناك حانت الفرصة لرحمة بن جابر، وما أدراك ما رحمة! فهو يستحق أن يكون بطلاً من أبطال الأساطير، ولا تزال قصص أعماله الهائلة الجبارة، تتعتَّم بها العجائز مع أحفادهن[2]. رحمة ذلك السندباد البحري

(١) زاد في النسخة ب: «وبعضهم تطوع لحرب الوهابية».

(٢) زاد في النسخة ب: «مهولة بكثير من مبالغات الخيال».

الهائل، الأقطع والأعمى فيما بعد، داهية القرصنة، وبطل البحار، والناسك المتعبد الموحد، صاحب غطروشة، وغطروشة سفينته المخوفة.

سَنَّد رحمة إلى الدرعية نافخًا في نار غضب الإمام سعود مستثيراً نخوته على آل خليفة - في سبيل أخذ ثأر جابر بن عذبي - ولسوء حظه جاء متأخرًا. لأن الإمام سعودًا أطلق سراح آل خليفة قبل وصوله ببضعة أيام(١)، فعض أنامله أسفًا، وطلب من الإمام إرسال من يردهم، ولكنهم فاتوا الطلب، ولم يبق إلا اصطلاء الحرب، فطلب من الإمام سرية، وتعهد له بمحاربة آل خليفة وإجلائهم من البحرين، فأجيب طلبه، وأصحب بسرية كاملة العدة والعدد، وعلى رأسها إبراهيم بن عفيصان، وأوصى بألا [بأن لا] يُعْصى لرحمة بن جابر أمرًا ولا يخالف له رأيًا.

وأتت جيوش رحمة فاحتلت الحويلة(٢) وقصر ربيقة وسائر بلدان قطر بدون مقاومة تذكر، وجمعوا السفن، وشحنوها بالرجال لمهاجمة جزيرة

---

(١) زاد في النسخة ب: «وذلك أن عبدالرحمن بن راشد كتب للإمام يهدده بقتل ابن عفيصان ومن معه إن لم يطلق سراح أخواله، وآل خليفة بدورهم أقنعوا الإمام سعود أن بقاءهم في الدرعية معناه تأييد حكم آل فاضل بدون فائدة تعود على الجميع، وعاهدوه بأن يكونوا على ما كان عليه أبوهم مع أبيه، ولكن رحمة أقنع الإمام بأن استرجاع البحرين من عبدالرحمن بن راشد أسهل من استرجاعها من آل خليفة، وما كان في ذلك من الصادقين، ولكن غرضه إبعاد آل خليفة عن الحكم بكل وسيلة».

(٢) في النسخة ب: «من قطر».

البحرين، وكانت خطة رحمة مهاجمة أهل البحرين في عقر دارهم؛ لأن الجيوش النجدية لم تتعود على الحروب البحرية، وليس لهم خبرة في خططها، وكثير منهم من يأخذه دوار البحر، ولا يحسن السباحة، فالحزم أن تنزل تلك الجيوش إلى بر البحرين، وحينئذ يكون أخذها محققًا.

وهذا ما حسب له خصومه أيضًا؛ لأنهم يعلمون بضعفهم أمام أهل نجد في الحروب البرية، وليس باستطاعتهم أن يصدوهم إذا وطئوا أرض البحرين، فيستولون عليها بالسهولة التي استولوا بها على قطر والزبارة، فضلاً عن كون سفن رحمة وابن عفيصان ليست من النوع الحربي، بل من الأنواع الصغيرة المستعملة لصيد الأسماك والغوص على اللؤلؤ، أما أسطول البحرين فهو كامل العدة والعدد وسفنه الضخمة الهائلة مجهزة بالمدافع الكبيرة، فقرَّر أيهم على ملاقاتهم في عرض البحر وإصلائهم القتال[1]، فالتقى الأسطولان في ثغر الخكيكيرة بالقرب من قطر، وجرت بينهم وقعة بحرية هائلة، ذهب ضحاياها كثير من الطرفين، وانتصر فيها الأسطول البحريني، وقطعت يد رحمة، ونجى [ونجا] على لوح عائم.

---

(١) زاد في النسخة ب: «فلما تراءى الأسطولان رأى رحمة أن الرأي في الانسحاب، ولكن إبراهيم بن عفيصان لم يوافقه، وتغلبت شجاعة الشجعان على الرأي».

وبديهي أن ينتصر البحريون[1] بعد أن فطنوا لخطة رحمة، فلم يمكّنوه من الوصول إلى البحرين، وهاجموه في عرض البحر؛ لأن استعدادهم بالسفن يفوق استعداده، ورجال البحر أمهر في حروبه من رجال البر، على أنهم أدوا لهذا النصر ثمنًا باهضًا [باهظًا]، فقد غرقت لهم كثير من السفن، وقتل أحمد وراشد ابنا عبدالله بن أحمد الخليفة قائد هذه الوقعة، وابن عمهم دعيج بن صباح شقيق شيخ الكويت، وأبو حسين أمير الحويلة، وكانت هذه الوقعة في ربيع الثاني سنة ١٢٢٦ .

وأقام رحمة في قصر الدمام من نواحي القطيف يأتي بخوارقه الهائلة، ويقطع السبل على البحرين وأهلها، ويكيد لهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، إلى أن هاجموه في الدمام بأسطولهم سنة ١٢٤٣[2]، واشتعلت النار بسفينته، فمات بعدما أبلى في قتالهم ومحاربتهم زها خمسين سنة[3].

ورحمة في قطر والبحرين كدهام بن دواس في الرياض.

---

(١) في النسخة ب: «البحرينيون» وكلاهما صحيح.

(٢) الصواب أن الوقعة كانت في جمادى الأولى سنة ١٢٤٢هـ، كما أشار إلى ذلك ابن بشر (ج٢ ص ٥٢)، وهو مصدر المؤلف، وقد ذكر المؤلف هذه الحادثة مرة أخرى (ص ٣٣٤) وأثبت التاريخ الصحيح.

(٣) في حاشية النسخة أ: «وبعد مقتل رحمة بن جابر أخلد آل خليفة في جزيرتهم، وأمنوا جانب آل سعود بعد حوادث الدرعية، فأخلدوا إلى الراحة، ولم تخل داخليتهم من شقاق بين عبدالله بن أحمد آل خليفة وبين ابني ابن أخيه محمد =

= وعلي ابني خليفة بن سلمان بن أحمد حتى اضطراه إلى الجلاء واستقلا بالحكم، وكانت قطر» [كذا] انتهى. وفي النسخة ب ما يلي: «وبعد إخفاق رحمة في هذه الوقعة استقر في قصر الدمام، وأخذ يشن الغارات، ويقطع السبل على أهل البحرين، وبعد حوادث الدرعية قام بالأمر منفرداً. وفي سنة ١٢٤٠هـ ذهب إلى مسقط، وزين للسيد سعيد بن سلطان الاستيلاء على البحرين، وهوَّن عليه الأمر، وضرب له مثلاً استيلاء والده عليها، فأطاعه وجهز عليها أسطولاً مشحونًا بالمقاتلة وبصحبته رحمة، ولكن أهل البحرين كانت أقدامهم قد رسخت فيها وقوي أمرهم، واستعدوا بالسفن والرجال، فالتقوا بالمقطع، أحد مداخل البحرين، فانهزم الأسطول العماني بعد أن فقد كثيراً من سفنه ورجاله، ونجا السيد سعيد بنفسه ولم يكد. وفر رحمة إلى الدمام.

وبالطبع إن ضرب الحصار على البحرين معناه محاصرة الأحساء والقطيف أيضًا؛ لأنها ميناء هذه البلاد للاتصال بالهند وخصوصًا لكون رحمة من أنصار آل سعود، بل من رجالهم المقربين، وهذا ما ينفي عنه صفات القرصنة الناشئة عن اللصوصية التي لا يعززها آل سعود بأي حال، وما كان سوى حصار بحري ضربه على البحرين هذا الثائر المحارب الباسل.

وكان يرعب أهل البحرين بخططه الغريبة، ومفاجآته الغير متوقعة من جميع الجهات، وفي أي وقت من الأوقات، وكثرت بينه وبينهم الوقعات، ومن عجيب أفعاله أن آل خليفة أحاطوا بسفينته غطروشة في بطن دوحة رأس تنورة، وخيم الظلام، فأحاطوا بالمخرج؛ ليهاجموه بسفنهم في الصباح، فقد وقع في الشرك، فما كان منه إلا أن شق بر الرأس وعمل له قناة عبر بها إلى ظهر الرأس المسمى صياح والمؤدي إلى البحر الواسع، فلما أضاء النهار لم يجد الخليفون غطروشة، ولا يزال الموضع يسمى بشق رحمة.

وقد تكاتف على حربه ماجد بن عريعر بعد رجوعه إلى الأحساء، وابن عبدالرحيم صاحب سيهات من جهة البر، وآل خليفة بأسطولهم من البحر، فترك رحمة ابنه بشراً في قصر الدمام لمحاربة ابن عريعر وأحلافه، وخرج =

= بسفينته غطروشة إلى عرض البحر لمحاربة آل خليفة، فتكاثروا عليه، وسقطت قذيفة على مخزن البارود في غطروشة؛ فانفجر، وقضى على غطروشة ومن فيها، وختمت صحيفة من صحف البسالة والبطولة سنة ١٢٤٢هـ.

وهنا يجب أن نصحح غلطة تاريخية اختلقها خصوم رحمة نكاية به.

وهو أنه لما رأى الغلبة في الجلاد لآل خليفة على سفينته طلب النارجيلة من عبده وألقى نارها في مخزن البارود.

وبطلان هذه القصة المختلقة واضح من جهتين.

الأول: أن رحمة سلفي المذهب ومن أكبر مناصري الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتعاليمه، فلا يعقل أنه يدخن ويشرب النارجيلة.

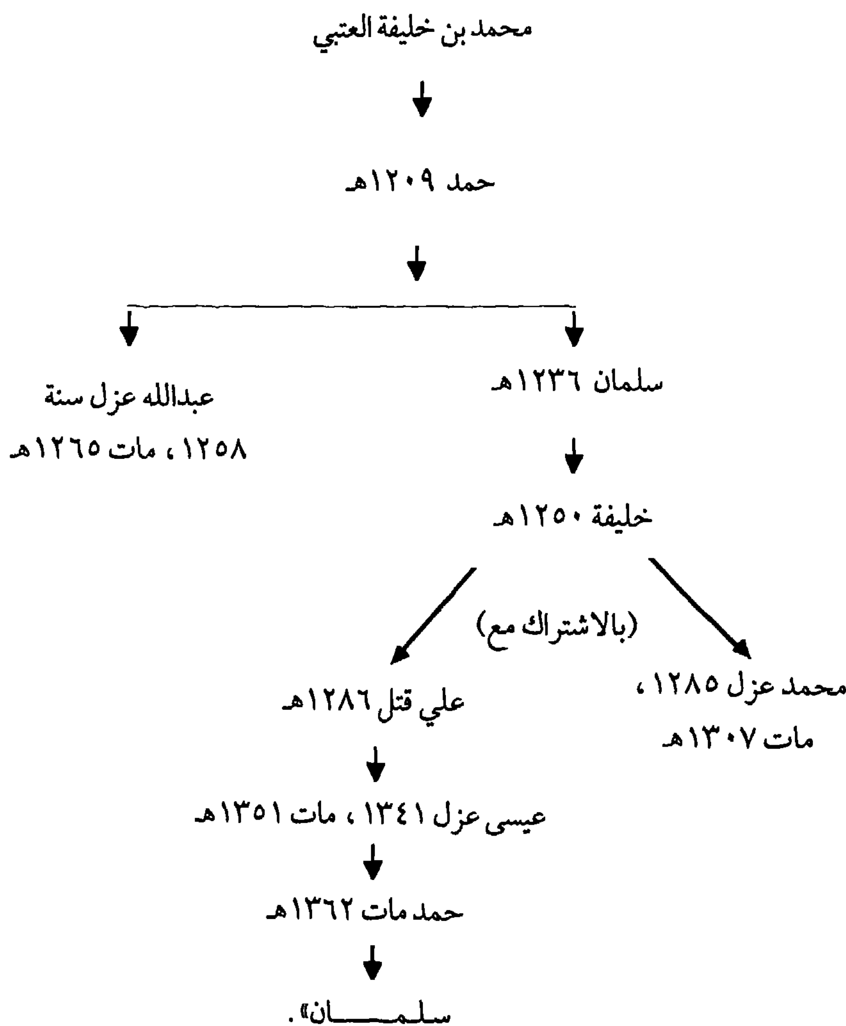
ثانيًا: أن آل خليفة المزعوم أنهم نزلوا إلى غطروشة، وكادوا يأسرون رحمة، قد سلموا، فلو كانوا فيها وقت الانفجار لما كتبت لهم السلامة، ولكن مقصد أعدائه أن يجعلوه مات منتحراً.

وله رحمه [الله] أشعار في التوحيد ورثاء أهل الدرعية، وهو إن لم يكن فهي تدل [كذا] على ما له من عقيدة تبعد عنه ما وصمه به أعداؤه.

وبعد موت رحمة بن جابر نزل في الدمام محمد بن عبدالله آل خليفة، وكثرت جموعه، واجتمعت عليه العربان، وحالفه ابن عبدالرحيم صاحب سيهات، فاستولى على كثير من قرى القطيف إلى ان هاجمهم الإمام فيصل كما سيأتي. =

و: إذا لم يكن عون من الله للفتى فأعظم ما يجني عليه اجتهاده[1]

=



(١) البيت في الدر الفريد غير منسوب. ابن أيدمر، الدر الفريد وبيت القصيد ج٢ ص٥٠.

مــا بين

١٢٢٨ - ١١٥٨

ألق نظرة ولو بسيطة على خريطة جزيرة العرب فستجد في قلب تلك الجزيرة نقطة كتب عليها الدرعية، هي التي أضاء منها مصباح الهدى سنة ١١٥٨، فانتشرت أنواره حتى كست الجزيرة كلها بلونها الذهبي الجميل ولونتها بلون المملكة العربية السعودية الأخضر تحت ظل لواء التوحيد إلا ما حالت الأحقاف وجبال اليمن المشمخرة دونه كساحل حضرموت، ومهرة وقسم من اليمن، ولم تدخل سنة ١٢٢٨ إلا والجزيرة خاضعة لحكم واحد هو حكم الشرع الشريف، ومتحدة ما بينها اتحاداً لم تعهده من قبل إلا في زمن الخلفاء الراشدين، وفي هذه السنة ابتدأ ذلك البدر المنير بالأفول ليظهر بدراً في زمن تركي و ﴿**لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ**﴾ [الروم: ٤].

(الإمام عبدالعزيز الأول)

ولـــد سنة ١١٣٢

وتولى سنة ١١٧٩

وقتـل سنة ١٢١٨

ولد في الدرعية أيام جده سعود بن مقرن سنة ١١٣٢، وصار اسمه أحد الأسماء الشهيرة التي يتسمى بها الناس تشبهًا به وبابنه وتفاؤلاً للمولود بأن يكون بطلاً كهذين البطلين، فأصبح كل عبدالعزيز يدعى بأبي سعود وبالعكس في أنحاء الجزيرة العربية (وقد حاز هذا الفخر أيضًا اسما تركي وفيصل) وما ذلك إلا لما يكن له الناس من الإعجاب والإعظام في أعماق نفوسهم، وهكذا البطولة.

شهد عبدالعزيز مبايعة أبيه للشيخ محمد بن عبدالوهاب وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وسمع وعظ الشيخ، ووعى تعاليمه السامية، فكان مثالاً للشباب التقي، وغزا مع جيوش أبيه، فكان مثال الإقدام والشجاعة والرزانة وحسن السياسة والطاعة والامتثال لأوامر الشيخ وأبيه بامتثال أوامر القواد الذين يعهد إليهم والده بإمرة تلك الجيوش التي هو من أفرادها كجندي [جنديٌّ] للتدريب.

تدلنا على ذلك حادثة وقعة البطين[1] في ثرمداء، فقد كان أمير

---

(١) سنة ١١٦١هـ. ابن بشر، عنوان المجد ج ١ ص ٥٨.

الجيش عثمان بن معمر ومعه عبدالعزيز، ولما انهزم أهل ثرمداء، وفوجئوا بحركة الالتفاف التي قطعت عليهم خط الرجعة، وحالت دونهم ودون البلد، فلجئوا [فلجأوا] إلى قصر الحريص في خارج البلد، كانت الحكمة أن يحتل أهل الدرعية البلد لخلوها من الحامية، وليضطروا المحاصرين في القصر إلى التسليم، ولأمر ما في نفس عثمان امتنع عن دخول ثرمداء برغم إلحاح عبدالعزيز عليه، وكان بوسعه أن ينشق على أميره، وينهي المعركة بالفتح، وهم لم يغزوا إلا لنيله، ولكنه آثر السكوت على الانشقاق، وأسرَّها في نفسه؛ ليرفعها إلى والده وإلى الشيخ، فبان لهما ما يضمره ابن معمر.

وما لبث أن تولى قيادة الجيوش بنفسه، فقادها بحسن تدبيره إلى النصر مراراً عديدة، وتم توحيد البلاد النجدية على يديه. وهو في حروبه هذه القائد المحنك والأمير الحليم المتواضع، لا يجهز على الجريح، ولا يقتل المُدْبِر.

وفي سنة ١١٧٩ تولى الإمامة بعد وفاة أبيه الإمام محمد بن سعود، وبايعه الناس كافة، وتم له القضاء على دهام بن دواس، وبذلك خضعت نجد كلها.

وفي سنة ١٢٠٢ كان قد بلغ السبعين من عمره، وثقل من البدنة[١]، فآثر الراحة والتعبد وتفقد أمور الرعية عن كثب، فعهد إلى ابنه سعود بولاية

(١) في النسخة ب: البدانة.

العهد، وقام بأخذ البيعة على الناس الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأخذ سعود مهام الملك على عاتقه، وقام بأعبائه في ضياء آراء الإمام عبدالعزيز الحكيمة وتجاربه الثمينة.

وكان - رحمه الله - مع قوة بنيته وصلابته بدينًا حتى إنه لم يطق مواصلة السفر إلى الحج، فرجع من الدوادمي سنة ١٢١٥، وكان إذ ذاك يناهز الثالثة والثمانين من عمره.

أبو لؤلؤة الدرعية:

نرى الشيء مما نتقي فنهابه		وما لا نرى مما وقى الله أكثر

من يظن أو يحسب أن ذلك البطل المغوار، والفارس الكرار المصطلي بنار مئات المعارك والوقائع مخترقًا الصفوف ومقارعًا الألوف غمامه الغبار والدخان، وودقه القنابل والرصاص، وبروقه لميع السيوف والأسنة، ورعوده زعيق الفرسان، وصهيل الخيل، ودوي المدافع والبنادق، وأزيز الرصاص، وقعقعة اللجم والسيوف، يخوض مواطن الخوف والخطر الشديد أربعين سنة ويخرج منها سالمًا غانمًا مرددًا قول خالد بن الوليد: «لا عاشت أنفس الجبناء». ثم يلفظ نفسه الأخير مضرجًا بدمه الزكي حيث الأمن والدعة والعز والمنعة في عزة الملك، وهيبة الإمامة، ووقار الشيخوخة، وعلى سجادة الصلاة في صحن المسجد بين صفوف المصلين، وكأنهم يتلون تلك الفاتحة على روحه الطاهرة؟

بين التسبيح والحمدلة في سجود صلاة العصر تلقى الإمام عبدالعزيز ضربة في جوفه من يد ذلك الجاني الأثيم بخنجر قد أعده لهذا الأمر[1] الذي أعاد به ذكرى ضربة أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والتاريخ يعيد نفسه، وليست هذه العودة لتشابه الخنجر والموضع والوضعية فقط. بل والمغزى السياسي أيضًا، فاليد الفارسية التي دفعت أبا لؤلؤة إلى إغماد خنجره في جوف فخر العرب وعمادهم في القرن الأول، هي هي بنفسها -وبعد أن نزعت عنها لباس المجوسية وارتدت بدلة الإسلام وجلباب المذهب الشيعي الذي هو من نسج يدها- عادت، فدفعت ذلك الدرويش إلى إغماد الخنجر مرة أخرى في جوف فخر العرب وعمادها في القرن الثالث عشر.

ألف ومائتا سنة وإلى الأبد «ما حنّ عجمي على عربي قط ورب الكعبة»[2]، جاء ذلك الدرويش إلى الدرعية بقصد الانتقام من آل سعود لغزوهم الشيعة في كربلاء، فتظاهر بالنسك والطاعة، وأخذ يتعلم القرآن ومبادئ علوم الدين، فعطف عليه الإمام عبدالعزيز، وأكرمه غاية الإكرام، وأجرى له جراية، وظل يتحين الفرصة إلى أن سنحت له في أواخر رجب سنة ١٢١٨ وقت صلاة العصر في مسجد الطريف بالدرعية، والناس في

(١) في النسختين أ و ب: لهذا الغرض.

(٢) هذه العبارة التي استشهد بها المؤلف غير دقيقة، وهي من تأثير القومية - التي كانت سائدة في عصره - على ثقافته.

سجودهم، فوثب من الصف الثالث، وكان قد خبأ الخنجر في عباءته، فطعن الإمام عبدالعزيز في خاصرته، وكان أخوه عبدالله بن محمد بجنبه، فتجالد مع الدرويش إلى أن صرعه بعد أن ناله منه جرح بليغ، وضربه بالسيف، وتكاثر الناس عليه، فقتلوه بعد أن أفاقوا من دهشتهم، وعلموا جلية الحادث، ولم يلبث الإمام أن توفي بعد أن نقل إلى القصر.

سيرتـــه

ليس الخبر كالعيان، فلننصت لقول الشيخ عثمان بن بشر وهو يصف ما شاهده بنفسه[1]، ويقول: «وهو -أي عبدالعزيز- حقيق بأن يلقب بمهدي زمانه»[2]. نعم، إنه لمهدي زمانه، وإذا استثنينا النسب الهاشمي فعبد العزيز مهدي زمانه؛ لأنه ملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً[3]. وابن بشر لم يلق هذه الكلمة جزافًا؛ لأنه عالم بصفات المهدي، وهو ذلك المحقق الصريح، ولكن الأخلاق التي تحلى بها عبدالعزيز تؤهله لهذا الوصف، ونحن نقتبس هنا من كلام ابن بشر ما نفاخر به من أخلاق ذلك الرجل العظيم:

ميزان العدل وأساس المساواة:

«ينفِّذ الحق ولو في أهل بيته وعشيرته، ولا يتعاظم عظيمًا إذا ظلم، فيقمعه عن الظلم، وينفذ الحق فيه، ولا يتصاغر حقيراً ظُلم، فيأخذ له الحق، ولو كان بعيد الوطن»[4].

---

(١) الواقع أن الشيخ المؤرخ عثمان بن بشر (١٢١٠ - ١٢٩٠هـ) يصف هذه الأحداث رواية لا مشاهدة، فعندما قتل الإمام عبدالعزيز كان عمره نحو ثمان سنين. وفي ذكره لمناقبه صرح بالرواية ج ١ ص ٢٦٦ و ٢٧٤.

(٢) ابن بشر، عنوان المجد ج ١ ص ٢٦٧.

(٣) حديث المهدي - الذي يشير إليه المؤلف - رواه أبو داود في السنن، كتاب المهدي ج٤ ص ١٠٦.

(٤) ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ٢٦٦.

التواضع والبساطة:

«وكـان لا يكترث فـي لباسـه ولا سلاحـه، بحيث أن بنيـه وبني بنيـه مـحلاة سـيـوفـهم بالذهـب والفـضـة، ولم يكن سـيـفـه مـن ذلك إلا قليل»[1].

الطاعة والعبادة:

«وكان لا يخرج من المسجد بعد صلاة الصبح حتى ترتفع الشمس، ويصلي فيه صلاة الضحى، وكان يكثر من الدعاء للرعية في ورده، ويقول: اللهم، أبق فيهم كلمة لا إله إلا الله حتى يستقيموا عليها ولا يحيدوا عنها»[2].

العطف على الرعية:

«وكان كثير الرحمة والرأفة بالرعية، وخصوصًا أهل البلدان بإعطائهم الأموال، وبث الصدقة لفقرائهم، والدعاء لهم والتفحص عن أحوالهم . . . وكان يوصي عماله بتقوى الله، وأخذ الزكاة على الوجه المشروع وإعطاء الضعفاء والمساكين، ويزجرهم عن الظلم، وأخذ كرائم الأموال»[3].

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ٢٧٥.

الكرم والجود :

«. . . وأتي إليه يومًا خمسة وعشرون[1] حملاً من الريالات، فمر عليها وهي مطروحة، فنخسها بسيفه، وقال: اللهم سلطني عليها ولا تسلِّطها علي. ثم بدأ في تفريقها . . . وكان عطاؤه للفقراء والمساكين في الغاية، فكان منهم من يكتب إليه منه، ومن أمه، وزوجته، وابنه، وابنته، من كل واحد كتابًا وحده، فيوقع على كل كتاب منهم عطاءه . . . وكان - رحمه الله تعالى - مع ذلك كثير العطاء والصدقات للرعية من الوفود والأمراء القضاة وأهل العلم وطلبته ومعلمة القرآن والمؤذنين وأئمة المساجد حتى أئمة مساجد نخيل البلدان ومؤذنيهم . . . وكان إذا مات الرجل من جميع نواحي نجد يأتون أولاده إلى عبدالعزيز وابنه يستخلفونه، فيعطيهم عطاء جزيلاً، وربما كتب لهم راتبًا في الديوان»[2].

الحض على طلب العلم ونشره :

«وكان كثيراً ما يكتب إلى أهل النواحي بالحض على تعليم القراءة وتعلم العلم وتعليمه، ويجعل لهم راتبًا في الديوان، ومن كان منهم ضعيفًا يأمره أن يأتي إلى الدرعية، ويقوم بجميع أنوابه[3] . . . وكان الصبيان من أهل الدرعية إذا خرجوا من عند المعلم يصعدون إليه

(١) في الأصل: خمس وعشرون. والتصويب من النسختين أ و ب.
(٢) ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦.
(٣) في هامش النسخة ب: أنوابه: أي ما يلزمه من حاجات.

بألواحهم، ويعرضون عليه خطوطهم، فمن تحاسن خطه منهم أعطاه عطاء جزيلاً، وأعطى الباقين دونه»[1].

الأمـــن:

والأمن علة وجود الحكومات والدول، وعليه وعلى العدل يدور محور الاجتماع، فالشرائع المنزلة والقوانين الموضوعة والنظم الاجتماعية لم توجد إلا لتقرير العدل والأمن لحفظ حقوق الناس وصيانة أرواحهم وأموالهم.

ويحدثنا ابن بشر بما شاهده عن الأمن في عهد الإمام عبدالعزيز بحقائق قد لا يسمو إليها خيال الفلاسفة والشعراء في تصوير مدينة السعادة المنشودة وطوبى الحياة.

أمانٌ تعجز عن إيجاده أقوى الدول بطشًا وأدقها نظمًا وأسهرها على رفاه الرعية، وعدلٌ هو الميزان في دقته، والسيف في مضائه، والطود في رسوخه، والليل في شموله.

تَصَوَّر بلادًا كانت إلى عهد قريب غارقة في لجج الفتن المتلاطمة بأمواج الاضطرابات تائهة في بيداء الجهل، ودياجير الضلال، متعددة الإمارات، متطاحنة القبائل والبلدان، مملوءة بضغائن الثارات والانتقامات، لاوازع لأهلها ولا رادع، قد تأصلت في نفوس سكانها

(١) ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص٢٧٥، ٢٧٦.

الأنانية الهمجية، والعنجهية البدوية، يخوضون الدماء، ويترقبون الغارات صباحًا مساءًا [مساءً] ليقابلوها بالمثل، ديدنهم السلب والنهب وانتهاك الأموال والحرمات. وكل هذه الخصال تبررها لهم العادات والرسوم وتحبذها في أعينهم الحمية الجاهلية والنخوة الهمجية.

تصور هذه البلاد المخيفة المرعبة تصبح في برهة وجيزة على ترامي أطرافها، وسعة أرجائها وتعدد صحاريها وفلواتها وأقفارها، وكأن المسافر فيها مقيم في بيته، بل أشد أمنًا وارتياحًا؛ لأنه وهو في بيته قد لا يأمن اللصوص. يخرج الراكب وحده من اليمن، وتهامة، والحجاز، والبحرين، وعمان، والعراق، والشام لايحمل سلاحًا، بل سلاحه عصاه لا يخشى كيد عدو ولا أحد يريده بسوء.

وكانت قوافل الحجاج والتجار وجباة الغنائم والزكاة وجميع أهل الأسفار يأتون من عمان وبلاد العجم والعراق إلى الدرعية، ويحجون منها، ويرجعون إلى أوطانهم لا يخشون أحدًا من جميع البوادي مما احتوت عليه هذه المملكة لا بالاعتداء، ولا الاختلاس والسرقة، وليس يؤخذ منهم شيء من الخاوات والقوانين والرسوم(1) التي تؤخذ على الحجاج، بل أبطلت كلها.

---

(1) **الخاوات**: عند البدو الضرائب والجعالات التي يأخذونها على المسافرين، مشتقة من خاواه [في ب: آخاه] في السفر إذا رافقه فيه، والخوي عندهم الرفيق، وهو لا يرافقهم إلا بجعل معلوم؛ لأنه يحميهم من قبيلته فقط، ولا بد لكل مسافر أن يأخذ معه من كل قبيلة سيمر بها خويًا لحمايته، ولهذه الحمايات =

ويقص علينا ابن بشر في تاريخه قصصًا طريفة تدل على مبلغ ما وصل إليه الأمن الشامل في جزيرة العرب نلخصها هنا لما فيها من اللذة والعبرة.

سوائم الأمان:

من الطمأنينة والثقة أن تترك مالك مهملاً، ولا تحدثك نفسك عنه بسوء، ولا يخالجها عليه خوف. وإذا قال النجدي: المال أو الحلال، فإنما يعني به الماشية والدواب. وغارات البدو وغزواتهم كانت في سبيل نيله أو الدفاع عنه.

وقد أصبح ذلك المال العزيز المفدى بالروح يطلق من قيوده هملاً بلا رعاة ولا حفاظ سائمًا في المراعي والمراتع البعيدة يسرح ويمرح، وربما تلاقح وتناسل، فيأتي إلى أهله أزواجًا وهم يعهدونه أفرادًا، ويكفي لحفظه أن يوسم بالكي، ولكل علامته الاصطلاحية.

= الحمايات أنظمة كانت عندهم مقررة ومرعية. **والقوانين والرسوم**: ما تأخذه القبائل على الحجاج، ومنه مثلهم المشهور: قطع الخشوم [في ب: الأنوف] ولا قطع الرسوم (المؤلف).

وزاد في هامش النسخة ب: «ومن طريف ما تهمله التواريخ أحيانًا أن [أحد] رؤساء البدو في نواحي المدينة قال لأميرها عبدالعزيز بن إبراهيم هذه العبارة محتجًا على قطع رسومه، فأمر بقطع أنفه، فصار آخر ما قطع من الرسوم والخشوم»، ويلحظ أن هذا الخبر يستدرك على التراجم المنشورة عن سيرة الأمير عبدالعزيز بن إبراهيم.

راعية ابن يعيش[1]:

في الدرعية مجموعة كبيرة من الإبل ومختلف الدواب عهد الإمام إلى عُبَيد بن يعيش برعايتها وتعهدها للسقي وغيره، وهي مؤلفة من ضوال السائمة وشوارد الإبل التائهة التي تمعن في المراعي البعيدة، فتضل طريقها، وكل من وجدها أتى بها إلى الدرعية مخافة أن تعرف وهي عنده، فيتهم بأخذها، وقد تطول بها المدة، فتتكاثر بالتناسل، وصاحب الضالة لا ينشدها، وما عليه إلا أن يأتي راعية ابن يعيش؛ ليتعرف ضالته، ومتى وجدها فما عليه إلا أن يأتي بشاهدين أو شاهد ويمين، فيأخذها، وربما وجد الواحدة اثنتين.

الغـــرارة:

وحديث هذه الغرارة كحديث عصا المازني في السيارة[2]، فقدْ فَقَدَ أحد حجاج العجم غرارة له في بادية سبيع، وكان ما في الغرارة لا يساوي عشرة قروش، ولكن أبت نفس صاحبها إلا أن يكتب إلى عبدالعزيز بذلك، فأتى برؤوس القبيلة، وتمثلت أمامهم المسئولية [المسؤولية] بأهول معانيها، وطلبوا أن يغرموا أضعاف ثمنها، ولكن الإمام لا يقنع إلا بمعرفة السارق نفسه وإعادة الغرارة بذاتها، وهكذا كان فقد أعيدت الغرارة بعينها،

---

(١) من هنا إلى نهاية ترجمة الإمام عبدالعزيز لم يرد في النسخة ب.

(٢) رحلة الحجاز لإبراهيم عبدالقادر المازني صفحة [كذا] (المؤلف). وانظر حديث المازني عن عصاه التي فقدت أثناء تواجده في الحجاز للحج، ثم أعيدت إليه. المازني، رحلة الحجاز ص ٦٢-٦٦.

وأدِّب السارق بما يستحقه من الجزاء، وأعيدت إلى صاحبها في بلاده.

عنز رمـــان:

ورمَّان موضع بقرب نفود السر بنجد[1]، وكان يضرب المثل بظبي رمان[2] للقناعة والرضى، فأحر بعنز رمان أن يضرب بها المثل للأمن والعدالة شرذمة من الحنشل - والحنشل: سراق البادية الأعراب - وطئوا رمان، وكان شمول الأمن قد قطع موارد السرقة عنهم، فأصبحوا في فاقة، وكانوا مقوين[3] لثلاث مقرمين[4] إلى اللحم، فوجدوا عنزاً ضالة، فحدثتهم نفوسهم الشريرة بذبحها وأكلها، والجوع يُلْجِئ إلى السرقة الأخيار بله الأشرار، فترددوا، وتشاوروا، ولكن من يقدم، وأخيراً اختاروا أفتكهم وأعزهم، فرفض قائلاً: «دعوها فإن عبدالعزيز يرعاها». وهكذا تركوها ترعى كما يترك الصائم الماء البارد أشوق ما كان إليه.

---

(١) رمان - بالنون- خطأ، صوابها (رمال نفود السر) كما في عنوان المجد (ط. الدارة) ج ١ ص ٢٦٨ و (ط. وزارة المعارف) ج١ ص ١٧٠ وقد تصحفت الكلمة إلى (رمان نفود السر) في (ط. مكتبة الرياض الحديثة - المصورة من ط. مكة-) ج١ ، ص ١٢٧ ، ويظهر أن المؤلف نقل هنا من طبعة مصحفة.

(٢) رمان الظبي: موضع آخر في الشمال (المؤلف).

(٣) المقوي: الذي لا زاد معه، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣] أي منفعة للمسافرين إذا نزلوا بالأرض القيّ، وهي القفر. ابن منظور، لسان العرب ج ١٥ ص ٢١٠ (ماده: قوي).

(٤) مقرمين من القرم بالتحريك- ؛ أي : شدة الشهوة إلى اللحم. ابن منظور، لسان العرب ج ١٢ ص ٤٧٣ (مادة: قرم).

الأطناب الثمينة:

لا تقوم السرادقات والخيام إلا بالأطناب، وقد يبالغ بعض الملوك المترفين بالبذخ حتى في أوتاد أطناب سرادقاتهم، ولكن غايتهم فيها أن تكون من نحاس أو من أطناب خشب الآبنوس. أما عمال الإمام عبدالعزيز الذين يأتون بأكياس الدراهم مملوءة، فإنهم يتخذونها أطنابًا لخيامهم متى جنهم الليل، وأرادوا النوم، وينبذون أرحلهم يمينًا وشمالاً إلا ما يجعلونه وسائد تحت رؤوسهم ومرابط لخيلهم لا يخشون سارقًا ولا غيره، وهم لا يقصدون بذلك البذخ والمباهات[المباهاة]، ولكن[1] الأوتاد لا تثبت في الرمل، والأرض الرملية خالية من الحجارة، إذن فهم يستعملون أكياس الدراهم للضرورة، ولكنها في غير حكم آل سعود ضرورة جنونية، وكأني بالمسافر في غير هذه البلاد يبادر إلى دفن أكياسه إخفاء لها، ولا نظن أنه يخطر له أن يجعلها أطنابًا وإن بات بالعراء ولا يجعل الأطناب دليلاً عليها.

هذا هو الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود، وهذه هي سيرته، ولنا أن نصدر الحكم، ونقول مع ابن بشر: «هو حقيق بأن يلقب مهدي زمانه».

مات الإمام عبدالعزيز وحدود مملكته من مشارف الشام في الشمال إلى مجاهل الربع الخالي في الجنوب، ومن ساحل البحر الأحمر في الغرب

(١) في الأصل: ولكن ولكن. مكررة سهواً.

إلى ضفاف خليج فارس في الشرق[1]، ولم تخرج عن مملكته إلا صنعاء وما والاها من بلاد عدن، ومهرة، وحضرموت.

أما البوادي فكانت كلها خاضعة تؤدي الزكاة والطاعة حتى ولو كانت خارج المملكة كقبائل سوريا، ومصر، والعراق، واليمن، وحضرموت، رحمه الله رحمة واسعة.

(١) مكانه في النسخة ب: «ودار الزمن دورته وإذا بعبد العزيز الثاني كعبدالعزيز الأول في سعة مملكته وعدله وتدينه، ويزيد عليه ببروزه في العالم، وتغلبه على الدعايات التركية الضارة، وبأخذه بأسباب المدنية والرقي العصري، وفيضان الكنوز المعدنية على يديه، وستدوم هذه المملكة في تقدم مطرد وإلى الأبد إن شاء الله».

الإمام سعود الكبير

سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود

ولد بالدرعية سنة ١١٦١

وعهد إليه بولاية العهد سنة ١٢٠٢

وبويع بالإمامة سنة ١٢١٨

وتوفي سنة ١٢٢٩

هو سعود الكبير. الكبير في ديانته وورعه، الكبير في علمه، الكبير في سياسته وحزمه، والكبير في غزواته وفتوحاته.

وإذا كان المؤرخ يجعل البيئة أساس بحثه وتحليلاته وتعليله، فالبيئة التي نشأ فيها سعود وترعرع في أحضانها وغذي بلبانها جديرة بأن تنجب تلك الشخصية الكبيرة الفذة.

ولد والدم الذي يجري في عروقه دم الإمارة خالصًا يتدفق بحرارته. وإن طفلاً يولد وهو حفيد بطل الدرعية العظيم وسبط عثمان بن معمر أمير العيينة لحري بالزعامة، وجدير بأن تتوفر فيه شروطها.

أول ما فتح عينيه على عزة الملك وتمجيد البطولة، وغذي بلبان العلم منذ نعومة أظفاره، فقد قرأ على الشيخ محمد بن عبدالوهاب عدة سنين، وأطال مجالسته والأخذ عنه حتى رسخت فيه تعاليمه، وشب على مكارم الأخلاق والعفة والنزاهة وحب الفروسية.

هذا هو سعود الكبير، وأول غزوة شهدها كانت مع سرية أرسلها أبوه لتأديب بلد العودة من سدير، وأمير السرية هذلول الفيصل سنة ١١٨١[١].

وهذا مثل يضربه آل سعود في تمرين أولادهم على الحروب، وتجربتهم قبل أن يعهد إليهم بالقيادة حتى تتوفر فيهم شروط القائد المحنك الذي يستمد مهارته ومعارفه من التجارب، وقد كان أبوه من قبله غزا عدة غزوات تحت إمرة عثمان بن معمر وغيره، ولكن سرعان ما ظهرت بطولة سعود، وبانت مخائل نجابته.

ففي السنة التالية أغزاه أبوه إلى الزلفي، فعاد ظافراً وهو في سن العشرين، ومن ذلك الحين والتوفيق قرينه والنصر حليفه مدة ست وأربعين سنة لم تهزم له راية.

وقد مات سعود بعلة السرطان المعوي[٢] والحرب النجدية المصرية في بدء شبوبها أحوج ما كانت نجد إليه لأمر يريده الله تعالى.

---

(١) ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ١٠٢ ويرجح محقق الكتاب (ط. الدارة) عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ أن هذلول الفيصل، هو حفيد الإمام محمد بن سعود، وأنه درج ولم يعقب.

(٢) يصف ابن بشر موته بعلة وقعت أسفل بطنه أصابه منها مثل حصر البول. ابن بشر، عنوان المجد ج ١ ص ٣٦٤.

سيرتــه

إن في سرد سيرة الإمام سعود وعدّ فضائله وخصاله في البطولة ومكارم الأخلاق ترديد لما بسطناه في سيرة أبيه، فهو صورة طبق الأصل لوالده، ومن يشابه أباه فما ظلم[1]، وسنثبت هنا خلاصة ما وصفه الشيخ عثمان بن بشر في كتابه «عنوان المجد» من عاداته ومآثره والشيخ عثمان يصفها وصف مشاهد خبير.

علمه وعمله :

كانت له المعرفة التامة في تفسير القرآن، وله معرفة في الحديث والفقه، ولا غرو فهو تلميذ الشيخ محمد في صغره، والمذاكر مع طلبة العلم طيلة حياته، ذو المجالس المعمورة بالدرس وقراءة كتب التفسير والحديث والمواعظ في حضره وسفره، لايمل ولا يتوانى، وله المناشير [المنشورات] العديدة يرسلها إلى عماله ورعاياه مملوءة بالمواعظ والنواهي والزواجر، ولمحبته للعلماء ومجالستهم كان يستصحب معه في مغازيه جملة منهم، ومنذ أن أذعن الشريف غالب لم يتخلف عن الحج سنة واحدة حتى حج أربع عشر[عشرة] حجة.

وكان يكثر في حجاته من الصدقات والأعطيات، ويكسو الكعبة من القيلان الفاخر والحرير المقصب، ولم يتخلف عن أداء فريضة الصلاة مع

(١) المثل في الميداني، مجمع الأمثال ج ٣ ص ٣١٢.

الجماعة قطعًا، فله في مسجد الطريف جامع الدرعية مقصورة يؤدي فيها صلاة الجمعة - اتخذها على أثر حادثة مقتل والده في الجامع المذكور -[1] ويؤدي بقية الفرائض في مسجد القصر الخاص، والقصر بنفسه مدينة، ومسجده لا يقل عن الجامع.

ولحرصه على إقامة الجماعات كانت الصلاة حتى في غزواته وأسفاره تقام للجنود، وقسم منهم يقوم بالأعمال، وبعد فراغ الأولين يقومون بالأعمال، ويصلي بالمتأخرين إمام آخر.

وهو دائمًا يحب سماع تلاوة القرآن، ويختار لذلك قراءًا [قراءً] من الصّيّتين المجوِّدين يتلون السور في المجالس وعلى ظهور النجائب في المغازي والأسفار، فيصغي، وتصغي جنوده كلها، وتسيل بأعناق المطي الأباطح[2].

---

(١) اتخاذ الملوك للمقصورة له أصل، فيروى أن أول من اتخذها عثمان بن عفان رضي الله عنه اتخذها من اللبن، وكان يصلي فيها مخافة أن يصيبه ما أصاب عمر رضي الله عنه. أبو هلال العسكري، الأوائل ج ١ ص ٣٣٥. كما يلحظ أن الإمام فيصل بن تركي قد ربط قصر الحكم في الرياض بممر علوي يتصل بمسجد الجامع الكبير على أثر حادثة مقتل والده الإمام تركي بن عبدالله في الجامع الكبير. الرويشد، قصر الحكم في الرياض، ص ٥١.

(٢) عجز بيت لكثير عزة، وروايته:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطحُ

تدبيره وهيبتـــه :

وكان مع سعة عقله وحصافة رأيه وحسن تدبيره لا ينفذ أمرًا ولا يصدر شيئًا إلا بعد استشارة من يثق برأيهم من خواصه على حدة، ثم يستشير أهل الرأي والعلم من أهل الدرعية، وكان في استشاراته صريحًا في إبداء رأيه، سديدًا في النقاش وبحث الأمور من جميع نواحيها، ممحِّصًا للحقائق، فلا يصدر إلا عن تبصرة، ولا ينفذ إلا عن يقين، لا يجد الاستبداد وحب الأثرة إلى نفسه سبيلاً.

وهو مع تواضعه للفقراء والمساكين، وعطفه عليهم، وخفة روحه ومداعبته لخواصه وصحبه، له هيبة عظيمة في النفوس، وتأثير كبير في أكبر الناس جرأة، بحيث لا يتجاسر أحد عليه، ولا ترمقه العيون، إجلالاً وإعظامًا.

وفي جوف مدينة الدرعية مدينة ثانية هي القصر، وفيه أفراد العائلة السعودية، ولكل فرد منهم حاشية كبيرة، ولسعود وحده ألف ومائتان من العبيد السود ما بين ذكور وإناث، قد انتقاهم من الصناديد العمالقة الضخام، وألبسهم الثياب الثمينة والسيوف الصقيلة المحلاة، فإذا مشى أحاطوا به وهو بينهم كالمصباح في حالك الدجى، تسمع لمشيهم رجة ودويًا يملأ النفس هيبة وإكبارًا. وقل أن يُرَى في خدمه الخاصة من هو أبيض البشرة.

مجالسه وأسفاره :

في الدرعية عاصمة المملكة العربية السعودية[1] سوق فسيح أطلق عليه اسم (الموسم) - وهذا الاسم يدلنا عليه دلالة واضحة- وهو ميدان من الميادين الواسعة قد اصطفت على جوانبه الحوانيت المملوءة بالبضائع، وفي صحنه الكبير تزدحم الجماهير الغفيرة.

تتربع الملوك على عروشها داخل قصورها الفخمة مكللة بالأرصاد، ومجللة بالستور، محاطة بجيوش الحجاب ورجال التشريفات، وتحت قيود قاعات العرش وصالات الاستقبال، وسعود يظهر للناس في ذلك الموسم، فقد أعده مجلسًا عموميًا له يتفيأ ظلال الدكاكين الشرقية في القيظ، ويتمتع بأشعة الشروق أمام الدكاكين الغربية في الشتاء كل يوم إبان شروق الشمس.

يجتمع الناس في تلك الساحة ويصطفون حلقات متراصة يخطؤها [يخطئها] الحصر، وفي الصدر فسحة أعدت للإمام وعائلته، إذ يأتي بنوه وعمه وإخوته وأبناؤهم، ولكل واحد منهم حاشية كبيرة وبزة ظاهرة، فيصطفون كل في موضعه بوقار وسكون، وبجانبهم يجلس العلماء من آل الشيخ، ولا يقوم أحد لأحد، كبر القادم أم صغر، وهذه هي المساواة بأجلى مظاهرها وأتم معانيها.

---

(١) الأصوب أن الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى، ثم انتقلت العاصمة إلى الرياض في بداية الدولة السعودية الثانية. وهذا ما يقصده المؤلف، وهو يكثر من استخدام كلمة المملكة العربية السعودية قبل إعلانها، وقد سبق التنبيه إلى ذلك.

ولا يكاد يتم انتظام هذا المجمع العظيم حتى تسمع الجلبة والرجة من وقع أقدام أولئك العبيد، الأشداء يحفون بالإمام من كل جانب، وقد خرج من القصر يؤم ذلك المجلس، ولا يقوم أحد إلا الذين في طريقه خشية أن يطأهم أولئك العبيد حتى يتبوأ المكان المعد له، فيسلم على الكافة أولاً، وبعد أن يستقر في جلسته يلتفت عن يمينه وشماله محييًا للرؤساء والكبراء، ورادًا عليهم تحياتهم، ويجلس بجانبه الشيخ عبدالله ابن الشيخ محمد، ويشرع في قراءة القرآن، ومتى فرغ من الدرس نهض سعود، ودخل القصر حيث يجلس في المجلس العمومي، فيرفع الناس إليه حوائجهم، ثم يدخل الحريم للقيلولة.

وللدرس مجلس آخر في القصر بعد صلاة الظهر يحضره الناس على اختلاف طبقاتهم، يكون المدرس فيه هو الإمام سعود بنفسه، فيا لها من هيبة ملوكية يجللها وقار العلماء، وأنفة عربية وعزة مضرية في بساطة الواعظين المرشدين وتواضعهم.

يقرأ اثنان من التلامذة شيئًا من التفسير على أحد العلماء الحاضرين، ثم ينتهي الدرس، وعندها ينبري الإمام سعود للتقرير في ذلك الموضوع الذي يتخذه أساسًا لبحثه، ومن هذا يعلم أنه لا يستعد لبحثه قبل أوانه شأن كثير من الوعاظ والعلماء، بل يأتي به ابن ساعته ووليد وقته، وهذا ما يدلنا على تضلع الإمام في العلوم الدينية، وهناك يأتي بالعجب العجاب الآخذ بالألباب، فترهف له المسامع، وتشخص إليه الأبصار، وتنبسط له

الأدمغة والقلوب؛ لترسم كلامه على صفحاتها، وتحفظه تذكرة وذكرى لا تزول ولا تمحى؛ لأنه من أوسع الناس اطلاعًا، وأبلغهم عبارة، وأفصحهم لسانًا.

وبعدها يأتي دور أهل الحاجات من شاك ومدَّع وطالب رفد، فيجلس لهم وكاتبه عن يمينه يكتب كلما [كلِّ ما] يرفع له في تلك الجلسة مدة ساعتين، ثم يختلي معه للنظر فيما رفع إليه والتوقيع عليه بما يجب.

وثالث مجالس الدرس في القصر من بعد المغرب إلى وقت صلاة العشاء. هذا في الحضر.

أما في المغازي والسفر، فإن الإمام إذا أراد الخروج من الدرعية اصطفت له كتائب الخيل في الوادي وعند القصر، واجتمعت الجماهير من الرجال والنساء والأطفال ينتظرون خروجه، ويخرج من القصر توًا إلى الجامع المجاور له، فيصلي ويطيل الصلاة، ثم يركب جواده صامتًا لا يتكلم إلا بردِّ السلام حتى يأتي الموضع الذي ينزله عادة بين الدرعية والعيينة، ويتبعه كثير من الضعفاء والمساكين والمعوزين، فيقضي حاجاتهم تلك الليلة، ثم يرحل باكرًا، ومعه ذلك الخميس العرمرم على عتاق الخيل العربية، وكرائم النجائب العمانية، وآلة الحرب الكاملة، ثم يقيل حتى صلاة الجمع بين الظهر والعصر، ثم يستأنف السير إلى ما قبل[1] الغروب،

(١) ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ٣٤٥. في النسخة ب: ما بعد.

وفي جميع الأسفار تباريه القراء يقرؤون [يقرأون] القرآن أثناء السير، ولا يترك الدرس بين المغرب والعشاء.

كرمه وصدقاته:

أما صدقاته التي يبذلها في الحرمين وغيرها أينما سار وأقام فأكثر من أن تحصر، ويكفي أن يقال: إنه في ليلة العيد يكسو ثلاثة آلاف فقير أو يزيدون، ويعطيهم ما يكفيهم مؤونة أسبوع العيد، ودار الضيافة لا ينتهي فيها تقديم الطعام كل ساعة من قبل الفجر إلى العتمة للضيوف، كلما خرج أناس دخل آخرون، ولا تنتهي وجبات الغداء حتى يبتدئ العشاء.

والخلاصة أنه الكبير بكلما [بكل ما] لهذه الكلمة من معنى.

٨

تبدل الحال

(ص ٨١)

من القواعد التاريخية البديهية في تاريخ الدول أن الدولة في نموها كالفرد تبتدئ حياتها بالطفولة، فالفتوة، فالشباب، فالكهولة، فالهرم، فالاضمحلال.

ومن سنن الله في خلقه أن الفناء خاتمة كل شيء، إنما الاختلاف والتفاوت في بطء الاضمحلال وسرعته للعوامل التي تطرأ على كيان الدولة، فتحفظها من الانحلال، أو تسرع بها إلى الفناء. ومما تسهل ملاحظته بديهة في تكون الدول هو ذلك الانقلاب والتبدل الذي يطرأ على أخلاق أهلها بعد أن يتفرغوا من البناء، فيتفيئون ظلاله، ثم يسيروا على قاعدة التوسع، فالتضخم فالانفجار، أو الترف فالعجز فالاضمحلال(١).

ومنذ أن حكم محمد بن سعود إلى الآن ما يقرب من مائتي سنة إذا ضربنا صفحًا عن ولاية آبائه وأجداده على الدرعية، وفي مرور قرنين من الزمن على أية دولة كافٍ لإيصالها إلى سن الكهولة على الأقل، ولكن الدولة السعودية لا تزال شابة قوية كما كانت في إبان قوتها وأوج مجدها.

(١) في النسختين أ و ب «أو الإخلاد إلى الراحة في ظل النعيم والانهماك في الملاهي، مما يؤدي إلى فتور الهمم فالتراخي فالانحلال».

وهي الآن في زمن عبدالعزيز الثاني كأنها هي في عصر عبدالعزيز الأول، وروح القوة المعنوية لا تزال تملأ جسمها الفتي الناهض[1]، والسبب في ذلك أن كثيراً من الدول التي قامت وأسست الملك، وفتحت البلاد وملكت العباد لا تنقضي عليها برهة من الزمان حتى تتمتع بثمرات فتوحاتها، وتخلد إلى الراحة والسكينة، ويغلب على ملوكها حب اللهو والاسترسال إلى لذاتهم وشهواتهم، ويقلدهم رعاياهم في ذلك، فإذا بتلك الدولة قد شاخت وهرمت، وما بعد الهرم إلا الموت.

ويقول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فإن المصائب والكوارث التي حلت بالبيت السعودي هي من أكبر الأسباب في بقائه؛ لأنه بقي يكافح ويصارع ويجالد، ولا يزيده هذا الكفاح إلا نشاطًا وقوةً إلى نشاطه وقوته، وقيام أساطينه بنصرة الدين والمحافظة عليه، وتنفيذ أوامره ونواهيه حماهم من الوقوع في لذات الملوك، وقصفهم[2] ولهوهم، فلم يكونوا يعتنون إلا بمكارم الأخلاق، ولم يكونوا يحافظون إلا على شعائر الدين الحنيف.

وحياة الشعوب بالأخلاق، وهي قوته المعنوية، لا في القوى المادية التي هي ثمرة من ثمرات الأولى، والضعف الوقتي الناشئ من تغلب

(١) في النسخة ب: «بل هي اليوم أقوى مركزاً لدى دول العالم وأحسن سمعة ومعنوية، وأغنى وأعز نفراً».

(٢) القصف: اللهو واللعب. ابن منظور، لسان العرب ج ٩ ص ٢٨٣ (مادة: قصف).

بعض القوات الخارجية، كالعاصفة لا تقاوم وقت هبوبها، ولكنها سرعان ما تزول، والثبات حينئذ لمن هو متين الأركان، قوي العقيدة ثابت الإيمان بخلاف الضعف المعنوي الذي يستولي على الدول في زمن شيخوختها، فينهكها، ويقضي على حياتها كالشيخ الفاني يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو في دعته وسكونه.

ومن يدري ماذا تكون آخرة آل سعود لو توارثوها عفواً واستسلموا إلى عيشة من سبقهم وعاصرهم من الملوك الآخرين، ولكن الله ابتلاهم ليبلوهم، ولكي تبقى فيهم عناصر المجد والقوة والصبر على المكاره تلك هي خصال الفاتحين والدول العظمى[١].

ولولا بقاء الروح المعنوية في عائلة آل سعود لما قام تركي بن عبدالله بمفرده وليس معه سوى سيفه الأجرب يستعيد به ملك آبائه بعدما كاد التاريخ يشطب على دولة آل سعود ويمحيها[٢] من سجل الدول، فإذا بها لا تزال حية قوية كامنة كمون النار في الحجر.

ولولا هذه الروح نفسها لما خرج عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل بأربعين ذلولاً[٣]، فإذا بالدولة قائمة كأن تلك النكبات لم تكن إلا بمثابة صقل لجوهرها، أو نار أذابت الذهب الإبريز ثم انطفأت، فإذا الجوهر

---

(١) في النسختين أ و ب: مؤسسي الدول العظمى.
(٢) في النسختين أ و ب: ويمحوها. وكلاهما صحيح.
(٣) في النسختين أ و ب: بعيراً.

جـوهر والإبريز إبريز، ومـا تلك الـويلات والانقـلابات إلا بمثـابة تـعب الرياضي الذي يزداد منه قـوة إلى قوته ونشـاطًا إلى نشاطه. تلك حكمـة الله البالغة وأسراره الخارقة و ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ [الروم: ٤].

٩
موقف الترك والمصريين
(ص ٨٢)

الخلافة في قريش، وقريش من العرب، وهذا ما يرعب ملوك آل عثمان (ظل الله في الأرض) ويقلق بالهم، وهم لم يحاولوا امتلاك جزيرة العرب على قلة مواردها وما تكبدهم من الخسائر الجسيمة[١] إلا ليقضوا على هذه الفكرة.

وقيام أية دولة عربية فيه ما فيه من الخطر الكبير على عرش الخلافة العظمى، فلا عجب[٢] إذا رأينا الدولة العثمانية تقاوم آل سعود مقاومة جدية، وتبدؤهم بالعداوة، وتقلب لهم ظهر المجن جهاراً وعلانية، وتسلط عليهم ولاتها في العراق وسوريا والحجاز[٣]، وتمدهم بما يحتاجون إليه من القوى المادية، وتنشر مختلف الدعايات الكاذبة؛ لتنفر العالم الإسلامي منهم بما تشوهه من سمعتهم وتنسبه إليهم، فتجمع حولها طغمة من رجال الدين يؤلفون الرسائل والكتب لإساءة سمعتهم حتى صوروهم

(١) انظر كتاب الإمام سعود إلى الكتخدا صفحة ٢١٠ (المؤلف).

(٢) شطب في النسخة ب على مطلع هذه الفقرة، وكتب مكانها: «لم تستطع الدولة العثمانية أن ترى دولة عربية تقوم في جزيرة العرب خشية على ماكانت تتمتع به من سمعة الخلافة؛ ولذلك فلا عجب...».

(٣) في النسخة ب: ومصر.

بصورة هي عكس صورتهم الحقيقية، وساعدهم على ذلك سذاجة أهل نجد وصراحتهم، وعدم اهتمامهم بوسائل الدعوة والنشر حتى أصبحت كلمة وهابي في المملكة العثمانية مرادفة لأسماء الفرق المارقة الخارجة عن الإسلام.

على أن الدولة العثمانية في ذلك الوقت كانت أضعف من أن تباشر الحرب جديًا بعد أن أخفق ولاتها لاضطرابات شئونها [شؤونها] واستحواذ رؤساء الانكشارية على الأمور وتلاعبهم بالسلاطين، فضلاً عن تلاعب رجال البلاط والوزراء بالمملكة.

وفي ذلك الوقت استولى نابوليون بونابرت على مصر، وظللها بجناح نسره، وما كادت الجنود الفرنساوية تخرج منها بسعي الإنكليز ومساعدتهم حتى عاد المماليك إلى سابق عادتهم، وكادت الفوضى تعود لولا أنهم منوا بذلك الداهية العظيم محمد علي باشا الذي أفناهم قتلاً، وقبض على زمام الحكم بمصر، وأوجد منها دولة فتية قوية، ونفخ فيها روح الحياة بمشروعاته الكبرى وإدخاله الأساليب الغربية التي فطن إلى منافعها برغم كونه جنديًا أميًا.

ولما رأى تمكنه من ضبط مصر حدثته نفسه بتأسيس مملكة مصرية إسلامية تقوم على أطلال المملكة العثمانية الواهية، فأخذ يعد للأمر عدته، وقد علم حق العلم أن لا سبيل إلى ذلك إلا باتخاذ الوسائل الفعالة، وأهمها الاستعدادات الحربية الحديثة، وتنظيم الجنود على

الطراز الغربي[1].

والسلطان محمود بعد أن تربع على العرش ورأى مملكته مهددة من جميع جوانبها وتاجه مهدد من جنوده الانكشارية صمَّم على تصفية أمور المملكة، فدولة آل سعود العربية على قلتها وبعدها أهمته أكثر من سواها، فهناك شبح الخلافة العربية ماثل يهدد مركز الخلافة العظمى، وقد استولت على الحجاز، فنزعت من السلطان لقب خادم الحرمين الشريفين بعد أن أخفقت محاولات سليمان باشا في العراق، وغالب الشريف في الحجاز، وعبدالله باشا العظم في سوريا.

وهناك خطر[2] لا يقل عنه أهمية، وهو توطد مركز محمد علي باشا في مصر وظهور نواياه ومطامحه في مقدمات أعماله، فرأى السلطان أن يشغل محمد علي بأهل نجد، ويضعفه بحروبهم بعد أن عجزت عنهم سائر ولاة الدولة، حتى تسهل في ما [فيما] بعد محاربة الطرف الفائز منهما بعد أن تنهكه الحرب، وفي ضعف الخصمين فائدة للدولة، فأصدر أمره إلى محمد علي بمحاربة أهل نجد وتخليص الحجاز منهم والقضاء على حركاتهم واستئصال جرثومتهم.

فأجابه بالسمع والطاعة؛ لأن الدعوة وافقت هوى في نفسه[3]،

---

(١) زاد في النسخة ب: «بعد أن شاهد جنود نابوليون ونظمهم».

(٢) زاد في النسخة ب: «مجاور لآل سعود».

(٣) زاد في النسختين أ و ب: «لأمور، (١) أنها حلت المشكلة...».

وحلت المشكلة العويصة التي أمامه مشكلة تنظيم الجيش؛ لأن جنوده الألبانيين لا يقلون تمردًا وعنادًا عن الجنود الانكشارية، وكان لا يستطيع تأديبهم خشية من أن السلطان يغتنم الفرصة ليعزله، وهذه عقبة كأداء كانت تقلق بال محمد علي مدة طويلة. والطريقة المثلى لتذليلها، وجدها في امتثال الأمر الشاهاني، ففي وقت واحد تخلص من أولئك الجنود بإرسالهم إلى تلك المفاوز؛ لتحصدهم أسود نجد وعقبانهم، وفي الوقت نفسه يجد وقتًا ملائما لتجنيد الجند النظامي باسم تلك الحرب أيضًا، وهو آمن من جانب السلطان متمتع بتعضيده ومناصرته، وكذلك كان.

وعلاوة على ذلك فقد تحصل[1] على مبالغ كبيرة من الأموال من الأهالي والحكومة العثمانية باسم تخليص الحجاز، وبرهن للباب العالي على إخلاصه وطاعته وقد كان مشكوكًا فيهما.

وهو في مطامعه الكبيرة، ولا تقصر على عرش الخلافة؛ لأن معاصره نابوليون ضرب له مثلاً عاليًا خصوصًا، ومنشأ هذين الداهيتين متقارب الشبه[2]، محتاج إلى الدعاية لتحسين السمعة، وتكبير الشهرة، وإظهار القوة للعالم الإسلامي بأسره.

وأحسن وسيلة إلى ذلك هي تخليص الحرمين من سلطة الوهابيين

(١) في النسختين أ و ب: «(٢) أنه سوف يتحصل».
(٢) زاد في النسختين أ و ب: «(٣) لا شك أنه كان متأثرًا بالدعايات المبثوثة ضد الوهابيين كما أنه».

الذين نفرت الدعاية التركية منهم، وساعدها على ذلك بعض الشدة التي أتوها في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا يسعنا أن نجرد محمد علي من شعور البغض والعداء للوهابيين شأن بقية البعيدين عن مخالطة أهل نجد من سائر المسلمين[(١)]، كما أنه يحسب للقوة السعودية حسابها، ويتوقع منها نفس ما يتوقعه السلطان ويخشاه لاتصالها بحدود مصر ومجاورتها لها، وفي ذلك من الخطر ما فيه[(٢)]، كل هذه الأسباب جعلت محمد علي يشمِّر عن ساعد الجد، ويرسل ابنه طوسون على رأس حملة كبيرة سنة ١٢٢٦[(٣)].

(١) زاد في النسختين أ و ب: «وذلك بعد أن عجزت عنهم الحكومة العثمانية. (٤) أنه يحسب...».

(٢) زاد في النسختين أ و ب: «(٥) وهو الأهم في نظره [في ب: تيسر] القضاء على المماليك في هذه الغمرة، فلا يحس بهم أحد ولا يُسْمَعُ لهم رِكْزٌ».

(٣) في النسخة ب شطب على التفصيلات التي تقدمت، وكتب بخط مغاير لخط المؤلف: «ولأسباب كثيرة لا محل لذكرها في هذا المقام تم الاتفاق بين الدولة العثمانية ومحمد علي باشا لإرسال حملة إلى الحجاز لمقاومة آل سعود ومنع فتوحاتهم».

حملة محمد علي

اهتم محمد علي لمحاربة أهل نجد اهتمامًا عظيمًا، وبذل مجهودات كبيرة لم يبذلها في بقية حروبه، ولاقى صعابًا جمة وعقبات كأداء مدة سبع سنين حتى تسنى له أن يستولي على الدرعية التي استمات أهلها في الدفاع عنها حتى النفس الأخير، ولولا استحواذه على مرافق وادي النيل الغني بالثروة والنفوس واستيلاؤه على ثروات مولي الملتزمين الأغنياء من عهد المماليك، وفرضه الضرائب نقودًا وغلالاً على الأهالي، لما استطاع أن يرتق تلك الخروق من الهزائم العديدة التي منيت بها جنوده.

ولحسن حظه أن المنية اغتالت قلب نجد النابض ودماغها المفكر المدبر سعود الكبير ذلك القائد الباسل(١)، ومع أن هذه الحرب هي باكورة حروبه الكثيرة، فإنها امتازت بصلابة مقابليه وقوة شكيمتهم.

ولما قر قراره على الحرب كان أول ما اهتم له إعداد معدات النقل لبعد الشقة(٢)، وطول المسافة، ورأى أن ذلك لا يكون إلا بحرًا، ولكن ليس لديه من السفن على البحر الأحمر ما يكفي لتلك الحملة، فأسس ترسانة في السويس لبناء أسطول البحر الأحمر، وحشر فيها كافة من ينتمي لصناعة السفن من مهندسين وعمال، وقطع لها الأخشاب من مصر، وجلبها من

---

(١) في النسخة ب كُتب تعليق على ما تقدم بخط مغاير: يوجز القول في هذا الموضوع.

(٢) في النسخة أ و ب: حاسبًا حسابه بعد الشقة.

الأناضول، وتولى مراقبة العمل بنفسه حتى تمكن من إنجاز أسطوله الضخم في مدة وجيزة، وشحنه بمقدار ثمانية آلاف من المشاة، أقلهم إلى ينبع مع كافة المهمات الحربيه، وألفان من الفرسان مشوا براً عن طريق برزخ السويس فالعقبة، وعلى رأسهم القائد العام ابنه أحمد طوسون، وقد قلده القيادة بحفلة رسمية وهو لم يتجاوز السابعة عشر [عشرة] من عمره، وذلك في شهر رمضان سنة ١٢٢٦.

وقد أصحبه أبوه ببعض المستشارين والأطباء، وعلى رأسهم السيد محمد المحروقي كبير تجار مصر.

وكان طوسون فتى ضعيف البنية مسترسلاً إلى ملذاته ضعيف الإرادة، وبعبارة أوضح: لم تكن فيه صفات القائد الفاتح، فلم يفلح في مهمته. وهنا يجب أن نلاحظ ما مرّ في سيرة الإمامين عبدالعزيز وسعود وتدرجهما في استلام زمام القيادة.

احتلال ينبع:

كانت الحامية النجدية في ينبع قدر ثلاثمائة، وأميرهم جابر بن جبارة، لهذا ما كاد الأسطول المصري يرسو في ينبع حتى سلمت بدون كبير مقاومة، وفر الأمير ومعه من نجا من الأسر، ولم يلبث أحمد طوسون حتى وافى ينبع بفرقة الفرسان، ومن هناك قرروا الزحف على المدينة.

وكان الإمام سعود قد أرسل حملة قوية للدفاع تقدر بثمانية عشر ألف

مقاتل، وعلى رأسها ابناه عبدالله وفيصل، فرابطت في الخيف من وادي الصفراء بين بدر والمدينة.

وقعة الصفراء:

وفي وادي الصفراء[1] التقى الجمعان، وكان النصر بادئ بدء حليفًا لطوسون وجنوده؛ لأن مدافعه واستعداداته لم يألفها النجديون، وخصوصًا الأعراب، فنفرت خيلهم ولم يثبتوا أمام الجنود المصرية لولا أن عبدالله استبدلهم بحضر أهل الوشم، وكان الهجوم النجدي على صفوف المصريين عامًا؛ فتضعضعوا، ووقعت الهزيمة، وتركوا كافة معداتهم ومدافعهم، ومنها سبعة مدافع ضخمة، ونجا طوسون ومن استطاع الفرار من الفرسان إلى البريكة ومنها بحرًا إلى ينبع بعد أن فقد خمسة آلاف من جنوده.

وإن حملة قائدها فتى قاصر، ومدبرها رجل تاجر لحرية أن تمنى بالانكسار، وكتب طوسون إلى أبيه بخبر الهزيمة ناسبًا ذلك إلى تنافس القواد، وقد لا تخلو حجته من صحة؛ لأن رجال الحرب لا يذعنون للمحروقي وأمثاله.

وبقي طوسون في ينبع ينتظر المدد، أما عبدالله بن سعود فبعد أن

(١) وادي الصفراء من أكبر أودية الحجاز الغربية، يمر به الطريق من مكة إلى المدينة، أوله على بعد ٥٤ كيلاً جنوب المدينة. البلادي، معجم معالم الحجاز ج ٥ ص١٤٨.

فرغ من توزيع الغنائم رحل حاجًا إلى مكة لموافاة أبيه، ولو هاجم طوسون في ينبع لقضى عليه، ولكنه أحب أن يلاقي والده، ويتلقى أوامره وتعليماته.

وفي هذه الفرصة غزا طوسون قلوب بادية الحجاز بالأصفر الرنان بعد أن أخفق في غزو جسومهم بالصارم البتار، فمهد له طريقًا ما كان ليمهده بالحرب، وإذا أراد الله أمرًا هيَّأ له أسبابه، فإن الإمام سعود لم يهتم بطوسون، أو لم يرد أن يتظاهر بذلك، لأنه بعد الحج عاد إلى الدرعية، وأرسل إلى المدينة من الجنود ما يكفي لحفظها؛ وفي الوقت نفسه هاجم ابنه عبدالله العراق إلى أن وصل إلى بلد الحلة، فدوخها، ولكن غارته على العراق لم تكن لتؤثر على محمد علي الذي بذل كل ما في وسعه لإمداد ابنه، ولما تلقى طوسون الإمداد زحف إلى ينبع النخل، فاستولى عليه، وسار قاصدًا المدينة، وتم له الاستيلاء على وادي الصفراء والجديدة[1] بدون حرب؛ لأنه مهد لذلك مع عرب الحجاز بمؤازرة[2] الشريف غالب.

استيلاء طوسون على الحجاز:

طَوَّق طوسون المدينة بالحصار في ذي القعدة سنة ١٢٢٧ بعد سنة من

(١) الجديدة: ضد القديمة، إحدى عيون الواسطة الثلاث بوادي الصفراء من ناحية المدينة المنورة. البلادي، معجم معالم الحجاز ج ٢ ص ١٣٥.

(٢) في الأصل: بمؤزرة. والتصحيح من النسخة أ.

هزيمته في الصفراء، وفيها ثمانية آلاف مرابط بقيادة حسن قلعي، فثار بهم أهل المدينة، وساعدوا الغزاة، ودلوهم على عورات البلد ومواقع الضعف من السور، وحفروا الأنفاق تحته، وألغموها بالبارود، ودام الحصار شهرين ونصفًا، وما كان أهل نجد ليهنوا ويضعفوا أمام تلك القوات الهائلة لولا ما داهمهم من أمر الطاعون الذي فتك بهم فتكًا ذريعًا، فمات منهم ما ينوف على أربعة آلاف غير ما حصدته الحرب، ففل من حدهم، وخارت عزائمهم، وكانوا يقاسون الأمرين: أهوال الحرب، والوباء.

وقد حفر أهل المدينة نفقًا على مرأى من المحصورين إيهامًا لهم عن نفق آخر حفروه سرًا؛ لئلا يفسد عليهم عملهم كما فسد قبل عدة مرار، وكانت النتيجة أن حصلت ثغرة في السور دخلت منها العساكر يدلهم أهل المدينة، وصاروا يخرجون على المرابطين من الآبار لاتصال بعضها ببعض، وينزلون عليهم من السطوح، وبذلك استولوا على المدينة وما كادوا يفعلون. وقد عد أعداء أهل نجد هذا الفتح معجزة من معجزات النبي ﷺ؛ لما يعلمونه من قوة بأس الوهابيين، وصعوبة التغلب عليهم، وتقدمت جنود طوسون من المدينة إلى الحناكية، فاحتلتها.

وأقلع الأسطول المصري من ينبع مملوءًا بالمقاتلة، وعلى رأسهم طوسون، فاحتل جدة بلا مقاومة، وكان الشريف غالب قد تنمر وبرز في مظهره الحقيقي.

رب من ترجو به دفع البلى　　سوف يأتيك البلى من قبله[1]

جاء غالب إلى جدة مستقبلاً لطوسون، وتوجه معه إلى مكة، فدخلها دخول الفاتحين، ومنها تقدم إلى الطائف، فاستولى عليها.

وللدرهم وانقلاب الشريف غالب أثرهما الفعلي في هذا التقدم السريع، ولكن الإمام سعود ما عتم أن هاجم الجنود المصرية وهي بقيادة عثمان كاشف على الحناكية، فاستسلموا، وأرسلهم إلى العراق، وأغار على كافة البوادي الخائنة، فأدَّبها، ووصل إلى قرب المدينة، وكان قد أرسل عثمان المضايفي لاسترجاع الطائف، فاستولى على بعض قصورها، فأتاه الشريف غالب بقوة كبيرة، فاستعادها، وقبض على عثمان، وقتله[2].

وكانت سرايا الإمام قد قطعت المواصلات ما بين مدن الحجاز، وظلت تسيطر على البر؛ مما أحرج موقف طوسون، فأراد أن يشغلهم بمهاجمة مراكزهم المهمة، فأنفذ مصطفى بيك أحد قواده لاحتلال تربة، ومعه راجح الشريف وعربانه، فتصادم مع أهلها ومن فيها من المرابطين النجديين، وأتاهم مدد من أهل بيشة جعلوه كمينًا وراء المصريين، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد.

ومما يذكر في هذه الوقعة ظهور فتاة من أهل تربة تدعى غالية[3]،

(١) البيت لجريح المقل(؟). ابن أيدمر، الدر الفريد وبيت القصيد ج ٣ ص ٣١٣.

(٢) في النسخة ب: فأسره وقتله.

(٣) غالية، من قبيلة البقوم، سيدة ذات رأي وتدبير اشتهرت بالشجاعة، ونعتت بالأميرة، توفيت بعد سنة ١٢٢٩هـ. الزركلي، الأعلام ج٥ ص ١١٥.

مثَّلت دور خولة بنت الأزور، وأبلت بلاءً حسنًا.

وتقدمت الجيوش النجدية تهاجم مخافر المصريين في الحجاز بلا فتور، فتطرق الوهن إلى نفس طوسون، وكان ما فقده من جنوده لا يقل عن عشرة آلاف نسمة، وما ينوف على العشرين ألف من الدواب والماشية، فاكتفى بتحصين الحرمين والطائف والتزام خطة الدفاع، وكتب إلى أبيه يطلعه على حقيقة موقفه.

قدوم محمد علي إلى الحجاز

لقد هال محمد علي تضعضع مركز ابنه في الحجاز برغم الإمدادات الكثيرة التي أمده بها، ولما كان قد خلا له الجو من المماليك وأنصارهم، وأمن جانب السلطان لقيامه بهذه الحرب قرر أن يتوجه إلى الحجاز بنفسه ليتولى القيادة العامة، فسافر من السويس إلى جدة، ومنها دخل مكة، واستقبله الشريف غالب بمظاهر الفرح والسرور، وهو يرى فيه منقذه من نير الوهابيين.

جزاء سنمار[1]:

إن الإمام بعد استيلائه على الحجاز عامل الشريف غالب بنفس معاملته لسائر أمراء البلاد التي خضعت له، فأبقاه على إمارته وسلطته وإيراداته، عدا ما يخالف الشرع منها، برغم كثرة تقلباته وتصريحاته بعداوة أهل نجد وبغضهم، ولكنه لم يأل جهدًا في دس الدسائس ضدهم في الخفاء، وله اليد الطولى في ترسيخ قدم طوسون في الحجاز كرهًا للوهابيين الذين عفوا عنه وأجلّوه، مع أنه البادئ بالعداوة والحرب، فلاقى جزاءه، إذ إن أول ما قام به محمد علي من الأعمال أن قبض على الشريف غالب وأولاده واستصفى كافة أمواله وممتلكاته، وأرسله إلى مصر، فسلانيك حيث توفى سنة ١٢٣١[2] ولسان حاله يقول:

(١) العنوان في النسخة أ: الجزاء من جنس العمل.

(٢) ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ٣٨٢، وسلانيك مدينة يونانية تسمى الآن سالونيك.

رب يوم بكيت فيه فلما   صرت في غيره بكيت عليه[1]

ومهما تمحل المؤرخون من الأعذار لمحمد علي فلا ريب أنه لم يقصد من القبض على غالب إلا توطيد حكمه بدون أن يرى أحد له حق في ذلك، وليجعل التولية والعزل بيده، كما أنه يريد أموال غالب للاستعانة بها على مصاريف الحرب، وقد ولى مكانه ابن أخيه يحيى بن سرور، ولكنه فر من مكة إلى عسير، وفر الشريف راجح أيضًا إلى تربة ملتحقًا بأهل نجد، وتسبب عن هذا توقف كثير من قبائل الحجاز عن مساعدة جند محمد علي؛ لأن الأشراف كانوا همزة الوصل بين الطرفين.

اهتم محمد علي بادئ بدء بتحصين مكة وجدة محافظة على مركزه، ومتى أمعنا النظر ودققنا يظهر جليًا أن سهولة استيلاء المصريين على بلاد الحجاز يرجع إلى انحياز أهلها إليهم، ولكن تربة وما والاها من البلاد وعسير كانت وما زالت موالية لآل سعود قلبًا وقالبًا، وقبائل عسير مصدر خطر كبير على الجنود المصرية متى تقدمت إلى نجد عن طريق الطائف - تربة - الدرعية (وهي خطة محمد علي الأولى التي عدل عنها فيما بعد لقلة المياه وخشية انقطاع خط المواصلات) فلا بد له قبل الزحف على نجد من إخضاع بلاد عسير حتى يؤمن ظهره وإخضاع عسير كاسمه[2]، فمهد

(١) البيت ذكره ابن أيدمر دون نسبة. ابن أيدمر، الدر الفريد ج ٣ ص ٣١٣، وفي النسخة ب ذكر هذا البيت، وذكر أيضًا:

تشكيت من عمرو فلما فقدته   وعاشرت أقوامًا بكيت على عمرو

(٢) في النسخة أ: كاسمه عسير.

لذلك باحتلال ميناء القنفذة بحراً، فأنزل بها تجهيزة قوية، ولكن عربان عسير[1] - وعلى رأسهم طامي بن شعيب - هاجموا المصريين وصدوهم عن التقدم، وما لبثوا أن استولوا على عين البلدة التي تستقي منها، فكاد المصريون يهلكون من العطش، فآبت تلك الحملة بالخيبة.

وكان طوسون قد تقدم من الطائف إلى تربة، وشدد الحصار عليها، فلم يفلح، واضطر أن يرفع الحصار ويعود، وتعقبه أهل نجد، فأحرق خيامه وأثقاله خوف أن يستولوا عليها، وكانت هزيمة بمعنى الكلمة.

عندها تحرج موقف محمد علي تحرجًا سيئًا، وكبر عليه أن يرضى من الغنيمة بالإياب، فصمم على بذل كل قواه، فأرسل مميش أغا إلى مصر بطلب المدد، وكتب إلى محمد لاظ أوغلي - كتخدا مصر - يستحثه على ذلك بالسرعة القصوى، فاهتم بالتجنيد وجمع الأموال، وأرسلت بالسفن إلى الحجاز، فاشتد بها ساعد محمد علي، وأعد أهبته لاستئناف القتال، ولكن المدد الحقيقي جاءه من حيث لم يحتسب بوفاة الإمام سعود، وبديهي أن ذلك يقوي من عزائم محمد علي بينما يفت في أعضاد النجديين، فكانت الفائدة مزدوجة.

وقد مهد محمد علي لهجومه بإرسال حملة بقيادة عابدين بك للاستيلاء على حصن نجروش في وادي زهران حتى يمكنه فصل عسير عن

(١) في النسخة ب: «كانت بلاد تهامة وعسير موالية للإمام سعود، وعلى محمد علي أن يستولي عليها قبل زحفه على نجد، فمهد لذلك باحتلال ميناء القنفذة بحراً، ولكن العسيريين».

نجد للحيلولة دون اتصالهما، فالتقى هناك بطامي بن شعيب وجنوده، وكانت هزيمة شنيعة على المصريين استولى العسيريون فيها على جميع ما معهم، وتعقبوهم إلى الطائف، وحاصروه، وفيه طوسون باشا، وكادوا يستولون عليه لولا أن محمد علي خدعهم بحيلة حربية أوهمهم فيها بأن هناك أمدادًا تطوقهم، فابتعدوا عن الطائف، ونجا طوسون فارًا إلى مكة.

وقعة بسل[1]:

في هذه الوقعة ظهر تأثير وفاة الإمام سعود في معنويات المقاتلين النجديين، وهم بقيادة ابنه فيصل، فقد اجتمع لديه في تربة جميع قبائل عسير ونجد، وسار قاصدًا الطائف، ومعه زهاء ثلاثين ألفًا، وكان المصريون قد تقدموا من الطائف إلى قصر بسل بقدر أربعة آلاف، فالتقى الجمعان هناك، وفي هذه الأثناء جاءت الأمداد وعلى رأسها محمد علي بنفسه، ودامت المعركة طول اليوم، وانتهت بانهزام أهل نجد.

وتمتاز هذه الوقعة بقلة القتلى من الطرفين، ويظهر جليًا أنها حرب نفسيات ومعنويات أكثر منها حرب قوى وماديات؛ وذلك أن أهل نجد وعسير الذين تعودوا هزم المصريين في الوقائع السابقة، وهم أقل عددًا منهم كانوا في هذه المعركة أضعاف المصريين، وكان النصر محققًا لهم إذا قيست بما قبلها من المعارك لولا تأثرهم بفقد الإمام سعود، ووجود بعض العناصر المعادية بين صفوفهم، يقابل ذلك وجود محمد علي بنفسه بين

(١) في سنة ١٢٣٠هـ، وبسل واد بالطائف فيه قرى ومزارع.

الجنود المصرية، وهذا سر ثباتهم في القتال.

ويظهر تفكك عرى أهل نجد وعسير واضحًا بعد الهزيمة، فإن فيصلاً قصد تربة على أمل أن تجتمع فلول الهزيمة فيها، ولكنه لم يجد أحدًا، فغادرها إلى رنية، ومنها عاد إلى نجد، وجاء محمد علي على أثره، فاحتل تربة والخرمة وبيشة ورنية، بعد حروب قليلة لا أهمية لها.

وزحفت الجنود المصرية على بلاد عسير، فاستولت عليها، وأُسِر طامي بن شعيب، وأُرْسِل إلى مصر، وقُتِل هناك.

هذه خلاصة وقائع الميدان الجنوبي، وفي الشمال زحف أحمد طوسون بجنوده من المدينة قاصدًا القصيم، فاستولى على الرس والخبراء بمواطأة من أهلها، وأعلن عبدالله بن سعود النفير العام في نجد بدوًا وحاضرة، ونازل طوسون في القصيم، وجرت بينهما مناوشات ومطاولات.

وفي هذه الأثناء وردت إلى محمد علي أنباء اضطراب أوروبا وفرار نابوليون من جزيرة ألبا[1] وعودته إلى عرش فرنسا، وزاد قلقه من تقارير

---

(١) «**جزيرة ألبا**: تقع تجاه تسكانيا بإيطاليا». وكان نابليون قد نفي إليها إثر هزيمته في معركة الأمم في لايبزغ عام ١٨١٣ - ١٨١٤م أمام الجيوش البروسية، والنمساوية، والروسية المتحالفة، وقد مكث في جزيرة ألبا مئة يوم، واستطاع بعدها العودة إلى عرش فرنسا في أول مارس ١٨١٥م وقام بحملة عسكرية هزم بها الجيوش المتحالفة ضده في بلجيكا. موسوعة السياسة ج ٦ ص ٥٣٨، ٥٣٩.

الكتخدا ضد المملوك لطيف باشا وتصويرها بصورة مؤامرة كبرى وما جر إلى ذلك من حوادث، فقرر الرجوع إلى مصر، وكتب إلى ابنه طوسون بذلك، ورجع عن طريق أفريقيا.

انعقاد الصلح

مما لا ريب فيه أن محمد علي لما أزمع الأوبة إلى مصر كتب إلى ابنه طوسون بعقد صلح شريف إن أمكنه[1]، رغبة بهدنة يتفرغ فيها لتأمين مخاوفه، وتسكين الاضطرابات التي كان يتوجس منها، والمؤرخون المصريون يعزون الصلح إلى طلب عبدالله بن سعود[2] في الوقت الذي كان فيه طوسون يفكر في العودة إلى المدينة.

وبديهي لو لم يكن طوسون نفسه راغبًا في عقد الصلح لعد طلب عبدالله له دليلاً على ضعفه وواصل القتال حتى النهاية، على أن ابن بشر المؤرخ الصريح يكشف لنا عن الحقيقة، فيقول: إن جنود عبدالله قبضوا على اثنين من البادية: أحدهما حربي، والثاني مطيري، ومعهما أحد رؤساء الترك، وجدوا لديه رسائل إلى طوسون من والده يأمره فيها بالصلح[3]، وبالطبع إن الطرفين كانا مائلين إلى ذلك؛ ولهذا بادر عبدالله بإطلاق سراح التركي وإيصاله إلى معسكر طوسون.

وبعد مفاوضات قصيرة تم عقد صلح شريف تنازل فيه أهل نجد عن الحجاز، وتعهدوا بتأمين طرق الحج وعدم التعرض للقوافل، على ألاَّ

(١) زاد في النسخة ب: «وأمره أن يجري صلحًا شريفًا مع أهل نجد إلى أن تتم تصفية الأمور، ووافق ذلك هوى من عبدالله بن سعود، وبعد مفاوضات قصيرة تم عقد صلح شريف . . .».

(٢) انظر الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج٣ ص ٤٩٣.

(٣) ابن بشر، عنوان المجد ج ١ ص ٣٧٨.

يتعرضَ المصريون لنجد ولا لملحقاتها من جهة الشرق. وكُتبت المعاهدة، ووقعها عبدالله، وتوجه بها وفد مؤلف من عبدالله بن بنيان، والقاضي عبدالعزيز بن إبراهيم إلى مصر، فصادق عليها محمد علي، وتم الصلح، وعاد طوسون إلى مصر، فجعله أبوه أميرًا على حامية رشيد، وهناك أفرط في الملذات حتى أنهكت جسمه، فمات إثر مرض قصير في شوال سنة ١٢٣١، ونقلت جثته إلى القاهرة[١].

(١) الجبرتي، عجائب الآثار ج٣ ص ٥٣٩. وابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ٣٨٢.

استئناف القتال

بعد أن أمن محمد علي مركزه في مصر أعاد التفكير في نجد وإعادة الحملة عليها، وكان عبدالله بن سعود قد تجرد لتأديب الخائنين من البادية وأهل نجد الذين ظاهروا الحملة المصرية، فخرب أسوار الرس والخبراء، وأغار على كثير من بوادي حرب ومطير الخائنين، فاتخذها محمد علي ذريعة لنقض الصلح، فأخذ يستعد لإرسال حملة بقيادة ابنه - أو ابن زوجته - إبراهيم باشا، ووصلت أخبار الاستعدادات إلى نجد، فأرسل عبدالله بن سعود وفداً آخر برئاسة حسن بن مزروع، وعبدالله بن عون إلى مصر، ومع الوفد هدايا إلى محمد علي، فوجداه قد تغيرت نواياه، وأخذ يملي شروطًا غير معقولة لا يسلم بها حتى المنهزم، وكثير من المؤرخين يكتفي بذكر أحد الوفدين، ولم نر مؤرخًا مصريًا يعترف بوقوع الصلح[1]، مع أن رجوع طوسون أقوى دليل على إبرامه، وليس من المعقول أن طوسون يخلي الرس وغيرها من نجد بهدنة مؤقتة، كما أن بين الصلح وانتقاضه ما يناهز أربعة عشر شهراً.

صمم محمد علي هذه المرة على مواصلة القتال إلى النهاية مهما كلفه ذلك، واتخذ للأمر عدته، وقد علمته التجارب الماضية دروسًا حسب لها كل حساب، فقضى ستة أشهر في إعداد المعدات وتجنيد الجيش، وعقد لواء القيادة لإبراهيم باشا، ونقلت المؤن والذخائر من بولاق إلى قنا، ومنها براً

(١) الواقع أن المؤرخ المصري الجبرتي أشار إلى وقوع الصلح في حوادث سنة ١٢٣٠هـ. الجبرتي، عجائب الآثار ج١ ص ٤٩٣.

إلى القصير حيث الأسطول راسٍ هناك، وهو مؤلف من نيف وثلاثين قطعة كبيرة، أقلعت بتلك الحملة الهائلة إلى ينبع.

وكانت وفاة طوسون من حسن حظ محمد علي؛ لأن الحب الأبوي أعماه عن عيوبه وضعفه، فعهد إليه بقيادة تلك الحرب المهمة، فضلاً عن ضعف مستشاريه، كما أن وفاة الإمام سعود أفسحت له الميدان أيضًا.

أما في هذه المرة فإن لإبراهيم باشا ومستشاريه من الفرنسيين من حسن التدبير ورسم خطط الحرب كفاءة لا تنكر ظهرت نتائجها في سائر حروبه، وكان معهم أركان حرب، ومهندسون، وأطباء، وجراحون من فرنسيس وطليان، وروم وغيرهم من الأجانب، ولديهم من الاستعدادات الحديثة الهائلة الفتك الشيء الكثير، ولنتصور مقدار ما بذله محمد علي في تلك الحرب، يكفي أن نعلم أن أجرة نقل القنبلة الواحدة إلى الدرعية ثمان ريالات أو ما يقارب ثلثي جنيه كما ذكره ابن بشر.

رسا الأسطول المصري في ينبع، ونزل منه إبراهيم باشا متوجها إلى المدينة، ومنها باشر الزحف إلى الحناكية، وقدم طلائعه بقيادة أوزون علي، فنزلت على ماء ماوية، فاجتمعت عليه عربان حرب ومطير وعتيبة، وهناك هاجمهم أهل نجد بقيادة عبدالله بن سعود، ولكنهم رأوا الجيش المصري مجهزاً بمدافع وأسلحة لا عهد لهم بها، أثَّر مفعولها في صفوفهم، ففرت البادية منهزمة، وتبعتها الحاضرة، وعاد عبدالله بن سعود إلى الخبراء، ومنها إلى عنيزة.

حصار الرس واحتلاله :

بعد وقعة ماوية والى إبراهيم باشا زحفه من الحناكية إلى أن أحاط بالرس، وجاء أهل الرس يكفرون عن خطيئتهم الأولى، فثبتوا للمصريين ومعهم سرية بقيادة حسن بن مزروع، وكانت حرب هائلة لم تشهد نجد مثلها.

صوب إبراهيم باشا مدافعه على أسوار الرس الحقيرة - خمسة آلاف قنبلة في ليلة واحدة - فدكها، ولكنها بنيت لساعتها، وحفر الأنفاق لإلغامها، فأبطلوا عمله بأنفاق مثلها، وسقط تحت أسوارها من رجاله ثلاثة آلاف وأربعمائة جندي، بينما قتلى الرس لا تتجاوز المائتين(١).

فهاله الأمر، ولكن أهل الرس مالوا إلى التسليم بعدما رأوا الإمدادات لا تنقطع عن عدوهم، وهم في نقص مستمر، ولم تأتهم نجدات جديدة، وكانت سياسة عبدالله في توزيع جنوده إلى حاميات غلطة لا يلام عليها؛ لأنه لم يشأ أن يخاطر في مصاف حاسم بعدما تحقق من قوة خصمه.

جنح إبراهيم باشا إلى الصلح، فسلمت الرس، والتحق أهل الرس بجميع ما معهم بعبدالله في عنيزة، وهم يحملون قصص المدافع الحديثة السريعة، والقنابل التي تضرب الجدار، ثم تنفجر ثانية، وتتطاير

(١) يذكر ابن بشر أن قتلى أهل الرس نحو سبعين رجلاً وقتلى رجال إبراهيم باشا ما ينيف على ستمائة رجل. ابن بشر، عنوان المجد ج١ ٣٨٨.

شظاياها، وقد يبالغون تبريراً لتسليمهم. وكانت هذه الأخبار بمثابة طلائع لإبراهيم باشا، ولولا ثبات أهل الرس لما أدركوا ذلك الصلح المشرف من إبراهيم باشا.

وقصد إبراهيم باشا الخبراء، فاستولى عليها، ورحل منها ووجهته عنيزة، وكان عبدالله قد غادرها بعد أن رتب فيها حامية بإمارة إبراهيم بن حسن بن مشاري السعود[1]، وقصد بريدة، على أن عنيزة ما عتمت أن سلمت، واعتصمت الحامية بالقصر، ولكنها أرغمت على التسليم لانفجار مستودع ذخائرها.

ولما بلغ عبدالله خبر سقوط عنيزة رحل من بريدة عائداً إلى الدرعية، وأذن لأهل النواحي بالقفول. وهذه غلطة أخرى؛ لأنه أضعف نفوس أهل بريدة وشقراء وغيرها، وبعبارة أخرى: فتح الطريق لخصمه إلى الدرعية، ولعله لم يثق بمن معه من أهل النواحي حتى يصطدم مع المصريين، ولكنه لو فعل لعذر، وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له.

بعد تسليم بريدة زحف إبراهيم باشا إلى الجنوب وهو يحتل قرى نجد وبلدانها إلى أن استولى على شقراء قاعدة الوشم بعد حصار ستة أيام، ولكنه لقي من أهل ضرمه [ضرما] ما لاقاه من أهل الرس: «أردنا شقراء

(١) الصواب أن الإمام عبدالله رتب حامية عنيزة بإمارة محمد بن حسن بن مشاري بن سعود، وجعل في بريدة أخا محمد، إبراهيم بن حسن. ابن بشر، عنوان المجد ج ١ ص ٣٨٨.

وأراد الله زرمه (ضرمه) [ضرما]» هذه الكلمة قالها إبراهيم باشا، فذهبت مثلاً؛ فقد كان مهتمًا بشقراء وحاسبًا لمحاصرتها ومقاومتها ألف حساب، فسلمت بدون مقاومة تذكر[1]، وقاومته ضرمه [ضرما] إلى أن فني رجالها عن بكرة أبيهم، ولم ينج إلا القليل، واستباح أموالهم ومحارمهم، وجعل عالي البلد سافلها.

ومن الغرائب أن تسلِّم عنيزة وبريدة وشقراء، وتقاوم الرس وضرمه [ضرما] على بعد ما بينها من قوة ومناعة.

حرب الدرعية:

في غرة جمادى الثانية سنة ١٢٣٣ أتى إبراهيم باشا بجنود لا قبل لأهل الدرعية بها، مجهزة بأكمل العدد وأحدثها من البنادق البعيدة المرمى، والمدافع الهائلة الضخمة، والآلات الحديثة مما [لا عهد][2] لأهل نجد به، والتف حوله كثير من عرب البادية الذين رأوا الفرصة سانحة للعودة إلى ما كانوا عليه ومن رؤساء البلدان النجدية الموتورين وأتباعهم، هذا والإمدادات متصلة من مصر إلى الدرعية بالجنود والذخائر والأقوات، فأحاط بالدرعية من جميع جهاتها، وأصلاها بنيران مدافعه الجهنمية، وقذف معاقلها وأسوارها بقنابله، على أنه لقي من هجمات أبطالها

(١) يبدو أن الصورة عن حرب شقراء لم تصل المؤلف بشكل واضح، وما جرى فيها من أحداث تؤكد صلابة موقف أهل شقراء. انظر مثلاً: ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ٣٨٩-٣٩٣.

(٢) في الأصل: مما عهد. والتصحيح من النسختين أ و ب.

وصدمات كماتها وثباتهم واستماتتهم في الدفاع ما أذهله، وأطار صوابه.

واستمرت الوقائع الهائلة بين الجيشين خمسة أشهر مندلعة اللهب حامية الأوار، ورأى الجيش المصري أمام أسوار الدرعية المشيدة من الطين والحصى ما لم يره أمام أسوار عكا الحصينة، ولاقى من فتك أبطالها ما لم يلاقه من الجيش الإنكليزي في رشيد.

وبصرف النظر عن كثرة جنوده، لو كان الطرفان المتحاربان متكافئين بالأسلحة والعتادات الحربية لغيَّر التاريخ مجراه، فقد كان أهل الدرعية على قلتهم أشبه بالعُزَّل أمام تلك الاستعدادات، ومع ذلك فقد انتصروا عليه في كثير من الوقائع بالسلاح الأبيض، وكلمة إبراهيم باشا التي يرويها المؤرخون المصريون والتي قالها بعد انفجار مستودعات ذخيرته[1] لا نظن أنها حقيقة؛ لأنه لم ينفجر إلا جانب من الذخيرة بمقدار النصف، ولم تكن للمصريين ميزة أو رجحان إلا بها، وليس الانفجار بسرٍّ حتى يجهله أهل الدرعية، والقتال لم ينقطع ليلاً ولا نهاراً ، فلا يعقل أن الجيش المصري ظل يقاتل بالسلاح الأبيض إلى أن جاءته الذخيرة.

وما كان أهل الدرعية ليهنوا لولا تناقص عددهم يوميًا بمن يقتل في ساحات القتال، ومن يفر من الدخلاء الذين في قلوبهم مرض، وهم شرٌّ

(١) لقد فقدنا كل شيء، ولم يبق لدينا إلا شجاعتنا؛ فلنتدرع بها، ولنهاجم العدو بالسلاح الأبيض (المؤلف).

من العدو المحارب، بينما عدوهم[1] يزداد عدة وعدداً بما يرد إليه من إمدادات، ومن ينضم إليه من رجال البوادي والمخالفين، بله المدافع الهائلة، والبنادق السريعة، والقنابل المتفجرة وفتكها الذريع بما هدمته من معاقل وأزهقته من نفوس.

وبعد هذا كله، وبعد انقضاء خمسة أشهر سلَّمت الدرعية بعد أن لم تدع وسيلة من وسائل المقاومة والدفاع، ومتى علمنا أن الجيش المصري فقد أمام الدرعية اثني عشر ألف مقاتل[2] غير المقتولين من العرب والبدو، وقارنا هذا العدد بقتلى أهل الدرعية وهم ألف وخمسمائة أمكننا أن نتصور تلك البطولة العظيمة والشجاعة والاستبسال.

تم استيلاء إبراهيم باشا على الدرعية بعد أن سلَّم عبدالله بن سعود نفسه راضيًا أن يذهب إلى مصر شرط أن يبقي إبراهيم باشا على الدرعية، وألاَّ يتعرضَ لجميع أهلها بضرر.

قَبِل عبدالله بالذهاب إلى مصر، ومنها إلى الآستانة، وهو يعلم نتيجة ذلك الذهاب، فاديًا أهل الدرعية وأهل نجد بنفسه، ولكن إبراهيم باشا لم يف بتعهداته، وليس البطل العظيم من انتصر على أعدائه بالحروب فحسب، بل من ينتصر على نفسه أيضًا، ولنترك التاريخ يصدر حكمه العادل.

---

(١) في النسخة أ: بينما عدد المصريين.

(٢) يقدر ابن بشر أن هذا العدد من القتلى كان في الفترة من خروج الجيش من مصر إلى رجوعه إليها. ابن بشر، عنوان المجد ج ١ ص ٤١٨.

مأساة الدرعية[1]

إذا قال المؤرخون : فلان تاريخه أبيض، وفلان تاريخه أسود صح لنا أن نسمي تاريخ محمد علي أو سيرته بالتاريخ الأبقع .

فإن ذلك التاريخ المجيد المملوء بروح النهضة العلمية والإصلاحات والمشاريع العمرانية الكبيرة قد لطخته نقط سوداء حالكة الصبغة لن تزول إلى الأبد، مهما حاول أنصاره إزالتها واجتهدوا في محوها .

ففي اليوم الذي قرر فيه الاحتفال بعقد لواء القيادة لطوسون باشا على الحملة النجدية وقعت حادثة القلعة، أو قتل المماليك غدراً التي إن بررها الموقف فلن يبررها الوجدان، وإذا تمحل لها أولئك الأنصار أعذاراً كثيرة وبرروها بقولهم: إنه لو لم يقض عليهم لقضوا عليه، فبماذا يبررون مأساة الدرعية التي مثلها إبراهيم باشا؟

وللمؤرخ أن يطلق لقلمه العنان بما شاء من الأعذار والتبريرات، والتاريخ لم يعدم من يبرر إحراق نيرون لروما[2]، ولكن التاريخ نفسه ينطق بالحكم، ويكتب تلك الصحيفة بمداد الحداد، ويحيطها بإطار من سواد، حزنًا على تلك العاصمة الكبيرة المترامية الأطراف، تصبح بين عشية

---

(١) هذه الفقرة لم ترد في النسخة ب .

(٢) **نيرون، كلاوديوس قيصر (٦٨ - ٥٤ ق.م)** : إمبراطور روماني اتسمت تصرفاته بالوحشية حتى صارت مضربًا للأمثال فقد قتل أمه، ثم زوجته، واتهم بحريق روما الكبير. الموسوعة العربية الميسرة ج ١ ص ٨٩٨ ج ٢ ص ١٨٦٦ .

وضحاها أطلالاً دارسة، وأنقاضًا متراكمة، قد فتكت بها المعاول، ووشحتها النيران بوشاحها الأسود رمزًا إلى ما لهذه الفعلة الشنعاء من عار على مرتكبها.

تلك المعاهد الكبيرة والمساجد الفسيحة التي تغص بالمصلين آناء الليل وأطراف النهار ﴿لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] وتلك الحصون الضخمة، والصروح العالية، والأطم والمقاصير الشماء في لحظة عين تتداعى وتتهدم، وتتصاعد منها ذرات الغبار والدخان، حاملة معها أرواح الشهداء الكثيرين المقتولين صَبْرًا[١]، والممثل بهم أشنع تمثيل، وأقلهم عذابًا من وضع في فوهة المدفع فطارت أشلاؤه في الفضاء، وآهات وأنات المعذبين الأتقياء، منهم من تقلع أضراسه، ومنهم من تكعبر[٢] أصابعه، ومنهم من تكسر عظامه بتلك الآلات الجهنمية، فعلة يا لها من فعلة ممن تعهد بتأمينها وسلامتها، وتأمين أهلها وعدم التعرض لهم!

وإذا كان التاريخ يظهر اشمئزازه عند ذكر حريق روما، وعلى أطلال قرطاجنة[٣]، فإن خراب الدرعية ثالثة الأثافي. وإذا كان حريق روما من

---

(١) صبر الإنسان وغيره على القتل، أن يحبس ويرمى حتى يموت، وقد قتله صبراً وصبره عليه. الفيروزآبادي، القاموس المحيط ص ٥٤١ (مادة: صبر).

(٢) أي تقطع.

(٣) **قرطاجنة**: مدينة بمقاطعة مرسية بأسبانيا، استولى عليها الرومان سنة ٢٠٩ ق.م، وخربها القائد البريطاني دريك سنة ١٥٨٥م. الموسوعة العربية الميسرة ج٢ ص ١٣٧٦.

جنون نيرون، وخراب قرطاجنة بأيدي الرومان ألد أعداء الفينيقيين [ومنازعيهم][1] على التوسع والاستعمار والسيطرة على العالم، وكانت هناك أحقاد متوارثة وحروب متطاولة واعتداءات من الجانبين في زمن تبرر فيه تلك الأعمال الوحشية، فما هي الأسباب التي دعت محمد علي إلى تلك الفعلة يا ترى؟

إن الفئتين المتحاربتين كانتا أختين في الجنس واللغة والدين والمذهب، ولم يجر بينهما سابق عداوة أو اصطدام مصالح سياسية أو اقتصادية إذا استثنينا افتراضات يخشى من وقوعها في المستقبل في حالة توسع المملكة النجدية واقترابها من حدود مصر، وليس هناك إلا مسألة التأديب وإرضاء خاطر السلطان، وفي أسر الإمام عبدالله وقتله في الآستانة بتلك الفظاعة، وإرسال كافة أفراد آل سعود وحبسهم في مصر ما يكفي للقضاء على تلك الحكومة ويشفي الصدور مما فيها.

وإذا كان محمد علي لا يريد البلاد، ويحب أن تعود فيها الفوضى إلى سابق حالها، ففي إمكانه أن يولي على كل بلدة أميرًا منها لا يرضخ لجاره على قاعدة «فرق تسد»، خصوصًا والعائلة السعودية لم يبق منها أحد سوى من لم يحسب له إبراهيم باشا حسابًا.

وللتاريخ في أحكامه قواعد قد لايرضاها الفلاسفة والشعراء، فهو لا يحاسب القائد على ما يفعله في معمعة الوغى حيث يلتقي الجمعان، فإن

(١) في الأصل: ومازعيهم. والتصحيح من النسخة أ.

شريعة الحرب تبيح له الدماء والفتك والتهديم، وجميع ما تقتضيه خطته التي توصله إلى النصر، فترى المؤرخ يتغنى بتلك الأفعال ويمجدها. ولكن عندما تضع الحرب أوزارها فالويل ثم الويل لمن يقتل الأسرى والمستسلمين، ويمثل بالجرحى، وينتهك الحرمات والإعراض من الله والناس والتاريخ. وهذا نفس ما حدث في تخريب الدرعية التي ابتدئت بالغدر بالمماليك، واختتمت بالغدر بالدرعية، وانتهاك حرمات شروط الصلح والتسليم.

العروس والجنازة:

وردت البشائر إلى محمد علي في مصر بسقوط الدرعية واستسلام عبدالله بن سعود؛ فكاد يجن من الفرح، ففي غرة المحرم سنة ١٢٣٤ نودي بتزيين المدينة سبعة أيام، وأقيمت المهرجانات والحفلات الحربية في النيل والبر، وأطلقت آلاف المدافع، وأنيرت السماء بالألعاب النارية مما لم يسبق لمصر أن ترى نظيره.

وتجد وصف تلك الحفلات مسهبًا في تاريخ الجبرتي[١]، وانتصفت سنة ١٢٣٤ وإبراهيم باشا لا يزال مقيمًا في الدرعية، وفي شعبان صدرت له الأوامر من أبيه بهدم الدرعية والقبض على كافة عائلتي آل سعود وآل الشيخ وإرسالهم إلى مصر، فأصدر إبراهيم باشا أمره إلى السكان بإخلاء بيوتهم، ولم يمهلهم، بل أمر العساكر بهدمها وإشعال النيران بها في نفس

(١) الجبرتي، عجائب الآثار ج٣ ص ٥٩١-٥٩٤.

ذلك اليوم، فتصاعد غبارها ودخانها الأسود إلى عنان السماء حداداً عليها مسطِّراً بلونه القاتم على صفحات التاريخ سطوراً من قار وسطوراً من دم، ففي ذمة الله أولئك الشهداء الأطهار.

الإمام عبدالله بن سعود

تولى سنة ١٢٢٩

وقتل سنة ١٢٣٣[(١)]

ولم نقف على تاريخ مولده

بويع لعبدالله بالإمامة على أثر وفاة والده الإمام سعود، وكان غازيًا لتأديب قبيلة حرب في الحرة، فوافاه الخبر وهو على الخانوقة[(٢)]، وكتمه، وفي صلاة الفجر قرأ إمامه الشيخ علي ابن الشيخ محمد سورتي الجمعة والمنافقين، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] تغير صوته في تلاوتها، وكان الناس يعلمون بمرض الإمام؛ ففهموا وفاته من ذلك، وبعد الفراغ من الصلاة وقف الشيخ علي، فوعظ الناس، وعزاهم، وكرر تلاوة الآية، فبكوا، وبايعوا عبدالله بن سعود، وأخذت له البيعات في كافة البلدان.

---

(١) في الأصل كتب رقم (٣٤) فوق رقم (٣٣). والتاريخ المثبت في النص موافق لما في تاريخ ابن بشر ج١ ص ٤٢٢، وفي تاريخ الجبرتي أنه وصلت الأخبار في شهر جمادى الأولى سنة ١٢٣٤هـ تفيد بمقتل الإمام عبدالله بن سعود في إستامبول. الجبرتي، عجائب الآثار ج٣ ص ٦٠٠.

(٢) **الخانوقة:** كذا في جميع النسخ، وذكر ابن بشر أنه في عالية نجد، وقد تكون تصحيف أو تغير في الاسم، فالمعروف أن اسم الماء الواقع في عالية نجد الخنوقة- بدون ألف - وذكر في المعاجم الجغرافية القديمة بهذا الاسم، نسبة إلى جبل أشهب كبير يختنق مجرى وادي بحار، ويقع غرب مدينة الدوادمي. انظر: ابن جنيدل، عالية نجد ج٢ ص ٤٧٨.

وهو في سيرته وأخلاقه وعاداته لا يختلف بشيء عن أبيه وجده، فقد تأثر سننهم، وسار بسيرتهم، وفي بسط الكلام على ذلك تكرير لما تقدم. وامتاز بالشجاعة والإقدام والصبر على المكاره والشدائد.

استلم زمام القيادة فكان كالربان الجريء في بحر متلاطم الأمواج ليس له ساحل ولا قرار، فكافح تلك الخطوب، وقابل تلك الشدائد بشجاعة وصبر إلى أن بلغ الأمر منتهاه.

فقد أخوته فيصل، وإبراهيم، وتركي في تلك الحرب الضروس[1]، ونيفًا وعشرين من أبناء عمومته الأقربين، وآلافًا من جنوده البواسل، وأنفق آخر درهم في خزانته، وجالد إلى أن لم يبق للجلاد مضرب، وإلى أن تخاذل[2] أنصاره، وفرت جنوده بعد أن عذروا وعذرهم، وبذلوا النفس والنفيس، ولكن لا راد لما قضاه الله، ولما لم يبق معه إلا القلائل من ثابتي أهل الدرعية ومستميتي أرحامه، وأيقن أن لا فائدة من مواصلة القتال سوى القضاء على تلك البقية الباقية التي يضن بها، فدى الجميع بنفسه، واستسلم إلى القوة الغاشمة مشترطًا بقاء الدرعية وسلامة أهلها، وكان في وسعه أن ينجو بنفسه لولا روح الشهامة والإيثار، وكانت خاتمته الشهادة.

فقد أرسل إلى مصر ومعه بضعة أنفار من خواصه[3]، تخفره ثلة من

---

(١) حرب الدرعية.

(٢) في النسخة أ: حتى تخاذل.

(٣) في النسخة أ: من خاصته.

الجند برئاسة رشوان أغا، فتلقاه محمد علي في مصر، وأرسله إلى الآستانة، حيث أمر به السلطان فقتل، فكان على السلطان محمود[1] الإثم، ولمحمد علي الغنم؛ إذ لم تستفد تركيا من هذه الحرب بشيء سوى ما أراقته من دم ذلك الشهيد في عاصمتها، واكتفى السلطان بشفاء غليله من الوهابيين، وسكنت وساوسه من كابوس الخلافة العربية.

انتصر السلطان بالخيالات والأوهام، وانكسر في الحقيقة؛ لأن النتيجة حولت أنظار الأمم الإسلامية عن سدة الخلافة العظمى بعد عجزها عن حماية الحرمين إلى أريكة محمد علي المصرية، وكانت مؤازرة الخلافة له في تلك المدة أرسخت قدمه في تملك مصر، ولم يعد ذلك الوالي الذي يوليه ويعزله فرمان من ورق، وجرت بعد ذلك إلى اندحار جيوشها أمام جيوشه وسقوط ممالكها في يده، حتى كاد يستولي على عاصمتها لولا اتحاد الدول الأوروبية ضده ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[2] [الأنعام: ١٣٢].

---

(١) **السلطان محمود الثاني ابن السلطان عبدالحميد الأول:** ولد سنة ١١٩٩هـ، وتولى الحكم سنة ١٢٢٣هـ، ومدة سلطنته اثنتان وثلاثون سنة. حليم، إبراهيم بك، تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٠٦.

(٢) في الأصل: (وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون). وهذه ليست آية. وفي سورة إبراهيم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

الإمامة السعودية

بعد انتهاء مأساة الدرعية أسدل الستار على تلك المملكة الكبيرة للمرة الأولى. نعم، هو ستار أسدل؛ لأن عناصر الحياة بقيت، ولم يطل اختفاؤها حتى ظهرت حية نشيطة تستعيد قوتها وتلم شملها. وإن كان إلا تناثر أوراق الخريف تجرد الشجرة لتعود إليها بهجتها ورونقها بعد الشتاء[1].

عوامل النشوء والبقاء[2]:

لا تقوم دولة ما، على وجه الأرض ما لم تتوفر لها ظروف التكون وتساعدها عوامل الحياة اللازمة لها، وتلك العوامل تختلف باختلاف البلدان والأمم، ولكن جماعها الأخلاق المتينة من إباء وشمم وحرية وصراحة وشجاعة أدبية ومعنوية، وهذه الأخلاق من أبرز صفات العرب سكان الجزيرة، وكانت يومًا ما سبب اجتماعهم وفتحهم العالم، كما أنها صارت فيما بعد علة تفرقهم وتمزقهم، والعرب كانوا وما زالوا أهل عصبية ودين، ولا يقودهم إلا من تتوفر فيه الشروط اللازمة المتكونة من هذين

---

(١) ليس في النسخة ب، وجاء مكانه: «إذا أحببت الوقوف على السيرة التي كان يسير بها آل سعود فإني أحيلك إلى عهد الخلفاء الراشدين؛ لأن دعوة إحياء مذهب السلف الصالح التي قاموا بها لم يقصدوا منها إلا إحياء سنتهم واتباع هديهم في السياسة الدينية والمدنية لا يحيدون عن أوامر الكتاب والسنة قيد شعرة». وسيرد هذا النص بعد صفحة.

(٢) هذه الفقرة والتي تليها لم ترد في النسخة ب.

الأساسين، لأنهم بفطرتهم ميالون إلى الحرية والاستقلال، وتسري هذه النفسية من المجموع إلى الأفراد، ومن هذه النفسية نشأت تلك الفوضى والتفرقة؛ لأن الفرد منهم لا يذعن للآخر ولا يستكين، وكالفرد القبيلة حتى ليصعب كبح جماحهم وتوحيدهم إلا على أفراد ذوي شخصيات بارزة، ومكان مكين يستندون على دعوة روحية أو إصلاح ديني، وبعد هذا لا يستطيع أن يلم شملهم ويوحد كلمتهم إلا ذلك المستبد العادل الذي يسير بهم نحو الفلاح والرقي، ثم لا يلبث أن يجدهم نعم المعين له على توسيع مشروعاته وفتوحاته، ويجد فيهم التربة الخصبة والمعدن الثمين، فتكون النتيجة الموفقة المطلوبة، قيام دولة عظيمة تبني مجدها وتخلف أثمن ما يخلفه سلف لخلف.

والمستبد العادل وجوده ضروري لكل أمة في بدء نشأتها وتكونها، وتجارب قرن ونصف برهنت على أن النظام الدستوري الموسع لا يقوم مقام الحكم الفردي العادل؛ لأنه يطلق العنان ويفسح الميدان للعناصر الضئيلة إذا امتازت بحرارة الدعوة وصقل التمويهات، فتؤثر على الرأي العام، وقد تقوده في نزعاتها الخطرة إلى مهاوي الهلاك.

وعلى أساسي الدين والعصبية بنيت أركان الدولة السعودية حتى ناطحت السحاب بمجدها وعلائها، وثبتت لزلازل الحوادث الطارئة على عرضها دون أن تستطيع مساس جوهرها الحقيقي بشيء مهما بلغت وبالغت، فالبلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها تؤمن الإيمان المتين

الراسخ، وتسلم التسليم المطلق بأحقية العائلة السعودية في هذا الملك القويم، وتذعن لها بضمائرها لا بألسنتها فقط، وتقر لها بالزعامة الدينية مع الزعامة السياسية. والدين والسياسة يدان لا غنى لأحدهما عن الأخرى.

إدارة المملكة ونظمها:

إذا أحببت الوقوف على السيرة التي كان يسير بها آل سعود، فإني أحيلك إلى عهد الخلفاء الراشدين؛ لأن دعوة إحياء مذهب السلف التي قاموا بها لم يقصدوا منها إلا إحياء سنتهم واتباع هديهم في السياسة الدينية والمدنية لا يحيدون عن أوامر الكتاب والسنة قيد شعرة.

سياسة الفتح وإدارته:

من مراجعة أخبار الفتوحات وتعليلات وقائعها كما مر مفصلاً نستطيع أن نقسم الحروب السعودية إلى نوعين:

الأول: الحروب الداخلية في نجد. وكان القصد منها توحيد البلاد النجدية والقضاء على روح التفرقة والفوضى التي كانت سائدة في ذلك العصر، وإزالة البدع والخرافات الدينية، ونشر الأمن، والحكم بالشريعة السمحاء.

الثاني: الحروب الخارجية مع جيران نجد والبلاد المتاخمة لها. كالحجاز وعمان وقطر والعراق[1]، وتلك الحروب غالبًا تبتدئ باعتداء

(١) في النسخة ب: كالحجاز وقطر وعمان والبحرين والعراق.

الآخرين، وتنقلب من خطة الدفاع إلى الهجوم.

ولما كانت تلك الفتوحات ناشئة للأسباب المذكورة، ولم يكن يقصد بها الفتح للاستعمار والاستثمار والابتزاز، فقد كانت الولايات المفتتحة في الغالب تمنح إدارات استقلالية واسعة النطاق في إدارة شئون [شؤون] داخليتها على شريطة اتباع أحكام الشريعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكانت المملكة السعودية أشبه ما تكون بمملكة متحدة الولايات، ولكل ولاية حكامها وولاتها من أهلها.

فقد أبقوا على الشريف غالب وسلطته في الحجاز، و[أبي نقطة][1] في عسير واليمن، وسلطان بن صقر في عمان، فضلاً عن إمارات نجد وبيوتاتها، فقد بقوا يتمتعون بسلطتهم وامتيازاتهم، وحتى بعض الولايات المنتزعة من يد المتغلبين الأجانب عنها كالقطيف، فقد انتزعوها من آل عريعر البدو، وولوا عليها ابن غانم وابن عبدالرحيم[2] ردحًا من الزمن، وإذا حدثت مخالفات من بعض الحكام أو شكايات من رعيته أبدل بغيره من أقاربه حفظًا لحقوق تلك العائلة المترئسة وإبقاء عليها.

وكانت الحكومة المركزية تكتفي بالجبايات الشرعية من زكاة الدواب والثمار وأخماس الغنائم فقط لتصرف في حفظ الثغور وتوطيد الأمن في داخلية البلاد، وفي حالة الحرب يتكاتف الجميع بالمال والأرواح، أما بقية

(١) في الأصل: با نقطة. والتصويب من النسخة ب.

(٢) زاد في النسخة ب: وهما شيعيان.

الضرائب المعروفة في عالم الاقتصاد الدولي فلا أثر لها البتة.

وكانت المحاكم تؤلف من قضاة شرعيين يحكمون بنصوص الكتاب والسنة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ويختارون من المشهورين بالعلم والعفة بدون اعتبار أصلهم وجنسيتهم، فقد كان قضاء القطيف يليه الشيخ محمود الفارسي من رعايا إيران، وقضاة الحجاز وعسير وعمان من أهلها، أما السلطة التنفيذية فهي بيد أمير تلك الولاية بما يقتضيه حكم الشارع.

نظام الجند والحرب[1]:

لكل دولة نظامها الذي تولده ظروفها ونفسية أفرادها وطباعهم وتفرضه طبيعة أرضها ومادتها، والنظم توجدها التطورات والاقتباسات، وتهذبها التجارب، ففي العصر الإسلامي الأول عصر الفتح والتوسع ونشر الدين، كان نظام التجنيد حسبما نص عليه القرآن الكريم ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[2] [التوبة: ٤١]، وكان الجهاد مفروضًا على كل مسلم حر بالغ، عاقل، و ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، وبعبارة أخرى: كان التجنيد إجباريًا بالنفوس والأموال من المقتدرين للإنفاق على تجهيز الجيوش، ولتلك الجنود المجاهدة أربعة أخماس الغنائم، قلت أو كثرت للراجل سهم

(١) هذه الفقرة لم ترد في النسخة ب.

(٢) في الأصل والنسخة أ: (وجاهدوا بأنفسكم وأموالكم).

وللفارس سهمان، وهذا النظام كانت توجبه حالة العرب في جزيرتهم؛ لأن الروح السائدة فيهم كانت روح التعاون فيما بين أفراد العشيرة للفتح أو الدفاع مما توجبه العصبية، وكانوا ينفرون ويقومون قيام الرجل الواحد: لا يسألون أخاهم حين يندبهم[1]، وحالة أخيهم أو رئيسهم لا تسمح له بالإنفاق، فلا بد إذن من الاشتراك في الغرم والغنم، ولما تآلفت تلك القبائل وتكونت منها وحدة الأمة العربية الإسلامية جاءها التشريع بما يلائم فطرتها.

وبعد التوسع في الفتوح ودخول العناصر الأعجمية وامتزاجها بالعنصر العربي وهي متشبعة بالنظم الأخرى، تفككت عرى العصبية[2] وتبعتها العصبية القومية لكثرة ما تتطلبه تلك الحروب من الجنود التي لا يمكن تأليفها من عنصر واحد؛ لذلك كله حدث نظام التجنيد الارتزاقي والتطوعي، ففرضت الجامكيات[3]، وقامت الدول بمرتبات وأقوات جنودها، وبكافة حاجياتهم، وأسقط حقهم من الغنائم إلا ما أخذوه بطريقة الغلول والإخفاء، وهذا ما كادت تجمع عليه دول العالم من ذلك العهد إلى الآن.

---

(١) صدر بيت لقريط بن أنيف، وعجزه:
في النائبات على ما قال برهانا. أبو تمام، الحماسة ج١ ص ٥٨.

(٢) في النسخة أ: العصبية الدينية.

(٣) **الجامكية والجوامك**: رواتب خدام الدولة من الملكية والعسكرية، والكلمة فارسية، وجمعها جامكيات وجوامك. البستاني، محيط المحيط ص٤٢١ (مادة: جمك).

وفي الوقت الذي ظهر فيه الشيخ محمد بن عبدالوهاب داعيًا إلى تجديد مذهب السلف الصالح كانت بلدان نجد على الحالة التي كانت عليها قبائل العرب قبل الإسلام من حيث طريقة التجنيد، أما الغنائم فهي لمن يكسبها إلا ما يختاره الرئيس من الكرائم والنفائس عوض المرباع الذي[1] يأخذه رؤساء الجاهلية.

ولما كانت الوحدة التي ينشدها الإمام محمد بن سعود لا تتم إلا بامتشاق الحسام والقضاء على الأمراء المعارضين، وكان لا بد من التجنيد، ولما كانت الدعوة السلفية تقضي باتباع هدي الرسول ﷺ، أعيد نظام الجهاد بكامل معانيه، وكما تقرره كتب الشرع الإسلامي، فكان على الإمام إذا ارتأى الغزو أن يصدر أوامره إلى البلدان والقبائل بطلب الرجال على قدر قوة الجيش المطلوبة، وبحسب حالة تلك البلدة أو القبيلة من الغنى والكثرة أو القلة، ويضرب لهم موعدًا معلومًا في موضع معلوم، فتأتي إليه هذه الجنود كاملة العدة والعدد، مجهزة بالزاد والسلاح.

أما الجهة المقرر عليها ذلك العدد فهي صاحبة الشأن في توزيعه على أفرادها، وعلى الأمير أن يصل بجماعته إلى الموضع المعين في الوقت المحدد، وأنواع الجهاد المفروضة تختلف باختلاف الظروف وأهمية الغزوات، وهي:

١ - جهاد عادي: وهو ما يطلب في الغزوات العادية للتأديب أو

(١) في النسخة أ: الذي كان.

مقابلة من لا أهمية له من سرايا الأعداء.

٢ - جهاد مثني: أي مضاعفة العدد العادي مرتين.

٣ - الجهاد مثلوث: مضاعفة[1] العادي ثلاثة مرات.

٤ - النفير العام: لاتقاء الخطر الداهم، ولم يعلنه إلا عبدالله بن سعود لمحاربة إبراهيم باشا.

والإمام يتحمل القسم الأكبر من نفقات الحرب من احتياطي بيت المال، وما يفيء الله عليهم من الغنائم يأخذ خمسه لبيت المال، وتقسم الأربعة أخماس على الجند: للراجل سهم وللفارس سهمان.

ومتى اجتمعت الجنود على الموضع المعين وغالبًا تراعى فيه غزارة الماء وتوسطه من البلاد، أو قربه من الجهات المقصودة، ولما كانت سياسة الحرب ترتكز على التكتم والتورية واللحن، والحرب خُدْعَة، تذهب الجواسيس والأرصاد لتطلع حالة العدو، ويوهم القائد جواسيس أعدائه ويضللهم بما يستعمله من التورية والإيهام، فيسير إلى الجنوب وهو يقصد الشمال، أو الغرب وهو يريد الشرق، وقد يسأل عن الخلف ومراده الأمام، ثم يكر راجعًا من طرق أخرى، فلا يشعر العدو إلا بالهجوم.

والهجوم غالبًا لا يكون إلا مع الفجر أو قبل الشروق، وفي تلك الليلة بعد أن تأتي الجواسيس ورجال الاستطلاعات بالخبر اليقين عن موضع

(١) في النسخة أ: زيادة العدد.

العدو وحالته، يرسم الإمام خطط الهجوم، ويوزع القوى، ويعهد إلى كل فرقة بالعمل الذي يطلبه منها، ثم يقف خطيبًا مستنفرًا همم الجند، ومذكرًا لهم بما يثير نخوتهم، ويذكي حماستهم من العبارات البليغة المؤثرة، وتبتدئ الطلائع بالهجوم وقت صدور الأمر، بينما بقية المعسكر تمهد لها بإطلاق البنادق دفعة واحدة مرتين - الراجفة تتبعها الرادفة[1] - فيكون لها دوي عظيم، ويلي ذلك أصوات التكبير والتهليل وصهيل الخيل وقعقعة السلاح وصراخ الجنود وهمهمة الأبطال، فيرتجف العدو، ويستولي عليه الرعب، وقد تقع عليه الهزيمة قبل أن يستفيق من دهشته.

لا تقتلوا جريحًا، ولا مدبرًا، ولا من ألقى سلاحه، ولا طفلا ولا امرأة ولا شيخًا، وإياكم والمثلة.

هذا ما يوصي به الإمام جنوده، وكذلك يفعلون، والحروب العربية كانت وما زالت من نوع الكر والفر[2]، وقل أن يقع المصاف بين الجنود المتحاربة، ولا يستعملون الخنادق إلا قليلاً[3].

---

(١) لم يرد تفسير الراجفة تتبعها الرادفة عند المفسرين بالمفهوم الذي أورده المؤلف.

(٢) يعد الرسول ﷺ أول من غير طريقة الكر والفر في الحروب العربية، وذلك في غزوة بدر عندما فرض نظام الصف للقتال، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

(٣) زاد في النسخة أ: «وقد يستعملون المسيوق بأن يقرنوا الإبل بعضها إلى بعض صفًا ويسوقونها أمامهم يتترسون بها».

عهد الفوضى

السياسة منذ أقدم عصور التاريخ كانت وما زالت تبرر كل واسطة في سبيل الغاية التي تنشدها من قبل أن يُخْلَقَ ميكيافيلي وكتابُهُ، ولا يبالي السياسي أي ضرب من ضروب الوحشية والتدمير يأتي إذ كانت غايته تقتضي ذلك.

فمحمد علي باشا المصلح المعمر في مصر، هو هو ذلك المخرب المدمر في نجد وبلاد العرب؛ لأن شبح الخلافة الذي كان يخشاه آل عثمان يرعب محمد علي أيضًا، ويقلق باله؛ لأنه الغاية التي كان ينشدها، والأمنية التي يحلم بها أيضًا.

إن معاصره نابوليون قد وضع تاج إمبراطورية أوروبا على مفرقه، فلماذا لا يكون محمد علي نابوليون الشرق وأمير المؤمنين؟ وهو جد عالَم أن أخذ الخلافة من الأتراك سهل إذا لم تقف في طريقه عثرة عربية.

وهذه المملكة العربية الفتية القوية إن لم تحدثها نفسها بالخلافة آنئذ فلرسوخها في آل عثمان، أما إذا انتزعت منهم، فقد تنازع ذلك المتغلب الخلافة وهو دخيل، هذا ما يخيل له، ويقلق باله، فليس أمامه إلا تدمير نجد وتخريبها وإحراقها بنار الفوضى، فإن ابنه إبراهيم باشا لم يكفه هدم الدرعية والقبض على عائلتي آل سعود وآل الشيخ. بل أطلق العنان لقواده ورجاله يفعلون ما شاؤوا وشاءت لهم وحشيتهم من التقتيل والتخريب في كافة بلدان نجد، ولم يرحل حتى قتل كافة أمراء البلدان الموالين لآل سعود؛

ليفسح المجال لأمرائها الأولين المعادين لهم، وعلاوة على ذلك أبقى قسمًا من العساكر المصرية تجوس خلال الديار بكل أنواع الفظائع والإرهاق، وعادت الفوضى إلى سابق عهدها، وتنكر الأمراء بعضهم لبعض، وسالت بينهم الدماء، وتكالب بعضهم على بعض، وانقطعت الصلات بين البلدان حتى كاد المرء لا يأمن على نفسه في بيته، وانسلخت الأقطار بيد المتغلبين عليها[1].

آل معمر أيضًا:

وآل معمر أمراء العيينة، وقد تقدم كيف أضاع عثمان بن معمر الفرصة التي اغتنمها محمد بن سعود، فبقيت حسرة في نفوسهم، وكانوا يعتقدون أنه لو بقي الشيخ عند عثمان في العيينة لصار الحكم لهم بدل آل سعود، فهم يندبون حظهم لفوات الفرصة، فعليهم أن يهتبلوها الآن بعد تشتت آل سعود وبعدهم عن نجد.

وكان محمد بن مشاري بن معمر في العيينة، فحدثته نفسه باغتنام الفرصة، خصوصًا وهو معم في آل معمر، مخول في آل سعود، فنزل الدرعية سنة ١٢٣٤، وعمرها بمن معه؛ ليحقق أمنيته، وأظهر النسك والدعوة، وكاتب رؤساء البلدان، فتبعه أهل منفوحة.

---

(١) وردت هذه الفقرة في النسخة ب بشكل مختصر من حيث الألفاظ فقط لا المضمون.

وكان آل حميد قد عادوا إلى الأحساء والقطيف بعد حادثة الدرعية، فاستولوا عليها بمؤازرة داود باشا والي العراق ورئيسهم ماجد بن عريعر، وكانت سياسته نفس سياسة أسلافه، فخشي أن يقوى ابن معمر وتعود عقرب الساعة إلى دورانها، وأغراه بعض أمراء نجد الذين خشوا امتداد سلطة ابن معمر أيضًا، فأعلن الحرب عليه، وتجهز بجموعه، فنازل منفوحة، ثم صالحها بدون طائل، وكانت حالة ابن معمر تدعوه إلى استعمال اللين والمداهنة، فهاداه، وأظهر له الطاعة، فعاد أدراجه إلى الأحساء، ولم يفعل شيئًا، وخلا الجو لابن معمر.

وكان تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود وأخوه زيد قد هربا إبان سقوط الدرعية، فكانا من الناجين، ولاذا بالخرج مستترين[1]، فلما قوي أمر ابن معمر وانضمت إليه بلاد الوشم وسدير أويا إليه وشدا عضده، فصفت له بلدان العارض وسدير والوشم.

---

(١) هرب الإمام تركي من الدرعية في الليل يوم الصلح بعد أن فقد ابنه فهدًا في تلك الحرب وأخذ ابنه فيصل مع جملة أسرى آل سعود إلى مصر، ولاذ تركي بالخرج ونزل في البَادية على آل شامر من قبيلة العجمان، وتزوج بنت ضيدان بن جازع، فولدت له ولدًا سماه جلوي تذكارًا لذلك الجلاء، وهو والد سمو الأمير عبدالله بن جلوي حاكم الأحساء وما يليها الآن، صاحب الأفعال الباهرة، [في النسخة ب: وهو جد الأمير سعود بن عبدالله بن جلوى حاكم الأحساء الآن] وجد الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي القائد الشهير وأمير حائل الآن (المؤلف).

مشاري بن سعود :

كاد أمر ابن معمر يتم لولا أن داهمه خصم جديد ساكنه في الدرعية ونافسه. هو مشاري بن سعود الكبير هرب من مصر، وعاد إلى الوشم، وجمع له أعوانًا من محبي آل سعود، وأتى معهم إلى الدرعية، وانضم إليه تركي وأخوه زيد، فحاول ابن معمر محاربتهم، ولكنه لم يقو علمًا منه أن بواطن الناس مع آل سعود، فسلم الأمر لمشاري الذي ما عتم أن أخذت له البيعة، وضم الخرج إلى ولايته، وأمَّر تركيًا على الرياض، على أن ابن معمر بعد مبايعته لمشاري ندم على تفريطه، فتمارض، وخرج إلى جماعته في سدوس، ومنها إلى حريملاء حيث أظهر المخالفة لمشاري.

وكان فيصل الدويش رئيس عشيرة مطير بعد مساعدته لإبراهيم باشا لا يود أن تقوم لآل سعود قائمة خشية أن ينتقموا منه، فساعد ابن معمر مساعدة قوية، وهاجموا الدرعية على حين غفلة، فأمسكوا مشاري بن سعود، وحبسوه، وبعد أن استولوا على الدرعية قصدوا الرياض وفيها تركي بن عبدالله، فهرب منها، ومضى بمن معه إلى حائر سبيع، وعاد ابن معمر إلى سابق سلطته.

هذا والعساكر المصرية لا يزال بعضها مقيمًا في القصيم ورئيسهم عبوش آغا، فكتب له ابن معمر بخبر القبض على مشاري، ويقدمه هدية بين يدي متابعته للدولة، فتقبل منه عبوش آغا، وأقره على الإمارة، وحبس مشاري عند أهل سدوس الذين تعهدوا بحفظه لعبوش آغا.

وإذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابه، فإن إمارة ابن معمر أشبه شيء برواية ذات مفاجآت غريبة، بل هي حلم متضارب متناقض؛ لأن [الأهالي لم يكونوا][1] يدينون له بأحقية الإمارة كفرد من آل سعود، وإن تابعوه فلرغبة أو رهبة من العساكر المصرية.

تركي وابن معمر:

هرب تركي من الرياض بمن معه إلى الحاير كما تقدم، فضاقت بهم الحال، ففي سنة ١٢٣٥ أتوا مستخفين تحت أستار الدجى إلى بلد ضرمه [ضرما] لقضاء بعض الضروريات، فبلغ ابن معمر خبره، فأرسل ابنه مشاري بمائة راكب بقصد القبض عليه في ضرمه [ضرما] مقدِّمًا أحد خدمه لإخبار أنصاره في ضرمه [ضرما] بقدومه وغايته.

ولحسن حظ تركي أن الرسول وقع في قبضته، فاطلع على الكتب التي معه، فانحاز بمن معه إلى أحد القصور ممتنعًا فيه، وخرج تركي بمفرده وليس معه إلا خادمه والأجرب[2] بيمينه، وقصد بيتًا لأصحاب ابن معمر وفيه حول النار جماعة منهم يأتمرون بالقبض عليه، ولكنهم لم يشعروا إلا والأجرب يلمع بكف تركي، ففروا (كأنهم حمر مستنفرة فرت من

---

(١) في الأصل: لأن لم يكن. والمثبت من النسختين أ و ب.

(٢) في هامش النسخة ب: «الأجرب سيف تركي من السيوف التاريخية المشهورة. آل إلى سعود بن فيصل، وفي أثناء تنقله أيام حروبه مع عبدالله الفيصل أهداه لآل خليفة أهل البحرين تذكاراً لمساعدتهم له، ولا يزال عندهم، ويعتبر من أهم نفائسهم».

قسورة)[1]، وتخاذل أصحاب ابن معمر عنه، فهرب إلى الدرعية على فرسه، وقفى تركي أثره توًا، فدخل الدرعية، ونازل ابن معمر في قصره، وتقاعد أهل الدرعية، عنه فقبض عليه وحبسه.

ومن سخريات الزمن وعجائب القدر أن ابن معمر قد أعد وليمة في ذلك اليوم لضيوف له، فأكلها تركي وجماعته.

قبض تركي على الأب، وقصد الرياض، فاستولى عليها، وألحق الابن بأبيه، وعلق حياتهما على إطلاق سراح مشاري بن سعود، ولكن السيف قد سبق العذل[2]، فإن أهل سدوس أسلموه إلى عبوش آغا وفاء بتعهدهم وخشية من بطشه بالرغم من تضرعات ابن معمر، فنفذ تركي وعيده بابن معمر وابنه قصاصًا لمشاري بن سعود الذي خنقه العسكر في عنيزة، وكان التنفيذ بيد عمر بن عبدالعزيز عم مشاري وولي دمه[3]، وانتهت إمارة آل معمر.

وبادر الدويش بمطير ومعه قسم من العساكر لمحاربة تركي، فانهزموا، وتملك تركي الرياض وما حولها.

---

(١) اقتباس من سورة المدثر، الآيتان ٥٠، ٥١.

(٢) المثل في العسكري، جمهرة الأمثال ج١ ص ٣٧٧، ٥١١

(٣) الإشارة إلى دور عمر بن عبدالعزيز في القصاص لم ترد في عنوان المجد- وهو مصدر المؤلف. وقد سقط النص من (ط. الدارة) ج١ ص ٤٤٩. و (ط. مكتبة الرياض الحديثة) ج١ ص ٢٢٤. و(ط. القصيم) ج١ ص ٢٧٠. والنص موجود في مخطوطة المتحف البريطاني ق ١٥٢.

وفي سنة ١٢٣٦ لما بلغ أحمد يكن باشا والي الحجاز استفحال أمر تركي خشي من تفاقمه، فأرسل حملة بقيادة حسين بيك انضمت إلى عساكر عبوش آغا، وانضم إليهم الدويش وكثير من أهل نجد، وفيهم أمراء الرياض المبعدون، فنازلوا الرياض وحاصروها، ولو صدق أهل الرياض لتمكن تركي من صد الحملة، ولكن الخيانة على غرة اضطرته إلى الهرب في الليل لوحده، واستسلم الذين معه وعددهم سبعون قتلوا كلهم صبراً بعد إعطائهم الأمان ما عدا عمر ابن الإمام عبدالعزيز وأبناؤه [أبناءه] الثلاثة؛ فقد أسروا، وأرسلوا إلى مصر.

أما تركي فقد لجأ إلى بلد الحلوة[1] من وادي الفرع، فأقام فيها مستخفيًا، وقضى معظم أوقاته في البر حذراً على نفسه وترقبًا للفرص.

الفوضى:

وصدرت الأوامر إلى سكان الدرعية الذين عمروها مع ابن معمر بإخلائها، وأرسلوا بأهليهم وأولادهم إلى ثرمداء، وهناك مثل بهم حسين بيك دور مليكه في القلعة، إذ قتل أولئك الأبرياء عن آخرهم بصورة بشعة فظيعة بلا رحمة ولا شفقة، وهم نحو مائتين وثلاثين.

وعاثت العساكر في سائر بلدان نجد بالتدمير والتخريب والتقتيل، وفرض الغرامات والسخرة واحتراب الرؤساء فيما بينهم، وعمت الفتنة واشتعلت نارها، فالتهمت الأخضر والهشيم، وحصل رد فعل لذلك

(١) **الحلوة:** من بلدان حوطة بني تميم، جنوب مدينة الرياض.

الأمن والدعة والعدل، فانتشرت الفوضى بشكل فظيع مريع، وعادت الجاهلية إلى أخطر من حالتها الأولى في سبيل إشباع مطامع السلطان، ومحمد علي باشا، وتسكين مخاوفهما من الخلافة العربية.

١٠

ظهـــور تركـي

(ص ٨٥)

أقام عبوش آغا وخلفاؤه يمثلون دور جنكيز خان وهولاكو في الفتك والقتل، وسائر ضروب الوحشية والقسوة، وانتهاك الحرمات، فأيقن أهل نجد أن ذلك جزاء خيانتهم وتخاذلهم، فكثرت الانتفاضات على العساكر، وانتشرت روح التذمر من أفعالهم حتى انتقصوهم.

وجاء تركي يجهز على البقية الباقية، ففي رمضان سنة ١٢٣٨ أقبل من بلد الحلوة ومعه زهاء ثلاثين رجلاً عزلاً بدون سلاح، فنزل بلد عرقة[١]، وساعده حمد بن غيهب أمير شقراء، وسويد أمير جلاجل، وأمدوه، فقصد الرياض وفيها حاميته من العساكر بقيادة أبي علي البهلولي المغربي، فحاصرها، وكاد يستولي عليها لولا أن سويدًا ومن معه عادوا إلى بلادهم، وتركوه لوحده، فرجع إلى عرقة، وانقلبت الحال، فأصبح المحصورون محاصرين، إذ حاصره البهلولي وأهل الرياض ومن حولها، وشددوا عليه الحصار، فصبر لهم صبرًا عجيبًا، وكان أهل عرقة قلة وقد أضناهم الحصار، فرثى تركي لحالتهم. وكان له أنصار يثق بهم في بلد

---

(١) **عرقة:** بلدة تقع في منتصف وادي حنيفة بين الرياض جنوبًا والدرعية شمالاً. ابن خميس، معجم اليمامة ج٢ ص ١٩١، وقد امتد إليها العمران في الرياض الآن حتى شملها.

ضرمة [ضرما] وما توقفوا عنه إلا لأن السياريين أمراءها السابقين قد عادوا إليها، فلا بد لتركي من مجازفة، وتركي بطل المجازفات، فسرى إلى ضرمة [ضرما] مسرى السرحان، ودخلها ليلاً وطلْبتَه أميرها ناصر السياري، فالتقى به على سطح المسجد، وكان السياري أيضًا بطلاً من الأبطال المعدودين، فاشتبكا بمجالدة ومصارعة صراع الموت والحياة، ووقعا معًا من علو سطح المسجد وهما متعانقين، وتغلب عليه تركي، فقتله(1). وهذه صفحة من صفحات بطولة تركي العديدة، وقد رددت نجد صدى هذه المصارعة بإعجاب، وكانت لتركي بمثابة قوة كبيرة، وبذلك ضم ضرمة [ضرما] إلى عرقة.

وفي تلك الأثناء كانت بلدان سدير محتربة ما بينها، وأمراؤها متطاحنون على الرئاسة، فاغتنم تركي الفرصة، فجاءهم ،وأطفأ الفتنة، وبايعه كافة أهلها، وملك المجمعة، واستعان بما خلّفه العسكر فيها من خيام وسلاح ونقود، وتوالت عليه الوفود من الزلفي وشقراء وسائر بلاد الوشم، وأصبح في حالة تمكنه من محاربة البهلولي وأهل الرياض، ومهد لذلك بالزحف على حريملاء، فسلمت صلحًا، وبعدها قصد منفوحة، فأطاعت حتى أحاط بالرياض، وبعد حصار طويل سلمت له الحامية المصرية، وخرجت سالمة إلى المدينة، ثم وفد عليه أهل القصيم، فبايعوه، وتم له حكم نجد كلها، واختار الرياض عاصمة له لقربها من الدرعية مسقط

(1) كان ذلك في سنة ١٢٣٩هـ. ابن بشر، عنوان المجد ج ٢ ص ٢٨ .

رأسه، ولانتقال أغلب أهل الدرعية إليها، ولا تزال الرياض عاصمة لهذه المملكة المحروسة إلى الآن وإلى الأبد إن شاء الله.

وفي سنة ١٢٤٣ تمكن فيصل بن تركي من الإفلات من حبس محمد علي بمصر، وفر ملتحقًا بأبيه، فاستبشر به، واشتد به ساعده.

وفي سنة ١٢٤٤ أتت الوفود من عمان مبايعين على السمع والطاعة، فأرسل معهم قضاة وعمالاً، وبسط سلطانه على كافة أنحاء نجد، وعاد الأمن إلى نصابه.

وعاد[(١)] ماجد بن عريعر يمثل دور آبائه، فجمع جموعه قاصداً محاربة الإمام تركي في نجد، وتبعهم كثير من البادية، فلاقاهم فيصل بن تركي بمن معه من الحضر والبادية وهم على الخفيسة، بين الدهناء والصمان، وجرى بينهم مصاف وقعة السبية[(٢)]، وهي من الوقائع التي لم تعهدها العرب لطول أيامها وتعدد معاركها، وفي أثناء الحرب مات ماجد بن عريعر، فحدث الوهن في نفوس قومه، وحين وصول بشرى موته إلى الإمام تركي أسرع آتيًا ومعه النجدات لابنه، وجرت الوقعة الحاسمة، فانهزم بنو خالد لا يلوون على شيء، واستولى الإمام على كافة أموالهم[(٣)]، وعلى أثرها

(١) في النسخة ب كتب عنوان: آل عريعر أيضًا.

(٢) وقعت في سنة ١٢٤٥هـ، ويقول ابن بشر: «سميت بذلك لكثرة ما سبي فيها من الحلي والحلل والأثاث والإبل» ابن بشر، عنوان المجد ج ٢ ص ٧١.

(٣) في هامش النسخة ب: «من ذلك اشتق اسم الوقعة (السبية) وبعدها علق بالموضع الذي وقعت فيه».

قصد الأحساء فملكها، وأمَّر عليها عمر بن عفيصان، ثم ملك القطيف، وأمَّر عليه عبدالله بن غانم أحد رؤسائه.

وفي[1] الناحية الجنوبية من القطيف قصر الدمام[2] الذي اتخذه رحمة بن جابر مركزًا لمناوراته الحربية مع أهل البحرين، ومعقلاً يعتصم به في أواخر حكم عبدالله بن سعود وردحًا من إمارة آل عريعر، إلى أن اجتمع على حربه آل عريعر وآل خليفة سنة ١٢٤٢، فقضوا عليه في الوقعة البحرية الشهيرة، واستولى آل خليفة على قصر الدمام، وجعلوه سلمًا للاستيلاء به على القطيف؛ لأنه واقع على فم البوغاز.

ويتنازع سيادة القطيف عبدالرحيم[3] أمير سيهات، وعبدالله بن غانم أمير القلعة وضواحيها، وهو الذي جعله تركي أميرًا على القطيف، فاتفق منافسه مع آل خليفة على أخذ القطيف، وكادوا ينجحون في مؤامرتهم بعد أن قتلوا عبدالله بن غانم، ومثلوا به غدرًا[4].

---

(١) في النسخة ب كتب عنوان: حرب القطيف.

(٢) قصر الدمام، وقصر تاروت، وبرج أبو الليف من بناء البورتغاليين الذين استولوا على سواحل الخليج ردحًا من الزمن: ٩٣٥-١٠٤٠هـ (المؤلف).

(٣) في عنوان المجد، ج ٢ ص ٩٦: ابن عبدالرحيم. وفي النسخة ب: عبدالرحيم بن عبدالرحيم.

(٤) مكانه في النسخة ب: «استولى آل خليفة على قصر الدمام بالقطيف بعد القضاء على رحمة بن جابر، وكادوا يستولون على القطيف لولا رجوع الإمام تركي، فظلوا يبيتون الأمر، فاتفقوا مع عبدالرحيم بن عبدالرحيم أمير سيهات، وهو منافس لعبدالله بن غانم رئيس القلعة وأمير القطيف من قبل الإمام تركي، =

ولما علم الإمام تركي بحوادث القطيف جهز ابنه فيصلاً بسرية كبيرة لتأديب المخالفين، فضبط القلعة، ورتب الحاميات في كافة المراكز، وشدد الحصار على بلدة سيهات وقصر الدمام، وكانت سفن آل خليفة الحربية تمون المحصورين بالرجال والذخيرة، وتحميهم بمدافعها الضخمة.

وفي هذه الأثناء بينما النصر على قاب قوسين، بلغت الإمام فيصل أخبار الفاجعة الأليمة مقتل والده الإمام تركي في الرياض، فرفع الحصار عن سيهات ميممًا الأحساء.

= فدخلوا القلعة على حين غرة، فقتلوا ابن غانم، واستولوا على كافة نواحي القطيف ما عدا القلعة التي ظلت محاصرة من البر والبحر».

مقتل الإمام تركي

ومأساة قتل الإمام تركي بعدما استتب له الملك ودانت له البلاد، وبعد نجاته بشجاعته من تلك المآزق الحرجة والمخاطرات الهائلة، تمثل ضحايا الإحسان وسوء مطامع الإنسان.

فقد كان مشاري بن عبدالرحمن بن مشاري بن سعود[1] - وتركي خاله- من جملة الأسرى في مصر، فكاتبه الإمام تركي وشوقه إلى نجد[2] حتى قدم عليه سنة ١٢٤١، فأدناه وقربه وأنعم عليه، وعامله كأحد أولاده، وولاه إمارة منفوحة، ولكنه نفس[3] على خاله ما هو فيه من ملك وعزة، وسولت له نفسه ووسوس له بعض المغرورين من جلسائه بأنه أحق، وغره العز الذي غمره به خاله ومراعاة الناس إرضاء للإمام، فانطوى على الشر، وبدرت منه بوادر بلغت الإمام، ولكنه تغاضى عنه.

وفي سنة ١٢٤٦ اغتنم فرصة غياب الإمام تركي في غزوة إلى جهة الشمال، فخرج من الرياض مع بطانة له مظهراً الخلاف لاجئًا إلى كبار

---

(١) زاد في النسخة ب: ابن مقرن.

(٢) كتب إليه الإمام تركي قصيدته اليتيمة - التى مطلعها:

طار الكرى عن موق عيني وفرّا

وفيها يقول:

سر يا قلم واكتب على ماتوراً ... ازكى سلام لابن عمي مشاري

(٣) يقال: نفس عليه الشيء؛ أي حسده ولم يره أهلاً له. الفيروزآبادي، القاموس المحيط ص ٧٤٥ (مادة: نفس).

القبائل طارقًا أبوابهم يعدهم ويمنيهم، فلم يلبه أحد، ولما ذهبت مساعيه أدراج الرياح قصد الشريف محمد بن عون أمير مكة طالبًا منه المعونة على محاربة خاله، فلم يجبه إلى طلبه على أنه أكرمه بحفاوة، فضاقت به الحيل، وعاد إلى الإمام نادمًا طالبًا الصفح عن زلته، فغفرها له، وصفح عنه.

أريد حياته ويريد قتلي[1]:

لقد كانت مؤامرات مشاري ونواياه[2] تبلغ للإمام تركي، ولكنه كان لا يعيرها التفاتًا لأمر يريده الله غير مصدق أن مشاريًا يقدم على فعلته، ولما خلا الجو لمشاري بغزوة فيصل إلى القطيف ومعه كبار الأعوان والجند، تعاقد مع أعوانه، فوقفوا للإمام أثناء خروجه من المسجد بعد صلاة الجمعة، ففتكوا به وهو غافل يقرأ كتابًا في يده[3]، وشهر مشاري سيفه معلنًا نفسه إمامًا.

وفي دهشة الناس بادر إلى القصر، فامتلكه، واستحوذ على ما فيه، وأخرج نساء الإمام تركي وابنه فيصل منه، وطالب الناس بالبيعة، فبايعوه بعد أن قضي الأمر، وكتب إلى كافة بلدان نجد لأخذ البيعة له.

(١) صدر بيت مشهور، وعجزه: معاذ الله من سفه وطيش.
ومثله قول عمرو بن معد يكرب:
أريد حباءه ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد
والحباء: العطية.

(٢) في الأصل: ونوايا. والتصحيح من النسخة أ.

(٣) قتل الإمام تركي - رحمه الله - في سنة ١٢٤٩هـ، واسم قاتله إبراهيم بن حمزة. ابن بشر، عنوان المجد ج ٢ ص ٩٩.

حياة تركي :

وحياة تركي سلسلة أخطار ومخاطرات تتجسم فيها البطولة بأوفى أوصافها ومعانيها في شخص تركي الفذ وشجاعته النادرة .

ولقد تعد سيرته من روايات الخيال، وقد لا تسمو مخيلات كتابها إلى تصوير أبطالها بتلك الصفات خوفًا أن تتجاوز الحد المعقول .

الجد، والشجاعة، والإقدام، والصبر، والاعتماد على النفس، جنود ناصرت تركي، وأجلسته على عرش أهله . فإذا عددنا أشخاص التاريخ الذين هم مثله شبهًا لم نجد فيهم من قام بمفرده بعمل عظيم تتهيبه الجماعات[1]، وإذا ذكرنا صمصامة عمرو[2]، وذا الفقار[3] يحق لنا أن نجعل الأجرب - صديق تركي الوحيد[4] - ثالثًا لهما من حيث تأخر الزمن، والأجرب هو سيف تركي الذي اعتمد على نفسه، ولم يتكل بعد الله إلا عليه، وليس السر في الأجرب، وإنما السر كل السر في ساعد تركي، فما قطع إلا بمضاءة عزيمة صاحبه، وقوة أيده[5] .

---

(١) زاد في النسخة ب : إلا حفيده عبدالعزيز .

(٢) **الصمصامة** : اسم سيف عمرو بن معد يكرب، وكل سيف قاطع صمصامة . ابن سيده، المخصص ج٦ ص ٢٨ .

(٣) ذو الفقار : اسم سيف النبي ﷺ . ابن سيده، المخصص ج٦ ص ٢٨ .

(٤) يقول الإمام تركي عن سيفه الأجرب :

اليوم كلٍّ من عميله تبرًا　　　وحطيت الاجرب لي عميل مباري

(٥) **الأيد** : القوة . ابن منظور، لسان العرب ج ٣ ص ٧٦ (مادة : أيد) .

ساكن تركي الوحش في مغاورها، واعتصم كالوعول في رؤوس الجبال، وصبر على الجوع والظمأ، يختفي تارة ويظهر أخرى.

تركي الذي يأتي من بلد الحلوة بثلاثين أعزلاً [أعزل] وبرنامجه استعادة ملك آبائه واستخلاصه من العساكر المصرية والأمراء المناوئين لآل سعود.

ومَنْ هذه آماله لن يجد اليأس إلى قلبه سبيلاً، وشخصية تركي هي التي تهزم الجيوش وتفتح البلاد، وهل من يجازف مثله بدخوله على أنصار ابن معمرٍ بمفرده في ضرمة [ضرما]، ويردف ذلك بحادثة السياري فيها أيضًا؟

ولتركي قصص وروايات غريبة في هذا الباب حتى استعاد ملك آبائه وأعاد سيرتهم، وقضى على روح الفوضى والاضطرابات الداخلية، فأنقذ الله به نجدًا وأهلها.

ولتركي ما لأسلافه من سيرة وأخلاق، وإن فاقهم بمخاطراته ومجازفاته التي اقتضاها زمنه، وظروف تملكه، رحمه الله تعالى.

١١

إمامة فيصل

(ص ٨٦)

علم فيصل بحادثة مقتل أبيه وهو محاصر لسيهات، فكتم الخبر، ورفع الحصار عنها، وعاد إلى الأحساء وأميرها عمر بن عفيصان، وكان مواليًا للإمام، فجمع كبراء من معه وشاورهم، فقرروا الزحف على الرياض للاقتصاص من مشاري.

ومن مشاهير من كان في معيته الأمير عبدالله بن علي بن رشيد أمير جبل شمر فيما بعد[1]، فتجهزوا من الأحساء وجدوا السير، فوافوا الرياض في العشرين من المحرم سنة ١٢٥٠، ولم تتردد حاميتها من الانضمام إلى نصراء المقتول، ولم يبق مع مشاري في القصر إلا مائة وثمانين رجلاً[2] من جملتهم سويد أمير جلاجل، فتخاذلوا، وداخلهم الرعب، وطلبوا التسليم، فأجيبوا إليه على شرط استثناء مشاري وأعوانه من القتلة. وبناء على الاتفاقية تسور جماعة من شجعان رجال الإمام فيصل جدران القصر يقدمهم عبدالله بن رشيد الذي جرح جرحًا بليغًا في هذا الهجوم، وانتهى الأمر بقتل مشاري بن عبدالرحمن وستة معه في الحادي عشر من صفر سنة ١٢٥٠، وتم الأمر لفيصل، ولم ينتطح فيه عنزان.

---

(١) قوله: (فيما بعد) ليست في النسختين أ و ب.

(٢) عند ابن بشر «نحو مائة وأربعين رجلاً». عنوان المجد ج٢ ص ١٠٣.

وقد أراد الإمام فيصل مكافأة عبدالله بن رشيد، فعزل أمير الجبل صالح العبد المحسن العلي، وولاه الإمارة[1]، وجعلها وراثية في أبنائه، ولم يدر ماذا يكنه المستقبل لأبنائه من آل الرشيد على أنه فعل الواجب، وللقدر تصاريفه.

وهذه الحادثة هي الوحيدة من نوعها في تاريخ آل سعود، فإن تقاطع الأرحام والقتل السياسي لم يعرف فيهم، وإن كان شقاق أبناء فيصل لا يخلو من نوع التقاطع، إنما لم يحاول أحد منهم قتل الآخر في سبيل الملك مع قدرتهم على ذلك.

بايع الناس فيصلاً بالإمامة، فاشتهر بالتقوى والعدل وحسن السيرة وطيب السريرة، واستعاد القطيف سنة ١٢٥١ من آل خليفة صلحًا، وأمر عليها علي بن عبدالله بن غانم خلفًا لأبيه، ودانت لسلطته نجد وما والاها، وكان ذلك إبان قوة محمد علي وتوسعه في فتح المملكة العثمانية، وقد قوي أمله في تسنم سدة الخلافة العظمى، فرأى أن يقضي على حكم فيصل، ويزيل الحسكة[2] من طريقه برغم شدة[3] احتياجه إلى الجنود لحروبه المتواترة.

---

(١) انظر ص ٣٥٤ هامش ٣.

(٢) **الحسكة**: شوكة صلبة معروفة. ابن منظور، لسان العرب ج ١٠، ص ٤١١ (مادة: حسك).

(٣) في الأصل: برغم إلى احتياجه إلى الجنود. وهو سبق قلم، والتصويب من النسختين أ و ب.

خالد بن سعود :

خالد هذا هو ابن الإمام سعود الكبير من جارية، وكان من جملة آل سعود المنقولين إلى مصر، وقد تأثر بالبيئة المصرية لقدومه إليها صغيراً، وطول إقامته فيها، وقد يكون تأثر بدم أخواله الأجنبي فعاش في مصر عيشة مدنية وألف عادات الحضارة مما يخالف عادات أهل نجد، وقد رأى فيه داهية مصر خير من يوليه على نجد لبعده عن النزعة الدينية وتساهله(١)، وقد يكفيه عن تجهيز حملة كبيرة تكلفه أكياس الذهب، وهو جد عالم أن أهل نجد لا يذعنون لحكم خالد المزدوج الممزوج بالإشراف المصري، ولكنه لن يعدم أنصاراً تظاهره، فيستمر التطاحن بين الحزبين، وهو الغاية المنشودة، وهكذا كان.

قدم خالد بن سعود إلى القصيم ومعه حملة مصرية بقدر ألفين نفراً [ألفي نفر] يقودهم الميرالاي إسماعيل بيك، وقابلهم فيصل بجموعه، فانشق أهل نجد إلى حزبين، ورأى فيصل التخاذل يدب في صفوفه، فعاد إلى الرياض، وإذا الرياض كغيرها لم تخل من المؤيدين لخالد، وتنكر بعض أهلها له، فأدرك حرج مركزه، فجمع أمواله وما خف وغلا، وغادرها قاصداً الأحساء، وخلا الجو لخالد وعساكره، فسلمت له بلدان

(١) جاء بعده في النسخة ب: «بعد أن أظهرت التجاريب ان الجنود الأجنبية لا تستطيع الاستمرار في حكم نجد إلا بالاحتفاظ بقوى الحرب طيلة مدة السلم، وهذا يكلف الخزانة أموالاً طائلة لا قبل لها بها، فحكمها بواسطة خالد بن سعود أولى من حكمها المباشر».

نجد بلا مقاومة إلى أن وصل الرياض، فملكها سنة ١٢٥٣ .

واستعصت عليه بلاد الفرع: الحوطة والحريق والحلوة، وأهلها معروفون بالقوة والصلابة في الدين، فنفروا من حكم العسكر، ونقم المشائخ وأهل الدين والورع على خالد سياسته وتمليكه للعسكر، فغاضبوه، والتجئوا [والتجؤوا] إلى وادي الفرع، فتجهز خالد بعساكره ومن انضم إليه من سائر البلدان لإدخال المخالفين في طاعته، وكانت حملة قوية قوامها سبعة آلاف مقاتل، ولكنهم صدقوا اللقاء وصمدوا له، فانهزم هزيمة شنيعة في الحلوة، وعاد مع إسماعيل بيك إلى الرياض.

ولما بلغت الإمام فيصل أخبار الهزيمة وهو في الأحساء اغتنم الفرصة، فَسَنَّد إلى نجد، والتف أهل الجنوب حوله، وحاصر الرياض، وكاد يستولي عليها لولا أن قدمت إليه رسل خورشيد باشا بالهدايا والوعود، فركن إليها، وأقام في الخرج ينتظر قدوم خورشيد.

وذلك أن محمد علي باشا لما بلغته أخبار هزيمة إسماعيل بيك وخالد بن سعود في وادي الفرع وحصار فيصل لهما في الرياض جهز حملة قوية، وأسند قيادتها إلى خورشيد باشا والي السودان والحجاز سابقًا، وجاء خورشيد من الحجاز إلى القصيم مظهراً مسالمة فيصل، فهاداه، وراسله، وأمله بتثبيت مركزه، وقابله فيصل بالمثل بهدايا أرسلها مع أخيه جلوي، ورفع الحصار عن الرياض، وظل جلوي معه إلى أن قدم القصيم، فلما اتضحت له نوايا خورشيد فز منه إلى أخيه، وأطلعه على جلية الأمر،

وما عتم خورشيد أن قدم إلى الرياض، فاجتمع بخالد بن سعود وتوجها معًا لمحاربة فيصل في الخرج، وشددا عليه الحصار في الدلم، وكاد خورشيد يفشل لولا أن تدراكته الأمداد، فأدرك الإمام فيصل أن لا قبل له بمقاومة المهاجمين، وأحوال أهل الدلم قد ساءت، فسلم نفسه لخورشيد مشترطًا سلامة أهل الخرج وذلك سنة ١٢٥٤، فأرسله خورشيد أسيرًا إلى محمد علي حيث حبس في القلعة.

وخورشيد باشا خير من أتى نجدًا من قواد الأتراك والمصريين، فقد كانت فيه إلى جانب تدبير القواد وصلابتهم العسكرية مرونة ودهاء في رفق ولين، وكان مصريًا بطبيعته، ولا يزال أهل نجد يتناقلون نكته بإعجاب، وقد تزوج في نجد، وترك أولادًا لحقوا به في مصر بعد ذلك.

وبعد استسلام الإمام فيصل استتب الأمر لخالد بن سعود، وسلمت الأحساء وما يليها، وفر أميرها عمر بن عفيصان إلى الكويت، ولم يبق خارجًا عنه إلا أهل الجنوب ومن لديهم من المشايخ.

وفي هذه الأثناء صدرت الأوامر من محمد علي باشا إلى خورشيد باشا بالرجوع إلى مصر لاحتياجه إلى الجنود في موقعة نصيبين[(١)] الشهيرة، ولكي يوحد صفوفه أمام جنود الحلفاء المتألبين ضده، فعاد خورشيد إلى مصر سنة ١٢٥٦ تاركًا حامية مصرية عند خالد بن سعود.

(١) جهزت السلطات العثمانية جيشًا بقيادة حافظ باشا سنة ١٢٥٥هـ لقتال محمد علي والي مصر، فقابلها بجيش بقيادة إبراهيم باشا بالقرب من نصيبين بسوريا، وانتصر فيها على الجيش العثماني.

عبدالله بن ثنيان[1]:

إذا تم شيء بدا نقصه[2]، إذ لم يكد يستتب الأمر لخالد بن سعود حتى مني بخصم آخر ساعدته الظروف، وأهمها اشمئزاز أكثر أهالي نجد من العساكر المصرية، وبعض تصرفاتها، فضلاً عن تحرج موقف محمد علي أمام دول الحلفاء.

وكان عبدالله بن ثنيان عند خالد بن سعود في الرياض، فعافت نفسه ما رآه من تصرفات العساكر المصرية، واغتنم فرصة ذهاب خالد لوداع خورشيد باشا في القصيم، فهرب إلى العراق، فكاتبه خالد، وأعطاه الأمان والمواثيق استدراجًا له، وفي عودته من العراق علم بنوايا خالد نحوه، فجنب الرياض إلى حاير سبيع، ونزل على أصهار له هناك، وأظهر الخلاف، وكاتب أهل الحوطة والحريق يدعوهم إلى طرد الروم من نجد، ولم يعوزهم إلا زعيم من آل سعود، فهبوا لنصرته، وأطاعوه، ولم يعدم أنصارًا آخرين من كل بلد.

وكان حكم خالد قائمًا على معاضدة المصريين أكثر مما هو قائم على العصبية، ولم يكن نسبه في آل سعود إلا ملطفًا ومبررًا لحكمه في نظر بعض أهل نجد، ولاتصاله بقواد الحاميات التي عنده كان على اطلاع بموقف

(١) عبدالله بن ثنيان بن إبراهيم بن ثنيان بن سعود، وجده ثنيان الضرير أخ [أخو] الإمام محمد بن سعود والواسطة بينه وبين الشيخ محمد كما تقدم ص ١٨٢ (المؤلف).

(٢) صدر بيت ينسب لأبي العتاهية، وعجزه: توقع زوالاً إذا قيل تم. ابن أيدمر، الدر الفريد ج ١ ص ٣٠٩.

محمد علي وتحرجه في سوريا، وليس من المأمول أن يحصل على إمدادات من مصر.

وهو جد عالم بأن أكثرية أهل نجد ضده باطنًا إذ لم يكن سوى آلة في يد الروم - كما يسميهم أهل نجد - ، فداخله الرعب من خصمه، وخشي أن يحاصره مع أهل الجنوب في الرياض؛ فتسد في وجهه السبل، ووقعة الحلوة لا تزال ماثلة في مخيلته، فخرج بخيله ورجله قاصدًا الأحساء، وترك المجال فسيحًا لخصمه، فتغلب ابن ثنيان على الرياض بعد حرب قصيرة، وقضى على كافة المناوئين له، ودانت له نجد كلها وطهرها من العساكر المصرية، وفر خالد من الأحساء إلى قصر الدمام بالقطيف، ثم قصد الكويت، وسافر منها إلى الحجاز، وصفت نجد بأسرها لابن ثنيان.

عودة فيصل:

ساعدت الظروف ابن ثنيان في ثورته على العسكر، وتمكن من طردهم لاشتغال محمد علي باشا بثورات سوريا، وبعدها صادق الحلفاء على معاهدة لندرة[1] التي من جملة شروطها إخلاء محمد علي لجزيرة العرب وتسليمها للسلطان، وأجبر محمد علي على احترامها، فانقلبت سياسة الداهية.

(١) في النسخة ب (لندن) ومعاهدة لندرة أو لندن وقّعت في ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠م. ودول الحلفاء المصادقة على المعاهدة هم: إنجلترا، والنمسا، وبروسيا، وروسيا، وتركيا. د. الشناوي، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، ص٥٥٨-٥٦١.

وهكذا صدق المثل القائل : دع أعداءك للزمن، فقر رأيه على أن يرمي الأتراك فيما إذا حاولوا امتلاك الجزيرة بمدافع أقدر من ابن ثنيان، فأطلق سراح الإمام فيصل بصفة سرية.

والمؤرخون مجمعون في رواياتهم على أن الإمام فيصلاً هرب من القلعة متدليًا بالحبال ومعه أخوه جلوي وابن عمه عبدالله بن إبراهيم[(١)]، وإن كانت الرواية لا تستبعد، وإن كانت همة فيصل وجلوي لا تذللها جدران القلعة الشاهقة، فإن بقاء آل سعود في قبضة محمد علي بعد أن نفض يده من جزيرة العرب لا مسوغ له.

وفيصل الذي سبق له أن هرب من القلعة لا بد وأن تتخذ الاحتياطات الكافية لحفظه، فلا يبعد أن يكون الهرب خطة مرسومة بين الطرفين لئلا تجرح عواطف السلطان، لأن مصلحة محمد علي في تلك الظروف السياسية تقضي عليه بإرسال فيصل إلى نجد لمعاكسة السياسة التركية هناك.

وعلى كلتي [كلتا] الروايتين، فقد وصل فيصل إلى عنيزة سنة ١٢٥٨[(٢)]، واستنجد بعبدالله بن رشيد أمير الجبل وصنيعته، فأنجده،

(١) ومعهم أيضًا عبدالله ابن الإمام فيصل. ابن بشر، عنوان المجد ج١ ص ٢٠٧. وتحليل المؤلف لأحداث هروب الإمام فيصل من سجنه بالقلعة هو الأقرب إلى الصواب، ويؤيده أن الإمام فيصل كتب وثيقة إلى السلطان العثماني يطلب فيها إطلاقه من السجن والإذن له بالعودة إلى نجد.

(٢) الصواب سنة ١٢٥٩هـ. ابن بشر، عنوان المجد ج ٢ ص ٢٠٧. ويذكر ابن بشر=

ونادى بنفسه إمامًا، وفر عبدالله بن ثنيان من القصيم إلى الرياض، ولم يلبث أن حاصره فيصل في القصر، ثم أمنه، وعفا عنه، ومات حتف أنفه[1] بعد ذلك بقليل، وتم الأمر للإمام فيصل، واسترجع الأحساء والقطيف، ودانت له الحاضرة والبادية، ولم يمر على نجد عصر كعصره، فقد عم فيه العدل والأمان، واستمرت المواصلات بين البلدان، وكان فيه ميلاً عظيمًا إلى نشر العلم والأخذ بيد أهله حتى أنه أسقط التكاليف عن كافة المنتسبين إلى العلم، فأقبل الناس على التعلم.

وتوفي الإمام فيصل بعد أن كف بصره سنة ١٢٨٢ رحمه الله تعالى.

أما الحكومة التركية فقد كانت منهوكة القوى بعد حروب محمد علي، فأجلت الاهتمام بنجد[2].

= أن الإمام فيصلاً سار أولاً إلى جبل شمر، ثم الكهفة - قرية تابعة لحائل وكانت موردًا- ثم عنيزة. عنوان المجد ج ٢ ص ٢٠٩.

(١) **الحتف**: الموت، ومات حتف أنفه؛ أي على فراشه من غير قتل ولا ضرب ولا غرق ولا حرق. وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع أنفاسه. الفيروزآبادي، القاموس المحيط ص ١٠٣٢ (مادة: حتف).

(٢) في النسخة ب: «بالجزيرة العربية ونجد خاصة إلى فرصة مواتية».
وفي حاشية الصفحة كتب المؤلف نادرة تاريخية ليس لها صلة بالموضوع جاء فيها: «الإمام فيصل سجن فلاح بن حثلين في دعوى نقائض عنده لأهل الحسا وخلافهم، ومات في السجن بالأحساء. وتولى بعده ابنه راكان وهو صغير السن، وكان يتنظر الفرص لأخذ ثأر أبيه. وقد طلب منه أيضًا نكالاً على راكان، وبذلك يقول: =

١٢

الاضطراب والاحتراب

(ص ٨٧)

توفي الإمام فيصل، وخلف أبناءه الأربعة: عبدالله، ومحمداً، وسعوداً، وعبدالرحمن، فتولى عبدالله وهو أكبرهم، ولكن سعوداً نازعه الحكم[١]، واستنجد بالأمراء المجاورين للمملكة، وتنقل من بلد إلى بلد، وأخيراً وقع على العجمان، وكانت قلوبهم تستعر حقداً على عبدالله بن فيصل الذي كاد يفنيهم في وقعتي مَلَح[٢]، والطَّبْعة[٣] بقرب الكويت، ثم

= مهبول يا ولد الامام ... يبي من الحمرا قود
والله لاخرب ذا الكمام ... وأنزل على جال البلد»

انتهى.

والكمام نخيل الأحساء. والبيتان بزيادة بيت ثالث وردت عند أبي عبدالرحمن ابن عقيل، العجمان وزعيمهم راكان بن حثلين، ص ١٢٥، ١٢٩، ١٧٧.

(١) زاد في النسخة ب: «بعد وفاة والده بسبعة أشهر، وقد سار إلى عسير، وجرت بين جنودهما عدة وقعات أشهرها وقعة ملح، كسر فيها سعود أمام أخيه محمد الفيصل المرسل من أخيهما عبدالله».

(٢) في النسخة ب: (سنة ١٢٧٧هـ) والأصوب أنها سنة ١٢٧٦هـ. ابن عيسى، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ١٧٣. وابن عيسى، عقد الدرر ص٢٧.

(٣) في النسخة ب: سنة ١٢٧٨هـ. وفي النسخة أ: سنة ١٢٧٧-١٢٧٨. والأصوب أنها في آخر شعبان سنة ١٢٧٧هـ. ابن عيسى، عقد الدرر، ص٣٤.

أجلاهم إلى نجران، وبعضهم تشرد في البلاد[1]، فالتفوا حول سعود، وأتوا معه إلى الأحساء سنة ١٢٨٨[2]، وهناك جرت وقعة جودة[3] بين جنود الأخوين انتصر فيها سعود بن فيصل، وأسر محمد بن فيصل الذي كان مع أخيه عبدالله، وحبسه في قصر الدمام بالقطيف، وبايعه أهل الأحساء.

وكانت الحكومة التركية بدأت تفكر في جزيرة العرب بفضل رجلها الفذ في ذلك الزمن مدحت باشا أبو الدستور، وكان آنئذ والي ولاية بغداد، فاغتنم فرصة شقاق الأخوة واحترابهم، فهاجم الأحساء والقطيف بحملة كبيرة قادها بنفسه ومعه الشيخ مبارك الصباح في بوادي الكويت،

---

(١) في النسخة ب: «فأقام رئيسهم راكان بن حثلين ومعه صفوة رجاله في البحرين لاجئين عند حكامها آل خليفة».

(٢) في النسخة ب: «سنة ١٢٨٧هـ وأميرها أحمد السديري. وكان في الأحساء راكان بن حثلين ومعه قليل من العجمان، فتظاهر بمناصرة عبدالله الفيصل نفاقًا منه، وادعى أن العجمان ما هم في يده، وجرت وقعة الوجّاج انتصر فيها سعود، والتجأ السديري إلى الهفوف محاصراً، والتحق راكان بسعود ومن معه من بقية العجمان. وفي ذلك يقول سليم بن عبدالحي الشاعر، وهو من مُواليّ آل سعود:

يوم خانوا بنا خمة بني بادي؟

فحاصروه، فهب عبدالله بن فيصل لنجدة أمير الأحساء، فأرسل أخاه محمداً، ولكنها استسلمت وهو في الطريق، وجرى المصاف على ماء جودة».

(٣) وقعة جودة في ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٧هـ، ابن عيسى، عقد الدرر ص ٦٦. وجودة الآن قرية تقع شمال الأحساء داخلة في وادي المياه.

فجاؤوها براً وبحراً، وامتلكوها[1]، وأطلق مدحت باشا محمد بن فيصل من سجنه؛ ليزيد الشقاق، ويشغل بعضهم ببعض.

وفي تلك السنة زحف سعود إلى الرياض، فملكها وبايعه أهلها، وصمد لأخيه عبدالله، فكسره في وقعة البرة، ثم ثار به أهل الرياض، فأخرجوه لكثرة ما كلفهم به من مصاريف حروبه، وولوا مكانه عمه عبدالله بن تركي، فجمع حوله جموعًا من البادية وعاد، فحارب عمه في الدلم، وانتصر عليه، وحبسه حتى مات في محبسه، وتم له إخضاع الرياض وما والاها سنة ١٢٩٠[2].

وكان الإمام عبدالرحمن قد هاجم الترك في الأحساء ومعه العجمان والمرة، فاستولى على أكثر بلدانها ماعدا الكوت الذي اعتصمت فيه الحامية التركية، فشدد الحصار عليها، وكاد يستولي على الكوت لولا أن الحكومة أمدت حامية الأحساء بناصر باشا السعدون ومعه جند كثير من العساكر والبادية، فهزم المحاصرين، وعاقب أهل الأحساء عقابًا قاسيًا، وانتهب

(١) زاد في النسخة ب: بدون مقاومة.

(٢) في النسخة ب: «وسار عبدالله إلى الأحساء عند الترك، فأقام إلى أن أظهر أهل الرياض سعوداً، فعاد ودخلها، ولكن سعوداً عاد فحاربه، وكسره في وقعة الجزعة، وكانت هي المعركة الفاصلة التي انتصر فيها سعود، وعاد إلى الرياض فدخلها، وكان الإمام عبدالرحمن في بغداد يفاوض الأتراك منوبًا عن أخيه سعود لاسترجاع الأحساء، فلم [صح: فلما] علم برجوع سعود إلى الرياض ورأى من الأتراك مراوغتهم عاد سنة ١٢٩١هـ».

النعائل والرفعة من الهفوف، وعمل أعمالاً لا تصدق[1]، وعاد الإمام عبدالرحمن إلى أخيه سعود[2] الذي لم يلبث أن توفي سنة ١٢٩١، فحاول عبدالرحمن الولاية، ولكن أخاه محمد جاءه يحاربه، وبعد مناوشات ومفاوضات تنازلا معًا عن الحكم لأخيهما الأكبر عبدالله الذي بويع

(١) في النسخة ب: «وأمّر بزيع بن عريعر مع العسكر إمارة اسمية، وفي ذلك يقول شاعر بني خالد:

يا قصر يا زين المباني أبشر باهلك الأولين».

(٢) في هامش النسخة ب: «وغزا سعود على عتيبة فكسروه على ماء طلال في عالية نجد، إذ لم يكن معه سوى بوادي من مطير، فانهزموا، فعاد إلى الرياض، وتوفي» انتهى. وفي الصفحة نفسها تعليق من المؤلف لم يحدد موضعه جاء فيه:

«في سنة ١٢٩٣هـ سار عبدالله الفيصل بالروقة من عتيبة يريد احتلال بريدة والقصيم من حسن المهنا من بعد مقتل أبيه مهنا - من المصاليخ عنزه - [أمره سعود الفيصل خلافًا لعبدالله فقط، وعزل آل أبوعليان]. قتله آل بوعليان صالح بن عبدالعزيز العليان - من العناقر من تميم - فثار عليهم حسن المهنا وأهل بريدة فقتلوهم في يومهم. فتلقاه أهل عنيزة وعاهدوه على الطاعة. وجاء ابن رشيد منجداً لحسن المهنا، ونزل الشبيبه - غرب جنوب عنيزة وجنوب بريدة - ونزل عبدالله الفيصل على عنيزة محيطين بمياهها، وصار الطراد بينهم قدر نصف شهر، فملوا عتيبة ولم تكن مع عبدالله حاضرة قوية، فأرادوا الصلح مع ابن رشيد وابن مهنا، وأركبوا عبدالله بن عبدالرحمن بن بسام، وسار بالصلح بينهم على أن ابن رشيد يرجع، وابن مهنا وعبدالله الفيصل وعتيبة يرجعون، ويتم العهد حتى كل منهم يصل بلده، فاستجاب ابن رشيد لهذا الصلح. وفي ذلك يقول مسلط بن ربيعان:

يا شيخنا ما لك علينا لوم لومك على برقا وابن بسام

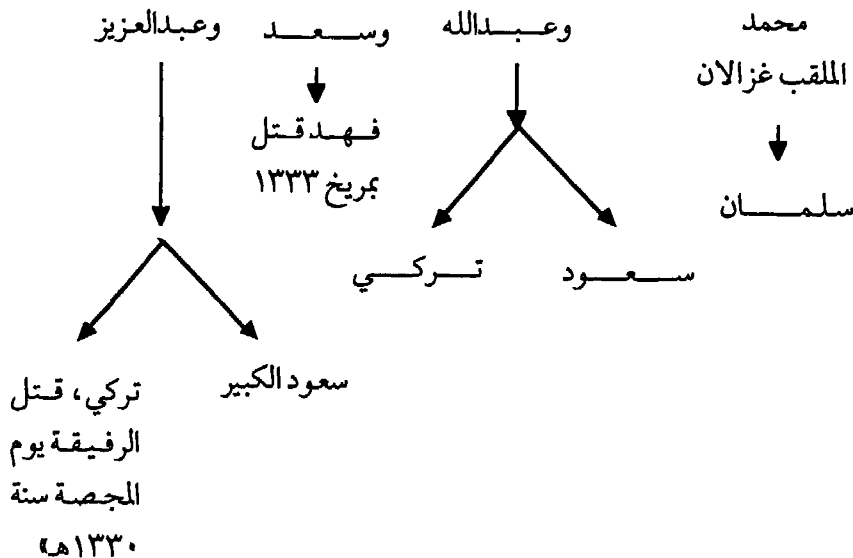
عقلت سَبْلَى كم لي من يوم ما خفت أنا من فزعه بالشام».

بالإمامة، وكاد الجو يصفو لو أن أبناء سعود[1] لم يصادقوا على اتفاق أعمامهم، وظلوا مناوئين لعمهم مقيمين في الخرج يبثون ضده الدسائس، ويهيجون عليه القبائل والبلدان.

وكانت هذه الاحترابات من أكبر المصائب على آل سعود، ومن أقوى الأسباب في ضعفهم وتقلص سلطتهم[2]، فسادت الفوضى، وتنمرت القبائل، وصار لها الحول والطول، أضف إلى ذلك أنها أدت إلى رسوخ قدم الأتراك في الأحساء على ضعفهم وعدم قدرتهم على ضبط الأمور، وكانت في النهاية تمهيداً لقيام حكومة ابن الرشيد حتى تم لها الاستيلاء على نجد كلها.

---

(١) في النسخة ب: «أبناء سعود:



(٢) في النسخة ب: «وتغلب الطامعين عليهم».

ثالثة الأثافي :

في سنة ١٢٨٨ وهي السنة التي استولى فيها مدحت باشا على الأحساء، وهي سنة جودة المشئومة [المشؤومة][١]، تولى إمارة جبل شمر محمد بن عبدالله بن رشيد[٢]، وهو ذلك الداهية الحصيف المدبر الذي اهتبل فرصة الشقاق بين آل سعود، فأسس مملكته على حسابهم، فقد كان آل الرشيد إلى وقت محمد قانعين بإمارتهم التي أقطعهم إياها الإمام فيصل على جبل شمر سنة ١٢٥١[٣]، لا يتداخلون في شئون [شؤون] بقية البلاد النجدية، ولكن محمد الرشيد أبعد المرمى، فبدأ ينفذ خطته بحكمة وتدبير محكم، فكان يغتنم ما يحدث من الخلافات بين الإمام عبدالله الفيصل وبلدان نجد، فيتداخل في ذلك، ويعدهم بالحماية، ويتطوع لمساعدتهم، وهكذا ساعد أهل بريدة والمجمعة[٤]، فتظاهر بحمايتهما، وكانت

---

(١) هذا من سب الدهر المنهي عنه.

(٢) تتفق المراجع على أن محمد بن عبدالله الرشيد تولى إمارة جبل شمر سنة ١٢٨٩هـ. ابن عيسى، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، ص ١٨٤. وابن عيسى، عقد الدرر ص ٧٤. وضاري بن فهيد الرشيد، نبذة تاريخية عن نجد، ص ١٠٨. وتعليق فهد المارك في الهامش. وسليمان الدخيل، القول السديد، ص ١٤٩.

(٣) في النسختين أ و ب: (١٢٥٠) وهو الأصوب، وجاء بعده: «يدينون بالطاعة له ولولده عبدالله ولا يتداخلون». وقد حقق الدكتور العثيمين سنة تعيين آل رشيد على جبل شمر فاتضح أنه كان آخر سنة ١٢٥٠هـ. العثيمين، نشأة إمارة آل رشيد ص ١١٥، ١١٦.

(٤) في هامش النسخة ب: «بعد رجوع [صح : رجوعه] من حرب بريدة حاصر =

وقعة الحمادة[1] التي انتصر فيها ابن رشيد، وثبت قدمه في القصيم والوشم وسدير، ولم يبق لعبدالله الفيصل إلا الجنوب.

كل هذا وابن رشيد قد لبس جلد الثعلب، واتبع الخطط السياسية في المرونة والتمويه، يستولي على البلاد باسم عبدالله، ويعيدها اسميًا، ويضرب هذا بذاك، وظلت نجد في أواخر القرن الثالث عشر مقسمة: حائل، والقصيم، وسدير، والوشم لابن رشيد[2]. والعارض[3]، والفرع، ووادي الدواسر لعبدالله الفيصل. والخرج لأبناء سعود[4].

إلى أن دخلت سنة ١٣٠٢، ففيها هاجم أبناء سعود عمهم الإمام

= المجمعة، وفيها سرية من ابن رشيد وابن مهنا مرسلة لمساعدتهم أيام حرب بريدة، فحاصرها، وقطع بعض نخيلها، ولم يدرك شيئًا».

(١) في هامش النسخة ب: «في روضة تسمى أم العصافير، وكان قد خيم فيها عبدالله الفيصل، وعقاب بن حميد رئيس عتيبة قاصدين القصيم لانتقاض حسن بن مهنا ومخالفة لابن رشيد، فعلم بهم ابن رشيد وجند جنوده من شمر، وحرب، وهتيم، وأهل القصيم، وأغار على عبدالله على غرة، ولم يكن معه من الحضر إلا قليل، فانهزمت جنود عبدالله، وقتل رئيس عتيبة عقاب بن حميد سنة ١٣٠٠هـ، ورجع ابن رشيد من مكانه، ولم يتقدم إلى العارض ولا قراه».

(٢) في النسخة ب: «لمحمد بن رشيد» وفي هامشه «والقصيم مستقل: بريدة وما والاها لحسن بن مهنا، وعنيزة لزامل بن عبدالله بن سليم».

(٣) زاد في النسخة ب: «والمحمل، ووادي الفرع».

(٤) في النسخة ب: «لأبناء سعود بن فيصل».

عبدالله[1]، فقبضوا عليه، وزجوه في غيابة السجن[2].

والذي يشجع أفراد العائلات المالكة على فتك بعضهم ببعض اعتراف الناس لكل فرد منهم بالسيادة، ووقوفهم على الحياد إزاء تطاحنهم العائلي خصوصًا إذا ما تغلب أحد منهم فجأة باغتيال خصمه أو القبض عليه على غرة، وكلمة - آل فلان ما بينهم - يقولها المتغلب كافية لإسكات الناس، وإذعانهم ومبايعتهم له على أن أبناء سعود في نظر رعاياهم لا يعادلون عمهم عبدالله، ولكن من يتداخل - والسعود ما بينهم - .

وهناك من هو سياسي الطبيعة، والسياسي هو الذي يقف على رأس قتيله يؤبنه، ويذري الدمع عليه، وهو ذلك الذي يتظاهر بنصرة المظلوم ويتطوع لإغاثته لا لينقذه بل ليظلمه، ويخلصه ليستخلصه، فيكون أشد عليه من خصومه وأكثر ظلمًا له من ظالميه.

هو محمد العبدالله الرشيد، الذي أكبر عمل أولاد سعود في عمهم، وهاله ما بدا منهم، وكاتب رؤساء بلدان نجد يسفه أبناء سعود، ويستكبر عملهم، ويحتج ويهيج، وأتى إلى الرياض داعيًا لنصرة عبدالله وإنقاذه من سجن ظالميه، فانخدع أهل نجد لأقواله وورعه، فالتفوا حوله، وانضموا إليه، فأحاط بالرياض، وخرج إليه عبدالرحمن الفيصل[3] على رأس وفد

(١) يؤرخ ابن عيسى ذلك في محرم سنة ١٣٠٥هـ. تاريخ بعض الحوادث، ص١٩٣. وعقد الدرر ص ٩٨.

(٢) في النسخة ب: «مما كدر خواطر أهل نجد وأحفظهم على أولاد سعود ومهد الطرق لأعداء آل سعود».

(٣) في هامش النسخة ب: «ومعه الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ».

ليفاوضه، ولكن الرجل ليس له مأرب - لم يأت فاتحًا وإنما جاء محرراً - لا يريد لآل سعود إلا الخير، ولا يقصد إلا إطلاق سراح عبدالله وإعادته إلى حكمه، والحكم كله لآل سعود!.

وهذا ما يريده عبدالرحمن، والناس كلهم، فاتحدوا ضد أبناء سعود حتى اضطروهم إلى طلب الأمان والعودة إلى مقرهم في الخرج، ودخل ابن الرشيد الرياض بين التقدير والإعجاب والامتنان.

هناك نزع الحمل ثوبه عن نمر أشوس، فأطلق عبدالله من سجن الرياض؛ ليسجنه في حائل، وأضاف إليه أخاه عبدالرحمن ومعهما بضعة عشر من آل سعود، فأدرك بالخداع والسياسة ما لم يدركه بالحرب.

ملك الرياض، وولى عليها سالم السبهان[1] أظلم رجل عرفته العارض.

انتزع ابن الرشيد السنان من رمح آل سعود، ولم يبق إلا الزج في الخرج، وخير لأبناء سعود لو أسروا مع من أسر في حائل كأخيهم عبدالعزيز[2]، إذ لم تمض ستة أشهر[3]، حتى فاجأهم في الخرج على حين

(١) في النسخة ب: «سالم بن علي السبهان».

(٢) في هامش النسخة ب: «كان عبدالعزيز في حائل رسولاً من إخوته عند ابن رشيد». ويذكر ابن عيسى أن عبدالعزيز كان رسولاً إلى حائل قبل الحادث بأيام، فأمره الأمير محمد بن رشيد بالمقام عنده في حائل. ابن عيسى، عقد الدرر ص٩٩.

(٣) في النسخة ب: سنة ١٣٠٤هـ. والأصوب أنه مضى قرابة السنة، فقد تولى =

غرة، فقتلهم ثلاثتهم: محمداً، وسعداً، وعبدالله. غدر فظيع وظلم أفظع استاء له القاصي والداني، تلافاه ابن الرشيد بعزل سالم السبهان وكفى[1].

ولأمر ما أطلق ابن رشيد سراح الإمامين عبدالله وعبدالرحمن ومن معهما سنة ١٣٠٧، وعاهد الأول على أن تكون إمارة الرياض له. هذا في الظاهر، وفي الباطن كان يقصد التخلص منهم، وكان لمرونته وحنكته يتحرج من قتلهم أو موتهم في حبسه، حتى ومن تحمل مسئوليتهم [مسؤوليتهم] الأدبية تجنبًا لإثارة الخواطر، والتعرض لمخاطرات المتهوسين المتحمسين طالبي الثأر فيما إذا قتلهم مباشرة. وجرّأه على ذلك نسيان الناس لعمل ابن سبهان في أبناء سعود ودخول المسألة في خبر كان، فما عليه إلا أن يعيد الدور الماضي، دور مأساة أبناء سعود في الخرج[2].

وابن سبهان رجل سفاح يحب الدماء والظلم، ولا يحسب للمسئوليات [للمسؤوليات] حسابًا، وهو مستعد لتنفيذ الخطة، وكأن الأقدار ساعدت ابن رشيد على خطته، فمات الإمام عبدالله على إثر وصوله إلى الرياض، مات حتف أنفه! . قضاءً وقدرًا، فتهلل الداهية،

= سالم السبهان أمارة الرياض في محرم سنة ١٣٠٥هـ، وغدر بأبناء سعود في صبيحة يوم الخميس أول ذي الحجة من السنة نفسها. ابن عيسى تاريخ بعض الحوادث، ص ١٩٣، ١٩٤. وابن عيسى، عقد الدرر ص ٩٨، ٩٩.

(١) في هامش النسخة ب تعليق جاء فيه: «من تأمر بعد ابن سبهان؟ يظن فهد العيسى أنه عجلان».

(٢) في النسخة ب: «ولكنه هذه المرة سيكون في الرياض».

وتحلل من عهده، وبينما الإمام عبدالرحمن يخطب الإمارة إذا بسالم السبهان يعود ثانية؛ ليعيد في الرياض ما عمله في الخرج، ولكن سوء النية يحيط به الحذر دائمًا. جاء سالم السبهان إلى الرياض أميرًا وبرنامج إمارته:

لاتقْطَعَنْ ذنبَ الأفعى وتتركها إن كنت شهمًا، فأتبع رأسها الذنبا[1]

وآل سعود حذرون، وليس هناك إلا يوم العيد حيث يتسنى حشد الجميع في مكان واحد، فتمثل في الرياض مأساة المماليك في القاهرة.

ففي يوم عيد الأضحى سنة ١٣٠٧ عندما قام الناس إلى ضحاياهم فنحروها تقربًا إلى مولاهم الرحيم، أراد ابن سبهان أن يذبح آل سعود، ويضحي بهم على مذبح رضى سيده، بيد أنهم علموا بنيته، فاتخذوا الحيطة لها.

جاءهم للسلام ويده على مقبض الحسام، ولكنهم بادروه، ليسقوه بالكأس التي كان يسقي بها[2] لولا أن أجله لم يحن بعد. فقتلوا عددًا من رجاله[3]، وأعلن عبدالرحمن استقلاله، ولاح له نور من الأمل، فقد كان

(١) البيت منسوب لبعض الغسانيين يحرض الأسود بن المنذر أخا النعمان على قتل الأعداء. ابن أيدمر، الدر الفريد ج ٥ ص ٤٢٤.

(٢) يشير إلى بيت شعر مشهور، روايته:

اشرب بكأس كنت تسقي بها أمر في الطعم من العلقم

(٣) في النسخة ب: «وقبض على سالم وبقية رجاله، وقتل خليف المسعودي، من رجال شمر، وهو قاتل محمد بن سعود. والذي صعد إلى محمد بن سعود =

أهل القصيم قد تنكروا لابن رشيد بعد أن يئسوا من وعوده الخلابة التي يستميلهم بها وقت الشدة، ثم يتناساها فيما بعد، فكاتبوا الإمام عبدالرحمن، على أنهم خدعوا ثانية إذ جاءهم ابن رشيد، فنزل على مطالبهم؛ ليفسحوا له الطريق إلى الرياض، فنكثوا عهدهم مع الإمام عبدالرحمن، وتقاعدوا، وجاء ابن رشيد محاصراً للرياض. ولما لم يحصل على طائل اعترف بالإمارة لعبدالرحمن على العارض فقط[1]، وعاد يتحين الفرص.

أما مطالب أهل القصيم فخطوط على كثيب لم يحقق منها شيء، فتجهزوا لحربه سنة ١٣٠٨، وكتبوا إلى الإمام عبدالرحمن يستنجدونه، وفي فوزهم فوز لآل سعود، فبادر إلى إنجادهم، وأتاهم ابن رشيد بجنوده، وكانوا في أرض[2] ذات مرتفعات ومنخفضات وفيها روابي وهضبات تترسوا بها واختفوا على الهاجمين، فأثخنوا فيهم وكسروهم[3]، وكادت الدائرة تدور على ابن رشيد.

وأهل القصيم مشهورون بالشجاعة وتسديد المرمى، ولما كانت

= في رأس البرج وهو ميت فألقاه بالأرض عبدالهادي الشمري، وألقاه من رأس البرج». وفي هامش النسخة ب أيضًا: «السبهان تجمعهم مع الرشيد آل جعفر».

(١) في النسخة ب: «على شرط إطلاق سراح سالم السبهان ومن معه من السجناء».

(٢) في النسخة ب تعليق: «بالقرعاء، قرية».

(٣) في النسخة ب: «فذبحوا الفريخ. مبارك البيارقي».

الحرب خدعة تظاهر ابن رشيد بالهزيمة، ليجرهم من متاريسهم ومعاقلهم إلى سهل المليدة[1] الفسيح حيث تقابلهم الجموع، وتقطع الخيل عليهم خط الرجعة، وكانت خطة حكيمة لم يفطن لها أهل القصيم، بل ظنوه قد انهزم، فتركوا مخيمهم ومتاريسهم، وركضوا وراءه بدون نظام يتأثرونه، وما كادوا يتجاوزون موضعهم إلا وقد فاجأتهم خيل شمر من ورائهم وجاء المطر ضغثًا على إبَّالة[2]، فتبللت فتائل البنادق، ولم تعد تشتعل، فكانت الهزيمة، وكانت المجزرة الهائلة.

وقعة المليدة [المليدا] التي جعلت لها تذكارًا في كل عائلة من أهل القصيم، وأقامت مناحة في كل بيت من بيوتها، وأصبحت تاريخًا يؤرخ به إلى الآن[3].

تلك هي المليدة [المليدا] المعركة الفاصلة بين آل سعود وآل رشيد، فإن

---

(١) الأصوب المليدا - بالألف بعد الدال المفتوحة - على صيغة تصغير الملداء، أرض مستوية واسعة تقع شمال القصيم. العبودي، معجم بلاد القصيم ج ٦ ص٢٣٢٩.

(٢) **الإبالة:** الحزمة من الحطب. والضغث: قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس. وهو مثل معناه بلية على أخرى. الميداني، مجمع الأمثال ج ٢ ص٢٦٠.

(٣) زاد في النسخة ب: «وقد قتل في هذه الوقعة زامل السليم، أمير عنيزة، وجرح حسن بن مهنا، أمير بريدة، ونزل إلى عنيزة ملتجئ [ملتجئًا] بآل بسام لصداقتهم للرشيد، فقبض عليه ابن رشيد وسجنه، وضل [وظل] في السجن ١٢ سنة حتى مات بحائل».

الإمام عبدالرحمن كان قادمًا بنجدته، ولما بلغته الأخبار في أثناء الطريق عاد أدراجه، وأخذ يستعد ويستنفر العربان الموالية، فهاجمه ابن رشيد في حريملة، [حريملاء] وكان النصر حليف ابن رشيد، واغتنم الإمام اشتغال خصمه بشئون [بشؤون] سدير، فأخرج عائلته من الرياض، ويمم شطر الأحساء[1]، ثم تنقل في عدة بلدان من الكويت، إلى قطر، إلى البحرين،

---

(١) في هامش النسخة ب: «وأمر ابن رشيد على الرياض محمد بن فيصل» وفيه أيضًا بعد الأحساء: «ونزل في باديتها، ثم هاجم الرياض فاستعادها من أخيه محمد الفيصل، هي والعارض، ولكن ابن رشيد لم يمهله ليستكمل قواه، بل جهز عليه جيشًا عظيمًا التقى مع عبدالرحمن في حريملاء سنة ١٣٠٩هـ، فشتت جمعه، ولم يبق في القوس منزع.

وكانت وقعة حريملا آخر معارك الجهاد، وجاء ابن رشيد إلى الرياض فاستلمها [فتسلمها]، وأمر سالم السبهان ثالثة، فسامهم سوء العذاب، فهدم الأسوار والقصر، وفعل بهم الأفاعيل. وقد قصد الإمام عبدالرحمن الأحساء، ومنها إلى القطيف، فقطر، فالبحرين، ومتنقلاً في البادية إلى أن عينت له الحكومة العثمانية راتبًا، وخيرته في البلدان، فاختار الإقامة في الكويت ليكون على اتصال دائم بأهل نجد ورؤسائهم، وخصوصًا أهل القصيم لقربها من الكويت، واتصالها بها اقتصاديًا» انتهى.

وجاء بعده ما يلي:

«الإمام عبدالرحمن

ولد الإمام عبدالرحمن سنة ١٢٦٧هـ، ونشأ في أيام مجد أبيه وأوج عزه، وتوفي أبوه وهو في الخامسة عشر [عشرة] من عمره قد أشرف على مراحل الرجولة، فشاهد صراع أخوته فيما بينهم، وكان على ما يظهر ميالاً إلى أخيه سعود، وأول الأعمال الكبيرة التي قام بها محاصرته للأتراك في الأحساء بقصد استرجاعها، فقد كاد يستولي عليها لولا تلك النجدة العظيمة التي جاء بها ناصر باشا السعدون. =

فالبادية، وأخيراً سكن الكويت.

أما ابن رشيد فقد دخل الرياض بعد أن خلا له الجو برحيل الإمام عبدالرحمن، فنكل بكثير من أهلها، وقطع كثيراً من نخيلها، وهدم سورها، وسواه بالأرض، ورمم الحصن الذي فيها، وجعله مأوى لأميره وحاميته.

وبسقوط الرياض دانت له سائر بلدان نجد من وادي الدواسر إلى الجوف، وخضعت له قبائل البادية كلها، وفي ذلك ختام الدور الثالث من أدوار الدولة السعودية.

= وبرغم تلك التقلبات والمآسي التي عاركها وعركته، فقد عاد إلى ذلك العز الباذخ بمساعي ابنه النجيب جلالة الملك المعظم، ومات قرير العين سنة ١٣٤٦هـ بعد أن شاهد ملكه قد عم على أغلب جزيرة العرب» انتهى.

١٣

جلالة الملك عبدالعزيز[١]

نصره الله

(ص٨٩)

عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود المقرن. في سلسلة آبائه أربعة أئمة هو خامسهم.

وهو الإمام التاسع لمن تولى الإمامة من آل سعود بصرف النظر عن المتغلبين مؤقتًا كخالد، وابن ثنيان، وسعود.

وهو الثاني في من سمي عبدالعزيز من أئمة آل سعود.

***

ولد جلالته في الرياض ختام سنة ١٢٩٧[٢]، وكانت إذ ذاك

---

(١) كتب المؤلف على حاشية النسخة أ و ب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وفيهما (إن مكنا لهم). وأضاف في النسخة ب: «ومن أولئك على ما برهنت عليه وقائع الأحوال جلالة الملك عبدالعزيز...».

(٢) في الأصل طمس بخط مغاير على رقم (٩٧) وجعل مكانه (٩٩) ليكون ١٢٩٩هـ، والأصوب أن الملك عبدالعزيز ولد سنة ١٢٩٣هـ، يدل على ذلك الأحداث التي شهدها جلالته في بداية حياته، كما حقق الزركلي هذا التاريخ وتوصل إلى أنه سنة ١٢٩٣هـ. شبه الجزيرة ص ٥٨. وفي هامش النسخة (ب) ما يلي: «يوافق تاريخ جلالة الملك هذه العبارة: =

مرسحًا[1] للانقلابات وساحة حرب بين أعمامه وأبناء أعمامه.

نشأ وهو يرى الناس شاكي السلاح وعليهم لأَمَةُ الحروب[2] التي كانوا لا يخرجون منها إلا ليعودوا إلى غيرها، فألف تلك المناظر ونزع نزعتها، والطفل ميول إلى ما يألفه، وأراد محاكاتهم - ومن طبيعة الطفل المحاكاة- فقلدهم في لبس السلاح، وقد تكون لأمته بحسبما يسمح بها سنه القليل ويتحملها جسمه الصغير، وشهد العرضات الحماسية بين صياح المتحمسين ودوي البنادق الهائل، وصهيل الخيل، ولمعان السيوف تحت القسطل، فصاح مع المتحمسين، وردد الأغاني الحربية بصوته العذب البريء، وتلذذ بفرقعات البارود ومطاردات الفرسان.

= ١٢٩٧ = الإمام عبدالعزيز بن الإمام عبدالرحمن الفيصل آل سعود.

١٢٩٧ =	الإمام	عبدالعزيز	بن	الإمام	عبدالرحمن	الفيصل	آل سعود.
	١١٣	٢٠١	٥٢	١١٣	٤٠٦	٢٤١	١٧١

وقد اكتشفها المؤلف خالد الفرج. وبهذه المناسبة نذكر أن المؤلف أيضًا اكتشف تاريخ بناء بيته في القطيف بهذه العبارة:

بيت	خالد	الفرج	= سنة ١٣٦١
٤١٢	٦٣٥	٣١٤	

وهي من الاتفاقات العجيبة النادرة» انتهى. وللمؤلف عناية فائقة بكلمات التاريخ المنشودة والمنظومة على حساب الجمل. انظر ديوان خالد الفرج ص٢٥١ - ٢٥٦.

(١) **المرسح**: مكان اللعب والرقص، وقد يطلق على مجتمع الناس لغير ذلك، والكلمة مولدة. البستاني، محيط المحيط، ص ٣٣٤.

(٢) **لأمة الحروب**: أداتها، ويقال للسيف لأمة، وللرمح لأمة، والدرع أيضًا، سميت بذلك لأنها تلائم الجسد وتلازمه. ابن منظور، لسان العرب ج٢ ص٥٣٢ (مادة: لأم)

وما العرضة إلا صورة مصغرة لساحة الحرب أو تمثيل طبق الحقيقة، وما أن تصلبت عظامه قليلاً، وتماسكت عضلاته بعض التماسك، حتى اشترك في تمثيل الحرب اشتراكًا فعليًا، فركب الجواد، وأطلق العنان، وشهر السيف، ورمى البندقية.

هذه هي البيئة التي كونت بطل المخاطرات والمجازفات، ماحي دولة آل رشيد، وباني دولة آل سعود من جديد.

شب وليس في قلبه ذرة من خوف أو شعرة من وجل، شجاعة لا يمازجها جبن، وحماسة[1] تملأ تلك النفس الكبيرة في ذلك الجسم الصغير.

ثم رأى رجال السياسة، وشهد المؤتمرات السياسية، وسمع الكلام السياسي وهو في سن يخوله أن يفهم ما يدور من الكلام حوله، فتنطبع صورة ما يراه من الشخصيات الكبيرة والجيوش في مخيلته، ويشهد أسرار المداولات السياسية سامعًا تعليق والده عليها وهو ذلك المجرب الخبير.

شهد اجتماع عمه محمد بن فيصل والشيخ عبدالله بن عبداللطيف بمحمد الرشيد للمفاوضة بعد إخراج ابن سبهان، وهو يومئذ في الحادية عشر [عشرة] من عمره، وأخيراً شاهد المداولات والمناورات مع والده في

(١) في النسختين أ و ب: شجاعته . . . وحماسته.

الأحساء وقطر والكويت، وتنقل مع أبيه بين الحواضر والبوادي، وجالس أمراءها وحكامها، وسمع كلامهم، ووعى أحاديثهم، وكانت مخيلته أشبه شيء بصحيفة الشمع النقية تنطبع عليها الأشياء بدقة، فتحفظها في ذلك الصمت الذي يفرضه عليه صغر سنه في تلك المحافل المحتشمة، ولكنك إذا حركت ذلك الغلام الصامت الهادئ تجد فيه نفس الرجل البطل المقدام.

سأله الشيخ عيسى بن علي آل خليفه حاكم البحرين سؤالاً ينحصر الجواب عليه بين نقطتين لا يتبادر الذهن إلى ثالثة لهما، وطالما سمع سائله أجوبة المجاملة من الكبار فضلاً عن الصغار، ولكن تلك النفس الكبيرة في ذلك الجسم الصغير أبت إلا أن تتعدى الخطة المرسومة لها؛ لتعبر عن كنهها وعما تضطرب له أوتارها الحساسة عن ذلك الحب الحقيقي، والوطنية الحقة التي تملأ جوانحها، فلا تدعها تفكر في شيء آخر.

كان قادمًا مع أبيه من قطر إلى البحرين، وعلى سبيل الاستئناس سأله الشيخ عيسى: أقطر أحسن أم البحرين؟

فأجابه على الفور: الرياض أحسن منهما !.

جواب جميل مدهش، ولولا أن حبه للرياض امتلك عواطفه كلها لكان جوابه قطر أو البحرين كما يتوقعه السائل، وطالما سئلنا وسألنا ولكن الأجوبة لا تتعدى النقط المعينة لها؛ لأن نفس عبدالعزيز ليست إلا في عبدالعزيز.

قال الشيخ عيسى: فعلمت أنه سيكون لهذا الغلام شأن، وهكذا كان[1].

* * *

من سنة ١٢٩٨ إلى سنة ١٣٠٨ عشر سنين رضع فيها عبدالعزيز لبان الملك، وتمرغ في نعيمه، وتذوق لذة العز، وشهد العرضات، وطارد فيها، وتغنى بأغانيها، وتربى على حب المجد والرفعة والمنعة إلى أن تشربت من نفسه، وخالطت دمه. بل اتحدت مع نفسه اتحادًا دونه الامتزاج، وعليها نشأت الغريزة، وفطرت الطبيعة، وتكون المزاج.

ومن سنة ١٣٠٨ إلى سنة ١٣١٨ عشر سنين رأى شبح الذل ماثلاً أمامه؛ فهاله، والاستكانة بادية لناظره؛ فجفل منها، واحتقرها، ونفس الملوك ليست كنفس الصعلوك، فإن ما تلقاه من احتفاء وإكرام وإجلال لا تعده إلا ذلاً ما دامت لا تملك الحول والطول، وشعارها:

من أطاق التماس شيء غلابًا واستلابًا لم يلتمسه سؤالا[2]

نزح عن وطنه وارتحل، ورأى عز عائلته وقد اضمحل، وتنقل في بلاد

---

(١) هذه الرواية سمعتها من المرحوم الشيخ عيسى بنفسه وهو يقصها في مجلس نزهته العصرية في ريًّا، وذلك بمناسبة خبر تسليم جدة سنة ١٣٤٤هـ (المؤلف). وقد رواها المؤلف أيضًا في أحسن القصص ص ١٢، ورواها عنه الزركلي في شبه الجزيرة ص ٦٠.

(٢) البيت للمتنبي في ديوانه بشرح البرقوقي ج ٣ ص ٢٦٦.

الناس، ولا سلطة له فيها ولا بأس، وصار كأحد رعاياها، فخالط أفرادها، وسمع شكواهم، ولمس جروحهم، وعرف منشأ دائهم ودوائهم. فعافت نفسه تلك الحالة، ونازعته خوض غمار[1] المخاطرات.

حالتان متناقضتان أوجدتا فيه الخصال التي سمت به إلى الملك الراسخ والعرش الثابت، حنين إلى المجد، وإقدام في شجاعة وجد، ومخاطرات حكيمة، ومفاجآت غريبة رهيبة، ومرونة في السياسة، وعدل في الرعية، وعطف في لطف، وفصل في رفق ولين، وتواضع يرفع صاحبه، وحلم في موضعه، وصرامة في وقتها. كل هذا إلى ما وهبه الله من عزيمة متينة، وإرادة قوية، وفراسة صادقة، وعبارة خلابة، وشخصية جذابة، ونظرات كهربائية سحرية تخترق القلوب، وتكشف عن خباياها، ومغنطيسية تجذبها، فتأسرها أسراً لا فكاك لها من بعده، وبسطة في الجسم هي ملء العيون والقلوب.

هذه الصفات صورة صادقة لعبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل، لا مبالغة فيها ولا إطراء، يعلم الله، والناس بذلك يشهدون.

***

قيل لعمران بن جطان: ألست تزعم أنك لا تكذب وأنت القائل:

وكذاك مجزأة بن ثور كان أشجع من أسامه ؟

(١) في الأصل: (عمار) - بالعين المهملة - والتصويب من النسختين أ و ب.

فقال: ويحكم أولَم يفتح مجزأة نهاوند[1] والأسد لا يفتح مدينة! حقًا ولقد صدق، فإن أسود آل سعود فتحوا المدن بمفردهم، ومن الظلم أن نشبههم بالأسود:

ألم تر أن السيف يزري بقدره   إذا قيل: إن السيف أمضى من العصا[2]

لقد مرت علينا قصص تركي[3] الحقيقية، وهي أشبه بالأساطير الخيالية، التي هي فوق التصديق لولا أنها ملموسة محسوسة مشاهدة، وأمامنا سيرة عبدالعزيز وإقدامه ومخاطراته ما يعد من خوارق البطولة وفرائد الأعمال. وفي الولد سر آبائه.

جاء تركي من بلد الحلوة في الجنوب بثلاثين أعزلاً [أعزل]؛ ليستعيد ملك آبائه، وبعد ثمانين سنة جاء عبدالعزيز ابن ابنه على أربعين ذلولاً عليها أناس شبه عزل من الكويت في الشمال للغاية نفسها، وفاز كلاهما.

خاطر عبدالعزيز بحياته في ليلة الرياض، ففتحها. وفي ليلة كوت الأحساء، فاحتلها. وليلة خيانة أبي الخيل في القصيم، فأنزل الخائن من معقله. إلى ما هنالك من مغامرات وفروسية، فهو طليعة جيشه في الهجوم

(١) الصواب أن مجزأة بن ثور السدوسي فتح تستر سنة ٢٠ هـ، وفيها قتل، ونهاوند فتحت سنة ٢١ هـ. انظر الذهبي، تاريخ الإسلام ج ٣ ص ١٩٩، ٢٢٤.

(٢) البيت للكميت بن زيد وقبله:

متى ما أقل مولاي أفضل منهم   أكن للذي فضلته متنقصًا

انظر ابن أيدمر، الدر الفريد وبيت القصيد ج٢ ص ٢٣٤.

(٣) زاد في النسخة ب: جد جلالته.

إذا كان موقف القواد سواه في المؤخرة، ومثل جنوده الأعلى في الكر والفر، والطعن والضرب، والجلاد والصبر.

لقد أعاد عبدالعزيز الثاني بناء المجد الذي شيده عبدالعزيز الأول:

على أن هذا الوقت من ذاك أصعب

فقد كانت لعبدالعزيز الأول إمارة وجنود وأعوان، وكانت نجد متفرقة شيعًا ومتقطعة قددًا، وكل فرد عون على الآخر، وهو إن لم يكن أكبرهم منعة ودولة، وأكثرهم عزة وصولة، فليس بأصغرهم قلة وذلة، وما حاربته الجيوش الكثيرة والجموع الغفيرة إلا بعد أن لم شمله، وقوي حزبه.

على أن هذا خرج أعزلاً [أعزل] فقيرًا لامال ولا ملجأ، ولكنه غني في نفسه، قوي بإرادته، كثير بعزمه وآماله، متحصن بصلابته وإقدامه، يقاوم بمفرده عاهل نجد في زمنه وبطلها المقدام، وشجاعها المتهوس بجنوده الشمرية وجيوشه السنعوسية[1]، وقد خضعت له نجد من أعلاها إلى أدناها، ووراءه الدولة التركية تمد خصمه القوي بالمادة والجنود، ولكن:

من راقب الناس مات غمًا ... وفاز باللذة الجسور[2]

(١) السناعيس: بطن من شمر. والسنعوسية نخوتهم. يقول شاعرهم:

ويا شيخ ترها عزوة الشمرية ... وياشيخ ترهم (زوبع) و (السناعيس)

العزاوي، عشائر العراق ج ١ ص ١٧٢.

(٢) بيت مشهور لسلم الخاسر. ابن أيدمر، الدر الفريد ج ٥ ص ١٣٢.

١٤

فتح الرياض العجيب

(ص ٩٠)

بسطنا فيما تقدم مقدار تعلق جلالة الملك عبدالعزيز بوطنه الرياض وما كان يمني نفسه بسواها، وهو في ذلك السن الصغير، فكيف به بعد أن أصبح شابًا واسع المطامح والآمال، قوي الأيد والإرادة، والظروف لاتخلق الرجال، وإنما الرجال هم الذين يعرفون كيف يستثمرونها.

آل صباح وآل رشيد[1]:

آل صباح من جُمَيْلَة (عنزة) وأبناء عم آل خليفة حكام البحرين. هم

(١) كتب عند هذا العنوان في النسخة ب تعليق بخط مغاير فيه: «توضع مقدمة يذكر فيها أنه بالنظر لأن عائلة آل صباح وآل رشيد لهما علاقة كبرى في تاريخ آل سعود وبجلالة الملك عبدالعزيز بصورة خاصة، نوردها هنا» انتهى، ثم جاء في النسخة ب ما يلي:

«آل الصباح وآل رشيد:

نأتي هنا على نبذة في تاريخ آل صباح لما لهم من علاقة كبرى بتاريخ جلالة الملك.

آل صباح بنو عتبة من جُميلة من عنزة، وأبناء عم آل خليفة حكام البحرين، هم مؤسسو بلدة الكويت وأول حاكم منهم في الكويت جدهم الأعلى صباح الأول، توفي سنة ١١٧٥هـ، وتولى بعده ابنه عبدالله، وفي زمنه انشق آل خليفة عنهم فرحلوا إلى البحرين حوالي سنة ١١٧٦هـ، فأسسوا حكمهم في قطر والبحرين، وتوفي عبدالله سنة ١٢١٠هـ، وتولى ابنه جابر الذي عمر، ودام =

مؤسسو بلدة الكويت[1] وحكامها، ظلت بلدهم معززة محترمة الجانب من آل سعود الأولين، فلم يتعرضوا لها، ولما أخضع محمد بن عبدالله

= في الحكم طويلاً إلى سنة ١٢٦٤هـ. فحكم ابنه صباح الثاني وتوفي سنة ١٢٨٢هـ، فتولى ابنه عبدالله، أكبر أبنائه، إلى أن توفي سنة ١٣٠٨هـ، فخلفه أخوته محمد وجراح ومبارك مشتركين في الحكم، وفي زمنهم قرر الإمام عبدالرحمن الإقامة في الكويت، وقد ظلت بلدهم من قديم الزمان معززة». ثم أعاد كتابته في النسخة نفسها وفق ما في الأصل.

(١) في هامش النسختين أ و ب ما يلي:

«الكويت بلدة تقع على الساحل الجنوبي لجون كاظمة، ويسمى اليوم بخليج الكويت، وينتهي هذا الخليج في الغرب عند المطلاع، وكان موضع الكويت يسمى بالقرين، ويقابله من الشمال كاظمة وغضي، وكانت السلطة في القرن الحادي عشر لبني خالد، وقد بنى رئيسهم براك بن غرير الحميدي قصراً في القرين، والقصر في اصطلاح ذلك الزمن يسمى الكوت، وقد بناه لإقامته أيام الربيع إذا انتجع تلك الناحية.

ولبراك أيضًا قصر صغير على الساحل جعله مخزنًا للأزواد التي ترد لهم من البصرة بطريق البحر، وسمي ذلك القصر بالكويت تصغيراً وتمييزاً عن الكوت مقر الحاكم.

وفي ذلك القرن كانت القرصنة والحروب القبلية منتشرة على ضفاف خليج فارس من عمان إلى العراق أدت إلى عدة هجرات لسكان السواحل في عمان وقطر والبحرين إلى سواحل فارس والأهواز، ومن تلك الهجرات هجرة بني عتبة إلى الكويت، ولا تزال أسبابهما غامضة، والرئاسة فيهم لآل صباح، فنزلوا بقرب الكويت رغبة منهم في الساحل؛ لأنهم يحترفون الملاحة في النقل، والغوص على اللؤلؤ، وصيد الأسماك، فصاروا يدعون بأهل الكويت.

وما زالت الكويت في نمو مطرد حتى صار الكوت محلة من محلات الكويت» انتهى.

الرشيد نجداً بأسرها، كانت سياسته احترام حياد الكويت ضمن منطقتها، فظلت على وئام مع جميع من تولى نجداً.

وفي سنة ١٣١٣ كان الحكم في الكويت مشتركًا بين محمد ومبارك وجراح أبناء صباح بن جابر[1]، فكانت شئون [شؤون] البادية والأمور الحربية بيد مبارك الأوسط، والمالية بيد جراح الصغير، ولمحمد الكبير الهيمنة على الجميع، ولكن الخلاف ظل يتفاقم بين مبارك وأخويه إلى أن تحول إلى عداء ومشاحنات، فاضطهاد من الأخوين لمبارك، وتقتير عليه في مصروفاته التي تقتضيها إدارته حتى ضاق من ذلك ذرعًا، فأوقع بأخويه، وقتلهما، واستقل بالحكم، وفر أبناء المقتولين إلى بلد الزبير، وتبعهم خالهم يوسف بن عبدالله آل إبراهيم، وكان أكبر مثرٍ في الكويت، ولديه أملاك واسعة في البصرة، وله جاه كبير، وزاد نفوذه بمصاهرته لآل صباح، وظل يتشبه بالأمراء، ويعيش عيشتهم، وله مطامع كبيرة قد لا تقتصر عن استلام زمام حكم الكويت من أصحابه آل صباح، فسنحت له الفرصة بمقتل محمد وجراح، فهب يوسف للمطالبة بدمهما آخذًا بيد أبناء أخته[2] أولياء الدم المسفوك.

---

(١) في هامش النسخة ب: «أمهم لولوة بنت محمد بن ثاقب بن وطبان بن مرخان جد آل سعود».

(٢) في النسخة ب تعديل فيه: «آخذًا بيد أبنائهما أقرباء. . .» وأحيل إلى هامش جاء فيه: «قربى يوسف بن إبراهيم لأبناء المقتولين بعيدة، فأولاد محمد وأولاد جراح أماهم أختان ابنتا علي الصباح وأمهما بنت عيسى آل إبراهيم، أي عمة يوسف أخت أبيه عبدالله بن عيسى».

أعلن يوسف مطالبته[1]، وناصب مباركًا العداء، واستعان بثروته على تنفيذ مآربه، فجهز حملة بحرية من البصرة حاول أن يستولي بها على الكويت على حين غرة، ولكن الريح عاكسته، ففشل[2]، فلم يألُ جهدًا في الكيد لمبارك، وتفنن في وسائل الإغراء به والدسائس ضده عند الحكومة العثمانية وأمراء الساحل العرب، خصوصًا قاسم بن ثاني[3] الذي لم يخف عطفه على قضيته، فأرادت الحكومة أن تستولي على الكويت؛ مما اضطر مباركًا إلى الالتجاء لحماية الإنكليز، فعقد معهم معاهدته المعلومة.

وكان محمد الرشيد أكبر أمراء العرب ذلك الوقت واقفًا على الحياد

---

(١) زاد في النسخة ب: «بدم عثمان».

(٢) زاد في ب ما يلي: «على أن يوسف قد خدم مباركًا في قيامه هذا؛ لأن أهل الكويت يدركون مآربه من وراء هذا القيام، وبالرغم من تنكرهم لفعلة مبارك، فإنهم لا يميلون إلى إخراج الحكم عن آل صباح، فلذلك التفوا حول مبارك وآزروه برغم نقمتهم عليه، ولو أن يوسف ترك أبناء المقتولين يثأرون لأنفسهم بأنفسهم لكانوا من الفوز على قاب قوسين. وتأتي الرياح بما لا تشتهي السفن».

(٣) في هامش النسخة ب ما يلي: «في سنة ١٣١٠هـ أرادت الدولة العثمانية ضم قطر إلى الأحساء ضمًا فعليًا، وجهزت عليها جنودًا بطريق البحر بقيادة محمد حافظ باشا، وأمرت مباركًا الصباح أن يمشي بعربانه وقبائل النقرة على قطر، ولكن حافظ باشا تعجل الأمر، فحارب قاسم بن ثاني في وقعة صبحا، وانهزم، واستسلم لابن ثاني، وكانت الحملة البرية بقيادة مبارك الصباح قد وصلت إلى سلوة [سلوى]، فلما بلغتهم أخبار وقعة صبحا عادوا أدراجهم، فلا غرابة إذا رأينا ابن ثاني يعطف على يوسف بن إبراهيم، ويناصره».

إزاء هذه المشكلة التي اعتبرها داخلية لا تعنيه برغم وسائل يوسف الكثيرة إلى أن توفي سنة ١٣١٥، وتولى بعده ابن أخيه عبدالعزيز بن متعب الرشيد. وعبدالعزيز المتعب مزيج من البارود والكبريت والحديد حكم «بالحافر وصنع الكافر»[١]، فيه الشجاعة إلى حد الهوس والجلد، وقوة البأس وشدة الغضب والحقد، وليس فيه شيء آخر من أخلاق الأمراء لتدبير المملكة، فهو دائمًا يحكم السيف قبل السياسة، وشجاعة الشجعان قبل الرأي والتروي، فلجأ إليه يوسف؛ لأنه الباب الوحيد الذي بقي أمامه، فآواه، وأكرمه، فكانت بوادر عداء قابلها مبارك بمثلها، وشمر الأردان لبث روح الثورة على ابن رشيد في نجد.

وقعة الصريف:

كان مبارك الصباح قد قضى على روح الاستياء التي لازمت أوائل حكمه من الناقمين عليه قتل أخويه، وذلل العقبات التي اعترضته من دسائس يوسف آل إبراهيم، وأمن جانب الحكومة التركية بعد أن شملته بريطانيا بحمايتها، وهذه الحماية عن الدول والمهاجمات البحرية. أما الجهة البرية فلمبارك أن يتصرف بغزوها، وعليه تحمل تبعتها لوحده. أو بعبارة أخرى: إن معاهدة الحماية أطلقت يد مبارك مع نجد والبادية.

---

(١) هذه العبارة كتبها ابن متعب إلى أمراء نجد لأخذ البيعة له: «ومن امتنع فليس إلا الحافر وصنع الكافر». وصنع الكافر هي البنادق؛ أي الخيل والسلاح (المؤلف).

وكان الإمام عبدالرحمن الفيصل يومئذ في الكويت، فتعاهدا على محاربة ابن رشيد[1]. وبذلك حصل مبارك على حليف قوي بعصبيته وأنصاره في نجد بعدما ذاق أهل نجد من حكم آل رشيد الأمرين، وهذا الحلف جمع بين القوة الأدبية المعنوية في شخص الإمام عبدالرحمن، وبين القوة المادية في شخص مبارك، فاتحدت القوتان السالبة والموجبة.

---

(١) جاء في النسخة هامش ب ما يلي: «كتب الإمام عبدالرحمن إذ ذاك كتابًا إلى السيد رجب النقيب بتاريخ ربيع الثاني سنة ١٣١٨هـ يخبره فيه بخروجه، وطلب منه أن يستعطف والي البصرة في أمور ذكرها في كتابه، وهذا نصه: «ما يخفى شريف علمكم قدم خدمتنا للدولة العلية أدامها رب البرية من وقت الآباء والأجداد وتعديات ابن رشيد على بلداننا وعشائرنا وظلمه إياهم وهو ليس له حق في ذلك، وبمقتضى تعدياته وظلمه أكثر علينا أهل نجد الإلحاح أن نتوجه لأجل استنقاذهم من يده، وتوجهنا لذلك فنرجو من تفضلاتكم تسترحمون لنا من حضرة والي البصرة أن يكتب لابن رشيد أن لا [ألاّ] يتعرض لنا ولا يحرك أحداً من عشائره علينا حذر أن تقع فتنة قتل ومقتول وسفك دماء المسلمين وهو السبب في ذلك.

ونحن خدام الدولة قديين، وعلى هذا عهد الله وميثاقه أننا لا نزال نؤدي الخدمات اللازمة لحضرة أمير المؤمنين أدام الله مجده وعزه، ونحامي أتم المحامات على جميع أطراف الدولة العلية الأحساء والقطيف وعشائرهما».

(تاريخ الكويت جزء ٢ حاشية ص ٦٦ - ٦٧) على أن عبارة الكتاب تدل على أنه من إملاء مستشاري مبارك المتحذلقين في الأسلوب العثماني، وأنه من جملة الخطط المرسومة» انتهى، و «تاريخ الكويت» المشار إليه مؤلفه خزعل، ومضمون الخطاب محال الوقوع، وبخاصة فيما يخص بموقفه من ابن رشيد.

كاتب مبارك آل مهنا وآل سليم أمراء القصيم[1]، فاستجابوا له سراً وأتته البوادي الساخطة على سياسة ابن متعب: مطير والعجمان وآل مرة، وانضم إليه سعدون بعشائر المنتفق[2]، فخرج من الكويت بجيش جرار يناهز العشرة آلاف مقاتل تقابله بلدان نجد بالتسليم والترحيب مستبشرة مؤملة بعودة حكم آل سعود، وكان عبدالعزيز بن عبدالرحمن في العشرين من عمره، فطلب أن يذهب على رأس سرية، ليحتل الرياض، فأذن له[3]، فاحتلها بعد يومين، ولكن حامية ابن رشيد[4] تحصنت في القصر، فأقام على حصارها[5].

كل هذا وجيش الأحلاف يتقدم وابن الرشيد يتقهقر إلى أن وقعت المعركة، فالتقى الجمعان في ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣١٨ على الطرفية حول الصريف بالقرب من مدينة بريدة، فانهزم الأحلاف برغم كثرتهم

(١) تذكر بعض المراجع المتداولة أن انضمام آل مهنا - أمراء بريدة - ، وآل سليم - أمراء عنيزة - إلى جيش مبارك تم في الكويت «وكانوا حينذاك جالية في الكويت». ابن هذلول، تاريخ آل سعود، ص ٥١ . وفي النسخة ب أثبت اسمي آل مهنا وآل سليم، ثم شطبه، وكتب مكانه «أهل القصيم».

(٢) في النسخة ب: «وصحبه الإمام عبدالرحمن آل فيصل، وآل سليم أمراء عنيزة، وآل مهنا أمراء بريدة».

(٣) زاد في النسخة ب: «فانفصل عنهم من ماء الشوكي».

(٤) في النسخة ب: «وأميرها عبدالرحمن بن ضبعان» وكتب بعده في الحاشية: «واستولى آل سليم على عنيزة، وآل مهنا على بريدة».

(٥) زاد في النسخة ب: «وحفر نفقًا تحت الأرض؛ لينسف القصر».

أمام حملات شمر المتحدة، وتمت الهزيمة، ونجا مبارك بالفلول إلى الكويت[1].

وهنا ظهرت طباع ابن متعب الشرسة بأجلى مظاهرها، فتتبع الفلول يقتلهم صبرًا، ونكل بأهل نجد تنكيلاً فظيعًا، وعمل أعمالاً مروعة[2].

ولما بلغ عبدالعزيز خبر الهزيمة وهو يحاصر قصر الرياض غادرها إلى الكويت بعد أن أقام فيها أربعة أشهر.

ولقد كثرت التقولات في أسباب الهزيمة، ولكن السبب الحقيقي أن جيش مبارك كان كالكشكول، جمع فأوعى، وداؤه في معدته؛ هم البدو الذين انتهبوا المعسكر على ما يقال، وفروا بغنيمتهم.

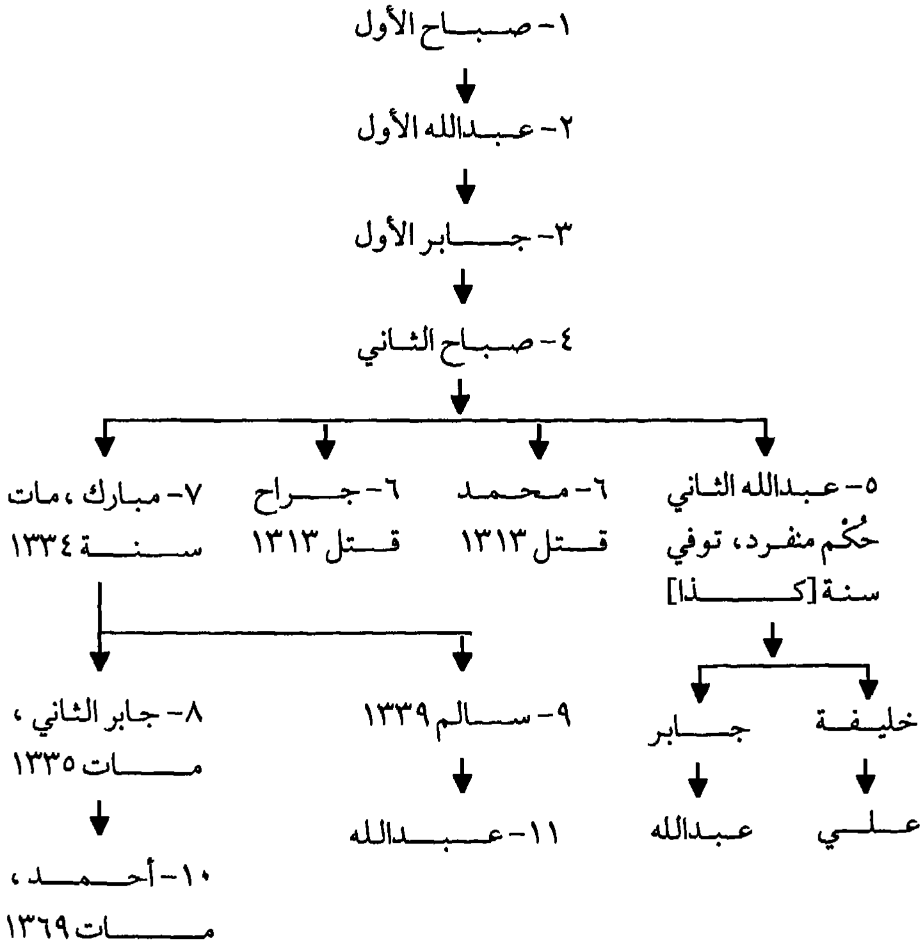
تلك هي وقعة الصريف أو الطرفية أخت المليدة [المليدا]، فقد فجعت كثيراً من العائلات في الكويت، وأضرت بكثير من أهل القصيم، أخت المليدة [المليدا] في مفعولها وضدها في نتائجها، فإن هزيمة الأحلاف ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦] صانت جزيرة العرب من الحماية الإنكليزية، والإنكليز لم يسمحوا بتبسط مبارك الخارجي في جزيرة العرب في الوقت الذي حالوا فيه دونه ودون الحروب الأخرى في الخارج إلا ليجعلوا حمايتهم عليه تمتد أينما سار، وتشمل كل بلد من

(١) زاد في النسخة ب: «بعد أن فقد أخاه حموداً وابن أخيه خليفة بن عبدالله الصباح وكثيراً من أهل الكويت الحضر؛ لأنهم الذين تلقوا الصدمة، واستحر فيهم القتل بعد أن فر البدو، وكثير منهم قتل صبراً بسيف ابن رشيد».

(٢) في النسخة ب: «مما عكست عليه نتائج انتصار».

الجزيرة يخضع له، وجاء ابن متعب المنتصر في ميدان الحرب يهزم نفسه في ميدان السياسة بتنكيله بأهل نجد ذلك التنكيل المريع حتى انعكست نتيجة نصره عليه[1].

(١) في حاشية النسخة ب رسم المؤلف شجرة آل الصباح بالشكل التالي:



النــواة الثانية :

تكبر الشجرة فتثمر، ثم تسقط منها نواة؛ لتكون فيما بعد شجرة تحل محلها، وهكذا شجرة آل سعود المباركة، فتركي الذي استعاد ملك آبائه بسيفه، خلف عبدالعزيز الذي حذا حذو جده، وبالسيف استعاد ذلك التراث المقدس.

لم يكن عبدالعزيز يفكر في غير الرياض منذ أن غادرها مع والده إثر وقعة المليدة [المليدا]، وبهذا التفكير أجاب عيسى بن علي على سؤاله، وبهذا التفكير قاد حملته من الشوكي، وحاصر حامية ابن رشيد في الرياض، ولم يكن ذلك الإخفاق ليفل من عزمه أو يثبط من همته، مع أن وقعة الصريف كادت توصل اليأس إلى أبيه وإلى الشيخ مبارك، أو على الأقل أظهرت لهما الفوز أبعد منالا مما كانا يظنانه، ولكن عبدالعزيز ألح ولسان حاله يقول:

ونحن أناس لا توسط بيننا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر[1]

ومن الذي يدخل على الأسد عرينه؟ حقًا إنه في ذلك الوقت قلَّ أن يجد الإنسان من يشد عضده ويشاركه في تذوق طعم الموت، فيدخل معه إلى ذلك العرين.

---

(١) البيت لأبي فراس الحمداني، وفيه: لا توسط عندنا. وهو الأنسب. ابن أيدمر، الدر الفريد ج ٥ ص ٣٣٨.

و : **إذا عظم المطلوب قلّ المساعد**[1]. والصعوبة كل الصعوبة في أن أهل الرياض قد يترددون هذه المرة خشية أن تخفق الأمنية كما أخفقت أختها قبل عام، على أن هناك بعضًا من آل مقرن ومن خدم آل سعود المخلصين لا يتجاوزون الأربعين نفسًا كانوا باذلين نفوسهم للتضحية، وعليهم كان معول عبدالعزيز.

وقفت أمام المستحيل تهزه　　　وكل يقول الفوز عنقاء مغرب

وكلك آمال وكلك عزمـــة　　　وغيرك من ذكر اسمها يتهيب

أربعون[2] رجلاً أعطاهم الشيخ مبارك أربعين بعيراً، وزودهم بالسلاح والزاد وعلى رأسهم القائد الشاب. خرجوا ليقاتلوا عبدالعزيز المتعب الذي هزم عشرة آلاف في وقعة الصريف، ولكن من شعاره "الصدر أو القبر" لا يبالي بهذه العقبات.

خرج عبدالعزيز يؤم الجنوب، فانضم إليه كثير من عربان البادية بغية الكسب، وكانت الإغارة على قحطان أول أعماله، فغنم منهم مغنمًا، وذهب إلى الأحساء؛ ليمون جيشه، وأغار ثانية، فغنم، وتسامع به العربان، فالتحق به جمع منهم حتى بلغ من معه ألفًا ونيفًا، ولكنهم لم يلبثوا أن تفرقوا عنه؛ لأن البدو لا يؤثرون إلا الغنيمة الباردة.

---

(١) عجز بيت للمتنبي في ديوانه بشرح البرقوقي ج١ ص ٣٩٣، وصدره:
وحيد من الخُلاَّن في كل بلدة.

(٢) على حاشية النسخة أكتب: سبعون. وهو خطأ.

أما وقد تنمرت لهم حكومة الأحساء بناء على طلب ابن رشيد، فقد انفضوا من حوله. تبخر الماء، وبقي الملح، فلم يصف عبدالعزيز منهم إلا على أربعينه الأول وعشرين آخرين، فمضى بهم إلى يبرين[1] اتقاء لحكومة الأحساء، وخاف أبوه عليه من هذه المخاطرات، فألح عليه بالرجوع، فلم يمتثل، وصمم على امتلاك الرياض أو الموت دونها.

وكان ابن رشيد بعد استيلائه على الرياض قد هدم سورها كله، وتركها عزلاء، ولم يبق إلا على القصر الذي يسكنه الأمير والحامية، وهو حصن عال ذو سورين محكمين، وأميرها مولد اسمه عجلان[2] ومعه تسعون من أتباع ابن رشيد، والدرس الذي تعلمه عبدالعزيز من تجربة السنة الماضية جعله يدرك أن الاستيلاء على بلدة الرياض لا يفيد ما دامت الحامية في القصر. ما بالك والجند الذين معه لا يكفون لمحاصرة القصر، فأعمل الحيلة لأخذ القصر على حين غرة حتى يتيسر له الاستيلاء على البلدة كلها.

جاء عبدالعزيز برجاله الستين، ونزل بقرب الرياض، وترك عشرين

---

(١) الأصوب أن الملك عبدالعزيز انتحى إلى جهات يبرين دون التوغل فيها، ثم اختفى في رمال الجافورة بعد أن ضايقته الدولة العثمانية، والجافورة هي المعنية - فيما يبدو- بقول الملك عبدالعزيز في روايته المشهورة عن استرداد الرياض: «أخذنا أرزاقًا، وسرنا وسط الربع الخالي».

(٢) في النسخة ب وحاشية أ: «واسمه عجلان بن محمد آل عجلان مولى من مولدي حائل».

منهم عند الرواحل، ودخل بالصفوة الأربعين وفيهم أخوه محمد بن عبدالرحمن، وانضم إليهم ابن عمه عبدالله بن جلوي بن تركي[1]، فترك أخاه محمداً وثلاثين معه في البساتين خارج البلدة حتى لا تلفت الأنظار كثرتهم أثناء الدخول، ودخل بالعشرة؛ لينفذ غرضه الأسمى، وكانت هناك بيوت تلاصق جدار الحصن الخارجي، فاستفتح على أحدها بحيلة، ودخل، ومذ عرفه أهل البيت فرحوا به، ورحبوا، فتسلق منه إلى البيت المحاذي للحصن، وفي جواره بيت تسكنه زوجة عجلان، وهي من أهل الرياض[2]، وعجلان يختلف إليها بعض الليالي، ولحسن حظه لم يكن تلك الليلة عندها.

دخل عليها عبدالعزيز فعرفته، وسألها عن موعد خروج زوجها، فأخبرته، وعند جهينة الخبر اليقين[3]، وعجلان لا يخرج من الحصن الداخلي إلا بعد شروق الشمس، فيأتي إلى بيت زوجته لشرب القهوة، وما بين البابين فسحة واسعة معدة لربط الخيل.

فأدخل عبدالعزيز زوجة عجلان ومن معها من النسوة في إحدى

---

(١) في حاشية النسخة ب تعليق بخط مغاير فيه: «أبناء جلوي: عبدالعزيز، وفهد، وعبدالله، وعبدالعزيز بن تركي الذي يلقب أبو ذعار».

(٢) في هامش النسختين أ و ب: «اسمها موضي بنت ابن حماد». وقد نقل الزركلي هذا النص وأشار إلى أن اسم موضي خطأ، صوابه: لولوه - مخفف من لؤلؤة - . الزركلي، شبه الجزيرة ص ٩١ هامش ١.

(٣) الميداني، مجمع الأمثال ج٢ ص ٣١٩.

الغرف، وأوصد الباب عليهن موصيًا إياهن بالصمت، وأرسل على أخيه ومن معه، فأتوا، واجتمع الجميع في البيت منتظرين خروج عجلان من القصر.

إنها لساعات طوال، ساعات الانتظار التي تولد القلق والتململ في النفس، ولكن عبدالعزيز وجنده لم يتأثروا بذلك الموقف الرهيب، فقد أوقدوا النار، وصنعوا القهوة، وشربوها بعد أن أكلوا شيئًا من التمر[(١)]، وناموا كأنهم في بيوتهم آمنين[(٢)] مع أن صوتًا واحدًا من إحدى أولاء النساء كاف للقضاء عليهم. هو النوم مع الأسد في زُبْيَتَه[(٣)]. أزفت الساعة، وألقت الشمس أشعتها على أعالي الجدران، وتحدرت منها إلى الأرض، عندها فتح باب القصر، وخرج عجلان وفداويته[(٤)]، وأغلق الباب، ولم تبق إلا الخوخة[(٥)] مفتوحة، وكان على عبدالعزيز أن ينتظر حتى يبتعد

(١) زاد في النسختين أ و ب: «وجدوه هناك».

(٢) زاد في النسخة ب يقول المؤلف «سمعت من المرحوم الأمير عبدالله بن جلوي حاكم الأحساء وهو يعرِّف الشجاعة: (الشجاع الذي يكون في الحرب وهو كأنه في عرضة). هذا كلام واحد من أولئك الأربعين المجازفين».

(٣) الزُّبْيَة: الرابية التي لا يعلوها الماء، وفي المثل: قد بلغ السيل الزبى، وسميت زبية الأسد زبية لارتفاعها عن المسيل، وقيل: سميت بذلك لأنهم كانوا يحفرونها في موضع عال. ابن منظور، لسان العرب ١٤ ص ٣٥٣ (مادة: زبى).

(٤) الفداوي: الجندي وخادم الأمير مطلقًا، مأخوذ من فدائي (المؤلف). وزاد في هامش النسختين أ و ب: «ويسمى أيضًا زقرتي، وأصله من كلمة زكرتاه الآشورية، وهي القلعة أو الحصن التي يسكنه الجنود».

(٥) الخوخة أو الفرخة: نافذة صغيرة في الباب لا يدخل منها إلا الواحد (المؤلف).

عجلان عن الحصن قاصداً البيت الذي هم فيه، ولكن للشباب تسرعه؛ إذ لـم يمتلك نفسه، بل خرج من البيت عاديًا شاهراً سيفه[١] ومعه خمسة عشر رجلاً يعدون نحو عجلان ومن معه، فأحسوا بالشر، وولوا هاربين يريدون ولوج الحصن، وكان سباق من لا يجلي فيه فهو هالك، سباق رهانه الحياة وهي أثمن شيء، ولم يكن مفتوحًا من الباب سوى الخوخة، فأطلق عبدالعزيز بندقيته[٢] على عجلان، فجرحه، وأدركه، وقد كاد يدخل، فَجَرَّه برجله، وتصارع الخصمان، وتجالدا، وكان رجال عجلان قد صعدوا إلى البروج وأخذوا يطلقون بنادقهم على الهاجمين، فقتلوا اثنين، وكاد الهاجمون يتقهقرون، وأفلت عجلان لولا أن بادره عبدالله بن جلوي فولج الباب وراءه، فقتله داخل الحصن، وفتح الباب، فدخلوا كلهم، وفتكوا بالحامية، ونادوا: «الملك لله، ثم لعبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل».

وكانت بشرى عظيمة هنأ بها أهل الرياض بعضهم بعضًا، وأقبلوا على عبدالعزيز يهنئونه، ويبايعونه، ونفروا كباراً وصغاراً لبناء السور القديم، فأتموا بناءه.

هذا وابن رشيد مقيم على حفر الباطن، ولما بلغه خبر سقوط الرياض

(١) في النسخة ب شطب على «شاهراً سيفه» وكتب فوقه بخط مغاير: «وبيده بندقية ذات رصاصة واحدة». وهي الأصوب كما يفهم من سياق القصة.

(٢) في النسخة ب تعليق بخط مغاير: «حكاية السيف». إشارة إلى الخطأ الذي تم التنبيه عليه في الهامش السابق.

لم يأبه له؛ لأنه كان يحاول مهاجمة الكويت والاستيلاء عليها وهي المهد، فإذا قضى عليها لا تلبث الرياض أن تستسلم بذاتها. هو الغرور الذي لا يحسب للأشياء حسابها، فأصبح ميدان العمل واسعًا أمام الشاب الفاتح، فأتم بناء السور، واستولى على بلدان نجد الجنوبية، وشنَّ الغارات على البوادي الخاضعة لابن رشيد من قحطان وغيرها، وجاد مبارك بالإمداد بعد أن تأكد من كفاءة قوة عبدالعزيز إزاء خصمه اللدود، وأخذ أهل البلدان الشمالية يكاتبون عبدالعزيز بالولاء؛ لأن الناس قد ملّوا حكم آل رشيد وغطرسة أمرائهم وظلمهم مما نفَّر القلوب منهم.

وحبطت مساعي ابن رشيد في احتلال الكويت، ولم يحصل على المساعدة التي طلبها من الحكومة التركية؛ لأنها تدرك معنى الحماية المشمولة بها.

وفي الشهر السادس لسقوط الرياض وبعد لأي ما تجهَّز عبدالعزيز المتعب من حائل ليحاصرها، وفي هذه الأثناء توجه الإمام عبدالرحمن من الكويت إلى الرياض، فدخلها في يوم مشهود.

أتى ابن رشيد إلى المحمل، فأقام فيه خمسة وسبعين يومًا، ولم يصنع شيئًا، وعاد إلى الحفر وقد قرر تطويق الرياض بالحصر الاقتصادي، وقطع ما بينها وبين الأحساء والكويت من المواصلات، فكان عليه أن يقيم على [الحفر](١) سنينًا [سنين] حتى يؤثِّر عليها بحصاره، ولما رأى عقم خطته

(١) زيادة توضيحية من النسختين أ و ب.

توجَّه إلى الرياض[1]، وهناك في الخرج التقى مع خصمه، فجرت عدة

(١) كتب في النسخة ب بخط مغاير: «ينبغي التفصيل» فأضاف المؤلف في الحاشية ما يلي: «فلما بلغ عبدالعزيز خبر مسير ابن رشيد إلى الرياض رسم خطة بارعة تدل على ما أوتيه من براعة في رسم الخطط الحربية، فقرر بقاء والده الإمام عبدالرحمن ومعه ألف مسلح في الرياض للدفاع عنها فيما إذا هاجمها ابن رشيد، وحينئذ يسرع عبدالعزيز، فيضربه من الخلف، فيقع بين طبقتي الرحى، وإلا فإن نجاح الخطة المرسومة يقلب الموقف رأسًا على عقب.

وقد خرج ببقية الجند من الرياض، وأشاع أنه خرج مغاضبًا لوالده الذي يميل إلى مسالمة ابن رشيد، وقد فعلت هذه الإشاعة فعلها، وقد مضى عبدالعزيز إلى الخرج، ومنها إلى الحوطة وأهلها بنو تميم مرتبطون مع ابن رشيد، فجمع رؤساءهم، وأثار فيهم نخوة الجوار والاستجارة، وذكرهم بماضي آبائه وأجدادهم معهم، وولائهم لآل سعود القديم، فلم يؤثر فيهم، فهددهم بسدسه وأنه سيبدأ بهم قبل ابن رشيد، فلم يعبئوا[يعبؤوا] بتهديده؛ لما هو مشهور عنهم من الصلابة في جميع شئونهم[شؤونهم].

ولكن الأصفر الرنّان في الليل فعل فعله السحري، فقد فرق بينهم، ففرق ما بينهم، فأصبحوا وقد تبدلت أفكارهم، وجاؤوا [وجاءوا] يعاهدونه على المسير تحت لوائه لمحاربة المشهدي ابن رشيد، ومشى معه نحو ٨٠٠ مقاتل والـ٨٠٠ من أهل الحوطة يعادلون ٨٠٠٠ ، فأتى الدلم، ودخل القصر، وقد اطمأن إلى القوة التي جمعها، وكان قد أعياه التعب والكلال والسهر، فقد قضى عدة ليال بلا نوم فما كان منه إلا أن أغلق باب القصر، وعمد إلى ودك ممزوج بملح، فدهن به جسده، وغرق في نوم عميق، أفاق بعده وقد استجم واستعاد نشاطه، فاغتسل، وأمر بذبح ناقتين فأطعم جنده، وكانت طلائع ابن رشيد قد ظهرت، فقد خدعته الإشاعة وصدقها؛ ولهذا ترك الإمام عبدالرحمن المسالم، وطلب ذلك الشاب العنيد الذي لاقاه بذلك الجيش اللجب الفتاك، فلم تمض سويعات على المعركة حتى ولّى ابن رشيد وقومه الأدبار. =

وقعات ومناوشات باء فيها الشمري بالفشل والخذلان، وكثرت الوقائع وتعددت الغزوات والمناوشات طيلة سنتي ١٣٢٠ و ١٣٢١ كان النصر فيها حليفًا لعبدالعزيز، وأهمها وقعة (جوّ لبن)، فقد كان ابن متعب مقيمًا على الحفر يحاول الهجوم على الكويت، فجاء عبدالعزيز لنجدتها بعشرة آلاف مقاتل، فالتقى بجابر بن مبارك ومعه أربعة آلاف، فتظاهر ابن رشيد بالرجوع إلى حائل، ولما بلغهم خبر رحيله هجموا على حلفائه مطير وهم على جوّ لبن، فأخذوهم عن بكرة أبيهم.

وكانت إشاعة رجوع ابن متعب إلى حائل خديعة؛ لأنه جدّ السير إلى الرياض؛ ليهاجمها على غِرة وفيها الإمام عبدالرحمن، فاستشعروا به بعد أن كاد يداهمهم، فصدوه، وبعد مناوشات لم يظفر منها بطائل عاد خشية أن يستولي عبدالعزيز على القصيم.

= والحق أن هذه المعركة تعتبر الحجر الأساسي لهذا البناء المشمخر، فقد افقدت ابن رشيد هيبته وأيأسته من محاولة غزو الرياض غزواً جديًا، وجعلته يكتفي بالدفاع عما تحت يده في الشمال، وجرت عدة وقعات إلخ» انتهى.

وعلّق المؤلف على كلمة المشهدي بقوله: «تتصف حائل بكثرة تجار أهل النجف (المشهد) لقربها من العراق، وتطور معنى كلمة مشهدي عند أهل نجد إلى شيعي».

وعلى هامش الحاشية عند الكلام عن أهل الحوطة كتب ما يلي: «يقال: إنه جاءهم بكتاب من الشيخ عبدالله بن عبداللطيف، وهم مشهورون بولائهم لآل الشيخ، وكانت الرئاسة بين محمد أبو شيبة من آل حسين، وبين آل مرشد وزعيمهم عبدالله بن راشد، وفيصل وجعان الراس، فأمره أبو شيبة أن يمضي إلى آل مرشد تلافيًا للشقاق، وبوصول رسول ابن رشيد أمره أن يأخذه من مجلسه، ويقتله في السوق».

ومنها وقعة (ابن جراد)، وحسين ابن جراد رئيس سرية أرسلها ابن رشيد، وقد قتل على السر مع سريته. وهناك وقائع لا تحصى مع سرايا ابن رشيد وحامياته في سائر بلدان الوشم وسدير والقصيم.

وأخيرًا تتوجت أعمال الفاتح الشاب بخضوع القصيم كله لإمارته أوائل سنة ١٣٢٢، وبذلك تم له تملك نجد كلها ما عدا جبل شمر[١].

وجعلنا لكل شيء سببًا[٢]؛ ولهذا الفتح المبين أسبابه الكثيرة، وأهمها: أن آل رشيد بعد استيلائهم على نجد لم يحسنوا السيرة، وبالغوا في القسوة والتنكيل في أهل العارض خاصة، وفي أهل القصيم بعد وقعة الصريف، فانحرفت عنهم القلوب وأبغضتهم الضمائر:

وللـه فـي آل السـعود إرادة   لكي يعرفوا من غيرهم فيحببوا

ومنها عداء ابن رشيد لمبارك الصباح بلا مبرر، وأخذه بيد يوسف بن إبراهيم مع ما يراه عليه من الإدبار ونكد الطالع في جميع محاولاته، فعمل مبارك ضده أعمالاً كانت نتائجها هامة في سبيل القضاء عليه، أضف إلى ذلك سوء تدبير ابن متعب وتهاونه في الأمر في بدئه إلى أن اتسع الخرق على الراقع[٣]، ولكن هذه العلل والأسباب وإن هي هيأت الجو للعمل،

---

(١) من هنا إلى نهاية الفقرة لم يرد في النسخة ب.

(٢) اشتهرت هذه الكلمة على أنها آية من القرآن، وهي تحريف في اللفظ مع اختلاف المعنى لقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤].

(٣) العسكري، جمهرة الأمثال ج١ ص ١٦٠.

فلا بد لهذا الجو من رجله. رجل عامل يتذرع بنفس الهمة والشجاعة والمضاء والإقدام والصبر التي تذرع بها عبدالعزيز بن عبدالرحمن؛ ليكون من الفائزين.

البكيريـــة:

آل سعود - أو الوهابية - بُعْبُع السلاطين من آل عثمان، ومن تقاليد سياسة الدولة العثمانية القضاء على هذه الإمارة واستئصالها من جذورها، وكانت تظن بحليفها ابن رشيد الكفاءة لإخماد حركة ابن سعود وخنقه في مهدها أيام كان يلحّ عليها بطلب المساعدة الفعلية للاستيلاء على الكويت، فكانت تعده وتسوفه وتماطله؛ إذ لم تكن تعطف عليه العطف كله إزاء الكويت، ومن سياستها استرضاء مبارك بعد أن لاذ بحماية إنكلترا؛ لتصلح الغلطة التي سببت ذلك، ولأن مركزه البحري يهمها.

أما وقد استولى الأمير السعودي على القصيم، ودانت له نجد بأسرها، وعاد ذلك الخطر الوهابي ماثلاً أمامها، فلم يبق إلا أن تسلط عليه ثوينيًا آخر في شخص عبدالعزيز بن متعب بن رشيد الذي أخذ يحسّ بضعفه أمام خصمه القوي النشيط، فأمَّ العراق لائذًا بحليفته مستنجدًا بها، فأمدته بأحد عشر طابور [طابورًا] من الجنود، ومعها كثير من المدافع والعتاد والذخيرة والذهب، والتفت حوله شمّر بأسرها - شمّر العراق وشمّر نجد - فضلاً عمن يتبع مثل ذلك الجيش الجرار من القبائل الطامعة بالسلب والنهب، وكان ابن سعود لا يزال في القصيم، ولما بلغه خبر ابن

رشيد استعد لمقابلته بمن معه من القبائل وحضر العارض والقصيم وسائر بلدان نجد، وتقابل الجيشان على البكيرية إحدى قرى القصيم غرّة ربيع الثّاني سنة ١٣٢٢، وكانت وقعة هائلة، قُتِل فيها من أهل الرياض خاصة ستمائة وخمسون رجلاً[١]، ومن الباقين ما يتمم الألف، ومثلهم من الجنود التركية، وكثير من أهل حائل وشمّر[٢].

كانت ليلة هائلة زادها الظلام هَوْلاً انسحب كل من جهته - بعد أن انتهب معسكر الآخر - شبه منهزم، وكان عبدالعزيز قد ترك محل الوقعة نحو الجنوب؛ ليستنفر أهله، فبلغته جليّة الخبر في الطريق، ولحقته كتب أهل القصيم يعاهدونه، فعاد ولم يلبث أسبوعًا إلا وقد لمّ شمله، واجتمع

---

(١) في النسختين أ و ب: ستمائة وستون رجلاً.

(٢) كتب في النسخة ب بخط مغاير: «تفصيل ذلك»، فجاء في الحاشية ما يلي: «وتفصيل الوقعة أن عبدالعزيز جعل أهل العارض وهو معهم لمقاتلة شمّر مع ابن رشيد، وأهل القصيم ومن لفّ لفّهم لمهاجمة العساكر التركية، ولكن تلاً عاليًا حجب أهل القصيم وضللهم الظلام عن الترك، فاجتمعت شمر والترك كلّهم على أهل العارض، فتلقوا الصدمة وحدهم.
وبعد أن فني أكثرهم انسحبوا ومعهم عبدالعزيز، وظنوا أن الهزيمة وقعت على الجميع، ولكن ابن رشيد ما كاد يتذوق هذا النصر إلا وأهل القصيم قد ضربوه من الخلف، فوقع في حيص بيص، وانقلب النصر إلى هزيمة شنيعة، وأسفرت المعركة عن وقوف أهل القصيم وحدهم في الميدان، وكان معهم شلهوب أحد خدام عبدالعزيز المخلصين، فأرسلوه ومعه أناس منهم حتى أدركوه، فأخبروه بجلية الأمر» انتهى.

عنده في القصيم ما يناهز اثني عشر ألفًا من المقاتلين، فصمد للقاء[1] ابن رشيد وعساكر الدولة مرة أخرى على البكيرية، فوجدهم قد تركوها وحاصروا قرية الخبراء التي قاومتهم مقاومة شديدة برغم ما صُوِّب إليها من المدافع[2]، وخشي ابن رشيد أن يستولي عبدالعزيز ومن معه على معسكره وذخائره التي تركها في البكيرية، فأرسل سلطان بن حمود الرشيد بألف وخمسمائة فارس لإنقاذها، فالتقى سلطان بفرسان الجيش السعودي وهم لا يتجاوزون السبعمائة في غلس الصبح، فتصادموا، وانهزم سلطان ومن معه، واستولى عبدالعزيز على قرية البكيرية، وفتك بحاميتها[3].

ورحل ابن رشيد عن الخَبراء[4]، ونزل الشنانة، وقابله خصمه على

(١) في النسخة ب: فنهض إلى.

(٢) زاد في النسخة ب ما يلي: «وكان لابن رشيد عيون خشية أن يهاجمه ابن سعود في الليل، فعادوا إليه، وكان ابن سعود قد أقبل من عنيزة مع الوادي - وادي الرمة -، وكانت جنود من عتيبة آتية من طريق الشقيقة - نفود واقع جنوب عنيزة -، وجنود من مطير آتية من بريدة في طريق المليدة [المليدا]، وكلهم تابعون لمسير ابن سعود، فأخبروه أنهم رأوا جنودًا كثيرة من الوادي ومن الشقيقة والمليدة [المليدا]. فقال: جعلونا بين ثلاث فرق ليطوقونا. وأمر سلطان بن حمود بن رشيد أن يركب بالخيل ليناوشهم، ونظَّم الجنود لمقابلتهم، وإن من الصدف أن هؤلاء كانوا على غير ميعاد ابن سعود!» انتهى.

(٣) في النسخة ب: «وأميرها ابن نعام من أهل حايل».

(٤) زاد في النسخة ب ما يلي: «وفي طريقه مرَّ بقصر الجندلية، من قصور الرَّس، وفيها نخل كثير، وفيها أمير الرَّس ناصر بن خالد بن رشيد ليحافظ عليها لئلا يقطعها ابن رشيد، فكان ابن رشيد قد أرسل إلى أهل القصر المذكور حسين بن =

الرَّس[1]، فلجأ الاثنان إلى المناوشات والمطاولات ثلاثة أشهر حتى ملَّ الناس دوام الحرب، وكانت قبائل ابن رشيد أشد تذمرًا، فحاول الرحيل وخصمه يشاغله بالمهاجمات والمفاجآت وهو ينسحب بانتظام إلى أن كانت الوقعة الفاصلة على وادي الرمة، وكانت الجنود العثمانية أول من ولّى الأدبار[2]، وتبعها ابن رشيد، فتركوا جميع ما عندهم من الذخائر

= عساف، أمير الرَّس السابق الموالي لابن رشيد ليؤمنهم بوجهه، فأبوا، فركب عليهم المدافع، وهدم القصر، وكان حطب [حطبًا] من العرفج، فاشتعلت فيه النار، فأتاهم ابن عساف ثانيًا، فأمنهم فنزلوا، فأتى بهم إلى ابن رشيد الذي لم يف بعهده، فقتلهم صبراً قدر ٣٠ رجلاً، منهم أميرهم ناصر بن خالد. قطعوا رأسه وأرسلوه على رمح إلى الشنانة؛ لتهمتهم أنه قاتل حسين بن جراد، وكان أخوه عبدالعزيز بن خالد قد ذبح بيارقي ابن رشيد مبارك الفريخ يوم القرعا قبل المليدة [المليدا]، وبعدها كان جريحًا بالبكيرية، فأرسل إليه ابن رشيد سرية بعد تأمينه لأهل القصيم عامة، وأظهره من البكيرية، وقتله عبدالله بن مبارك الفريخ بأبيه» انتهى.

(١) في النسخة ب تعديل بخط مغاير فيه: «على قصر ابن عقيل».

(٢) كتب في النسخة ب تعليق بخط مغاير فيه: «تفصيل المعركة». فكتب المؤلف على حاشية النسخة: «كان عبدالعزيز قد برح به التعب والسهر والجوع، فأحب الاستجمام، فابتعد إلى موضع قريب، وعهد إلى أخيه محمد بن عبدالرحمن بمراقبة ابن رشيد وتعقبه أثناء الانسحاب، وما كاد عبدالعزيز يمدّ يده إلى الطعام حتى أتاه أخوه محمد وأخبره أن ابن رشيد مقيم، وقد بنى الخيام، فقال له عبدالعزيز: إنه خدعك، فقد انسحب وربِّ الكعبة. وما كادا يشرفان على الخيام حتى وجداها فارغة، وإذا بابن رشيد قد انسحب إلى وادي الرمة، فتعقبهم عبدالعزيز، واحتل قصراً هناك يسمى (بقصر ابن عقيّل) اتخذه معقلاً يتقي به قذائف مدافع الترك. =

والأسلحة والأموال والأمتعة ما لايدخل تحت حصر، فغنمه عبدالعزيز، وقسمه على معسكره.

وكانت الوقعة في ١٨ رجب سنة ١٣٢٢، وهي المعركة الفاصلة، إذ وطّدت قدم ابن سعود في نجد، وقضت على النفوذ التركي، وانهارت أول صخرة من أساس صرح آل رشيد. وبعبارة أخرى: إن ما بنته وقعة المليدة [المليدا] في القصيم هدمته وقعة البكيرية في القصيم أيضًا. والقصيم محور الدائرات ورجحة الميزان في التنازع السعودي / الرشيدي.

= وبينما كان عبدالعزيز يشرف على هذه المناوشات إذ أتاه أبو شيبة رئيس بلدة الحوطة وولده، فقال: يا عبدالعزيز، إن كان طامع [إن كنت طامعًا] في الدنيا وملاذها فنحن ما أتينا هنا إلا لحماية نساءنا[نسائنا] من جنود الترك.

فقال عبدالعزيز: اسكت، لا أمَّ لك.

قال أبو شيبة: ما أنا بساكت، وها أنا مع ابني هاجمان ومن أراد فليتبعني، فقد سئمنا المطاولات، واستل سيفه ومعه ابنه وهجما على بيوت حرب ابن رشيد، فقطعا أطنابها بسيوفهما وما شاهد السعوديون البيوت وهي تسقط حتى هجموا، ووقعت الهزيمة على عساكر الترك، فتركوا كل عتادهم، وولوا على وجوههم هائمين، وتبعتهم شمر».

وكتب على هذا النص تعليقات بخط مغاير جاء فيها بعد اسم أبو شيبة وولده ما يلي: «علي بن خريف والمذكورين من أشجع أهل وقتهم» وكتب أيضا فوق كلمة «ومعه ابنه وهجما»: «رؤساء أهل الحوطة». وبعده: «ومعه رئيس الحلوة علي بن خريف ورؤساء أهل الحوطة؛ لأن محمد بن حمد أبو شيبة عقيم ما له عيال لا ذكور ولا إناث».

وفيه بعد آخر سطر: «والهزيمة على المقوعي [لعله: القوعي] قصر على جال وادي الرمة».

مقتل ابن رشيد :

كان عبدالعزيز المتعب الرشيد قد آلى على نفسه ألاَّ يمسَ النساء، ولا يدخل حائل إلا بعد أن ينتقم من ابن سعود ويضربه الضربة القاضية. وهكذا ظل طيلة حكمه لا يعرف شيئًا من ملاذ الحكم، وقضى أيامه في البادية متنقلاً[1]، وإذا أتى حائل خيم في ظاهرها، وهو مع ذلك لا يزداد إلا قسوة كلّما ازداد ضعفًا وخابت آماله.

مرّ يومًا في إحدى غزواته بمكان يدعى (روضة مهنا) من مراعي القصيم، فوجد فيها أربعين رجلاً عجزة مسنين ومعهم أطفال يحشّون الحشيش؛ ليقتاتوا بثمنه، ولكونهم من القصيم[2] الذين ساعدوا خصمه وانتقضوا عليه أمسكهم وصفّهم صفًا، وأخذ يتلهى بقتلهم انتقامًا وتشفيًا، ولم ينظر إلى حالهم، ولكونهم فقراء عجزة لا علاقة لهم بالأمور السياسية، وكان فيهم شيخ كبير ومعه حفيد له لم يبلغ الحلم، فبكى الشيخ، وقال: أيها الأمير، إن ورائي بضع أرامل لا كافل لهن سواي وهذا الغلام، فبالله إلا ما استبقيت هذا الطفل البريء؛ ليقوم بأودهن. قدّم

---

(١) في هامش النسخة أورد بيت من الشعر العامي يقول:

«العيد عيدناه باقصى صعافيق والعيد الاخر بالحفر والدجاني

نفود في شمال نجد» انتهى.

والبيت ينسب لعبيد آل رشيد، وقبله:

متى يغرِّب جيشنا عقب تشريق متى نطالع ساق وخشوم أبانِ

(٢) في النسخة ب: من أهل القصيم.

المسكين نفسه فداء لذلك الطفل، ولكن الأمير أجاب تضرعات ذلك الشيخ بقتل الغلام على مرأى منه، ثم ألحقه به.

وهكذا تتحجر بعض النفوس، وتتجرد من العواطف الإنسانية إلى درجة لا يتصورها العقل، على أن ضميره المنزوي في أعماق نفسه المظلمة انتبه نوعًا ما فيما بعد ليعذبه عذابًا أليمًا، فلم تبرح صورة ذلك الشيخ عن مخيلته دائمًا، وكان يزوره في المنام، ويقلق أفكاره، ويؤرقها، ولم يعش بعدها إلا سنة واحدة، ثم قُتِل في نفس ذلك المكان، وصرع الظالم إلى جنب المظلوم.

وهذا الظالم الجبار لم يعدم له أنصارًا في القصيم نفسها، فإن الأغراض تسعى إلى غاياتها غير ملتفتة إلى الوسائل وماهيتها. وهكذا فإن آل مهنا أمراء بريدة أخذوا يتذبذبون بين الأميرين السعودي والرشيدي، لا حبًا بابن رشيد بل بغضًا لابن سعود - لأن الخصومة متوارثة - وسعيًا وراء تثبيت سيطرتهم إذا توازنت كفتا الأميرين، وزعيم آل مهنا صالح الحسن، وصالح الحسن من ذوي الوجوه المتعددة إذا كان للمتذبذبين وجهان فقط.

عاد القصيم مرسحًا[1] للغارات والمناوشات، إذ اغتنم ابن رشيد

(١) **المرسح**: مكان اللعب والرقص، وقد يطلق على مجتمع الناس لغير ذلك، والكلمة مولدة. وتقدم تعريفها.

غياب خصمه في قطر لإنجاد أميرها قاسم بن ثاني[1]، فعاود حملاته على القصيم، وكانت سلسلة مناوشات[2] ختمت بوقعة روضة مهنا، وكان الليل حالكًا والغيوم تطبق الجو، فتزيده ظلمة، فلم يشعر عبدالعزيز في مسراه إلا وابن رشيد على مقربة منه، فباغته، وامتزج هول الظلام بهول الحرب، وهبّ البطل الشّمري[3] وهو يزأر ويحمّس قومه، وكان الرشيديون قد تقهقروا من موضعهم وهو يحسبهم فيه بعد أن احتله السعوديون، فأتاهم ابن رشيد وهو يظنهم قومه آمرًا صاحب الراية بالتقدم[4]، وما كانت سوى راية خصمه ابن سعود، عندها عرفوه من

---

(١) في النسخة ب: «كان الشيخ قاسم بن ثاني حاكم قطر قد استنجد بعبد العزيز لقمع ثورت داخلية في قطر، فخف إليه منجداً».

(٢) في النسخة ب: «عاد عبدالعزيز لمطاردة خصمه، وطرده من القصيم وفي إحدى الليالي الحالكة الظلام، وقد أخفى تلبد الغيوم نجومها فزادها ظلامًا، كان عبدالعزيز ساريًا في جيوشه يلتمس غرة من عدوه، فلم يشعر إلا وهو على مقربة من ابن رشيد وهو مخيم في روضة مهنا فاختلط الجيشان» وكتب في الحاشية بخط مغاير: «لا بد من تفصيل المعركة على غير هذه الصورة» وجاء مكانه في الحاشية بعد شطب الأصل مايلي: «وفي أحد الأيام جاءته عيونه فأخبرته أن ابن رشيد قد أغار على. . . [كذا في الأصل] فأخذهم، وأنه نازل على روضة مهنا، وكانت عيونه قد أخبروه عن اقتراب عبدالعزيز، ولكنه استبعد ذلك، ولم يأبه لأقوالهم، فقرر عبدالعزيز مهاجمة عدوه في تلك الليلة، وترك ركائبه عند رعاتها، ومشى ومن معه على أرجلهم وكان ابن رشيد وقومه تعبين من غارة النهار، وكانت ليلة باردة حالكة الظلام».

(٣) زاد في النسخة ب: «من نومه من مذعوراً».

(٤) في النسخة ب: «من هنا يالفريخ، من هنا يالفريخ» والفريخ صاحب رايته، =

صوته، فصُوِّبت إليه أفواه البنادق، فكان من الهالكين، وكانت الوقعة في صفر سنة ١٣٢٤ .

هنالك عاد الحق نحو نصابه   لجور الأعادي جولة ثم يذهب

***

قُتِل ابن رشيد، فخلا الجو لابن سعود، ولم يبق عليه إلا اجتناء ثمر أتعابه، هذا ما يتبادر إلى الذهن، والحقيقة أن ذهاب ذلك العدو ولَّد أعداء كثيرة، وأوجد خصومًا عديدين من الأمراء المجاورين لنجد كانوا يرون في حروب أميري نجد توازنًا لازمًا لحفظ كيانهم، وما كان عطفهم على قضية ابن سعود إلا للغرض نفسه، وهو إنهاك قوة ابن رشيد، أما وقد صفا الجو لعبد العزيز فالخطر محتم، وفي طليعة هؤلاء الشيخ مبارك الصباح مؤيده بالأمس، والشريف حسين أمير مكة، وشبح الوهابية في الحجاز لا يزال كابوسه جاثمًا، وهناك خلفاء ابن رشيد المطالبون بالثأر والانتقام. فضلاً عن تعدد الفتن والاضطرابات التي أثارها آل مهنا في الشمال، والهزازنة في الجنوب، وأبناء عمه آل سعود - سعود بن فيصل - وأخوالهم العجمان، وهكذا لم يكن ليخرج من مشكلة إلا ليواجه الأخرى[(١)] .

= فعرفه السعوديون من صوته، وصاحوا بصوت واحد: ابن رشيد، ابن رشيد، فصوبوا إليه بنادقهم كلها، فكان من الهالكين، وانجلت المعركة عن انهزام شمر، وتركهم أميرهم طريحًا بين أعدائه».

(١) في النسخة ب كتب المؤلف بتوسع عن المتاعب التي واجهت عبدالعزيز بعد مقتل ابن رشيد، واستغرقت نحو أربع صفحات. وننقل هنا المعلومات الواردة في =

= النسخة ب على طولها: «وفي طليعة هؤلاء الشيخ مبارك الصباح فهو أول من يهمه توازن قوتي حائل والرياض، فقد أعان ابن سعود على خصمه أولاً ومد يد المصافحة إلى ابن رشيد بعد ذلك حتى تتعادل كفتا الميزان، وحثّ صالح الحسن أمير بريدة على مؤازرة ابن رشيد ضد ابن سعود، ولكن كاتب مبارك وكاتم سره [في الهامش: هو ملا عبدالله العتيقي] غلط غلطة كبرى قضت على تلك الخطة التي أحكم نسجها ذلك الداهيه، فقد جعل كتاب هذا في ظرف هذا بينما يغري بينهما فاطلع الجميع على نواياه. [كذا أوردها المؤلف].

وفي القصيم آل مهنا من عنزة وهم أمراء بريدة انتزعوا الإمارة من أصحابها آل عليان مؤسسي بريدة وأصحاب الحق الشرعي فيها، وقد أدت المنازعات بينهم إلى أنْ قتل مهنا أبو الخيل في أيام عبدالله الفيصل، وقد آنس أولاده ميلاً من عبدالله الفيصل إلى خصومهم لاعتقاده أنهم أصحاب الحق، فحقدوا عليه، وبقي هذا الحقد كامنًا حتى ظهر في شخص صالح الحسن ومحمد أبي الخيل، فقد أثارا شغبًا عظيمًا ودسائس ومكائد في حالة القصيم، فكاتبا ابن رشيد والأتراك، وعاهدا ونقضا، وتعددت منهما الخيانات والثورات في أمور يطول شرحها حتى قضوا على إمارتهم بأيديهم.

وبعد وقعة البكيرية أرادت الدولة العثمانية أن تستر عظمتها بصلح شريف، فأرسلت خمسة طوبير[طوابير] بقيادة فيضي باشا، وبعده صدقي باشا، وطلبت خضوع القصيم لها وجعله منطقة حياد بين الفريقين، ولما لم يقبل أهل نجد بذلك بقيت الجنود مرابطة في الشيحية، وعادت الحروب بين الأميرين إلى أن قتل ابن متعب، واستبدلت الحكومة بصدقي باشا سامي باشا الفاروقي الذي جاء متهدداً مرغيًا مزبداً، وبعد عدة مفاوضات ومناورات انتهت بإخطار من عبدالعزيز قَبل سامي باشا أن يرجع إلى المدينة على أن يرحلهم عبدالعزيز إليها. وفعلاً رحلهمَ، وأصحبهم بعبدالرحمن بن عبدالله آل سويلم، وبعد ذلك جاءت الإرادة السنية بالشكر والألقاب.

وحدثت أيضًا فتنة الهزازنة في الحريق وآل هزان من عنزة وإمارتهم في الحريق، وهي بلدة واقعة على وادي الفرع وفي سنة ١٣٢٨هـ جرت بينهم فتنة قتل فيها =

= بعضهم بعضًا، ولم يخضعوا الحكم الشريعة، فحاصرهم عبدالعزيز إلى أن سلموا، وقد أطلقهم بشفاعة قاسم بن ثاني أمير قطر.

أما أولاد سعود ابن الإمام فيصل، فقد ورثوا نزعة الاستئثار بالملك من جدهم سعود، فبعد أن خلصهم عبدالعزيز من ابن رشيد [في الهامش: في هذه التخليص علق بهم اسم العرائف، وهذه الكلمة قالها عبدالعزيز مازحًا بعد تخليصه لهم من ابن رشيد. والعرافه وجمعها عرائف هي ما يتعرف إليه الإنسان مما له من ضائع فيستعيده]. أخذوا يحاولون تنفيذ ما يجول في نفوسهم، فأتوا إلى الخرج ليستقلوا به، فأخرجوا منه فلجئوا [فلجؤوا] إلى الحريق، وفي نفوس الهزازنة ما فيها، فاتحدت المآرب، وانضمت إليهم الحوطة، فهاجمهم عبدالعزيز.

ومن الصدف أنه لما وصل إلى السلمية وقد تحصنوا وراء الأسوار رأى خيلاً لمحاربيه، فأمر أخاه سعداً بمطاردتها بقوة من الفرسان، فترامى وإياها، ولكنه رأى قوة متحصنة في أطراف الجبل أخذت ترميه بالرصاص، فتراجع عن موقفه، ولما رآه عبدالعزيز قد تراجع غضب، وطلب فرسه، وقفز على ظهرها؛ ليطارد تلك الخيل، ولكنها جمحت واتجهت نحو القصر المحاصر، فظن الجند الذين معه أنه يهاجم القصر، فحملوا سيوفهم وبنادقهم وهاجموا القصر على غير ميعاد، فاحتلوه، واحتلوا القرى التى وراءه، وفر من كان هناك من آل سعود، وانتهت المعركه في يوم واحد، وقد أخضع الحريق والحوطة، وقتل بعض الهزازنة، وعفا عن آل سعود، وبعضهم لجأ إلى العجمان.

وفي سنة ١٣٣٠هـ خرج الشريف حسين من الحجاز بجيوش جرارة إلى نجد، فنزل نفي، وانضمت إليه قبيلة عتيبة وغيرها من بوادي الحجاز، واتفق أن عبدالعزيز أرسل أخاه سعداً إلى عتيبة يستنفرها، وعوضًا من أن تنجده غدرت به، فسلمته للشريف حسين، فجعله وسيلة يهدد بها ابن سعود، وفي ذلك الوقت كان ابن رشيد قد نقض الصلح الذي بينه وبين عبدالعزيز بإيعاز من الحسين [كتب المؤلف هنا عدة أسطر، وعلق عليها بخط مغاير: ليس كذلك، ثم =

= شطبها. جاء فيها ما يلي: مما اضطره إلى سياسة اللين خشية الوقوع بين نارين. وجرت المفاوضات بواسطة خالد بن لؤي، وانتهت باعتراف عبدالعزيز بتبعية الدولة؛ لينقذ أخاه، ويتفرغ لشئونه [لشؤونه] الداخلية، فعاد الحسين بتلك الورقة برهانًا على خدماته للدولة؛ ليحافظ على مركزه المشكوك فيه عند الاتحاديين، وما كاد يعود أدراجه حتى جاءت الكتب من ابن رشيد يؤكد بقاؤه على الصلح ويعتذر عما فرط منه]. وقد خرج عبدالعزيز بمن معه عازمًا على تخليص أخيه بأي صفة ممكنة، وكتب إلى عتيبة ينذرهم إن تركوا الشريف يرحل بأخيه سعد إلى الحجاز فسيشن عليهم حربًا لا هوادة فيها، وإلا فليقيموا جميعًا على الحرب، والنصر بيد الله، ولما سمع الشريف حسين بخروج عبدالعزيز وعزمه على حربه حاول أن يرجع بسعد إلى الحجاز، ولكن عتيبة حالت دونه ودون ذلك خوفًا من إنذار عبدالعزيز، وقالوا للشريف: إما أن تقيم معنا لنحارب ابن سعود جميعًا أو تطلق أخاه؛ إذ لا طاقة لنا بحربه منفردين. فأرسل إليه خالد بن لؤي، فتقابلا لأول مرة فتفاهما، وتمّ الصلح على أن يطلق الشريف سعد بن عبدالرحمن ويعود إلى الحجاز، وأن تؤمن عتيبة من العقوبة.

وما كاد يعود أدراجه حتى جاءت الكتب من ابن رشيد يؤكد بقاؤه [بقاءه] على الصلح ويعتذر عما فرط منه».

(١٥)
فتح الأحســاء
(ص ٩٢)

(لواء نجد) يطلقه الأتراك على الأحساء والقطيف، ويلحقون بهما نجدًا اسميًا، وما تلك المحاولات العديدة إلا لبسط السيادة العثمانية في قلب جزيرة العرب، وآخرها قدوم سامي باشا الفاروقي إلى القصيم بعد وقعة البكيرية.

وقد تقدم أنهم اغتنموا فرصة شقاق أبناء الإمام فيصل، فاستولى مدحت باشا على الأحساء والقطيف سنة ١٢٨٨، ولم يكن هذا الاستيلاء إلا لبسط النفوذ لا غير؛ إذ لم يكونوا يعتنون بتعمير البلاد وترقيتها واستثمار مرافقها الاقتصادية، بل كانت مصاريفها تكلف خزانة الحكومة، حتى إن رواتب الموظفين ترسل لهم من العراق لعدم انتظام إيرادات البلاد، وقد تركوا فيها الحبل على الغارب، وأطلقوا للفوضى ملء أعنتها، واستكفى المتصرف ومن معه من الحامية والموظفين بالانزواء وراء الأسوار والمعاقل، وقبعوا فيها طيلة مدة حكمهم، وأهملوا تأمين الطرق تاركين البدو وشأنهم يفعلون ما شاؤوا.

فاستبد العجمان بالأحساء، وبنو خالد[١] بالقطيف، والمناصير وبنو مرة وبنو هاجر بطرق القوافل والمسافرين، فاختل الأمن، وتقطعت السبل،

(١) في النسخة ب: «وبنو هاجر، وبنو خالد».

وكثر الفساد في الأرض، وأصبح المرأ [المرء] لا يأمن على نفسه في بيته، ورؤساء البدو يطالبون الناس بالأتاوات، ويصادرون وينهبون علنًا على مرأى من الحكومة ومسمع، وهي لا تحرك ساكنًا ولا تمد يدًا، فضلاً عما تدفعه لهم من رواتب ومخصصات، ومع ذلك فهي على ضعفها واستكانتها لم تأل جهدًا في مطاردة الشاب السعودي منذ أول نشأته، وكانت جادة ساهرة في تتبع خطواته ومعاكسته منذ أول عهده(١) ومع أنها لم تفعل شيئًا، ولكنها جعلته يحسب حسابها، ويسعى للتخلص منها، فضلاً عن كونه يعتبرها مغتصبة لبلاده وملك آبائه وأجداده بدون حق، فكان استرجاع الأحساء والقطيف نصب عينيه؛ لأنه مهدد بالحصر

(١) زاد في النسخة ب ما يلي: «ومبدأ عهده تمشيًا مع السياسة التركية القديمة في القضاء على آل سعود في أيام السلطان عبدالحميد، ولم تتغير سياسة جمعية الاتحاد بعد الانقلاب تجاهه، وكان الاتحاديون قد أيسوا من ابن رشيد، فعمدوا إلى الشريف حسين وسعدون وغيرهما، يدسون له ويقاومونه ناهيك بما تقوم به متصرفية الأحساء من إغراء البدو بين آن وآن. وفي الأخير أرسل مندوبه إلى بغداد بطلب من واليها جمال باشا السفاح، فلم يسمعوه إلا عبارات التهديد والوعيد. كل هذه الأمور أوغرت قلب عبدالعزيز عليهم، فأحب أن يقضي على آخر سبب لهم، وهي الأحساء والقطيف، فيستعيد تراث آبائه ويأمن الخطر الذي يهدده بالحصر الاقتصادي كل وقت من الحسا والقطيف خصوصًا بعد الوحشة التي حصلت بينه وبين مبارك الصباح في انكشاف سياسة الأخير، ولا سبيل له إلى العيشة باطمئنان ما لم يكن لملكه منفذ على البحر.
وكانت تركيا قد خرجت من حرب البلقان منهوكة القوى، وقد أمن جانب الشريف حسين وابن رشيد بعد عقد الصلح معهما، ولم يبق أمامه ما يخافه سوى العجمان الذين وإن كانوا من جنده فهم لا يوافقونه على فتح الأحساء».

الاقتصادي كل وقت من الكويت والعقير الذين هما مينائي نجد الوحيدين خصوصًا بعد أن اتحدت أغراض حكومتيهما، فلا سبيل له إلى العيشة باطمئنان ما لم يكن لملكه منفذًا على البحر، ولكن مشاكله الداخلية كانت تشغله عن تنفيذ فكرته، ولم تصف أموره إلا بعد سنة ١٣٣٠ .

ففي السنة التي تليها عزم على حسم المسألة بالسيف، ومع ذلك فلا بُدَّ من التدبير قبل الإقدام؛ لأن المهاجم يقع بين نارين: نار ألف ومائتي جندي من الأتراك كاملي العدة في الحصون، ونار العجمان الذين يَدَّعون السيادة على الأحساء ولهم فيها مصالح ونفوذ لا يسلِّم بها ابن سعود.

والعجمان في الحقيقة يجب أن يحسب حسابهم قبل الترك؛ لأنهم قوة لا يستهان بها، وهم يدافعون عن مصالحهم الخاصة، وعبدالعزيز يعرف ذلك جيدًا، وهم وإن كانوا في ذلك الوقت معه فلا يسمحون له بأخذ الأحساء ، بل يقلبون له ظهر المجن متى علموا بنيته؛ فلهذا أغار على منافسيهم بني مرة في الجنوب، وتظاهر بغزو مطير أعدائهم الآخرين في الشمال، وضرب للعجمان موعدًا لغزو مطير أبعدهم به، ولم يبق أمامه سوى الأتراك، فرحل من الخفس، ونزل على عين بقرب الأحساء في جمادى الأولى سنة ١٣٣١ ، وهناك أعلن عزمه لجنده وأمرهم بالاستعداد للهجوم.

والهفوف تنقسم إلى ثلاثة أقسام: النعاثل، والرفعة وفيها كثير من أهل نجد المستوطنين، والقسم الثالث: الكوت، وهو محاط بسور عال

جداً وعليه بروج محكمة، وفيه القصر الحصين قصر إبراهيم - إبراهيم بن عفيصان - وفي الكوت يقيم المتصرف وجنوده.

وكانت خطة عبدالعزيز الهجوم على الكوت؛ لأن احتلاله بمثابة احتلال الأحساء كلها، فانتخب من رجاله ستمائة[(١)] ومعهم الحبال والجذوع؛ ليتسلقوا بها الجدران، فتسلقوها[(٢)]، وتسللوا والحرس عنهم غافلون، ولعل لنشوة السكر يداً في غفلتهم، وكان من فطن بهم من العسكر ينادونهم، فلا يلقون جواباً إلى أن تكاملوا، فتوجه بعضهم إلى السراي لعلهم يقبضون على المتصرف، وبعضهم استولى على الباب

(١) كتب في النسخة ب بخط مغاير: «من أهل الرياض ما عدا» ثم كتب في الحاشية أيضاً: «أهل سدوس، وأهل الوشم، وأهل المحمل، وأهل البطين (ضرمى)، وأهل الخرج، كل المذكورين معه، والبدو قدر ألفين - سبيع والسهول وقحطان والدواسر - » انتهى. والإيضاحات التي بين قوسين بقلم المؤلف. وكتب بخط مغاير أيضاً في الحاشية. «وريس الصطوة [السطوة] عبدالعزيز، وريس القوم الذين بقوا على عين الصرة عبدالله بن جلوي بأمر عبدالعزيز:
١٥٠ أهل الرياض، كبيرهم محمد بن زيد.
٥٠ أهل سدير، عبدالعزيز العسكر.
٥٠ أهل الوشم وأهل العرض، عبدالرحمن البواردي.
٥٠ أهل المحمل وأهل الشعيب، صالح الجبالي.
٥٠ أهل الخرج، تبع أهل الرياض، أميرهم ابن زيد.
٥٠ أهل ضرما، تبع أهل الرياض، أميرهم محمد بن زيد.
٤٥٠ الصطوة» انتهى.

(٢) في حاشية النسخة ب بخط المؤلف: «الذي تسور السور عبدالله بن علي بن نفيسة الملقب بعمعوم، لا يزال سنة ١٣٧٢هـ»؛ أي لايزال حيًا تلك السنة.

الشمالي الكبير (باب الفتح) والبعض تفرقوا في أبراج السور، فاستولوا عليها، ولم يبق إلا القصر الكبير وفيه ألف ومائتا جندي بذخيرتهم وعتادهم، ولم يكد العمل يتم حتى انتبه العسكر والناس، وحدثت ضجة دوت لها البنادق، ووقع الناس في حيص بيص[1] لا يعلمون من هو الهاجم حتى سمعوا المنادي ينادي في السور: «الملك لله، ثم لعبدالعزيز ابن عبدالرحمن» فاستبشروا لما كانوا يقاسونه من اضطراب حبل الأمن وضعف الحكومة.

وانحاز المتصرف بعساكره في القصر، وتحصنوا به، وأخذوا يرمون البلد بالمدافع، فكانت رميات طائشة لم تصب أحداً بسوء، وسلمت البلاد كلها، وأقبل الأهالي أفواجًا يبايعون على السمع والطاعة.

وفي ذلك النهار جرت المفاوضات بين عبدالعزيز والمتصرف انتهت بتسليم الحامية، فنزلت بالأمان، فأكرمهم عبدالعزيز، وأذن لهم باستصحاب سلاحهم احترامًا، وحاز ما بقي من المدافع والذخيرة، وسيَّرهم إلى العقير بحراسة أحمد الثنيان. والغريب أن ألفًا ومائتين من الجنود الشاكي السلاح يسيرون بحراسة نفر واحد في طريق العقير، ومن هناك استقلوا السفن إلى البحرين (أوال) في طريقهم إلى العراق.

---

(١) يقال: وقعوا في (حيص بيص) أي في ضيق وشدة، أو في اختلاط من أمر ولا مخرج لهم، ولا محيص منه. ابن منظور، لسان العرب ج٧ ص ٩ ، ٢٠ مادتي (بيص وحيص).

وسارت سرية بقيادة الأمير عبدالرحمن بن سويلم فاستولت على القطيف ونواحيها بدون كبير مقاومة؛ لأن الأهالي اضطروا الحامية إلى ترك الدفاع، فقبلت بالتسليم، والتحقت بحامية الأحساء في أوال البحرين.

***

واستيلاء[1] ابن سعود على الأحساء جعل جيرانها الأصدقاء أعداء، فقد كتب الشيخ قاسم بن ثاني أمير بلاد قطر وصديق عبدالعزيز الحميم الذي أخضع له عبدالعزيز عصاة قطر، وعرض مركزه لخطر ابن رشيد أثناء غيابه، ثم شفعه في الهزازنة ثوار الحريق، وبذل له من الخدمات ما لا يحصى لقاء لا شيء سوى الصداقة ورابطة الجوار والمذهب السلفي واحترامًا لذلك الشيخ المسن.

ولكن السياسة قد تتجاهل أحيانًا، فإن الشيخ قاسمًا كتب إليه يهدده ويؤنبه؛ لتجاوزه على الدولة العثمانية، ونسي الشيخ أنه في يوم ما امتشق الحسام لحربها، وقد وقع كتابه الغير المنتظر، وقعا أليمًا في نفس عبدالعزيز الذي كان ينتظر التهنئة ممن هو بمقام والده، ولكن رسول التهديد تلاه رسول آخر ينبئ بانتقال الشيخ قاسم إلى ربه بعد أن أناف على المائة[2]،

(١) من هنا إلى كلمة: رحمه الله تعالى. لم يرد في النسخة ب.

(٢) الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني، مؤسس إمارة آل ثاني في قطر، كان شجاعًا فارسًا جوادًا، سلفي العقيدة، حنبلي المذهب، توفي سنة ١٣٣١هـ. الزركلي، الأعلام ج٥ ص ١٨٤.

فوضع حدًا للعتاب، وترددت كلمات الترحم لروح ذلك السلفي الصالح المشهور بالأعمال الخيرية والتقوى والصلاح، ولعل للشيخ قاسم رأيًا وحججًا يناقشها المؤرخ، ويستنتج منها، ولكن الموت أسدل الستار. رحمه الله تعالى.

ومن العقير والقطيف والجبيل، وبعبارة أخرى: من سلوى قطر[1] إلى حدود الكويت أطل ابن سعود على الخليج الفارسي أحد طرق الهند، وويل لمن يقف في طريقها[2].

---

(١) في النسخة ب: «من حدود عمان في الجنوب».

(٢) من هنا إلى نهاية الفقرة كتبت في النسخة ب بأسلوب مختلف بزيادات جاء فيه: «وخليج فارس من طرق الهند وموقع حربي هام بالنسبة للشرق الأوسط ومصب أنابيب الزيت الإنكليزية الإيرانية. وإلى ذلك الحين لم يكن الإنكليز أدخلوا ابن سعود في دائرة اهتمامهم الجدية على أنهم كانوا يرجحون كفته لسببين:

١ - لأنه من أنصار مبارك الصباح حليفهم.

٢ - وبعد وقعة البكيرية أصبح موقفه تجاه الأتراك لا غبار عليه وهدفه الأسمى القضاء على خصمه ابن رشيد ربيب الأتراك الذي لم يتبنوه إلا للنكاية بمبارك الصباح بعد معاهدته مع الإنكليز.

وكان الاستيلاء على الحساء والقطيف من أهم ما يشغل بال عبدالعزيز لاحتياجه إلى وارداتها، وللاتصال بالخارج مباشرة. وبالرغم من عجمه لعود القوات التركية في القصيم، فقد كان يحسب حسابًا لقوتهم البحرية، ويخشى أن تكون استعداداتهم هناك أقوى، فكاتب الأنكليز لجس نبضهم، فلم يجد لديهم ما يشجعه.

وكانت السياسة الأنكليزية عالمة بقرب وقوع الحرب العظمى، وقد وضعت نصب عينها احتلال هذا الساحل المستطيل وحكمه مباشرة حالة وقوع الحرب بينها وبين تركيا، فلاذت بالصمت ولم تجاوب على ماعرضه عليها، ولكنه بعد أن تأكد =

وبريطانية العظمى وإن كانت إلى ذلك اليوم لم تقف موقف العداء

= من حقيقة قوة الحكومة التركية بعد حرب البلقان قرر أن يقوم بالعمل بنفسه تحت ستار من الكتمان حتى تم له ما أراد، وأوجد الأنكليز أمام الأمر الواقع، ولم يكن في استيلائه على الحسا والقطيف معتديًا على أحد، ولكنه استرجاع لحق مغتصب لا سبيل لأحد إلى إنكاره.

فوجئت السياسة الأنكليزية بهذا الحادث الجريء، وكانت الجنود التركية المنسحبة من الأحساء قد وصلت إلى البحرين في طريقها إلى العراق، فاتصل بعض الأعاجم المستعربين المعروفين بانتسابهم إلى الوكالة السياسية الإنكليزية في البحرين بمتصرف الأحساء ولامه على تسرعه بالتسليم، وزين له استعادة الأحساء مهونًا عليه قوة ابن سعود، ووعده ومناه بالمساعدة من جيبه الخاص كما يقول إلى أن تأتيهم النجدة والإمدادات من الدولة.

وكان هناك مركب تجاري لأحد العراقيين، فأخذوه، وعادوا به إلى العقير، فهاجموه، و لكن حامية العقير على قلتها تمكنت من صدهم، وأسرت منهم ثلاثين جنديًا، وجاء عبدالعزيز من الهفوف مسرعًا، فوصل بعد أن فشلت الحملة، فأطلق الأسرى، وأعادهم بالسفن إلى البحرين.

وفي أوائل سنة ١٣٣٣هـ أحتل الإنكليز البصرة، وبعثوا الضابط شكسبير لمفاوضة عبدالعزيز والوقوف على حقيقة موقفه، فالتقى به في الطريق وهو ذاهب إلى جراب لملاقاة ابن رشيد، وهناك لقي حتفه وسط المعركة كما سيأتي.

وهذا أول اعتراف من الأنكليز تلاه اجتماع بينه وبين السير برسي كوكس أسفر عن معاهدة دارين، وهي على مافيها من قيود تحدّ من استقلال عبدالعزيز، فإنها كانت بحسب الظروف شر لا بد منه، فالإنكليز لم يكونوا ليعترفوا له باحتلال الأحساء والقطيف والجبيل وسائر الساحل بدونها.

ولقد كان موقفه بعد وقعة جراب وحروب العجمان لا يساعده على التصلب والعناد، ومن أعظم ما امتازت به سياسة عبدالعزيز تقديره الإنكليز حق قدرهم، ومسايرته للظروف واتخاذه الصراحة والصدق في معاملتهم حتى استطاع بلباقته وكياسته أن يمحو تلك المعاهدة ويزيلها من الوجود» انتهى.

إزاء الدولة السعودية ويسرها أن يبطش عبدالعزيز بابن رشيد ومواليه الأتراك أحلاف السياسة الألمانية صاحبة خطر خط برلين بغداد الحديدي، ولكنها كانت عالمة بقرب وقوع الحرب العظمى التي باتت في حكم المقرر، فهي تود أن يبقى ذلك الساحل المستطيل من جزيرة العرب على خليج فارس بيد الترك لتحتله بعد الحرب المزمع إعلانها، وتلحقه بالعراق الذي كان مطمح نظرها.

والسياسة ترغم أهلها حتى على مساعدة أعدائهم إذا كانت لهم مصلحة؛ فلهذا رأينا بعض الأعاجم المستعربين المعروفين بانتسابهم إلى الوكالة السياسية بالبحرين يقابل متصرف الأحساء ويلومه على تسرعه في التسليم، ويزين له استعادة الأحساء، ويعده ويمنيه بالمساعدة من جيبه الخاص! كما يقول، إلى أن تأتيهم النجدة والإمدادات من الدولة، وكان هناك مركبًا تجاريًا [مركب تجاري] لأحد العراقيين، فأخذوه، وعادوا به إلى (العقير)، فهاجموه، ولكن حامية العقير على قلتها تمكنت من صدهم، وأسرت منهم ثلاثين جنديًا، وجاء عبدالعزيز من الهفوف مسرعًا بعد أن بلغته الأخبار، فوصل بعد أن فشلت الحملة، فأطلق الأسرى، وأعادهم بالسفن إلى البحرين، وجرت محاولات مثلها في القطيف لم تفلح أيضًا، وكان اعتذار من حكومة البحرين قُبل على علاَّته.

وعاد عبدالعزيز إلى الرياض بعد أن عيَّن سمو الشيخ عبدالله بن جلوي حاكمًا على الأحساء، وأمر الأمير عبدالرحمن بن سويلم على القطيف.

١٦

فتح حائل (١)

(ص ٩٤)

حائل حاضرة جبلي شمّر، أو جبلي طيِّئ: أجأ وسلمى، موطن حاتم، استولت عليهما قبيلة شمر النزارية من طيِّئ اليمانية، ولم نعثر في التاريخ على ماجريات(٢) ذلك الاستيلاء، ولكنه لا يتجاوز الأسباب العادية على قاعدة «من عَزَّ بَزَّ، ومن غلب سلب»، وكانت إمارة الجبل في آل علي إلى آخر أيام الإمام تركي.

آل الرشيد:

ليس في إمارات العرب تاريخ مسطر بالدم كتاريخ آل الرشيد، فهو سلسلة قاتل ومقتول، لا يقوم الأمير إلا بعد أن يخوض في دم سلفه.

وعائلة هذه نفسيتها فيما بينها كيف تكون معاملتها لمن تحكمهم، فقد ظل السيف طيلة حكم آل رشيد سَلَّةً وذا حدين يقطع الرقاب، ويفري أوداج صاحبه.

وعبدالله بن علي بن رشيد، من عبدة(٣). وعبدة فخذ من قبيلة

(١) في النسخة ب تقدم بحث: موقف جلالته في الحرب العامة. الآتي قبل بحث: فتح حائل.

(٢) **الماجريات**: الحوادث، مأخوذة من قولك: ما جَرَى ما جَرَى. البستاني، محيط المحيط، ص ١٠٦.

(٣) في النسخة ب: «من آل جعفر من عبده».

شمّر، حدثته نفسه الطماحة بمناوأة أبناء عمّه آل علي أمراء حائل، فطردوه، ونفوه، فلجأ إلى العارض أول أيام الإمام تركي بن عبدالله، فالتحق بخدمته، وغزا مع فيصل لمحاربة عصاة القطيف وصحبه في رجوعه السريع للانتقام من مشاري بن عبدالرحمن قاتل تركي، كما تقدم، وكان عبدالله الرشيد من المجازفين في تسلّق القصر على مشاري، حتى إنه جرح جرحًا بليغًا، وبعد استتباب الأمر لفيصل وخضوع حائل له مع سائر بلاد نجد[1] جعل عبدالله أميرًا عليها مكافأة له على بسالته، ولكل شيء سببه، فلو درى فيصل أن هذه المكافأة ستئول [ستؤول] إلى ما آلت إليه، لكان له شأن آخر ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] صدق الله العظيم.

بقي عبدالله متوليًا إمارته متمسكًا بطاعته إلى أن توفي سنة ١٢٦٥[2]، وخلفه ابنه طلال، ولكنه أصيب بمرض عصبي ولّد له وساوسًا [وساوس] وأوهامًا إلى أن قضى منتحرًا سنة ١٢٨٣[3]. فتولى بعده أخوه

---

(١) في حاشية النسخة أ: «عزل أميرها صالح بن عبدالمحسن العلي في أوائل سنة ١٢٥١هـ، وولى عبدالله».

(٢) الصواب أن عبدالله بن علي بن رشيد توفي في جمادى الأولى سنة ١٢٦٣هـ. ابن بشر، عنوان المجد ج٢ ص ٢٣٩، وابن عيسى، تاريخ بعض الحوادث ص١٦٩. والزركلي، الأعلام ج٤ ص ١٠٧.

(٣) في النسختين أ و ب: سنة ١٢٨٢هـ. والمثبت في النص يتفق مع ما ذكره ابن عيسى. ابن عيسى، عقد الدرر ص ٥٢. والزركلي، الأعلام ج ٣ ص ٢٢٨. وعند الدخيل، القول السديد ص ١٤٨ أنه قتل نفسه سنة ١٢٨٥هـ.

متعب بن عبدالله، ودم متعب أول دم سال في البيت الرشيدي، وبدمه كتبت أول صفحة حمراء في تاريخ هذه العائلة، فقد قتل غدراً بيد بندر وبدر ابني أخيه طلال سنة ١٢٨٥ . وتسنم مسنده قاتله بندر بمؤازرة أخيه بدر - الرشيد ما بينهم - فلا اعتراض! رحم الله القتيل، وسمعًا وطاعة للقاتل.

ومحمد العبدالله الرشيد الأخ الثالث لطلال ومتعب، كان يتولى إمارة الحج في حكم أخويه وبيده قيادة الحرب.

وإمارة حائل لا موارد فيها تقيم أود الحكومة لقلة وارداتها، وأغزر مواردها من إمارة الحجاج[١].

وظل محمد في أيام ابني أخيه على إمارته لم يتعرضا له فيها بشيء، ولكنه كان ناقمًا عليهما لغدرهما بأخيه - عمهما -، وفي قتلهما الطريق إلى عرش الإمارة، والظهور بمظهر المنتقم العادل، فانتظر الفرصة حتى حانت بعد ثلاث سنين، فوثب بهما وقتلهما سنة ١٢٨٨[٢]، وألحق بهما أخوين لهما وستة من آل جبر، ولدهائه وحكمته تظاهر بمظهر الآخذ بالثأر، والخائف من سيفهما، فصرح لأهل حائل أنه لو لم يقتلهما لقتلاه، فتولى الإمارة في وقت كان فيه أبناء فيصل متطاحنين، وقد تفرقت نجد

(١) في النسخة ب: «فقد كان آل رشيد يخفرون الحاج العراقي على جعل معلوم، ويتقاضون علاوة على ذلك مرتبات من الحكومة التركية».

(٢) الصواب سنة ١٢٨٩هـ. ابن عيسى تاريخ بعض الحوادث. ص ١٨٤ . وسليمان الدخيل، القول السديد ص ١٤٩ . والزركلي، الأعلام ج ٦ ص ٢٤٤ .

شيعًا وأحزابًا، وبدأت تنتقص من أطرافها.

ففي تلك السنة كانت وقعة (جودة)، وفيها سقطت الأحساء والقطيف بيد الترك، والظروف إذا وافقت رجلاً حازمًا مدبرًا ذا مطامع واسعة وحيل محكمة، ثم استخدمها، وأجاد استخدامها، فهو ولا شك فائز لا محالة.

ومحمد العبدالله الرشيد هو [ذلك الرجل، فقد][1] تهيأت له تلك الظروف وتوفرت فيه هذه الشروط ونفسه الطامحة إلى المجد لا تقنع بإمارة حائل وفقرها، فبدأ يتدخل في شئون [شؤون] نجد، ويناصر هذا ويقاوم ذاك، ويتظاهر بغير ما يبطن، وقد مر تفصيل ذلك إلى أن تمت أمنيته بوقعة المليدة [المليدا] سنة ١٣٠٨، فتمّ له الاستيلاء على نجد كلها ونواحي من الحجاز الشمالية إلى مشارف الشام، وقد اعتمد في تشييد إمارته على سياسة فَرّق تَسُدْ، واتكأ على قوة عشيرته شمّر التي هي من كبريات القبائل العربية المشتهرة بالفروسية والشجاعة.

وخالف آل سعود باجتنابه للنعرة الدينية والقيام بنشر الدعوة السلفية؛ لعلمه بأن أهل نجد لا يقرون له بالزعامة الروحية، فكان معتدلاً، وبعبارة أخرى: لم يعر المسألة الدينية أهمية تذكر خوفًا من الأتراك، وألان الجانب للأجانب، وخصّ الأتراك بعناية كبرى من المجاملة والمسايرة؛ لأن طرفي طريق الحجاج الذي يعول ابن رشيد على إيراداته في يديها (العراق -

(١) زيادة من النسخة ب.

الحرمان) حتى إنه اعترف بخضوعه للسلطان عبدالحميد، وتعددت منه الرسل والهدايا إلى الباب العالي، وحاز النياشين الرفيعة، وقبل المعتمدين المندوبين من الحكومة العثمانية، فصارت تعتمد عليه وتعده من أكبر المخلصين لها، وتعتبره الوسيلة الفعالة التي قضت على آل سعود ومحت إمارتهم من الوجود، فأغدقوا عليه العطايا، وخصوه بالمساعدات والتعضيد، وكان على الإجمال رجل وقته إلى أن توفي سنة ١٣١٥ .

وتلك النار المشتعلة المتلألئة لم تخلِّف إلا رمادًا، وذلك الداهية الماهر المرن لم يخلفه إلا أهوج، أرعن، قاس، هو عبدالعزيز بن متعب، متعب قتيل بندر وبدر وأخ [وأخو] محمد العبدالله، لأن محمدًا لم يعقب لعقمه.

تولى عبدالعزيز المتعب فكانت خطبة عرشه، أو كتاب إعلان الولاية وأخذ البيعة إلى أهل نجد «ما عندي لكم إلا الحافر وصنع الكافر». لا يعرف من الحكم إلا السيف، ولا يجامل جيرانه إلا بالغارات؛ خاشن سعدون في العراق، وقاوم مباركًا الصباح في الكويت، متناسيًا وصية عمّه وقوله له: «لا تحارب صاحب الكويت؛ فإنه يحربك وهو على مسنده»(١). والدهاة ينظرون إلى البعيد نظرهم إلى القريب، إذ صحّ ما توقعه محمد لابن أخيه، وقد فصلنا فيما تقدم وقائع ابن متعب مع جلالة الملك إلى أن قتل في روضة مهنا سنة ١٣٢٤ .

---

(١) تذكر المراجع الكويتية أن وصية محمد بن رشيد لابن أخيه أن ينظر بعين التيقظ والحذر إلى تصرفات مبارك وألاّ يتوقف عن مقاومته بكل قوة. خزعل، تاريخ الكويت السياسي ج ٢ ص ٣١. والرشيد، تاريخ الكويت ص ١٥٩.

وخلّف من الأولاد متعبًا، ومشعلاً، ومحمدًا، فعقدت الإمارة لمتعب البكر وهو لا يزال فتى في ريعان الشباب.

وكان لعبدالله بن علي بن رشيد أخ اسمه عبيد أعقب حمودًا، ولحمود ثلاثة أبناء: فيصل، وسعود، وسلطان، هم أخوال متعب وأخويه.

وكأن الأخوال رغبوا في خطبة الإمارة مستصغرين أبناء أختهم، ففي ذات يوم خرج متعب مع أخواله للصيد، فصادوه. وما كادوا يبتعدون عن البلاد حتى انقضوا عليه، ففتكوا به - الرشيد ما بينهم - فلم يحرك أحد ساكنًا، ثم عمدوا إلى أخويه الصغيرين، فذبحوهما أمام أمهما - أختهم -، وكان محمد لا يتجاوز السادسة من عمره، ويقال: إنه كان يداعب خاله ساعة ما تله للجبين.

وللضحايا الثلاثة أخ رابع كاد يلحق بهم لولا فرار أخواله السبهان به إلى المدينة، هو سعود بن عبدالعزيز. لله أرحام هناك تقطع!

اتكأ على المسند سلطان الحمود العبيد، وكان جمال المسند مسند الإمارة قد استهوى قلب أخيه سعود، فأعماه عن كل شيء، وملك عليه مشاعره، فأغراه بقتل أخيه، فقتله بعد سبعة شهور[1]، وحكم بدله.

(١) الريحاني، تاريخ نجد وملحقاته، ص ٢٩٦. ويذكر الأمير ضاري بن فهيد الرشيد أن إمارة سلطان الحمود لم تلبث إلا سنة وشهرين. نبذة تاريخية عن نجد ص١٢٤.

- والرشيد ما بينهم - وأبعد أخاه فيصلاً بجعله أميرًا على الجوف حذرًا منه، واصطباغ آل عبيد بدماء بعضهم وإساءتهم السيرة حتى في شمر نفسها، كل ذلك أوغر عليهم القلوب، فكاتبوا[1] حمود السبهان يستقدمونه من المدينة؛ ليتولى حائل باسم الوصاية على الأمير الشرعي سعود بن عبدالعزيز المتعب، فتمّ له ما أراد، فقدم إلى حائل، وفتك بسعود الحمود في القصر، ونادى بسميه أميرًا على البلاد سنة ١٣٢٧ .

وترك فيصل إمارة الجوف، وفرّ هاربًا لاجئًا بعبدالعزيز في الرياض، وتم الأمر لسعود بن عبدالعزيز المتعب، وظن أن جرح آل رشيد قد التأم، ولكنه كان ندبة انفجرت فيما بعد كما سيأتي.

وقعة جراب :

أعلنت الحرب الكبرى وابن سعود وابن رشيد في صلح متراخي [متراخٍ]، أو شبه صلح؛ لأن الدولة العثمانية كانت تفاوض ابن سعود في الصبيحية بواسطة طالب باشا النقيب، فتخطب وده، وتتعهد له بالمساعدة والإمداد قولاً. وفي الوقت نفسه تفاوض خصمه ابن رشيد[2] بواسطة والي البصرة سليمان شفيق كمالي مشترطة محاربة [ابن سعود][3] لقاء ما تمدّه به من السلاح والنقود التي أمدته بها فعلاً.

---

(١) في النسخة ب بخط مغاير: أهل حائل.

(٢) في النسخة ب: سعود بن رشيد على سفوان.

(٣) في الأصل: ابن رشيد. والتصويب من النسختين أ و ب، ومقتضى السياق يدل عليه.

وما صدّ سعود بن رشيد عن الحرب والأخذ بثأر أبيه - قتيل روضة مهنا - إلا تضعضع حائل بعد مجزرة - الرشيد ما بينهم - ولم يكن ذلك ليخفى على ابن سعود.

وبعد تطاير شرر الحرب الكبرى كتب ابن سعود إلى كافة أمراء الجزيرة يدعوهم إلى عقد مؤتمر للبحث في موقف الإمارات العربية تجاه تلك الحوادث العتيدة، فحصل على أجوبة متضاربة متناقضة، وأهمها جواب ابن رشيد الصريح، فقد أعلن لخصمه أنه منضم إلى جانب الترك خاضع لأوامر الدولة، وأوامر الدولة تقضي عليه - طبعًا- بمحاربة ابن سعود حسب شروط سليمان كمالي[1].

على أن طلب الثأر كان أكبر دافع للأمير الفتى المتحمس إلى إعلان الحرب، فأعلنت، وكانت وقعة (جراب) شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٣. وجراب ماء بقرب القصيم[2]، وكادت الغلبة تكون فيها لابن سعود لولا أن خيالة العجمان وعدتهم أربعمائة فارس كانوا يضمرون الغدر - نكاية به بعد أخذه الأحساء وضربه على أيدي مآربهم كما تقدّم - فتقهقروا بعد أن انكسرت حاضرة ابن رشيد، وتقهقر العجمان سحب معه معسكر ابن سعود، فوقعت هزيمة مزدوجة على الطرفين وانتهب البدو مخيم كليهما، وفازوا بالغنيمة.

(١) في النسخة ب: سليمان شفيق كمالي.

(٢) ألحق بالأصل كلمة (الأرطاوية) فوق (القصيم). والواقع أن جراب يقع في الشمال الشرقي من الزلفي ويبعد عنها نحو ستين كيلاً. ابن خميس، معجم اليمامة ج ١ ص ٦٧.

وكان مع ابن سعود الضابط الإنكليزي شكسبير - قنصل الإنكليز في الكويت - أتاه ليفاوضه وهو في طريقه إلى جراب، فأحبّ الضابط أن يشهد المعركة؛ ليشاهد حرب العرب، ويأخذ صورها القيمة عنده، وحب الاطلاع في الأوربيين يحملهم على المجازفة والمخاطرة بلا مبالاة، فقد ألحّ شكسبير أمام اعتذارات ابن سعود، وكتب على نفسه صكًا يهدر دمه، وينفي فيه مسئوليته [مسؤوليته] عن كل أحد، وكانت برنيطته تستلفت الأنظار وهو على نشز من الأرض يرقب سير الحرب فصارت هدفًا لأحد البواردية[1]، فهوى لليدين وللفم، على أن برنيطة شكسبير صارت بيد ابن رشيد برهانًا ساطعًا في اتهام خصمه عند الدولة التي تقبلته منه، واستعملته في نشر دعاياتها.

أما حقيبته التي أثبتت أوراقها عكس ما ادعاه ابن رشيد، فقد سلّمها غير حاسب لها حسابًا مكتفية بالبرنيطة برهانًا، ولكن الدولة برغم وقوفها على حقيقة موقف ابن سعود من الإنكليز لاطلاعها على أوراق الحقيبة، فقد أظهرت البرنيطة، وأخفت الحقيقة انتقامًا من ابن سعود لوقوفه على الحياد، ولكنه كان مرتاح الضمير من هذه الجهة، وما كان يقصد من تلك الحرب إلا شخص خصمه ابن رشيد سواء كان حليفًا للأتراك أو لأعدائهم، فوقعة (جراب) كانت كسائر حروب آل سعود مع آل رشيد ليس إلا[2].

(١) **بواردية:** جمع بواردي، وهو رامي البندق. مشتق من البارود تمييزًا لرامي البندق عن رامي القوس في البدء، وبعدها أطلقت على كل من يجيد الرمي فيصيب هدفه (المؤلف).

(٢) في النسخة ب تعليق بخط مغاير: ينبغي تصحيح هذه الواقعة.

أخفق ابن رشيد في هذه المرّة فلم يأخذ ثأره، وعاد هازمًا مهزومًا، وكان جرح (جراب) مشترك الألم بين الخصمين حتى إنه لم يستطع أن يستثمر حرج موقف عبدالعزيز بعد وقعة (كنزان) التالية لوقعة (جراب)، ولم يكد جرحه يلتئم بعد سنة حتى أعلن الشريف الثورة على الترك، فألهاهم عن ابن سعود برهة، ووجهوا ابن رشيد لمحاربة الثائر، فاشتغل بذلك عن خصمه.

على أن مدّة حكم سعود الرشيد لم يخل[1] من مناورات بين الخصمين لم تؤد إلى حرب حاسمة. وكان كثير من شمّر قد لبى دعوة الإخوان، ودانوا بالطاعة لابن سعود، فكان صلح سببه إحساس سعود بضعفه أمام عبدالعزيز، وكانت الدولة العثمانية ركنه الذي يعتمد عليه قد زالت[2]، وبقي عليه أن يعتمد على نفسه، ولم يبق له مورد بعد أن تحول طريق الحج عن حائل إلى البحر، وتوقفت السبل[3].

وكان الشريف حسين قد انكسر في وقعة (تربة)، وتبددت رجاله، فراسل ابن رشيد ليكونا يدًا واحدة على خصمهما، وكاد يتم له ما أراد لولا أن شمّر اليوم المتدينة غير شمر الأمس ذات العصبية السنعوسية[4]،

(١) في النسختين أ و ب: لم تخل.

(٢) زاد في النسخة ب: من العراق.

(٣) زاد في النسخة ب: بعد ثورة الحسين.

(٤) في هامش النسخة ب: «لكل قبيلة أو جماعة عزوة يعتزى إليها ويعرف بها وقت الحرب كشعار، وشعار شمر أو عزوتها كلمة سناعيس. كما أن شعار أهل العارض أهل العوجا» وتقدم شرح كلمة سناعيس.

فخالفه أكثر رؤسائها، وشغلته الحرب مع ابن شعلان في الجوف، ولم يكد يستولي عليها حتى فاجأه القدر المحتوم.

الرشيد ما بينهم:

دوت هذه الكلمة في أنحاء حائل بعد صمت اثني عشر [اثنتي عشرة] سنة، وكأنها صوت الزلزلة الذي يصمت أحيانًا ليدوي بأرعب وأرهب من الأول.

صوت الزلزلة يزلزل الأرض، وهذه الكلمة تزلزل عرش آل رشيد، وكلا الصوتين يدويان على حين غفلة، فما هو إلا أن تسمعها شمّر فجاءة فتخرس حتى ما تكاد تجيب، ولكن سامعيها هذه المرة كانوا من العبيد، عبيد سعود، فلم يحترموا قدسيتها ولا وقفوا على الحياد فيها.

وذلك أن الأمير سعود بن عبدالعزيز بن متعب خرج في نزهة ومعه عبدالله بن طلال بن نايف بن طلال الكبير، وجلسا يتسليان برمي النيشان، وعلى حين غرة أطلق ابن طلال بندقيته على سعود، فأسال دماغه، وصوبها إلى عبده[1]، فألحقه به، ولكن العبيد شدوا عليه، فألحقوه بضحيتيه، ونفذ

(١) في النسخة ب تعليق بخط مغاير فيه: «ليس كذلك» وفي النسخة ب أيضًا: «وصوبها إلى كبير عبيده فأصابه، وتظاهر بالموت، فعمد إلى فرسه، فركبها؛ ليدرك مسند الإمارة قبل الفوات، ولكن العبيد بعد زوال الدهشة وإنجلاء الحقيقة رموه فألحقوه بضحيته، وكانت الحادثة سنة ١٣٣٨هـ، وكان معهم في هذه الحادثة عبدالله بن متعب بن عبدالعزيز أخي [أخو] القتيل، فأتى به العبيد، وبويع بالإمارة بعد أن فرّ محمد بن طلال شقيق القاتل إلى الجوف». =

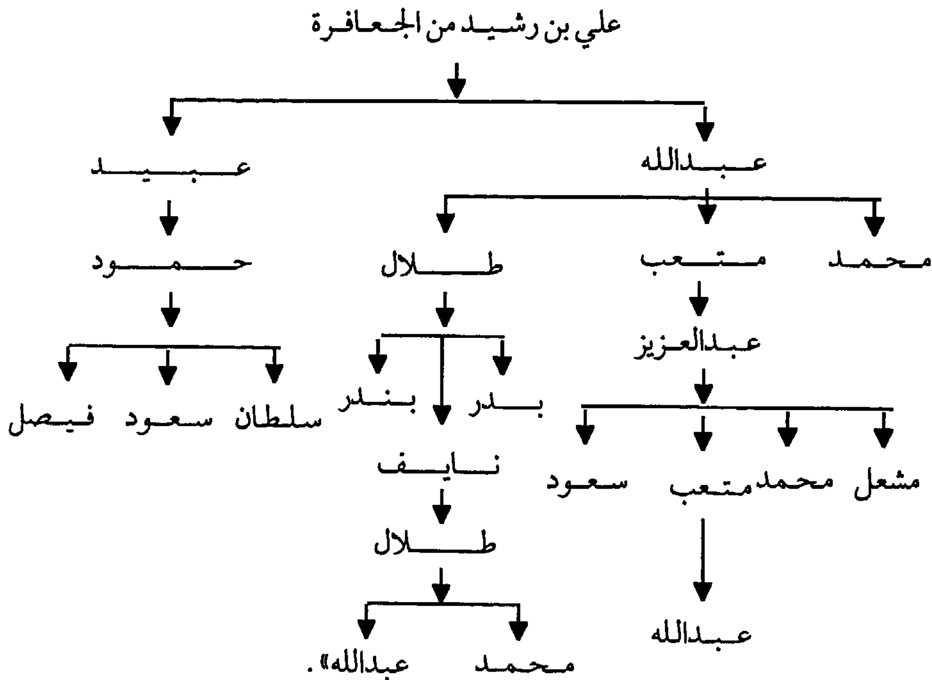
فيه القصاص العادل، وكانت الحادثة سنة ١٣٣٨، وكانت الخاتمة.

وفرّ أخوه محمد بن طلال إلى الجوف، وتولّى الأمر عبدالله بن متعب بن عبدالعزيز المتعب - ابن أخي القتيل - .

فتح حائل[١]:

قام عبدالله المتعب، بالأمر وأرسل وفداً إلى عبدالعزيز؛ ليجدد

= وكتب المؤلف في الهامش ما يلي:
«هذه سلسلة نسب آل رشيد:



(١) في هامش النسخة ب: «حائل حاضرة جبلي شمر، أو جبلي طيئ أجأ وسلمى، وهي عاصمة إمارة آل رشيد».

الصلح معه، ولينال الاعتراف بإمارته، وكان عبدالعزيز قد ملّ تلك المعاهدات التي ما تكاد تبرم حتى تنقض[1]، وأحب أن يبني هذا الصلح على أساس دائم، إذا برهن آل رشيد حسن نيتهم، فاقترح أن تكون إمارتهم على الجبل داخلية صرفة لا يتدخل في شئونهم [شؤونهم] على عادة أسلافه مع أسلافهم، وليس لهم حق في شئون [شؤون] السياسة الخارجية ولا علاقة مع الدول[2]. وبعبارة أخرى: تكون حائل في وقت عبدالله المتعب كما كانت في وقت عبدالله بن علي بن رشيد[3].

رفض الاقتراح، فأدّى إلى الحرب؛ إذ زحف[4] سعود بن عبدالعزيز بحملة أغار بها على عربان ابن رشيد في أطراف حائل سنة ١٣٣٨، وعاد لشدة الحر وتأثيره على رواحله، وتوالت الإغارات على حائل وأطرافها بعد ذلك، فأصبحت في حالة حصار، وما كاد الفصل يعتدل حتى جهز عليها عبدالعزيز [حملة][5] مؤلفة من عشرة آلاف مقاتل بقيادة أخيه محمد وابنه سعود، فزحفت تلك الحملة، وطوّقت حائل بالحصار، وشدّد سعود

(١) في النسخة ب: «بتعدد الدسائس أولاً من الترك وحكومة العراق من بعدهم من جهة، وجاءت إمارة شرق الأردن ضغثًا على إبالة، واذكر الحسين فإنه أكثر سعيًا من أولاده وإمارة آل رشيد بيدهم كالحربة للطعن من الخلف وقد أحاطوا بها من ثلاث جهات».

(٢) في النسخة ب: «مع أحد من الخارج».

(٣) في النسخة ب: «عبدالله بن علي بن رشيد جدهم المؤسس».

(٤) زاد في النسخة ب: «الأمير».

(٥) زيادة توضيحية من النسختين أ و ب.

الحصار عليها - بعد أن عاد عمه - وما شعر إلا وعبدالله المتعب عنده يسلِّم نفسه بلا قيد ولا شرط - على الحسنى والسيئة - .

غنيمة باردة. وما جاء يسلم نفسه لخصمه إلا لأن محمد بن طلال قدم فجأة إلى حائل بحجة الدفاع عنها، فخشي منه على حياته، وآثر التسليم والحياة على البقاء في مسند الإمارة المهدد من الخارج والداخل، فعاد به سعود إلى الرياض في ذي الحجة سنة ١٣٣٩ .

بقي كرسي الإمارة شاغراً فشغله محمد بن طلال، وكانت له إمارة قصيرة مُرَّة، سجلت له الشجاعة والبطولة في الدفاع، وشهد له حتى خصومه بذلك. خصومه الإخوان الذين لا يعترفون لأحد بالشجاعة إلا في النادر .

وكان فيصل الدويش قد زحف بالإخوان بعد رجوع سعود بابن متعب، وناوش ابن طلال القتال، وفي منتصف ذي الحجة سنة ١٣٣٩ زحف جلالة الملك عبدالعزيز بنفسه بعشرة آلاف من حضر نجد ومعه المدافع والرشاشات والذخائر، ولم يدخل شهر محرم سنة ١٣٤٠ إلا وحائل مطوَّقة، واشتدت الحملات عليها حتى سقطت كافة حصونها الخارجية .

وكان ابن طلال استعمل الصرامة في حكمه شأن الرجل الحربي حتى ضاق بأهل حائل الأمر، فكانت المراسلة، وكان التسليم، فالتجأ ابن طلال إلى القصر، وما عتم أن سلم نفسه في سلخ صفر سنة ١٣٤٠ بعد أن دافع

دفاع المستميت[1].

عندها تجلّى كرم عبدالعزيز وحلمه بأجلى المظاهر، حلم الكريم المقتدر، وكانت حائل لشدة الحصار قد قلّت أقواتها، واستولى الجوع على سكانها، فأباح لهم ذخائر معسكره[2]، وأعطاهم الطعام واللباس والدراهم بما لم يسمع عن الفاتحين قبله:

وما سمعت أذناي قبلك فاتحًا يفيض على الأعداء خيرًا ويسكب
أبحت لهم جودًا ولم تستبحهم فأصبحت منهوبًا وأعداك تنهب

ومثل هذا الحلم والكرم لا يصدر إلا من أخلاق جلالة الملك الفذة التي لا تصدر من سواه، ولو صدرت من غيره من الفاتحين المستعمرين اقتصاديًا لاستغربت، فكيف وفي النفوس حزازات وأضغان ليست بين آل سعود وآل رشيد فقط، بل بين أهل العارض وشمّر على الإطلاق، ولو أنه قابل أعداءه بالمثل على الأقل، وكال لهم الصاع بالصاع، لما لامه أحد،

(١) كتب على هامش النسخة ب بخط مغاير لخط المؤلف: «ليس كذلك» ثم كتب بالخط نفسه في الحاشية: «وتوسط في الصلح إبراهيم سالم السبهان وحمد الشويعر الحقباني الدوسري؛ لما رأوا من الضيق والشدة الذي [كذا] في أهالي حائل من الجوع والذل مع أن أكثر أهالي حائل يرغبون ولاية جلالة الملك ويحبون المشايخ العبدالوهاب؛ لأن المذهب واحد، والعقيدة واحدة» [هنا كلمة غير واضحة].

(٢) في حاشية النسخة ب بخط مغاير: «التي لاتحصى من جميع الأشياء وفرق على كل شخص من أهل حائل كبير وصغير ذكر وأنثى دراهم، أكبرهم من مائة الألف [كذا] وأصغرهم عشرة، هذا فضلاً عن الأرزاق الذي [التي] لا تحصى، وقد شاهدناها وحضرنا تقسيمها».

ولكنه وهو رجل الحلم والشهامة أبى إلا أن يضيف هذه المفخرة الفذة على مفاخره العديدة التي جعلت صحائف تاريخه بيضاء ناصعة، ونقية خالصة.

وشتان ما بين معاملته لأهل حائل، ومعاملة محمد الرشيد لأهل الرياض بعد استيلائه عليها مع كونه أفضل أمراء الرشيد قاطبة من حيث الدهاء والاعتدال والحلم، وكانت له مندوحة عن قطع نخيلها ومصادرة أهاليها، والعداء ذلك اليوم لم يستحكم، والكراهية لم تتبادل بين أفراد الشعب، ولا نغالي إذا قلنا: إن تلك الأفعال هي المسبب لما حدث من البغضاء، فضلاً عن أن استيلاءه على الرياض[1] كان نتيجة وقعة المليدة [المليدا] ومغادرة الإمام عبدالرحمن لها، فدخلها عفواً بلا حرب بعكس

(١) كتب في حاشية النسخة ب بخط مغاير، وبأسلوب اللهجة الدارجة، «نادرة. وقت استيلاء محمد بن رشيد على الرياض أمر بشيل جميع ما للسعود من الذخاير والأطواب والمواعين الكبارالذي [التي] في المطابخ، وفي نهار دخوله حايل يوجد عبد من عبيد عبدالله العلي، اسمه عنيبر له أحد عشر ولدا، من أكابر عبيد العبد كان جالساً في السوق، وهو كفيف البصر من كبر سنه، من حاضرين [حاضري] الحملة ويسأل أحد عياله: ويش هالحملة؟ فأجابه على الفور مبشراً له: إن هذي مدافع آل سعود وذخايرهم، فبكا العبد عنيبر، فأسف الابن أنه علّمه، فسأله عن ما [عمَّا] يبكيه؟ فأجاب: يولدي [هنا كلمة غير واضحة] الآن خرجن وهي الآن دخلت الاسمن شف من يظهرها ولين يا ولدي اني مع عمي عبدالله في مغزا مع الإمام عبدالله الفيصل، ويوم بغا يضحي، وقلطوا أهل القهوان الذين من أهل العارض ستمائة ولد يبي يقضبون رسن ذلوله إذا بغا النوخ غير العبيد الذي [الذين] ما لهم عد» انتهى.

استيلاء عبدالعزيز، فقد كانت شروط الانتقام متوفرة مبررة؛ لأن الأحقاد مستحكمة والدخول بالسيف:

ولو شئت قابلت الفعال بمثله   ونال جزاء الفعل عات ومذنب

ولكنه عبدالعزيز وحسب[1].

---

(١) زاد في النسخة ب: «وقد انتقلت عائلة آل رشيد إلى الرياض، فخصصت لهم القصور لسكناهم، وأجريت عليهم المخصصات الكثيرة، والرواتب والسيارات الثمينة، مما يكاد يساويهم بأفراد العائلة السعودية، وقد توفي عبدالله المتعب في الرياض سنة ١٣٦٧هـ».

وجاء بعدها في النسخة ب نفسها مبحث عن العجمان، ثم رأى المؤلف تأخيره إلى مكانه في الجزء الثاني مع الحديث عن فتنة الإخوان.

ثم تحدث عن آل عائض، وعن الأدارسة بما يلي:

«**آل عائض**:

عايض بن مرعي، من آل أبي سراح، من آل يزيد، من بطن مغيد من قبيلة عسير. تولى إمارة عسير بعد وفاة عمه علي بن مجثّل سنة ١٢٤٩هـ [في الهامش إحالة إلى: ابن بشر]. وبعلي هذا انتقلت الإمارة من رجال ألمع بعد قبض المصريين على طامي بن شعيب وقتله إلى قبيلة عسير.

وبعد وفاة عايض تولى ابنه محمد إلى سنة ١٢٨٥هـ [الصواب: ١٢٨٩هـ] فقد استولت الدولة العثمانية على عسير وضمتها إلى المملكة الشاهانية بقيادة رديف باشا الذي قبض على محمد بن عايض غدراً وقتله.

وفرّ آل عايض من أبها، إلى أن تولى سليمان شفيق كمالي بعد الانقلاب العثماني وإعلان الإدريسي الحرب عليه، فقرّب إليه آل عايض، وأشركهم في شئون [شؤون] الحكم برئاسة حسن بن علي بن محمد بن عايض إلى أن أعلنت الحرب العظمى ١٣٣٢هـ ونفض الترك أيديهم من بلاد العرب.

فاستقل حسن بن عايض بحكم عسير، وحصلت بينه وبين رعاياه خلافات أدت إلى لجوئهم إلى عبدالعزيز سنة ١٣٣٨هـ شاكين من ظلم حسن وعسفه؛ =

= لأنهم يعتبرون آل سعود مرجعهم الأعلى، فأرسل إليه عبدالعزيز وفداً لإصلاح ذات البين، فاعتبره حسن تدخلاً في شئونه [شؤونه] الداخلية، وردّ الوفد ردّاً قبيحًا، فجهّزت إليه حملة بقيادة عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي وجرت وقعة (حجلة) التي انهزم فيها حسن بن عايض وجيشه، وفرّ إلى بلدة (حرملة)، ولكنه عاد فسلّم نفسه مع ابن عمه محمد، فعاد بهما عبدالعزيز بن مساعد إلى الرياض، فلقيا من الإكرام ما لا مزيد عليه.

وعلى عادة جلالة الملك أمر حسن بن عايض بأن يعود إلى بلاده رئيسًا فيها وأن يكون معه كما سلفه مع سلف جلالة الملك، فاعتذر بما بينه وبين أهل عسير من إحن وضغائن قد تحول دون قيامه بالأمر منفردًا، وتعود إلى مالا تحمد عقباه. واقترح بقاء أمير من قبل جلالة الملك يكون ردئًا[ردءًا] بينه وبين خصومه، وعلى هذا عاهد جلالة الملك، ورجع إلى بلاده مظهراً الطاعة والانقياد ومخفيًا التمرد والعناد.

وبدلاً من أن يخلد إلى الراحة أخذت المشاغبات بينه وبين الأمراء تتعدد، وشقة الخلاف تتسع، وكلما طلب عزل أمير أجيب طلبه.

وكان الملك حسين واقفًا بالمرصاد يحث ابن عايض على الثورة ويعده ويمنيه، وبالفعل أرسل له الإمدادات من المال والعتاد، فأعلن الثورة وقبض على أمير أبها فهد العقيلي.

وفي أواخر سنة ١٣٤٠هـ جهز جلالة الملك حملة كبيرة بقيادة سمو الأمير فيصل سارت إلى عسير، وقضت على جموع ابن عايض، ودخلت أبها في صفر سنة ١٣٤١هـ، وكان ابن عايض قد غادرها إلى حرملة، وهي بلدة حصينة في جبل صعب المرتقى، ولكن الرعب استنزل ابن عايض وقومه من هذا المعقل الحصين، وجعلهم يفرون، ففتحها فيصل عنوة، واستولى على جميع ما فيها، وعفا عمن بقي فيها من آل عايض وغيرهم.

وفرّ ابن عايض إلى القنفذة ملتجئًا بالملك حسين، فأمدّه بالسلاح والذّخيرة، وأرسل معه جيشًا يقوده الشريف عبدالله بن حمزة الفعر، ومعه جنود نظامية يقودها الملازم حمدي بك بمعداتهم. =

= وكانت أخبار هذه الحملة قد سبقتها إلى فيصل، فأرسل إليهم سرية تناوشهم القتال وتنسحب استدراجًا لهم، فأخذهم الغرور، وتقدموا متوغلين في عسير حتى أصبحوا على بضع مراحل من أبها، وهناك وقعوا في الكمين المنصوب لهم، فمزقوا شرّ ممزق، ولم ينج الفعر وابن عايض إلا بأعجوبة.

وبعد هذه الوقعة استتب الأمر للأمير فيصل فرتب شؤون البلاد، وولى عليها أميرًا سعد بن عفيصان، وأبقى معه حامية، وعاد إلى الرياض في جمادى الأولى سنة ١٣٤١هـ. على أن الحسين لم ييأس بعد، فأعاد آل عايض ومعهم الفعر وجموع من أهل تهامة، فزحفوا على أبها، ولكنهم انهزموا أمام قوات ابن عفيصان، وعادوا أدراجهم. وعلى أثرها توفي ابن عفيصان، وولي الإمارة بعده عبدالعزيز بن إبراهيم الأمير الحازم المشهور الذي استطاع بحنكته وصرامته أن يشتت شمل الثوار وزعمائهم من آل عايض الذين أرسلوا يطلبون الصلح، فاستسلموا لابن إبراهيم بدون قيد ولا شرط، فبعث بهم إلى الرياض حيث لاقوا من رعاية جلالة الملك وعطفه ما لاقاه آل الرشيد من قبلهم».

وعند كتابة المؤلف عن الأدارسة في النسخة ب علق على الهامش «يؤخر بحثهم بعد حوادث الإخوان صفحة . . .» ثم لم يثبته في الأصل ولا في النسخة وكتب في النسخة ب عن الأدارسة كتابة غير مرتبة، ويظهر أنها لم تراجع، جاء فيها ما يلي:

«**الأدارسة :**

استهل القرن الرابع عشر الهجري وقد سيطرت الدولة العثمانية على اليمن وعسير وتهامة، وظلت تحكمها مباشرة بواسطة ولاتها وقواد جيوشها، وبرغم الثورات التي قام بها أهل اليمن فإن زمام الحكم لم يفلت من أيدي الولاة العثمانيين.

وفي البحر الأحمر دولتان تحاول كل منهما النيل ما استطاعت من تركة الرجل المريض، وهما الإنكليز وإيطاليا، فأخذت الدسائس تعمل عملها.

وفي تهامة وخاصة في بلدة صبيا ضريح [تعديل بخط مغاير: مدفن] السيد أحمد الإدريسي، الزاهد الورع المشهور [شطب بقلم مغاير] وصاحب الطريقة =

= المعروفة الذي قدم من المغرب، وتوفي في صبيا، وظل له أتباع ومريدون في كافة تهامة.

وكان حفيده السيد محمد بن علي الإدريسي قد سافر إلى السودان، وسكن دنقلة عند أخواله، ودرس على أكابر علمائها، ثم توجه إلى مصر، ودرس في الجامع الأزهر، وتلقى كافة العلوم المقررة فيه، وكان مع علمه ذا نباهة وذكاء.

وفي أثناء إقامته بمصر حصلت اتصالات بينه وبين المفوضية الإيطالية في القاهرة، وكانت الحرب الطرابلسية على أشدها، فاتفق مع إيطاليا على إشعال الثورة في تهامة وطرد الأتراك منها، فسافر إلى صبيا مسقط رأسه، وأظهر الورع والنسك، وتهافت الناس عليه من كل جانب يتبركون به لما لجدّه السيد أحمد من مقام في نفوسهم. وكان الإدارة التركية [بعده شطب بخط مغاير على قول المؤلف: قد فسدت شأنها في سائر المملكة الشاهانية، وعلى الأخص البلاد العربية، فقل الأمن، وكثرت الرشوة، وشاعت التعديات والفواحش، وعدم الوازع.

ووضع مكانه: وعلى الأخص في تلك الأطراف في حالة سيئة] وعم الظلم، الأمر الذي أدى إلى التذمر.

وأخذ الناس يتشاكون فيما بينهم، ويتوقعون خروج مهدي مصلح، فكان أن فاتح بعضهم السيد الإدريسي بهذه الحالة، ورغب إليه في القيام بالإصلاح المطلوب، وعاهده أهل تهامة على القيام والاستماته تحت رايته، فأعلن الثورة واستولى على ميدي وجيزان، وتلقى الإمدادات من إيطاليا حتى تمكّن من طرد الأتراك من تهامة كلها، وزحف على عسير لولا نجدة الشريف حسين لسليمان شفيق كمالي.

وما أن انتهت الحرب الطرابلسية حتى نفضت إيطاليا يدها منه، وكفّت عن مساعدته، فمال إلى الإنكليز وكانت الحرب العظمى على الأبواب، والمفروض لدى الساسة البريطانيين أن تركيا ستنحاز إلى الجانب الألماني، وقد تمت المفاوضات بواسطة حاكم عدن، وعقدت بين الإدريسي والإنكليز معاهدة على غرار معاهداتهم مع أمراء العرب اعترفت بموجبها للإدريسي بتهامة من اللحية =

= جنوباً إلى القنفذة شمالاً، وتعهدت بحمايته من كل تعد أجنبي كما أنه تعهد للحكومة الإنكليزية بعدم الدخول في مفاوضات أو منح امتيازات لأي دولة أجنبية بدون موافقتها.

انتهت الحرب العظمى وبذلك انتهى الاهتمام الإنكليزي بالإدريسي على أنهم كافؤوه، فسهلوا له احتلال الحديدة.

وبذلك أصبح بين ضغطين، الإمام يحيى في الجنوب يعتبر تهامة من اليمن، ويطالب بضمها وعلى الأقل الحديدة التي هي ميناء صنعاء الطبيعية، والملك حسين في الشمال تعتبر [صح: يعتبر] بلاد الإدريسي جزءاً لا يتجزأ من المملكة العربية الهاشمية، وصمام [لعلها: الأمان] في الشرق عند الملك عبدالعزيز.

فتعاقد معه على التآزر معًا لتأمين مصالح الطرفين، وبقيت صلاتهم طيبة، ولكن السيد محمد علي الإدريسي لم يلبث أن لحق بربه سنة ١٣٤١هـ.

وبعد وفاته ولي الإمارة ولده علي، فاغتنم الإمام يحيى الفرصة للاستيلاء على تهامة، فاستولى على مدينة الحديدة وطول الساحل إلى ميدي، فثار الأهالي على عليّ، وبايعوا عمّه الحسن الذي حاول أن يسكن الحالة بالحسنى والمفاوضات، فطرق أبواب الإنكليز والطليان والإمام يحيى، ولكنه لم ينجح إلا في مفاوضاته مع الملك عبدالعزيز بواسطة ابن عمه السيد مرغني، فعقدت بينهما معاهدة مكة سنة ١٣٤٥هـ، التي بموجبها وضع ما تبقى من تهامة الأدارسة تحت حماية الملك عبدالعزيز، وبقيت إدارة الداخلية بيد السيد الحسن إلا أنه صار عاجزاً بعد سنتين عن إدارة الأمور وتأمين المصالح وجباية الأموال الأميرية مما أدّى إلى اختلال الإدارة.

وفي جمادى الأولى سنة ١٣٤٩هـ طلب من جلالة الملك أن يتولى إدارة البلاد والمالية بواسطة من يعينهم من المأمورين.

وصار للسيد الحسن الإدريسي مقام مستثنى ممتاز مراعاة لمركزه وكرامته.

وفي سنة ١٣٥٠هـ تأسس في مصر حزب باسم (حزب الأحرار الحجازي)، وحصل على مساعدات مادية من بعض من يهمهم الأمر، وقد سافر أحد أعضائه إلى مصوّع ومنها إلى اليمن واتصل بالأدارسة سرّاً، وأشعل في رؤوسهم =

= الفتنة، ووضعوا خطّة للقيام بالثورة في تهامة في الجنوب، فتقابلها في الوقت نفسه ثورة في الشمال يقوم [بها] حامد بن رفاده [شطب على قول المؤلف: ولكنهم لم ينتظر بعضهم البعض في تطبيق المواعيد. وفي هامشه بخط مغاير: لم يحصل هكذا]. فعلى أثر خلاف بين السيد الحسن الإدريسي وأمير تهامة فهد بن زعير ارتفع أمره إلى جلالة الملك، فأمر بإيفاد لجنة للنظر في الخلاف وإصلاح ذات البين، وإرضاء الإدريسي، وسافرت البعثة- وعلى رأسها الشيخ حمد السليمان الحمدان، وكيل وزارة المالية، والشيخ خالد أبو الوليد القرقني- على سيارات، ومعها قليل من الجند وتباريهم قوة أخرى بطريق البحر، ولكن الإدريسي لم ينتظر قدوم البعثة، فباغت الأمير فهد بن زعير والموظفين السعوديين، فقبض عليهم، وقام بثورة مسلحة، وأعلن العصيان والاستقلال.

ومن حسن الصدف أن الثورة حدثت واللجنة في طريقها إلى (صبيا)، فأبرق جلالة الملك للجنة أن تتوقف إلى أن يتم الاستعداد لقمع الثورة، [شطب المؤلف على قوله: ولكن حدث خلل في جهاز آلة اللاسلكي فلم تستقبل الإشارة.

كتب مكانه ما يلي: ولكن اللجنة كانت قد غادرت القنفذة، فلم تصلها البرقية] ومضت اللجنة في طريقها، وإذا هي أمام الثورة وجهًا لوجه، فكان لا بد من عمل سريع حازم أوحى به الموقف. [هنا شطب المؤلف على قوله: فهجمت اللجنة بسياراتها وأجرت مناورة وصار لضوضاء السيارات ومدافعها فعلها في نفوس الثائرين، فهرب بعضهم، واستسلم بعضهم، وقدمت النجدة من جهة البحر، وفكّ المسجونون من السجن، وفرّ الأدارسة. انتهى. وجاء بعده ما يلي:

فنزل الجنود البحريون ليلاً وهم من الدواسر بقيادة ابن درعان، وهاجموا جيزان، وفي الصباح وافتهم السيارات بمن عليها من جهة البر، وتم احتلال جيزان وتواردت الإمدادات من البحر، ومن أبها، [تعليق بخط مغاير فيه: من عسير وعلى رأسها القائد المشهور عبدالوهاب أبو ملحة] ففر الأدارسة من صبيا، وفُكّ المسجونون، وقضي على الثورة تمامًا».

وكتب في الحاشية بخط مغاير: «بحث الأدارسة يحتاج لتصحيح».

١٧

موقف جلالته في الحرب العامة(١)

(ص ٩٦)

إذا تأملنا العلاقات التركية النجدية وتصفحنا تاريخها، وجدناها مكتوبة بالدماء، إذ لم تصف العلاقات يومًا ما، فقد كانت سلسلة حروب طويلة وهجوم مستمر من جانب الأتراك، ودفاع مستميت من جانب النجديين، ولولا الدولة العثمانية لكان لهؤلاء شأن غير شأنهم اليوم، ولغدت الجزيرة العربية كلها مملكة واحدة تدين لحكومة واحدة، هي الوحدة العربية التي يتمناها كل عربي، ويتخيلها، فيطرب لها، ويفزع لشبحها المهول قلب الدولة العثمانية سابقًا والدول الاستعمارية في الوقت الحاضر.

نعم لولا الدولة العثمانية وبثها تلك الدعايات العديدة ضد الوهابية وصوروها على غير حقيقتها، لانقاد الناس لأهل نجد انقيادهم للمصلحين، ولو علم الناس حق العلم تلك الحقيقة لما نفروا منهم ذلك النفور، ولسلموا بمبادئهم ودانوا لهم، ولولاها لما تكالبت عليهم أمراء الأطراف من كل جانب، ولولاها لما تصدى محمد علي باشا لحربهم، ولما حدثته نفسه بغزو نجد برغم تخوفه منهم، فقد كان أمامه ما هو أهم.

(١) العنوان في النسخة ب: «موقف جلالته في الحرب العظمى الأولى» وكتب المؤلف منها صفحة واحدة ولم يكملها، ثم أعاد صياغتها - دون تغيير في المضمون - وفق الشكل المثبت.

نضال وصراع وعراك دام مدة قرن ونصف قرن، وانتهى سنة ١٣٣١ بسقوط الأحساء بيد ابن سعود.

هذه الحروب الطاحنة والدماء المهراقة والقسوة الفظيعة من طبيعتها أن تولّد البغضاء والعداوة وأن يتوارثها الأبناء عن الآباء.

وهذا العداء كان - وما يزال - مستمرًا طيلة القرن والنصف يخبو تارة ويذكو أخرى، ومن طبيعة الأعداء أن ينتهز بعضهم الفرص للكيد بالبعض، وما أسرع مبادرة الدولة العثمانية إلى اغتنام الفرص واهتبال الظروف للنكاية بأهل نجد والإضرار بهم، وما كانوا في جميع حالاتهم معها غير مدافعين مجاهدين.

ولكن عبدالعزيز بن سعود الملك العربي الشهم ترك الفرصة السانحة للانتقام تمر وتنقضي بإرادته ورضاه، فأبدى تلك الغيرة العربية الإسلامية بوقوفه على الحياد التام إزاء الأتراك في الحرب العظمى برغم المساعي العديدة التي بذلت له، وما ذلك إلا لأنه يعدّ نفسه حاميًا للدين الإسلامي، والعالم الإسلامي يومئذ ملتف بعواطفه حول عرش الخلافة، ولما لم يكن مركزه يؤهله للمغامرة في دخول الحرب، آثر الحياد متناسيًا الأحقاد والإساءات العديدة خدمة للإسلام وخوفًا على بنائه أن يتصدع.

***

استولى ابن سعود على الأحساء والقطيف والجبيل، فاقتطع نصف ساحل الخليج الفارسي الغربي، وفي الخليج الفارسي صخرة من صخور

طريق الهند لا بدّ من الاصطدام بها، وما كانت إنكلترا لتحسب له حسابًا قبل ذلك، وهاهي الآن ترسل وفودها تخطب الودّ، وكانت اجتماعات في العقير وملح بقرب الكويت لم تسفر عن اتفاقات، إلا أنها أوضحت النوايا، وأدّت إلى حسن التفاهم.

واتفاق إنكلترا مع ابن سعود حيويّ لها حتى تتسنى لها مقاومة النفوذ الألماني الذي ألقى جرانه على المملكة العثمانية ومن ضمنها العراق، ولكن تركيا ما زالت تؤمل بسط نفوذها على نجد بعد تلك الإساءات المتعددة، فأرسلت وفدًا برئاسة السيد طالب باشا النقيب، فعقد اتفاقًا كسائر اتفاقات الحكومة العثمانية التي لا تتعدى كونها حبرًا على ورق.

***

سنة ونصف انقضت على سقوط الأحساء، فشبت الحرب الكونية العظمى، وخاضتها تركيا في صف ألمانيا، وهاهي إنكلترا تمد إلى ابن سعود يد المصافحة. آنت إذن ساعة الانتقام، وأزف زمن الاقتصاص، إنما المسألة يومئذ لم تكن مسألة الترك أو آل عثمان، وإلا لكانت المبادرة إلى الانتقام أولى وأصوب، ولكنها مسألة العالم الإسلامي، وعرش محمد رشاد الخامس رمز للخلافة الإسلامية.

وبدون أن يستند ابن سعود يومئذ على مساعدة ما من الإنكليز كان بوسعه لوحده أن يهاجم الحجاز فينتقم لآبائه ومن خصومه، بيد أن النخوة العربية والحمية الإسلامية جعلته يطرح العواطف جانبًا، وينتهج الخطة

القويمة التي شرفته في نظر العالم الإسلامي أجمع، ولولا دقّة مركزه وكونه محاطًا بالثلاثة البحور التي هي تحت سيطرة الإنكليز لما تردد لحظة[1] في الدخول إلى جانب الأتراك، ولكنه آثر البقاء على الحياد، فلا يطيع الإنكليز، ولا يساعد الأتراك، وزاده تمسكًا بموقفه احتلال الإنكليز للبصرة وتقدمهم في العراق، على أن هناك ما يبرر محاربته للترك؛ لأن والي البصرة سليمان شفيق كمالي قد عقد معاهدة مع ابن رشيد على شرط أن يحارب ابن سعود، وأعطاه عشرة آلاف بندقية، وكمية وافرة من الذخائر والأموال، فتغاضى عبدالعزيز عن ذلك كله ولم يرض لنفسه أن يكون أحد المعاول في هدم صرح الإسلام أحوج ما كان إلى ذلك.

وبرغم ذلك كله، ومع أن الأتراك تقهقروا في العراق، نراه وقد جاءه الإنكليز وهم يرون فيه عدو الأتراك اللدود يلوحون له بالذهب البرّاق، ويعرضون عليه عرش الخلافة بتاجه وصولجانه، يعتذر، ويشير عليهم بالشريف حسين - شريف مكة- قائلاً: إنه بحسبه ونسبه جدير بتسنم ذلك العرش، فلفت أنظارهم إليه.

والشدائد هي المحك، فعدو الترك الألد ابن سعود يقف على الحياد، بينما صنيعتهم وربيبهم الشريف حسين يكون أول من غرز السنان بين أكتافهم، و: جزى الله الشدائد كل خير.

وإني لأكال للحم بني أبي ولست بمهديه إلى كل جازر

(١) في النسخة ب: «بتنفيذ الخطة».

١٨
جلالتـه والحسـين
(ص ٩٧)

الأشراف ونجد:

كل من يتصفح تاريخ نجد القديم يجد بين آونة وأخرى غزوات وحملات يجهزها أشراف مكة على قبائل نجد وبلدانه لبسط سيادتهم وإظهار قوتهم، ولكن نتائجها لا تتعدى أوقاتها إلى أن ظهر الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فكان من أمر الشريف غالب ما كان، وأسفرت النتيجة عن استيلاء آل سعود على الحجاز، وختمت تلك الحوادث بمأساة الدرعية التي تقدم تفصيلها، ولم يجر بعدها ما يهم ذكره إلى أن[١] تولى إمارة مكة الشريف حسين بن علي، وهو في أول أمره اتحادي قح ينتهز كل سانحة ويغتنم كل فرصة لإرضاء الاتحاديين، وكانت تصريحات ابن سعود بخصوص الوحدة العربية تقلق باله كما تقلق بال أسياده؛ لأنه يخشى ألا يفوز منها بحصة الأسد. أضف إلى ذلك البغضاء الموروثة من الآباء والنظر إلى أهل نجد نظرة الحقد والاحتقار.

وكأن الأتراك رأوا التوازن السعودي / الرشيدي بدأ يختل برجحان كفة ابن سعود، فأرادوا تثقيل الكفة الشائلة بالشريف حسين؛ ليشغل الكفة الراجحة من جهة الغرب لتخفف ضغطها عن الشمال، وقد تطوع الحسين

(١) في الأصل: إلى أن إلى أن. مكررة.

لهذه المهمة؛ ليفوز بالرضى، ويظهر بمظهر صاحب الدرجة الأولى بين أمراء العرب، فخرج سنة ١٣٣٠[1] بالروح التي خرج بها الشريف غالب قبله، فتشابهت الأسباب والنتائج، وإن في التاريخ لعبراً، وإن فيه لدروسًا مفيدة، ولكن الحسين لم يعرها أدنى التفات.

خرج - بلاسبب - ليحارب نجدًا إلى أن حل أرض عتيبة من نجد، وكان عبدالعزيز قد أرسل أخاه سعد بن عبدالرحمن؛ ليستنجد بعتيبة في بعض غزواته، فما كان منها إلا أن قبضت عليه، وسلمته هدية للشريف حسين - والبدو مع القوي - فأخذه رهينة عنده؛ ليساوم عليه في مطالبه، وتجهز عبدالعزيز لإنقاذ أخيه، فكانت مناورات تلتها مفاوضات، انتهت[2] بإطلاق سراح سعد مقابل معاهدة باسم الحكومة العثمانية، كانت مهزلة من جملة المهازل المتناقضة التي مثلت تلك الأيام.

وبرغم وقوع الصلح بعد ذلك، فإن الشريف آوى إليه أبناء سعود بن فيصل المقاومين لعبد العزيز، والهزازنة اللاجئين منه، فجهزهم، وأعادهم للمقاومة بعد أن حرض عتيبة على القيام بنصرتهم وشدّ أزرهم.

كل هذا وعبدالعزيز لم يأل جهدًا في طلب رضاه ومجاملته وتذكيره بالعهد والصلح، والحسين لا يزداد إلا تصلبًا وعنادًا وصلفًا أمام لين عبدالعزيز الذي حسبه ضعفًا.

---

(١) في النسخة ب كتب في الحاشية بخط مغاير: ١٣٢٩هـ.

(٢) في النسخة ب: «انتهت بالصلح بواسطة خالد بن لؤي كما تقدم مفصلاً في موضعه».

وفي تلك الظروف كانت دعوة الإخوان قد انتشرت وعمت كل القبائل النجدية ومن أكبرها عتيبة، وبذلك خسر الشريف معونتها ومعونة غيرها من القبائل، وزاد الطين بلّة أن أهل تربة والخرمة وكبيرهم الشريف خالد بن منصور بن لؤي كانوا على مذهب السلف[1] من عهد سعود الكبير، وتجددت عندهم الدعوة، فَدَيَّنوا كلهم[2]، وانسلخوا عن الحسين قلبًا وقالبًا وهو يدعي السيادة عليهم، ويعدهم جزءاً لا يتجزأ من الحجاز، فازدادت أضغانه وأحقاده، وليته عالج المسألة بالحسنى، ولكنه أخذ يعالجها بالصلابة وإظهار العداء لكلما [لكل ما] هو نجدي حتى الحجاج من النجديين كانوا يعاملون منه ومن عماله معاملة غير مألوفة، وما كاد يظفر بأمنيته ويعاهد الإنكليز أيام الحرب على الثورة ضد الأتراك، وما كاد السر مكماهون يعطيه بنوده الخمسة، أو ما يسميه هو بمقررات النهضة[3]، ومنها الاعتراف به ملكًا على العرب، إلا وأصبح يعد نجداً من جملة المملكة الهاشمية، ولم لا؟ أوليست نجد من بلاد العرب؟ أولم يعترف له الإنكليز

---

(١) في النسخة ب: «السلف الصالح».

(٢) في هامش النسخة ب: «شاع استعمال هذه الكلمة بين قبائل البدو، فلان دَيَّن؛ أي دخل في الدين، بمعنى التحق بالإخوان».

(٣) في هامش النسخة ب: «استثنى الإنكليز ما هم مرتبطون فيه بمعاهدات والتزامات مع حلفائهم، أو أصدقائهم من العرب، ومن جملتهم ابن سعود، ولكن الحسين اتكالاً على ظاهر بريطانيا لم يطلب منها إيضاح بواطن تلك المستثنيات». ومراسلات الشريف حسين مع السير ماكماهون نشرت عدة مرات، انظر مثلاً: انطونيوس، جورج، يقظة العرب ص ٢٥١-٢٧٥.

بتملكه على العرب؟ وكان يحسب أن العالم بأسره ملك للإنكليز يهبونه لمن يشاؤون، وذلك الشرط الذي اشترطه على حليفته في مقررات نهضته وإلزامه لها بمساعدته فيما إذا حدثت ثورة أهلية داخلية لم يكن يقصد منه إلا نجدًا لعلمه بصلابة عودها بعد أن عجمه مرارًا فذاق مرارته، وكاد يكسر ثناياه.

فأرسل إلى الأمير عبدالعزيز (رئيس نجد) كما يسميه هو، عدة صرر مصتّمة من ذهب الثورة، والظاهر أنه يعتبرها مرتبات لعبدالعزيز الوالي على نجد من قبله كما يصوره له خياله وتمثله أوهامه وآماله ومطامعه. ولما كتب له عبدالعزيز مستفهمًا عن مغزى تلك الهدية[1]، أجابه بغلظة قائلاً: «أنت يا ابن سعود مجنون أو سكران؟!» ولسان حاله يقول: ألا تعلم أنني ملك العرب أجمعين[2].

وكان خالد بن لؤي وأهل تربة والخرمة قد أعلنوا انفصالهم عن الحسين وانضمامهم إلى نجد، فهاج هائجه، وأرسل عليهم عدة حملات يقودها الشريف شاكر[3]، فباءت كلها بالخذلان. فسكت على مضض؛

---

(١) زاد في النسخة ب: «وعارضًا عليه الاستعداد للقيام معه بالمال والجند، ولكنه اقترح عليه تحديد الحدود بين نجد والحجاز».

(٢) نشر الزركلي الرسائل المتبادلة بين الملك عبدالعزيز والشريف حسين حول الموضوع نقلاً عن أصولها المحفوظة في الشعبة السياسية بالرياض. الزركلي، شبه الجزيرة ص٣٠٨-٣١٥.

(٣) الأمير شاكر بن زيد بن فواز من آل عون من البيت الهاشمي، شارك بقيادة جيوش الشريف حسين ضد الملك عبدالعزيز، وأثناء إعلان الثورة العربية، توفي =

لأن ابنه الأمير عبدالله قائد الجيوش الشرقية - أي المعدّة لفتح الجهة الشرقية: نجد - الأحساء - القطيف في برنامج الآمال - كان مشغولاً بمحاربة فخري باشا [في المدينة](1) إلى أن تم له الاستيلاء عليها في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٣٧.

وقعة تربة:

لم يكد الأمير عبدالله يستولي على المدينة المنورة، ويستحوذ على ما خلفه الأتراك من المؤن والذخائر الحربية حتى صمم على الزحف إلى تربة، ولكنه استعمل طريقة التمويه والمخادعة، فكاتب عبدالعزيز بعبارات منمقة ذرًا للرماد؛ لئلا يمد أهل تربة بقوات يستعينون بها على الدفاع، وكان الأمر لم يخف على عبدالعزيز، فأرسل سرية من الإخوان بقيادة سلطان بن بجاد للمحافظة على أهل تربة، وكتب إلى حكومة الإنكليز يخبرها بنوايا الشريف نحوه؛ لأن الإنكليز قد تعهدوا لعبد العزيز بكف كل عادية تأتيه من جانب الحسين مقابل الكف عنه؛ لئلا تتعرقل أعمال الثورة التي قام بها ضد الأتراك، بينما هم يوهمون الحسين بأنه ملك العرب.

وفي الواقع لو أن الحسين اقتدر على ضم البلاد العربية إلى مملكته بالقوة لما تردد الإنكليز وغيرهم في الاعتراف به شأنهم مع غيره، ولكنه

= سنة ١٣٥٣هـ. العبادي، الأمير شاكر بن زيد، ومسيرته من خلال الوثائق التاريخية. وتضمن هذا الكتاب وثائق ذات علاقة بالخلاف بين الملك عبدالعزيز والشريف حسين ومشاركات الشريف شاكر فيها.

(١) زيادة يقتضيها السياق من النسختين أ و ب.

يريد منهم أن يخضعوا له العرب، ويسلموهم له غنيمة باردة، ولما لم يحصل عبدالعزيز على جواب شاف وتأكد لديه أن الأمير عبدالله ترك عشيرة ووجهته جبل حضن، ومنه سيقطع الصحراء إلى تربة، تجهز في اثني عشر ألف مقاتل، وكتب إليه يذكره بتعهداته السابقة، وكان الأمير في ثمانية آلاف مقاتل فيهم ألفان من الجند النظامي، ومعه علاوة على استعداداته من معدات الثورة كافة ما استولى عليه في المدينة من العتادات الحربية.

وفي ٢٤ شعبان سنة ١٣٣٧ صابح بلد تربة بجنوده، وكان قد أرسل قبل ذلك صنائع له من أهلها تظاهروا بالانضمام إلى جماعتهم، ثم ثاروا بهم، وسلموا له البلد، فاستولى عليها بسهولة[١].

وكان خالد بن لؤي وقومه، وسلطان بن بجاد مع سريته في الخرمة، فلما سمعوا بالخبر فزعوا لملاقاته، وأتتهم كتبه بالتهديد والوعيد، وقال لرسوله: «قل للخوارج: نحن ما جئنا لأجل تربة والخرمة، فسوف نصوم رمضان هنا، ونعيد الأضحى في الأحساء» والأحساء التي على ساحل الجزيرة الشرقي هي التي تتمم مهمة الجيوش (الشرقية) الهاشمية[٢].

(١) زاد في النسخة ب: «وبدأ أعماله الانتقامية بأن قتل الطماما، وهم تجار من أهل نجد، ومعهم بضعة ناس من الموالين لأهل نجد، وقد قتلهم صبراً بدون مبرر».

(٢) زاد في النسخة ب: «وكان قد طاف بالرسول على الجيش والجند النظامي والاستحكامات والمدافع لإرهابه، وأمره أن يخبرهم بما رآه. وكان قصده =

فصمم خالد وسلطان على مهاجمته وكانا في ألف وخمسمائة مقاتل، ولم تنتصف ليلة ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٧ والأمير في خيمته يحلم بهذا الفتح الكبير إلا وقد هاجمه الأخوان وهم ساكتون.

هو الصمت الرهيب المخيم فوق تلك الأشباح المتسللة نحو معسكره، وكانت وجهة خالد نحو مخيم الأمير، وتوجه سلطان إلى خنادق العساكر النظامية، ولفت الخيل من وراء معسكر الجيش الهاشمي لتباغته من الخلف، ويا لها من ليلة حالكة الظلام ابتسم فيها الموت بأسنانه ونيوبه البيضاء اللامعة. هي سيوف الأخوان وخناجرهم، فكان لصمت السلاح الأبيض فيها فتك ولا فتك القنابل في دمدمتها وهولها، واختلط الحابل بالنابل، وفتك الجنود بعضهم ببعض في تلك المجزرة البشرية الهائلة، وقد نجا منها الأمير عبدالله ومعه قليل من خواصه بأعجوبة تاركًا كل شيء حتى ساعته وأشيائه [وأشياءه] الخاصة.

وبعد الوقعة بخمسة أيام جاء عبدالعزيز بأهل نجد وقد كفاه الله القتال، وكانت الجنود المتحمسة تنادي: إلى الطائف إلى الطائف. وهي بلا ريب كافية للاستيلاء على الحجاز برمته يومئذ، والجزاء من جنس العمل، ولكن حكمة عبدالعزيز تغلبت على حماس الإخوان.

= إرهاب خالد بن لؤي وجماعته، وذلك من سوء تدبيره؛ فقد ارتسمت المواقع في ذهن الرسول، وكان حصيفًا ذكيًا، فقد وصف لهم المواضع الحربية وصفًا دقيقًا، وهون عليهم قوة الأمير عبدالله، الأمر الذي عاد على الأمير بأعظم الوبال».

أما الشريف فالتجأ إلى حليفته محتميًا بها، فبادرت ملتمسة من عبدالعزيز باسم الصداقة ألاّ يزحفَ على الطائف، وكان بوسع عبدالعزيز أن يقنعها بالحجة الدامغة المفحمة ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1] [البقرة: ١٩٤] ولكنه رأى بثاقب فكرته أن الوقت لم يحن بعد، وأن الحكمة تقضي بالتريث، فلا بأس من إجابة الالتماس، وتهور الحسين لا يقف عند حد، وهو الذي يخلق الفرص لأعدائه كل وقت وحين[2].

القوة من الضعف:

من غريب أطوار الحسين محاولته إيجاد القوة من الضعف، فاعتبر نفسه بعد هزيمة تربة[3] غالبًا لا مغلوبًا، وعدّ غالبه تابعًا يملي عليه أوامره كما شاءت أوهامه أن تصورها له، وقد كان الأجدر به بعد الهزيمة أن يلاين خصمه ويهادنه إلى أن تحين له فرصة الانتقام، ولكنه أبى أن يتنازل عن دعواه وكبريائه مع ما أحاطت به من ظروف سيئة بالنسبة لسياسته ومطامعه.

والرجل الحصيف يجب عليه أن يماشي وقته، ويزن قوات أعدائه، ويحسب لهم كل حساب، خصوصًا وأن حلفاءه قد خذلوه، فلم يفوا له

(١) وفي الأصل: ومن اعتدى.
(٢) كتب في حاشية ب بخط مغاير: «لا بد من تعديل البحث بحيث يشار فيه لبعض الوثائق».
(٣) في النسخة ب: معركة تربة.

بتعهداتهم، ولم يعترفوا به ملكًا إلا على الحجاز فقط.

ولم يعد التوازن النجدي موجودًا بتغلب عبدالعزيز على آل رشيد، وتغلغل نفوذه وملكه في كبد البلاد الشمالية إلى ما وراء الجوف، وقد دانت له بلاد عسير في الجنوب، وتلك الخريطة التي لوّن ابن سعود معظمها بلونه الأخضر انزوت لها حدود الحجاز وتقلّصت إلى حدودها الطبيعية، كل ذلك لم يكبح جماح عناده ولا ألان من شكيمته، وكلما رأى آماله تضمحل - وماكانت سوى حلم ليل- أرغى وأزبد وازداد هيجانًا وعداء[1]، فشدد الاضطهاد على أهل نجد في الحجاز، ومنع النجديين من الحج، الذي هو ركن من أركان الدين، تشفيًا وانتقامًا، وأخذ يكاتب ابن رشيد ويعاهده على محاربة خصم الجميع، وعبدالعزيز يقابل كل ذلك بصدر رحيب وأناة وصلت به إلى الفوز في النهاية.

والحلفاء الذين خيبوا آمال الحسين فيهم، رأوا أن يلطفوا الحالة بالمسكنات الوقتية، فقسموا مملكة الحسين العربية إلى أربع ممالك: العراق، وسوريا، وفلسطين، وشرق الأردن. ونصبوا أبناءه ملوكًا وأمراء على بعضها.

والغريب في متناقضات الحسين عدم اعترافه بوضعية تلك الممالك، ورضاه عن تولي أبنائه عليها اسميًا، بينما الحول والطول للدولة المنتدبة،

(١) زاد في النسختين أ و ب: «فأخذ يبث الدسائس، ويهيج آل رشيد، ويمد لهم يد المعونة، ويساعد آل عائض في عسير، ويرسل معهم قوات لمحاربة آل سعود كما تقدم».

فكانت مملكة العراق وملكها فيصل بن الحسين الذي لبس تاجها بعد أن نزع عنه الجنرال غورو تاج سوريا، وإمارة شرق الأردن[1] وأميرها عبدالله بن الحسين بطل تربة على أمل أن يلبس تاج فلسطين الملحقة بها.

وبين مملكة العراق وإمارة شرقي الأردن، وبين نجد حدود وقبائل ومنهوبات كانت مواضع أبحاث مؤتمري المحمرة والعقير.

وكان العداء من جانب الحسين قد بلغ أشدّه، فتلقّى ابن سعود دعوة من الحكومة البريطانية بصفتها المهيمنة على الإمارات الشريفية لعقد مؤتمر يفض الخلافات.

مؤتمر الكويت:

تم الاتفاق على عقد المؤتمر في بلد الكويت لموقعها الجغرافي، وموقفها الحيادي، وكان عبدالعزيز قد قبل الدعوة الموجهة إليه جاعلاً شرطه الأساسي مفاوضة مندوبي البلاد الشريفية كلاً على حدته، وفي حدود ما يتعلق بشئون [بشؤون] بلاده خاصة؛ لئلا يوحد أولئك الوفود جبهة واحدة.

لأن مشاكل العراق وشرق الأردن المعلقة كان في الإمكان حلها وتسويتها بعد المناقشات والإقناع، ولكن عناد الشريف حسين لا حد له ولا عرض ولا جوهر، وإذا فرضت استحالة الاتفاق مع الحجاز، فإن الاتفاق مع العراق وشرق الأردن كان في حيز الإمكان.

(١) زاد في النسخة ب: «وقد تحولت فيما بعد إلى مملكة أردنية هاشمية».

انعـقـد المؤتمر في الكويت سنة ١٣٤٢[١]، وحضره مندوبون عن العـراق وشـرق الأردن. أمـا الحسين، فـإنه لما علم بإخـفـاق خطة الاتحاد المرسومة، وعدم تعلّق مطالبه بمطالب أبنائه أعلن امتناعه عن إرسال مندوبيه زاعمًا أنه لم يعترف بحكومة نجد، فلا يسعه أن يفاوضها مفاوضة الندّ للندّ، ونسي أنه قبل مبدئيًا بعقد ذلك المؤتمر، وبعد لأي ما قبل، ولكنه لم يرسل مندوبًا عنه وقت انعقاد المؤتمر ثانية.

وقد تكررت الجلسات، وتأجّل المؤتمر مرتين، ولم ينته إلى نتيجة، لأن وفد شرقي الأردن على الخصوص أبـدى تصلبًا لا مبرر له ممليًا إرادة صاحب الجلالة الهاشمية، فتعدى الحد المرسوم لـه مطالبًا بإعادة إمارتي حائل وعسير إلـى أهلهمـا، وإرجـاع تربة والخرمة إلى الحجاز، وعلاوة على ذلك علق إبرام مـعـاهـدتـه مع نجد بإبرام مـعـاهدة الحجاز ونجد. والحسين لا يكفيه من نجد إلا الخضوع له، فكانت مهزلة في صورة جد، وكانت مناورة لم يحكم أصحابها وضعها - وتفصيل ذلك في «الكتاب الأخضر النجدي»[٢] - وعلى أثر ذلك انسحب الوفد النجدي بعد أن لم يبق في القوس منزع.

---

(١) زاد في النسخة ب: «برئاسة الكرنل نوكس، رئيس قناصل بريطانيا في خليج فارس».

(٢) صدر «الكتاب الأخضر النجدي» عن وزارة الخارجية ونشر بأمر الملك عبدالعزيز.

الخلافــــة :

وإن تعجب فعجب تفاؤل الحسين في هذه الأهوال المظلمة معللاً نفسه بالأماني والآمال.

لئن غلبنا ابن سعود في الحرب فسوف نغلبه في السياسة، فكان سفره إلى عَمَّان، وكانت مهزلة مبايعته بالخلافة العظمى، وتسمي جلالته بأمير المؤمنين(١)؛ مما عاد عليه بأوخم النتائج وأسوأ العواقب، وكان يقصد من تسنم (اسم) الخلافة انقياد العالم الإسلامي له، وقد يجبر ابن سعود وغيره من ملوك العرب على الانقياد له طوعًا أو كرهًا؛ لأنه الآن خليفة رب العالمين لا شريف مكة، فلا يبقى مناص لأي أمير أن ينكر عليه حقه في الهيمنة.

على أن العالم الإسلامي مقته ونفر منه، وأنكر حقه في تلك الخلافة؛ لأنه يرى فيه الثائر على الخليفة العثماني، والجاني على الإسلام في أحرج مواقفه، فهو في نظر المسلمين مغتصب عاد.

أما العرب وخصوصًا سكان قلب الجزيرة فما كانوا يقيمون للخلافة وزنًا أيام سطوتها وقوتها في يد العثمانيين، فكيف وهي بيد الحسين؟

والدول الأوربية ما كادت تتنفس الصعداء من خلافة الأتراك إلا وفاجأها الحسين بخلافة جديدة عربية، وهي ولا ريب تحسب حساب نفوذ تلك الخلافة في سكان مستعمراتها المسلمين.

(١) زاد في النسخة ب: «ظل الله في الأرض، من طاعته فرض».

والنتيجة أن الحسين نصب نفسه هدفًا للعالم الإسلامي، والأمة العربية، ودول أوروبا الاستعمارية إزاء[1] اسم أجوف لا يفيده ماديًا ولا أدبيًا.

(١) في النسخة أ و ب: لقاء.

فتح الحجاز

انقطعت مفاوضات مؤتمر الكويت، وانقطع معها كل أمل في حسم الخلافات بالطرق السلمية والمفاوضات الكلامية:

ولو كان رمحًا واحدًا لاتقيته   ولكنه رمح، وثان، وثالث[1]

فالدسائس لإثارة القبائل النجدية وتهييج القبائل المعادية لها أخذت تحيط بنجد من ثلاث جهات: العراق، وشرق الأردن، والحجاز.

وهناك مسألة تقلق بال عبدالعزيز، وهي إلحاح الإخوان عليه بالحج وتأدية ركن من أركان الإسلام منعهم الحسين عنه، وكان عبدالعزيز يسوِّفهم، ويعدهم أملاً في تسوية المسألة بطريقة سلمية إلى أن يئس من ذلك بعدما تقدم[2].

وفي أواخر سنة ١٣٤٢ اجتمع ناس من كبار الإخوان في الرياض، وألحوا على الإمام عبدالرحمن في مخاطبة ابنه جلالة الملك؛ لأنهم ما داموا قادرين على الحج فلم يعطون الدنيئ في دينهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾[3] [البقرة: ١١٤].

---

(١) البيت لأبي بكر بن العربي المعافري، وقبله:

يهزُّ عليَّ الرمح ظبيٌ مهفهفٌ   لَعوب بألباب البرية عابثُ

المقري، أحمد بن محمد. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج٢ ص٢٣٧.

(٢) في النسخة ب: كما تقدم.

(٣) زاد في ب: «وليس المسجد الحرام ملكًا للحسين حتى يصد عن سبيل الله =

وبعد الأخذ والرد تقرر غزو الحجاز في أوائل سنة ١٣٤٣ بعد انتهاء موسم حج سنة ١٣٤٢ لئلا يحدث للحجاج ما يكدرهم أثناء اشتعال الحرب.

فتح الطائف:

وما لاح هلال صفر سنة ١٣٤٣ إلا وطلائع الإخوان قد ظهرت في الحوية، من قرى الطائف، وهي بقيادة خالد بن منصور بن لؤي، وسلطان بن بجاد بطلي تربة، ومعهما نحو ثلاثة آلاف من الإخوان[١].

ظهرت الطلائع على حين غفلة من حكومة الحجاز، فهبت مذعورة، وخرجت جنودها[٢] إلى الحوية للدفاع، فاشتبكت مع الإخوان بمعركة

= من آمن فهو حق لكل مسلم».

(١) في هامش النسخة ب: «من أهل تربة والخرمة بقيادة خالد بن لؤي، وأهل الغطغط برئاسة سلطان بن بجاد، وأهل الأرطاوي وأميرهم قعدان بن درويش، وأهل حلبان وأميرهم ماجد بن حميد، وأهل الروضة وأميرهم هذال بن فهد، والرين العليا وأميرهم حزام بن عمر، والرين السفلى وأميرهم [كذا في النسخة ب، وهو هذال بن سعيدان]، وأهل رنية وأميرهم فيحان بن صامل، وأهل ساجر وأميرهم عقاب بن يحيى، وأهل صبحا وأميرهم حزام الحميداني، وأهل عروا ورئيسهم جهجاه بن حميد، وأهل عسيلة ورئيسهم نافل بن طويق، وأهل العمار ورئيسهم عبدالمحسن بن حسين، وأهل عرجا وأميرهم ذعار بن زميع، وأهل النصف وأميرهم معيض بن عبود» وكتب على حاشيتها بخط مغاير: «من أين هذا؟». وأسماء هذه الألوية منشورة في الرحلات الملكية ص ١٢. والزركلي، شبه الجزيرة ص ٣٣٠.

(٢) في هامش النسخة: «كانت قيادة الجيوش النظامية بيد صبري باشا وزير الحربية، =

انهزم فيها جنود الشريف، وعادوا إلى الطائف، فأصدر الحسين أوامره إلى ابنه الشريف علي بمحاربة الإخوان وإخراجهم من الطائف، فصدع بالأمر وبادر بمن خف معه، ولحقته الحملة التي سقط الطائف في يد الإخوان وهي في طريقها، وما كاد الشريف علي يوافي الطائف إلا والإخوان على أبوابه ورصاصهم يتساقط على البيوت، وقد استولى الذّعر والفزع على كافة الأهالي وفي طليعتهم الأشراف، فاضطرّ الشريف علي ومن معه إلى إخلاء المدينة، ووصلت الفلول إلى مكة.

حادثة الطائف:

وعلى إثر خروج علي ومن معه من الطائف دخلتها طلائع الإخوان وقد انضم إليهم كثير من بدو الحجاز طالبي النهب والسلب، فكانت ليلة فوضى اختلط فيها الحابل بالنابل، وقتل أناس من كبار أهل الطائف والمصْطافين فيه، فاتخذ ذلك دعاة البيت الهاشمي وسيلة للتشهير بنجد وأهل نجد، وما كانت سوى نتيجة طبيعية للحرب. والحروب لا تخلو من عوامل النهب والقتل خصوصًا إذا دخل العسكر المهاجم المدن عنوة، ولظلام الليل يد كبرى في انتشار الفوضى والاضطراب حيث لا وازع ولا ضابط.

وإذا قسنا فعل الإخوان في الطائف بفعل الأمير عبدالله في تربة بعد

= الحربية، وقد أرسل الحسين، ابنه الأمير علي بجيش من الفرسان والهجانة عن طريق كرا، وبعث جيشًا آخر عن طريق السيل؛ ليطوق الإخوان».

استسلامها ودخوله بنفسه مع الجيش نهاراً على مرآه ومسمعه، لما وجدناه شيئًا مذكوراً، ناهيك بما لاقاه النجديون أنفسهم في حروب الدرعية والمدينة، ولكنها الأغراض تكبر الصغير وتصغر الكبير.

ومتى علمنا بعد ذلك بأن نتائج ليلة الطائف كان ضررها على حكومة نجد أكثر يثبت لدى طالبي الحقيقة أن الفعلة ارتكبها من ليس مسئولاً [مسؤولاً] عن عواقبها من غوغاء الجند ومرتزقة البدو ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]. والتاريخ يحاسب القائد على قتل نفس واحدة صبراً وعمداً في الوقت الذي يمجده بكثرة قتلاه في حومة الوغى، فمن الظلم والعار أن نلصق مسئولية [مسؤولية] الحادثة بالحكومة النجدية.

وقد اهتم جلالة الملك لهذا الحادث، وتكدر منه غاية [الكدر][2]، وعين لجنة لتقدير الخسائر، وعوض أصحابها، وترتب على ذلك إطالة مدة الحرب الحجازية النجدية سنة كاملة؛ لأن جلالة الملك منع الإخوان من التقدم بالزحف على جدة والحيلولة دون الحسين وطريقها، فتوقفت جيوشهم في مكة، وبذلك تمكن علي من إعداد التأهبات والاستعداد للحرب، وإلا لما بقي ساعة واحدة فضلاً عن كون هذه الحادثة المشئومة [المشؤومة] من أكبر عوامل ثورة الإخوان فيما بعد.

---

(١) جزء من آية وردت في السور التالية: الأنعام، ١٦٤. والإسراء، ١٥. وفاطر، ١٨. والزمر، ٧.

(٢) زيادة من النسخة ب.

وقعة الهدى[1] :

وأصدر الحسين أمره باستئناف القتال، وجهّز حملة ثانية وعلى رأسها

(١) وقعة الهدى كتبت في النسخة ب بأسلوب مختلف فيه زيادات جاء فيها :
«**الهدى** : بساتين وقرية بين الطائف ومكة محاطة بعقبات كأداء، وكان الأمير علي بن الحسين قد نزل بجيشه الذي جاء به من مكة في الهدى وانضم إليه صبري باشا ومن معه من الجنود النظامية.

وجاءتهم نجدة قوية من مكة قوامها ١٤٠٠ رجل من بين نظاميين وحضر وبدو مسلحين تسليحًا تامًا، وقد سيطرت هذه القوات على المواقع الحصينة في جبل كرا والعقبات المحيطة بالهدى.

وتقدم ألفان من الإخوان فهاجموا قوات علي التي استطاعت أن تصدّ هجماتهم عدة مرات، وفي كل مرة يعيدون الكرة باستبسال أشد. وكم لظلام الليل عند الإخوان من يد، فقد هجم أهل الغطغط بقيادة سلطان بن بجاد هجومًا زحزح الجند النظامي إلى الوراء عن مراكزه، فظنه البدو الحجازيون هزيمة، فولوا الأدبار، فتضعضع مركز الجيش الهاشمي، ضعفت معنوياته، ولم يترك له الإخوان فرصة، بل واصلوا هجماتهم، فاضطر الأمير علي إلى الانسحاب والتقهقر.

واتصل بأبيه تلفونيًا، وأخبره بالهزيمة، ولكن الأوامر الهاشمية صدرت بوجوب إعادة الكرة، واستعادة الطائف مهما كلف الثمن، ولكنه الأمر الواقع اضطر الأمير علي أن يعود بفلوله إلى مكة التي أصبح الباب إليها مفتوحًا، ولكن عبدالعزيز كان قد أصدر أوامره المشددة إلى الإخوان بالتوقف عن الزحف خشية أن يقع مثل ما وقع منهم في الطائف.

لست أدري ولا أي مؤرخ يدري تفسير نفسية الحسين بعد رجوع الأمير علي منهزمًا من معركة الهدى إلى مكة، وفي ذلك الأسبوع من ٢٧ صفر - ٧ ربيع أول توجه - وبعبارة أصح : فرّ - الأمير علي إلى جدّة، وانتقل كذلك جميع رؤساء الدوائر الهاشمية وأكابر أهالي مكة إليها. =

ابنه علي، فاشتبكت مع الإخوان في وقعة الهدى، وانتهت بانكسار الأمير علي، وكانت الأوامر المشددة قد صدرت من جلالة الملك إلى الإخوان بالتوقف عن الهجوم، فعادوا، ولم يتبعوا الفلول، وكان الحسين يريد أن يظهر بمظهره أيام الثورة، فلم يأبه لسقوط الطائف وانكسار الجيوش الهاشمية، فأخذ يشجع من حوله، ويهوّن عليهم أمر الإخوان، ولكنهم كانوا يعرفون الحقيقة فلا تؤثر فيهم تلك المظاهر، وقد أوفد هيئة إلى المفوضية الإنكليزية بجدة يعرض عليها استعداده لإعادة النظر في المعاهدة، ومعنى ذلك أنه سيسلم بشروط الإنكليز لقاء حمايتهم له، ولكن الوقت قد فات.

***

أصبحت[1] جدة بعد سقوط الطائف، ووقعة الهدى ملجأ لأكابر أهل الحجاز من علماء وتجار وموظفين، وكان الشريف علي قد لجأ إليها أيضًا، فاجتمع فيها زبدة أهل مكة والطائف، وقد أدرك علي - ذلك اليوم فقط -

= وبقي الحسين وحده مصراً على عدم الاعتراف بقوة خصمه متظاهراً بعدم المبالات [المبالاة]، لكنه عناد كعناد الأطفال، ومن لا يحسبون للمستقبل حسابًا، فجلالته لا يتنازل إلى الهرب أمام شرذمة من الإخوان، وقد أصبح كما قال الشاعر:

لايستطيع الانتصار ولا يطيق الانكسار

إلى أن أتاه الفرج من حيث لم يحتسب ببيعة الأمير علي إن كان الأمر على ظاهره كما يتناقله المؤرخون، أو أنه ختم ملكه بمهارة بارعة ليتفادى الهزيمة وجرح الكبرياء، إن كان هو واضع خطتها والمشير بها. ولله في خلقه شؤون» انتهى.

(١) ذكر في النسخة ب بعنوان: «الحسين يغادر جدة».

أن سياسة التصلب والعناد مع ابن سعود هي التي جرّت إلى هذه الحالة، وأن أباه هاوٍ عن عرشه لا محالة، فأراد أن يتلافى المسألة لعله يستطيع أن يغير الموقف، فأوعز إلى أهل الحجاز أن يخلعوا أباه ويولوه؛ ليدخل في مفاوضات جديدة مع ابن سعود، فتألفت هيئة[1]، وقررت خلع الحسين وتولية ابنه علي ملكًا دستوريًا على الحجاز فقط - أي لا أمير المؤمنين ولا ملك العرب - .

ومن عجائب القدر أن يظهر في الحجاز من يجرأ [يجرؤ] فيخاطب صاحب الجلالة الهاشمية (سيدنا)، ويصارحوه بوجوب التنازل وضرورة الإسراع في بتّ الأمر، وهنا فقط تحوّل تواضع الحسين الصناعي إلى تواضع حقيقي، فتنازل جلالته بعد أخذ ورد لا من جهة تنازله، بل من جهة تولية ابنه - إذا كنت أنا بطّال، فابني بطّال - وأخيرًا قبل بعد أن تمثلت له الحقيقة.

وقررت الهيئة باسم الأمة مبايعة علي ملكًا على الحجاز فقط، وأن يكون للبلاد برلمان وقانون أساسي تضعه جمعية تأسيسية، وبارح الحسين

(١) في النسخة ب: «وقد تألفت من أولئك المؤتمرين جمعية أطلقت على نفسها اسم - الحزب الوطني الحجازي - تولى رئاسته الشيخ محمد الطويل، وسكرتاريته السيد محمد طاهر الدباغ، وأعضاؤه جماعة من صفوة رجال الحجاز وجرت مفاوضات بين الحزب والملك حسين لحمله على التنازل عن الملك لابنه علي، وبعد أخذ ورد تنازل الملك حسين عن الملك في ٤ ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ، وفي ٩ منه غادر مكة إلى جدة، وبقي فيها معتزلاً الناس إلى ١٦ ربيع الأول».

مكة إلى جدة ومنها أقله يخته (الرقمتين) إلى العقبة، وقد استصحب معه ما عزّ وغلا من أثاثه وخزانته، وفيها أربعون صفيحة مملوءة ذهبًا[(١)].

وكان علي قد جاء إلى مكة ثم بارحها بعد أن أيقن بعجزه عن مقاومة الإخوان قاصداً جدة خوف أن يحال بينه وبينها.

فتح مكة[(٢)]:

وبعد يوم من مغادرة علي لمكة وصلت طلائع الجنود النجدية، فالجيش كله، ودخلوها محرمين فطافوا وسعوا، ونادوا بالأمان، ولم تزحف القيادة على جدة مكتفية باحتلال أم القرى، وكانت جدة على وشك الاستسلام لو تقدم الإخوان إليها، ولكن أوامر جلالة الملك كانت مشددة في التوقف عن ذلك خشية أن تقع حادثة كحادثة الطائف، وكان الذّعر والخوف سائدين في جدة، والملك علي بنفسه قد أعد عدته للهرب، وكان قد خاطب جلالة الملك في طلب استئناف المفاوضات طالبًا سحب الجنود النجدية، ووسط بعض مشاهير العالم الإسلامي وكبرائه، ولكن جلالته صمم على خلع كل من يمت إلى الحسين بسبب، وعلّق المسألة على رأي

(١) زاد في النسخة ب: «مع ما تبقى من ذهب الشورة. وقد جعل العقبة مقرًا له، وعمد إلى إمداد ابنه الأمير علي بما تيسر من رجال وعتاد حربي بمعاونة أمير شرق الأردن». وقد غادر الشريف حسين جدة في ١٦ ربيع الأول ١٣٤٣هـ، وكان في وداعه السيد أحمد السقاف - رئيس ديوانه السابق - ، والشيخ محمد الطويل - ناظر الجمارك - . الريحاني، تاريخ نجد وملحقاته ص ٣٤١.

(٢) العنوان في النسخة ب: دخول مكة وهو الأنسب.

العالم الإسلامي لاختيار من يتم الاتفاق عليه[1].

---

(١) في النسخة ب: كتب فتح مكة. بأسلوب مختلف جاء فيه: «دخول مكه: أقام الأمير علي بن الحسين في [مكه] أسبوعًا مترددًا بين البقاء فيها والدفاع، أو الانسحاب إلى جدة، ولم يبق لديه من الجنود سوى ٥٠٠ جندي قد حطمتهم المعَارك، وأفقدتهم معنويتهم الهزائم السابقة، وما إن أتته الأخبار بأن الإخوان قد وصلوا الزيمة في طريقهم إلى مكة حتى قرر الانسحاب إلى جدة ليقوم بالدفاع الأخير [في الحاشية بخط مغاير: الملك حسين هو الذي انسحب من مكة بعد دخول الإخوان الزيمة].

وبين خروج الأمير علي من مكة ودخول الإخوان، يومان تسنى خلالهما لبعض البدو والغوغاء نهب ما استطاعوا نهبه من بيوت الحسين وأبنائه

وفي ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ دخل الإخوان مكة ملبين محرمين بعمرة، ولم يتعرضوا لغير بيوت الحكومة بشيء، فهدأت نفوس الأهالي واطمأنوا، وأرسل خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد كتابًا إلى معتمدي الدول وقناصلها بجدة يخبرانهم فيه باحتلالهم مكة ويستسفران عن موقفهم تجاه هذه الحرب، وأعلناهم بمحافظتهما على حقوق رعاياهم عمومًا، فتلقيا جوابًا موقعًا من معتمد قنصل ملك بريطانيا، والقنصل العام لملك إيطاليا، ووكيل قنصل جمهورية فرنسا، ونائب قنصل ملكة هولاندا، ووكيل قنصل شاه إيران، يعلمونهما فيه وقوف دولهم على الحياد التام إزاء هذا النزاع.

ولو تقدم الإخوان إلى جدة لاحتلوها بدون مقاومة تذكر، ولكن عملهم في الطائف حمل السلطان عبدالعزيز على منعهم من التقدم خشية أن يحدث منهم ما لا تحمد عواقبه.

وفي ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٤٣هـ غادر السلطان عبدالعزيز الرياض قاصدًا مكة فوصلها في ٨ جمادى الأولى، فدخلها محرمًا وأتاه أهل مكة مسلمين، فرأوا في شخصيته ما بهرهم وغير أفكارهم بين عشية وضحاها، وقد أمر بنشر المنشور الآتي».

=

حصار جدة[1]:

وفي تلك الأثناء قدمت الباخرة رضوى من العقبة تقل النجدة التي أرسلها الأمير عبدالله لأخيه، وهي بقيادة تحسين باشا الفقير، وتوالت الإمدادات، وتواردت الذخائر والاستعدادات، وأقيم خط الدفاع بالمتاريس والأسلاك الشائكة محيطًا بجدة من البحر إلى البحر[2].

= والمنشور المشار إليه نشر بجريدة أم القرى العدد الأول وتاريخ ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ.

(١) العنوان في النسخة ب: حرب جدة. وبدأه المؤلف بقوله: «كان في توقف قيادة الإخوان عن احتلال جدة وتأخر قدوم سلطان نجد إلى مكة حتى جمادى الأولى فرصة ثمينة ومتسع من الوقت ليس لكي يقف الهارب متلفتًا بل ليقف مكابراً معانداً».

(٢) زاد في النسخة ب: «وقطع عن مكة كل شيء وقد ألف علي بن الحسين حكومة أسند رئاستها إلى الشيخ عبدالله سراج [في الهامش: الشيخ عبدالله سراج رئيس مجلس الوزراء، تحسين باشا الفقير وزير الحربية، السيد محمد طاهر الدباغ وزير المالية، الدكتور خالد الخطيب وزير الصحة، الشيخ محمد الطويل وزير الرسوم، عبدالقادر غزاوي وزير المواصلات، عارف الأدلبي وزير البحرية، الشريف محمد بن منصور وزير الداخلية، الشيخ فؤاد الخطيب وزير الخارجية]. وكانت باكورة أعمالها أن أبرقت إلى العالم الإسلامي مستصرخة به طالبة التوسط في عقد الصلح، وقامت بحملات قوية من الدعايات بكل وسيلة ممكنة، وقدمت إلى جدة عدة شخصيات محترمة لدى سلطان نجد ولها مقامها في نفسه، وهم: طالب باشا النقيب، وأمين الريحاني، وسانت جون فلبي.
كما قدم الشيخ المراغي من مصر برسالة من الملك فؤاد لهذا الغرض، كما عرض قناصل روسيا وإيران، وهولاندا، وساطتهم بصفتهم الشخصية لا الرسمية. =

وكان توقف القيادة النجدية عن الهجوم جعل المجال فسيحًا، ومكّنهم من الاستعداد والتحصين، ولم يصل جلالة الملك إلى مكة إلا في السابع من جمادى الأولى ومعه الجيوش النجدية، فبايعه أهلها، فنظّم الأحوال، وأسس مجلس شورى للنظر في مسائل البلد، وأقر أصحاب الوظائف على أعمالهم.

وكان علي قد قطع المواصلات عن مكة وحصرها من جهة البحر، ولكن الجيوش النجدية في عسير احتلت القنفذة وعلى أثرها سقطت الليث، فقضى ذلك على أهمية حصار جدة، وتواردت الأقوات من الهند وغيرها عن طريق الليث.

وفي جمادى الثانية بدأ حصار جدة، وكانت خطة جلالته الاستيلاء على مراكز الدفاع الأمامية والتضييق على المدينة بالحصار حتى تسلم تحاشيًا من الإضرار بها، وكانت الإمدادات ترد تباعًا من العقبة وشرق الأردن، وطالت الحرب وحان موسم الحجّ، فاتخذت كافة الإجراءات لتسهيل طرق

= فكان الجواب واحدًا هو اعتزال الحسين وأولاده الحكم، وترك مصير الحجاز للعالم الإسلامي يقرره في مؤتمر يعقد في الحجاز نفسه

ضرب نطاق الحصار على جدة وأحاطت بها الجيوش السعودية على مقربة من خطوط الدفاع، وجرت مناوشات وتبادل القذائف، وأهم معركة حصلت هي معركة المصفحات التي أخفق فيها الهجوم الهاشمي، ومني بخسائر فادحة، وكان أن تنازل الملك علي لأخيه الأمير عبدالله عن العقبة ومعان وشملتا بالانتداب البريطاني، والحسين لا يزال مقيمًا في العقبة يوالي إمداداته لابنه في جدة، فقرر سلطان نجد أن يستولي على العقبة».

الحجاج الذين أخذوا يتواردون عن طريق الليث والقنفذة برغم مساعي الشريف علي التي حاول بها عرقلة مجيء الحجاج تلك السنة؛ لئلا يطلعوا على حقيقة حال خصومه، وأخص مساعيه تلك الدعاية الواسعة النطاق التي قام بها أنصاره في الهند والقاهرة، ولكنها حبطت، وتمّ موسم الحجّ بكل راحة واطمئنان.

وكان أمام عبدالعزيز أمر، وهو حسم الداء من أصله، والأصل هو العقبة التي اتخذها الحسين مركزًا لإمدادات جدة، وأصبحت طريقًا للجنود التي يرسلها الأمير عبدالله من شرق الأردن، ففكر في الاستيلاء عليها حتى تضطر جدة إلى التسليم بلا قتال.

والعقبة تهم الإنكليز أكثر من سواهم لقربها من منطقة القنال وخطرها عليها، ولكونها مرفأ مهمًا لشرق الأردن، ومحطة كبرى للسكة الحديد المزمع انشاؤها، وكأنهم أدركوا نوايا عبدالعزيز أو علموا بالحملة التي جهزت لها من حائل، فما كان منهم إلا أن أجبروا الملك حسين على مغادرة العقبة، وأخذوه ضيفًا - شبه أسير- إلى قبرص[1]، وكانت مفاوضات ومساومات بين علي وأخيه عبدالله انتهت بتنازل علي عن العقبة ومعان بصفته ملك الحجاز لأخيه أمير شرق الأردن، وبعبارة أصح - للحكومة البريطانية - لقاء نصف مليون ذهبًا.

---

(١) زاد في النسخة ب: «ليصير بعيدًا عن الميدان الحربي والسياسي، وذلك في أواخر ذي القعدة سنة ١٣٤٣هـ». وعند هذا ينتهي مبحث حصار جدة في النسخة ب.

وهنا لا بد أن نهمس في آذان الذين يقولون تخرصًا: إن الإنكليز ساعدوا ابن سعود في حرب الحجاز ومالؤوه على ذلك. فنقول: إن الإنكليز وقفوا على الحياد فقط، وما كان خذلانهم للحسين إلا من بعد أن يئسوا من الاتفاق معه على تفسيرمواد معاهدتهم المرنة، وزادهم حنقًا عليه تقربه من خصومهم السوفيت، وإعلانه الخلافة التي سقط كابوسها عن الغرب بعد إسقاط الكماليين لها؛ لأن استقلال الحسين لم يكن ليتم لحظة واحدة لولا إسنادهم له واجتهادهم في إقناع ابن سعود بالكف عنه والتغاضي عن مشاكساته العديدة إلى أن نفضوا يدهم منه أخيرًا، فهم لم يأمروا بغزوه، ولم يساعدوا عليه، إنما لم يعارضوا في ذلك.

وسقوط الحسين أكسبهم العقبة بمساعي أبنائه الذين أعطوا الإنكليز شبه حجة يتشبثون بها. أما إبقاؤه في قبرص فليس حبًا بابن سعود، وإنما قصدهم وأد مستندات الحسين ووثائقه المعطاة له أيام الحرب، ثم لم يفوا بها، وليس لابن سعود في ذلك يد، وما أقدم على عمله إلا بعد أن ذاق الأمرين من الشريف وأولاده.

تسليم المدينة[1]:

وكان فيصل الدويش محاصرًا للمدينة بعربانه، وقد ضيقوا عليها

(١) تحدث في النسخة ب عن تسليم المدينة وتسليم جدة بعنوان: «المدينة المنورة» وفيه زيادات واختلاف، وهذا نصه: «في الوقت الذي كانت فيه جدة تحت الحصار الشديدة، كانت هناك قوات تحاصر المدينة أيضًا وهي بقيادة صالح بن عذل ولديه جنود احتياطية من الإخوان بعيدًا عن المدينة، ولم يباشر الحصار سوى الجنود =

الحصار، ولم يناجزوا حاميتها القتال، أسوة بخطة حصار جدة، وأمير

= الحضر بقيادة إبراهيم النشمي، وكانت الإشاعات تتطاير في العالم الإسلامي بأن الإخوان دخلوا المدينة، وهدموا القبة النبوية، ونهبوا نفائسها.

وجاء وفد من أهل المدينة، يفاوض بالتسليم، ويطلب أحد أولاد السلطان لتسلم له المدينة إذا لأهلها الأمان على أنفسهم وأموالهم، فأرسل لهم الأمير محمد بن عبدالعزيز، وهو إذ ذاك في الرابعة عشر[ة] من عمره، على أن الحامية تغلبت على الأهالي، وقبض على رئيس الوفد مصطفى عبدالعال، وصودرت أمواله، وصممت الحامية على مواصلة القتال منتظرة الإمداد من جدة حسب المواعيد المكررة من علي بن الحسين إلى أن اضطرت إلى التسليم في ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٤٤هـ.

وكان لتسليم المدينة دوي في العالم الإسلامي، أثّر معنويًا على أهل جدة، وأيقن علي بن الحسين بأن لا قدرة له على مواصلة الحرب، وأن المقاومة عقيمة، فطلب إلى المعتمد البريطاني المستر غوردون بالتوسط للصلح، وكانت مفاوضات سلمية انتهت بتسليم جدة على شروط خلاصتها أن يتنازل الملك عليّ ويغادر الحجاز، وأن يسلم جميع الأسلحة والمهمات الحربية والبواخر، وألاّ يبيع، ولا يرهن، ولا يتلف شيئًا من أملاك الحكومة، أو المهمات الحربية، وألاّ يأخذ معه غير أمتعته الشخصية وسيارته وخيوله وسجاجيده، وأعلن سلطان نجد العفو العام عن الرجال العسكريين والمدنيين، وإبقاء كافة الموظفين ورجال الأعمال على أعمالهم.

ووقعت معاهدة التسليم من السلطان عبدالعزيز والملك علي أول جمادى الثانية سنة ١٣٤٤هـ.

وسافر الملك علي على البارجة كورن فلاور الإنكليزية إلى العراق، ودخل السلطان عبدالعزيز جدة في احتفال مهيب، فاستقبل معتمدي الدول وقناصلها، وكبار أهالي الحجاز والموظفين بلطفه وبشاشته المعهودة.

وباستسلام جدة استسلمت جميع الحجاز، وابتدأ دور جديد تطور إلى عمران عظيم لم يخطر لأحد على بال» انتهى.

المدينة وحاميتها الشريف شحات. وبعد أن ضاقت بهم الحال وانقطعت الأمداد عنهم كتبوا إلى عبدالعزيز يطلبون أحد أنجاله ليسلموا له، فأرسل لهم الأمير محمدًا، وأمر فيصلاً الدويش بالرحيل - فأسرّها الدويش في نفسه كما سيأتي- وقد سلمت المدينة في ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٤٤ .

تسليم جدة[(١)]:

وبعد تسليم المدينة، ورحيل الحسين عن العقبة، وتقاعس الأمير[(٢)] عن دفع قيمة العقبة ومعان، ضاقت الأمور بعلي ونضبت موارده، وشغب عليه الجند، فلم ير بدًا من التسليم، ووسَّط لذلك معتمد الدولة الإنكليزية في جدة، وتم التسليم، وعلى أثره غادر جدة في السادس من جمادى الثانية سنة ١٣٤٤[(٣)] إلى العراق حيث بقي ضيفًا عند أخيه فيصل.

---

(١) لم تذكر هذه الفقرة في النسخة ب وتقدم مضمونها تحت مبحث المدينة المنورة في الهامش السابق.

(٢) في النسخة أ: الأمير عبدالله.

(٣) ورد ضمن بنود اتفاقية تسليم جدة حول تنظيم مغادرة الملك علي البلاد ما يلي: «١٢- جميع البواخر التي في ملك الحجاز وهي - الطويل، ورشدي، والرقمتين، ورضوى - تصير ملكًا للسلطان عبدالعزيز، ولكن السلطان يسمح - إن لزم الأمر - للباخرة رقمتين أن تستعمل لنقل الأمتعة الشخصية التابعة للملك علي المتنازل ثم ترجع». ويشير الريحاني إلى أن الملك علي غادر جدة على متن البارجة البريطانية «كورن فلاور» إلى: عدن ومنها إلى العراق، وهو المنفى الذي اختاره. الريحاني، تاريخ نجد وملحقاته ص ص ٤٢٥، ٤٥١-٤٥٣.

ودخل الظافر جدة، والمدافع تحييه، والناس يتوافدون عليه للبيعة:

على القلزم البحر يمنى يديه وفوق اليسار الخليج استقر

وما بين هذا وذا موطن بقحطان ممتلئ مع مضر[1]

(1) البيتان لخالد الفرج - مؤلف الكتاب - في ديوانه ص ٩٠، ورواية البيت الأول:

على القلزم، البحر يسرى يديك وفوق اليمين الخليج استقر

الحجاز ماضيه وحاضره [1]

مرّت على الحجاز أيام في عهد الدولة العثمانية كان فيها نهب الفوضى والاضطراب والسلطة مقسمة بين ولاة الأتراك والأشراف، وللبدو الكلمة العلياء، حتى إن عجز الأتراك عن إكمال مدّ السكة الحديدية من المدينة إلى مكة راجع إلى معارضة البدو؛ لأنهم يعتبرون المواصلات ونقل الحجاج مورداً من أهم مواردهم علاوة على ما يحصل لهم من نهب الحجاج وأخذ الخاوات عليهم بعد أن يستوفوا تلك الأجور الباهضة [الباهظة].

حتى إنهم يجعلون مواعيد ديونهم ومعاملاتهم في موسم الحجاج، ولم يكن ينظر إلى الحاج في زمن مضى إلا كمخاطر مجازف بحياته، وتعد أوبته إلى وطنه أوبة السالم من المهلكة، ولا نزال نتذكر ذلك الحزن الذي يستولي على أهله وتلك الدموع التي تذرف عليه يوم رواحه، وما يقام له من البشائر والأفراح يوم قدومه.

ولما رفع الحسين علم الثورة لم يكن لديه ما يسنده إلا الذهب الإنكليزي الذي بذله للبدو بكثرة، فاجتمعوا عليه، وحاربوا معه ليحاربوه فيما بعد؛ لأن الذهب وحده لا يكفي لإخضاع البدو، بل يزيدهم تصلبًا وطمعًا في الحاكم الباذل إذا لم يكن الحسام مصلتًا بيده الأخرى، وهكذا لم

(١) هذه الفقرة أيضًا ليست في النسخة ب، ومكانه عنوان المؤتمر الإسلامي. وأيضًا إعلان ملكية الحجاز. وترك مكانهما بياض.

يتنازل البدو عن حقوقهم للحسين، ويكفي للدلالة على توسع سلطة البدو أن الحسين لم يستطع استعمال السيارات في الحجاز إلا لشئونه [لشؤونه] الخاصة، وما كان في ذلك القطر إلا بضع سيارات لا غير.

أما طرق قطارات الإبل فأصحاب امتيازها هم البدو بحق القوة وقانون «قطع الخشوم ولا قطع الرسوم».

على أن الحسين لما انقطعت عنه موارد الذهب الوهاج بعد الهدنة هاله ما صرفه على البدو بلا فائدة تذكر، وحصل لذلك ردّ فعل في نفسه خصوصًا بعد نكبته في تربة، فجعل سياسته في الخارج مشاكسة جيرانه ومعاكستهم، وفي الداخل إرهاق الناس بالضرائب والمغارم والتكاليف الباهضة [الباهظة]، واحتكار كافة المرافق، وأخذ الأشياء بالثمن البخس، وبيعها بالأثمان العالية، واستأثر بجميع السلطات كبيرها وصغيرها حتى تحرير جريدة القبلة، ولا همّ له إلا جمع الذهب وخزنه، ولكنه كان مكتوف اليدين أمام تلك البادية الشموس التي فقدت ما اعتادت عليه من الذهب، فازدادت عيثًا وفسادًا، وأصبح الأمن مفقودًا حتى بين مكة وجدة، أما طريق المدينة فحدّث عنه ولا حرج.

وما سقط الحسين حتى تنفس الحجاز الصعداء، ورأى من العدل والأمن ما لا عهد له به إلا في أيام الخلفاء الراشدين، فتأسس مجلس الشورى للنظر في شئون [شؤون] البلاد، وارتفعت تلك المغارم والتكاليف، وضرب على أيدي البدو المفسدين، وصار الحكم السعودي

فيها مضرب الأمثال.

وإن الإفاضة في وصف حالة الحجاز اليوم وما هي فيه من السعادة والرفاهية ومقارنتها بالعهد السابق لتحصيل حاصل بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء.

أطال الله بقاء جلالة الملك وأيده، آمين . .

تاريخ نجد

الحلقة الثانية

انظر صفحة ١٠٣

المصـــادر

لم تتوفر لنا مصادر تذكر سوى ما نشرته الجرائد والبلاغات الرسمية، وقد اعتمدنا على الأخبار المستقاة من الثقاة الذين شاهدوا الأمور وخبروها عن كثب، لقرب الوقائع من وقت الكتابة، كما اعتمدنا على ما نعلمه من أحوال القبائل بالسماع وما تحرينا فيه الحقائق، وأرجو أننا وفقنا إلى إثبات الحق، والعصمة لله وحده.

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ نجد

الحلقة الثانيــة

***

١

مثال الكمال[١]

(ص ١٠٥)

من الكمال أن يتفرد المرء بخصال ومزايا لا توجد في سواه، ومن الكمال أن يرفع الإنسان مصباح الفضيلة منيرًا في زمن احلولكت دياجره وطمى فيه تيار الشرور.

كل من يقرأ تاريخ هذا العصر وما سبقه من العصور بتبصر وإمعان يحكم على السياسة المفهومة في العرف الدولي بأنها مجموعة من الكذب، والنفاق، والغش، والخداع، والخيانة، والغدر، والخبث، وجميع الأخلاق السافلة. ورئيس أية أمة مهما كانت ألقابه - من أمير إلى قيصر - لا يستطيع أن يسيّر دفّة سفينته لتحقيق أمانيه إلا إذا كان ماهرًا في السياسة. والسياسة ما علمت.

---

(١) هذه الفقرة بكاملها لم ترد في النسخة (ب). ويلحظ أن مفهوم الكمال عند المؤلف يأتي بمعنى المثالية، وإلا لما جاز له إطلاق صفة الكمال على البشر.

فمتى رأينا ملكًا استطاع أن ينشئ مملكته بعد عدم، ويوسعها إلى أن تكاد تطبق جزيرة العرب، وشعاره الصدق في القول، والإخلاص في العمل بصراحة ووفاء وشمم عربي خالص من كل ما يشينه محتقراً أولئك السياسيين، هازئًا بخططهم المرنة الكاذبة، يقول الحق ولو على نفسه، لا تأخذه في الله لومة لائم. أفلا يحق لنا أن نحكم بأنه مثال الكمال ولا فخر، فهو ملك العرب الحقيقي الذي يمثل خصالهم الكريمة الفاضلة بأجلى مظاهرها وأجمل صورها وأحلاها:

إقدام عمرو في سماحة حاتم   في حلم أحنف في ذكاء إياس[1]

هو جلالة الملك العربي السعودي عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل السعود، أسعد الله الأمة العربية بدوام دولته.

وفيما تقدم وما يأتي من سيرة جلالته وأعماله ما يكفي عن بسطه وإعادته هنا.

(١) البيت لأبي تمام في ديوانه ص ١٦٣.

٢

تحضير البـــــدو[١]

(ص ١٠٦)

البداوة في جزيرة العرب عريقة القدم برغم ما قام فيها من مدنيات على السواحل وما والاها كاليمن وعُمان وبلاد البحرين، أما سائر أرجائها فصحاري واسعة، وأراض قاحلة لا تنبت إلا الأعشاب في بعض الفصول إذا جادت أمطارها، وكثيراً ما تمحل، فلا عجب إذا رأينا أهلها بادية يربون الماشية، وينتجعون الآراض[٢] المعشبة، ويتبعون مساقط الأمطار ومنابت الكلأ في القفار، متنقلين من مكان إلى مكان، ولهم مياه وموارد معروفة ومناهل مملوكة.

ولكل قبيلة منهم مقاطن تلجأ إليها أيام القيظ، وتغادرها أيام الشتاء؛ ولهذا اعتمدوا في نظام اجتماعهم على حكم العشيرة لدفع العاديات.

والبيئة تكيف أهلها، فالبدوي حرّ بغريزته، شجاع للدفاع عن ماله وعشيرته، لا يعترف بالسلطة لغير زعيم قبيلته يتطلع إلى ما عند غيره ليستلبه منه، ولهذا كثرت الوقائع والحروب بينهم في أيام الجاهلية والإسلام، ومن بقي منهم في الجزيرة بعد الفتح الإسلامي ظل على بداوته متمسكًا بها بكل افتخار، وكل من تولى حكم الجزيرة من الخلفاء والملوك

(١) العنوان في النسخة ب: الإخوان.

(٢) في النسخة ب: الأراضي.

والأمراء يقاسون من تمرد البدو وتقلبهم الأمرين، ولكن أحداً منهم لم يفكر في تحضيرهم وهدايتهم سواء السبيل، فالتحضير هو العلاج الوحيد لتثقيفهم، وكبح جماحهم؛ لأن التنقل الدائم من مكان إلى آخر يصاحبه التنقل في الطباع والتقلبات، فالكر والفرّ ومتابعة هذا الحاكم، فالانقلاب عليه والانضمام إلى خصمه، ثم العودة إليه ثانية خلق من أخلاق البدو الراسخة.

وما هؤلاء الحضر في بلدان نجد وضفاف السواحل إلا أبناء عم أولئك البدو المتقلبين، ولكن الحضارة هذبت من أخلاقهم، والإقامة علمتهم[١] الاستقامة، فصاروا يمين الحاكم في هجومه، وظهره في دفاعه.

وهذه المشكلة شغلت بال عبدالعزيز وهو العليم بأخلاق البدو وطباعهم، وقد قاسى من غدرهم وفرارهم أوقات الشدة ما لم يقاسه أحد، وكانت دعوة الدين قد انتشرت فيهم وسرت سريان النار في الهشيم بعد أن كادت عاداتهم تتغلب على إصلاحات الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وما ذلك إلا بفضل عبدالعزيز[٢] الذي بث فيهم الدعاة يدعونهم إلى الصراط المستقيم، ثم حسَّن لهم اطّراح البداوة التي هي أصل كل زيغ وفساد، وأمرهم بابتناء الدور وسكنى المدر بعد الوبر، والحرث والفلاحة بعد رعي الإبل، وكسب اليمين بعرق الجبين بعد نهب المسافرين

(١) في النسخة ب: عودتهم على.

(٢) في النسخة ب كتب فوق الكلمة بخط مغاير: بفضل الله ثم بفضل. وهو الأصوب.

والإغارة على الآمنين، فلبوا الدعوة بإيمان متين وإخلاص، فعين لهم الأماكن الغزيرة المياه الكثيرة المراعي في كافة أنحاء نجد وما جاورها، فهاجروا إليها[1]، ولم تنقض على ذلك عشر سنوات حتى صارت تلك

---

(١) زاد في النسخة ب: «ولهذا سميت بالهجر جمع هجرة. وأول هجرة أسست هي الأرطاوية في القصيم [الصواب في سدير] سنة ١٣٣٠هـ [زاد بخط مغاير: أي بنيت] أسسها سعد بن مثيب من حرب -المؤسس قتل في حرب جدة سنة ١٣٤٤هـ- ونزلها فيصل الدويش رئيس قبائل مطير وجماعته، وقد شجعهم عبدالعزيز تشجيعًا ماديًا عظيمًا بالرغم من أن موارده كانت محدودة، فبنى لهم المساجد، وأعانهم بالأخشاب ومواد البناء، وبمهرة العمال والبنائين، وعين لهم رواتب ومخصصات شهرية وسنوية حتى الأطفال منهم، ورتب لهم مشايخ وأئمة معلمين يدرسونهم القرآن ومبادئ القراءة والكتابة وشيئًا من علوم الدين، وقد طبع مئات الألوف من المصاحف والكتب الدينية، ووزعها عليهم، حتى كادت الأمية تنمحي بينهم، واتخذوا لهم شعاراً العمامة البيضاء يلفونها فوق الغترة - أي الكوفية - وتبارت القبائل ورؤساء بطونها كل منهما يختط له هجرة.
وأقبلوا على العبادة إقبالاً منقطع النظير مخلصين له الدين لا تأخذهم في الله لومة لائم، وتبدلت أفكارهم ونزعاتهم، وأخذت فكرة الجهاد تسيطر على نفوسهم يبذلون في سبيلها نفوسهم حتى أصبح ذلك البدوي الذي يكر ويفر لا هم له إلا في الكسب والغنيمة مجاهداً متفانيًا يقاتل عن عقيدة ويذب عن مبدأ يرضى في سبيله ويغضب، أولئك هم الإخوان - إخوان من أطاع الله- الذين عمر بهم عبدالعزيز صحاري جزيرة العرب، فحرثوا وزرعوا وتاجروا وتدارسوا القرآن والتوحيد، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، لولا ما اتصفوا به من شدة وتطرف ترجع إلى طبيعتهم القاسية، ولقد كان الإمام يرجو أن تتلطف حدتهم وتلين قسوتهم كلما رسخ الإيمان في قلوبهم، فيصلحون بتقدم الزمن وتغلغل العادات الاجتماعية في زوايا نفوسهم» وكتب في الحاشية تعليق بخط غير الأصل فيه: «في هاك الوقت الشيخ العالم العلامة عبدالله بن عبداللطيف =

= حريص على إرسال المطاوعة الذين يحضونهم على التعلم والرفق، وبعد ما توفى - رحمه الله- دخلوا فيهم أهل الأغراض والمتعصبين بالجهل».

ثم سرد المؤلف الهجر وعددها (١٣٤) هجرة - كما سيأتي -، وهي منشورة بجريدة أم القرى، العدد ٢٠٩ في ٦ رجب ١٣٤٧هـ. والزركلي، شبه الجزيرة ص ٢٦٥-٢٦٨ نقلاً عن الفرج من النسخة ب - مع الاختلاف -. والريحاني، تاريخ نجد وملحقاته ص ٤٥٤- ٤٥٦. وقال المؤلف بعدها:

«امتلأت هذه الهجر والبلدان بألوف البدو الذين تحضروا وهجروا البداوة إلى الزراعة والتجارة ودراسة القرآن وعلوم الدين، وغدوا في اتحادهم إخوانًا وزالت من بينهم حزازات العداوات وضغائن الثارات، وتألفت منهم كتائب الجنود المجاهدين الذين يلقون بأنفسهم على الموت في سبيل المبدأ، واتخذت الزعامة هجرة الغطغط في الجنوب ورئيسها سلطان بن بجاد، والأرطاوية في الشمال برئاسة فيصل الدويش» انتهى.

والهجر التي ذكرها المؤلف مع الإلحاقات التي أضافها إليها هي كما يلي:

الهجـــــر :

(هجر مطير) : ١ - الأرطاوية ٢- قرية السفلى ٣ - قرية العليا ٤- الفروثي ٥- الثامرية ٦- الحسو ٧ - بوضا ٨- أم حزم ٩- اللصافة ١٠- مليح ١١-الأثلة ١٢- وضاخ ١٣- مبايض ١٤- العمار ١٥- الأرطاوي ١٦- مسكة ١٧- ضريه.

(هجر قبائل عتيبة) : ١٨- الغطغط ١٩- الداهنة ٢٠- الحفيرة ٢١- اللبيب ٢٢- مصدّة ٢٣- سنام ٢٤- الرويضة ٢٥- عسيلة ٢٦- ساجر ٢٧- عروى ٢٨- الروضة ٢٩- حميان ٣٠- كبشان ٣١- المكلات ٣٢- الصوح. ٣٣- عرجا ٣٤- نفي ٣٥- شبيرمه ٣٦- القرارة ٣٧- أبو جلال.

(هجر قحطان) : ٣٨- الرين [الواقع أن الرين تنقسم إلى عليا وسفلى - كما يأتي بعده - وليس لهما اسم ثالث) ٣٩- الرين العليا ٤٠- الرين السفلى ٤١-الهياثم ٤٢- الحصاة السفلى ٤٣- الحصاة العليا ٤٤- الجفير ٤٥- المنيصف ٤٦- لين. =

الهجر مدنًا كبيرة تسكنها الألوف المؤلفة من الإخوان، وأخذوا بأسباب

= (**هجر سبيع والسهول**) : ٤٧- الحسي ٤٨- الضبيعة ٤٩- الخضر ٥٠-المشاش ٥١- الرويضة ٥٢- البدع.

(**هجر حرب**) : ٥٣- قبه ٥٤- دخنة ٥٥- القوارة ٥٦- الخشيبي ٥٧- ضيده ٥٨- خصيبة ٥٩- كحيلة ٦٠- أبو مغير ٦١- النحيتية ٦٢- ثادق ٦٣- القرين ٦٤- البرود ٦٥- البعايث ٦٦- المحلاني ٦٧- الفوّارة ٦٨- قطن ٦٩- الدليمية ٧٠- بقيعة ٧١- الشبيكية ٧٢- الذيبية ٧٣- الفيضة ٧٤- البدع.

(**هجر عنزة**) : ٧٥- خيبر ٧٦- الفيضة ٧٧- بيضا نثيل ٧٨- الشعيبة (١) ٧٩- الشعيبة (٢) ٨٠- الشملى ٨١- البلازية.

(**هجر شمّر**) : ٨٢- الاجفر ٨٣- الصفرا ٨٤- أم القلبان ٨٥- الوقبه ٨٦- الحفير ٨٧- التيم ٨٨- الخبه ٨٩- الصنينا ٩٠- النعي ٩١- العظيم ٩٢- المكحول ٩٣- الصهوة ٩٤- الشقيق ٩٥- القصير ٩٦- الفيضة ٩٧- العقلة.

(**هجر الظفير**) : ٩٨- الشعيبي

٩٩- (هجرة الخرمة؟) [كذا في الأصل].

(**هجر هتيم**) : ١٠٠- نبوان ١٠١- الروض ٢-١٠- العماير.

(**هجر العجمان**) : ١٠٣- الصرار ١٠٤- الكهفة ١٠٥- الونان ١٠٦- حنيذ ١٠٧- الدليما ١٠٨- نجا ١٠٩- الزغين ١١٠- العقير ١١١- عريعره ١١٢- العوينة (عوينة كنهر) ١١٣- غنوة ١١٤- القرادي ١١٥- الصحاف ١١٦- أم ربيعة ١١٧- البرة ١١٨- قطنانة ١١٩- الهليسية.

(**هجر بني خالد**) : ١٢٠- الدفي ١٢١- جلمودة.

(**هجر بني هاجر**) : ١٢٢- عين دار ١٢٣- يكرب ١٢٤- فوده ١٢٥- صلاصل.

(**هجر بني مرة**) : ١٢٦- يبرين ١٢٧- السكك ١٢٨- نباك ١٢٩- البدوع.

(**هجر العوازم**) : ١٣٠- عتيّق ١٣١- ثاج.

(**هجر الدواسر**) : ١٣٢- الحمر ١٣٣- مشيرفة ١٣٤- الوسيطا.

الحضارة من زراعة وتجارة وتبادل منافع، وتدارسوا القرآن وعلوم الدين فيما بينهم حتى كادت الأمية تضمحل ما بينهم، واتحدت قلوبهم، وصاروا في الله إخوانًا، وزالت الثارات وعادات الجاهلية من بينهم، وإنه لعمل عظيم وإصلاح جسيم هذا الانقلاب المدهش في العادات والمعاملات، ومن[1] أعجب ما سطره التاريخ أن تنقلب تلك الصحاري القاحلة المهلكة إلى مدن آهلة بالسكان تنيف على المائة في عقد من السنين، ولو لم يكن لعبد العزيز سوى هذا العمل العظيم لكفاه مفخرة.

أولئك هم الإخوان، إخوان من أطاع الله جند عبدالعزيز المسلح بالإيمان وقوة العقيدة وروح الإقدام والشجاعة، وهم هم الذين كانوا وقت الطمع، ويفرون وقت الشدة، فهذبهم الدين، وهيأتهم الحضارة للإخلاص والاستماتة في سبيل الواجب.

(١) في الأصل: ومن ومن. بالتكرار.

٣

[. . .]

سلطان بن بجاد، فيصل الدويش، ضيدان بن حثلين

(ص ١٠٨)

لا بدَّ لكل قائم بالإصلاح من الاصطدام بعناصر معارضة تتعارض مصالحها مع ما يقوم به من الاصلاحات، وأخطرها تلك التي تتظاهر بالارتياح والمعاضدة وتعمل في الخفاء لإحباط المساعي المفيدة والمشاريع النافعة توصلاً إلى غاياتها، وعدو مرن شرٌّ من ألف عدو متصلب.

وأول عقبة بدت في طريق عبدالعزيز شخصيات أولئك الزعماء، زعماء القبائل الذين يحاولون الاحتفاظ بسيطرتهم وحقوق زعامتهم، وما كانوا لينقادوا ويذعنوا لولا أن عشائرهم نفسها أرغمتهم على الدخول فيما دخل فيه الناس، فأزيلت العقبة الظاهرة، فانقلبت إلى هوة سحيقة مستورة بغطاء النفاق والتربص، هي أعظم خطراً وأخطر أثرًا تكونت من أولئك الزعماء المرنين المحنكين الذين لبسوا العمائم ودينوا أكثر من غيرهم؛ ليفرِّقوا باسم الدين، ويقاوموا باسم الإصلاح وبث الدسائس وعرقلة الإصلاحات، وأولئك هم المنافقون[1]، ولو أنهم أظهروا نواياهم بادئ ذي

(١) يلحظ أن المؤلف من أوائل من كتب عن حركة الإخوان، وقد كتب عنها في حينها وعن قرب من مصادرها، وقد جاءت بعض كلماته عن الإخوان قاسية، يغلب عليها التأثر العاطفي - أثناء كتابتها - وذلك في أعقاب وقعة السبلة وما تلاها =

بدء، وقاوموا تلك الدعوة الإصلاحية في الوقت الذي كان الولد يهجر أباه والوالد يتجافى عن ابنه إذا لم يدخل في سلك أهل التوحيد ويقبل على الطاعة والجماعة، لأخفقوا ولم يجدوا ملبيًا وفشلوا كما فشل غيرهم من الزعماء الذين ليس لهم دهاء، فخالفوا، فنبذتهم عشائرهم نبذ النواة، وفروا إلى العراق والبلدان المجاورة.

على أن عبدالعزيز كان عالمًا بنواياهم واقفًا على بواطن أمورهم، فتألفهم بالعطايا والخلع، وأغدق عليهم من الخيرات ما لم يحلموا به قط، ولاطفهم وجاملهم وداراهم، وأسند إليهم رئاسات أقوامهم وقيادتهم، ولم يكن ذلك التألف إلا علاجًا وقتيًا؛ لأنهم انطووا على خبث، وأبطنوا غير ما يظهرون وتربصوا به الدوائر.

وقبل أن نتكلم عن ماجريات حوادث خلافاتهم نأتي بنبذة عن تاريخ علاقاتهم مع آل سعود في الماضي.

= من أحداث، لذلك لا يحق للمؤلف اتهام الإخوان بالنفاق، أو أنهم خوارج.

مطيــــر

المشهور عن مطير أنها لا تنتمي إلى قبيلة واحدة، إنما هي مجموعة أحلاف وجيران من شتى القبائل اختلطوا وتناسبوا، فتكونت منهم عصبية واحدة. ومطير قبيلة كبيرة تنقسم إلى عدة بطون أهمها علوة[1]، وبنو عبدالله[2]، والقبلان[3]، وبْرَيْه[4].

والرئاسة العامة في علوة [علوا]، وزعماؤها أو شيوخها هم الدوشان، ويقال: إنهم ينتمون في نسبهم إلى بني هاشم. ومساكنهم الصمان[5] والقصيم إلى حدود الحجاز من جهة الغرب.

وإذا راجعنا تاريخ نَجْد، نَجِدُ مطيراً دائماً في صفوف أعداء آل سعود خصوصاً في حروب العريعر والمنتفِك والمقاومين من أهل نجد[6].

وهم أول من تلقى طوسون باشا في الحجاز، ونقل حملته إلى القصيم، وقد انضموا إلى حملة إبراهيم باشا على الدرعية، وقاتلوا في

---

(١) الأصوب في اسمهم علوا بالألف.

(٢) في النسخة ب: بكسر الدال.

(٣) الأصوب في اسمهم الجبلان بالجيم واحدهم جبلي، وهم من علوا. الجاسر، معجم قبائل المملكة ج١ ص ٧١ وج ٢ ص ٤٨٣.

(٤) زاد في النسخة ب «بسكون الباء، وفتح الراء وسكون الياء وبعدها هاء. ويقال لهم البرهان أيضاً».

(٥) زاد في النسخة ب: وسهول الدبدبة.

(٦) انظر ص ٤٨٧ هامش ١.

صفوفه، وكانوا يد عبوش آغا ومن تلاه من قواد المصريين والأتراك في القضاء على البيت السعودي ومحاربة أهل نجد، وهم هم الذين هللوا لمقدم خورشيد باشا، ورحبوا به، وجاؤوا [وجاءوا] معه إلى الخرج محاربين مقاومين، وكانوا من أنصار ابن رشيد وقت خروج عبدالعزيز إلى أن ضربهم مع جيوش مبارك الصباح في وقعة جَوّ لبن الضربة القاضية، وبعد لأي ما لانت عريكتهم وأسلس قيادهم على مضض رهبةً من سيف عبدالعزيز ورغبةً بماله[1].

والرئاسة العامة فيهم لآل الدويش، وآخرهم فيصل بن سلطان بن فيصل الدويش، وأمه الشقحاء من آل حثلين من العجمان كانت حليلة راكان بن حثلين، ولما قبض عليه الأتراك وحبسوه في الآستانة تزوجها سلطان الدويش، فأولدها فيصلاً، وهذه الزيجة كانت شائعة ومألوفة عند البدو[2] لا يأنفون منها قبل انتشار الدين فيهم[3].

وتروى عن سلطان الدويش حكايات كثيرة غريبة في تفسير الأحكام

---

(١) في النسخة ب: بكرمه.

(٢) في هامش النسخة ب: «أيام الجاهلية – الجاهلية الأخيرة».

(٣) زاد في هامش النسخة ب: «قبل انتشار الدعوة الدينية فيهم، ومن هذا يظهر فضل آل سعود في القضاء على تلك العادات الجاهلية». والواقع أن هذه المسألة ليس فيها ما يدعو إلى استغراب المؤلف، وهي معروفة في الفقه الإسلامي باسم امرأة المفقود، ويرى بعض العلماء في حكمها أن تعتدّ المرأة أربع سنوات – على القول الراجح – فإن جاء زوجها وإلا جاز لها أن تتزوج غيره.

الشرعية وتطبيقها على عاداته تدل على ما بلغ إليه الدين من الانحطاط عند البوادي حتى ليصح لنا أن نطلق على حالتهم الأولى اسم الجاهلية.

تولّى فيصل الزعامة بعد أبيه سلطان ولم يلبث عبدالعزيز أن علا شأنه، فأخضع مطيرًا لسلطته، وكانت أول من لبى الدعوة الدينية، واختطت لها أول هجرة في بادية القصيم هي الأرطاوية التي أصبحت فيما بعد مدينة كبرى تعد من كبريات الهجر، وتولى إمارتها فيصل الدويش، وهو من الأفذاذ في الدهاء والسياسة وحسن التدبير والقيادة، وما لبث أن ألفت الأنظار إليه، وصار يعد من أكابر قواد الأخوان، وعلى يديه حدثت مشكلة نجد والكويت التي انتهت بمعركة الجهرى [الجهراء] بينه وبين الشيخ سالم الصباح حاكم الكويت[1]. وسببها هجرة (قرية) التي أراد الدويش أن يجعلها هجرة للقبلان [للجبلان] من مطير.

ثم اشتهر اسمه بغزواته المتعددة على العراق وعشائر نجد اللاجئة إليه خارجة على الدعوة، وكونوا لهم جموعًا، وقاوموا حكومة نجد، وأطلق عليهم الإخوان لقب (السحت)، فهاجمهم الدويش، وقضى عليهم، فأصبح عظيمًا في نفوس الناس مرعبًا لهم، وقد تولى قيادة الإخوان في حصار حائل، وأبلى فيها بلاء حسنًا. وفي الحرب الحجازية تولى محاصَرة المدينة المنورة، ولخوف أهل المدينة من سطوته لما يسمعونه عنه من الأعمال كاتبوا جلالة الملك، وطلبوا أحد أنجاله؛ ليسلموا المدينة له، فأجيب

(١) في النسخة ب: سنة ١٣٣٨هـ.

طلبهم، وسلموا لسمو الأمير محمد بن عبدالعزيز، وصدرت الأوامر إلى الدويش بالقفول، وكانت نيته الاستيلاء على المدينة عنوة؛ فأحفظه الأمر، وأسرها في نفسه، ومن ذلك اليوم بدأ يظهر ما كان يضمره، وقد غرته المكانة التي أحرزها، وخُيِّلَ إليه أن في استطاعته المجاهرة بالخلاف باستعمال نفوذه وشهرته.

وفشل الزعماء في غالب الأحيان يرجع إلى عدم تقديرهم الأمور حق قدرها، فالانتصارات التي أحرزها الدويش باسم عبدالعزيز وحسن تدبيره يرجع الفضل فيها إلى نفسية الإخوان جنوده، وتفانيهم في قتال خصومهم لاعتقادهم بضلالهم ومروقهم، وروح الإيمان وقوة العزيمة في الجيش هي سرّ انتصاره، وسرّ تغلّب القوى الصغيرة على الكبيرة التي لا تدين بمبدأ ولا تدافع عن عقيدة، فالإخوان الذين يقاتلون خصومهم تحت راية الدويش في العراق وحائل والحجاز بتلك النفسية لا يبقون بتلك النفسية إذا كان قبالتهم إخوان مثلهم يرونهم خصومًا ولا يشعرون نحوهم إلا بما كانوا يشعرون به في حروبهم الأولى، حينئذ تتنبه فيهم تلك النفسيات القديمة وتعود الحرب العائلية السطحية (اكرب وجهك وارخ يديك) فضلاً عن كونهم يحسون من أعماق نفوسهم ببغيهم[1] على إمام المسلمين وانشقاقهم عن الجماعة، وإن تظاهروا بخلاف ذلك. لأن للضمير سلطان [سلطانًا] ليس من الهين التغلب عليه.

(١) في النسختين أ و ب: «فيما بينهم بخروجهم».

والحوادث القديمة تحدثنا عن مطير خاصة أنه لم يكن لهم من الشجاعة والبسالة ما يخولهم التفوق على غيرهم، ولولا كثرتهم لما استطاعوا أن يحدثوا لهم مركزاً بين قبائل العرب، والسبب يرجع إلى تعدد أصول الدم الذي يجري في عروقهم، [. . .]. والروح التي عندهم تقابلها مثيلتها عند خصومهم، فليس من السهل إذن على الدويش أن يقاوم عبدالعزيز، وليس في استطاعته إحراز تلك الانتصارات التي أحرزها في الخارج متى قابل أهل نجد والإخوان الآخرين[1].

أما المنزلة التي نالها والعزّ الذي حصل عليه، فلم يكن إلا من عبدالعزيز وبسببه، ومتى تخلّى عنه فليس هو بالشيء المذكور، وما شأنه إلا شأن القائد الكبير أو الوالي الخطير يستمد قوته من مادة حكومته ومعنوية جنده ما دام يشغل وظيفته متمتعًا برضى حكومته وشعبه، فإذا عزل أو خالف وجد نفسه وحيداً فريداً لا ينظر إليه الناس إلا نظرهم إلى أحد أفراد الرعية.

وهكذا أخطأ الدويش في تقدير مركزه إزاء مركز مليكه، وغره الغرور، فأصبح من الهالكين.

(١) مطير من القبائل العربية الكريمة التي أحدثت لها أثراً ومكانة في تاريخ الجزيرة العربية الحديث، ولها جانب إيجابي لم يذكره المؤلف، فقد شاركت هذه القبيلة ضمن صفوف الدولة السعودية الأولى والثانية، ولا يعني خروج بعض أفرادها أنها غير متفوقة. انظر مثلاً ابن بشر، عنوان المجد، حوادث السنوات ١٢٠٨هـ، و ١٢١١هـ، و ١٢٢٨هـ و ١٢٤٤هـ، كما كان لانضمامهم إلى حركة الإخوان التي نظمها الملك عبدالعزيز أثره الملموس، قبل تطور الأوضاع.

العجمـــان[1]

العجمان من يام ، ويام من همدان إحدى قبائل قحطـان اليمانية[2] ، ومساكنهم في القـديم باديـة نجـران، ولـم يأتـوا إلى باديـة نجد وما والاها إلا حديثًا، وكانـوا على قلتهم أشداء يبذلون نفوسهم في سبيل عصبيتهم، لهم اتحاد عجيب وحميـة فيمـا بينهـم مكنتهم من مغالبة القبائل المضرية حتى كونوا لهم مركزًا محترمًا، وأوجدوا لـهـم شخصيـة بـارزة [. . .] .

ففي أول عـهدهم بنجد أهاجوا السيد حسن بن هبة الله رئيس نجران، فحمل على نجد، وجرت بسببهم وقعة (حائر سبيع) كما تقدم، ولما تولى

(١) ورد في النسخة ب الحديث عن العجمان بشكل مختصر، وأشار المؤلف إلى أنه «تقدم الكلام على العجمان تفصيلاً في فتح الأحساء». يلحظ أن المؤلف قد اندفع بعاطفته ضد بعض الإخوان من العجمان بسبب وقوفهم ضد الملك عبدالعزيز في بعض الفترات، لذلك أشار المؤلف إلى أسوأ ما يعرفه، والواقع أن للعجمان جانبًا آخر مضيئًا لم يشر إليه المؤلف للسبب المتقدم، وأئمة آل سعود يدركون حجم تأثير العجمان على مسار الأحداث، فعندما دخل إبراهيم باشا الدرعية سنة ١٢٣٣هـ، هرب منها الإمام تركي بن عبدالله واتصل بالعجمان، وعندما خرج الملك عبدالعزيز من الكويت سنة ١٣١٩هـ شارك معه بعضهم في عملية استرداد الرياض.

ويلحظ أنه تم حذف بعض الكلمات التي تقع ضمن دائرة السب والقذف وهي في مجملها لا تزيد عن سبعة أسطر متفرقة. وقد كتبها المؤلف بتحامل في حينه، لذلك فهي لا تحوي أيّ معلومات جديدة يمكن أن يستفاد منها.

(٢) قبيلة قحطان الشهيرة بهذا الاسم الآن هي من القبائل النزارية لا اليمانية (المؤلف). تعليق: يجمع المؤرخون على أن قحطان المعاصرة يجمعها حلف يرجع أكثر قبائله في أصوله إلى قبيلة قحطان اليمانية الأم.

الإمام تركي خشي عادية بني خالد في الأحساء، فرغب إلى العجمان مساكنة بني خالد ليجعلهم ردئًا، فصاروا عبئًا [. . .]، فقد تغلبوا على بني خالد، وقلبوا ظهر المجن للإمام فيصل، وكثرت تعدياتهم، فأرسل إليهم ابنه عبدالله، فأوقع بهم على ملح بقرب الكويت[1] وشتتهم، ولكنهم لموا شملهم وجمعوا فلولهم برئاسة راكان بن حثلين، فأعاد عليهم الكرّة، وضربهم عند كاظمة بقرب الكويت، وأورد فلولهم البحر، فغرقوا - ويقال لها: وقعة الطبعة[2] - ، وكادت الضربة تكون قاضية، وفرّ راكان ومن معه من الفلول إلى البحرين، مستجيراً بحكامها، ولم ينقض على ذلك كبير زمن حتى عادوا كأن لم يصبهم شيء، وقد انتقموا من عبدالله الفيصل بانضمامهم إلى أخيه سعود، وكانت وقعة جودة التي يعود لهم الفضل في انتصار سعود فيها، ولم تلبث الأحساء أن سقطت بأيدي الترك؛ فخلا لهم الجو، وعاثوا ما شاء لهم العيث، وأخذوا يعدونها من أملاكهم وحقًا من حقوقهم، وكان ما بين الكويت والأحساء يدعى بنقرة بني خالد، ولكن راكان سمى نفسه شيخ النقرة، وبالفعل شاخ[3] فيها، وفقد بنو خالد عزهم وصولتهم، وتقلص نفوذهم، ولم يبق لهم إلا نواحي القطيف، والفضل في ذلك يرجع إلى حمى الملاريا التي يخافها العجمان،

---

(١) في النسختين أ و ب: سنة ١٢٧٧هـ.

(٢) في هامش النسخة ب: «في اصطلاح أهل الخليج: طبعت السفينة؛ أي غرقت» وفيه أيضًا أنها سنة ١٢٧٨هـ.

(٣) في النسخة ب: أي حكم.

فإنها أنهكت أجسام بني خالد وأفقدتهم عزائمهم لكثرة ترددهم على بؤرها.

وبلغت بالعجمان الجرأة في الأحساء ونواحيها أيام الأتراك إلى أنهم ينهبون دواب الأهالي في النخيل، ويأتون بها إلى السوق؛ ليبيعوها على مرأى ومسمع من أهلها والحكومة.

ولم تكن مساعدتهم لعبدالعزيز أول الأمر إلا نكاية بمطير ورغبة في المغنم، وقد عظم عليهم أخذه للأحساء وغلّه أيديهم عن ارتكاب تلك الأعمال التي اعتادوا عليها بالحزم وقوة العزم التي أبداها سمو الشيخ عبدالله بن جلوي حاكمها، فأسروها له، وغدروا به في وقعة جراب، إذ فروا عامدين وهم يصايحون، فكانوا سبب الهزيمة.

ثم اغتنموا فرصة هزيمة جراب فعاثوا، وأفسدوا، وشنوا الغارات على البوادي وغيرهم[(١)]؛ مما اضطر عبدالعزيز إلى حربهم وجرح جراب لم يندمل بعد، فأتاهم حَمَّارة القيظ في الأحساء[(٢)]، فناوشوه القتال، ثم انحازوا إلى طرف من الأحساء في موضع اسمه كنزان، وهناك[(٣)] جبال

(١) زاد في النسخة ب: «ومن جملتهم بوادي عريبدار التابعين لحكومة الكويت، وقد ألح مبارك الصباح بطلب تأديب العجمان، واسترجاع المنهوبات».

(٢) زاد في النسخة ب: «وليس معه من جنده إلا القليل؛ لأن التجنيد وقت القيظ غير ممكن لضعف الأبل وعدم المياه التي تمون الجيوش، وكان متكلاً على قوة حضر أهل الأحساء والمدد الذي وعد مبارك بإرساله، وبوصوله إلى الأحساء».

(٣) في الأصل: وهناك وهناك. مكررة، وفي النسخة ب: «اسمه كنزان، وهو =

اسمها البُرق تحصنوا بها، وظهر عبدالعزيز لحربهم ومعه بعض أهل العارض وكثير من أهل الأحساء، فهاجمهم ليلاً[1]، وكانوا قد علموا بذلك فأخلوا بيوتهم[2]، وجعلوا لهم كمينًا، فما شعر أهل الأحساء إلا والعجمان في ظهورهم، وكانت ليلة حالكة، فقتل بعضهم بعضًا، وتمت الهزيمة.

وفي تلك الليلة قتل سعد بن عبدالرحمن أصغر أخوة جلالته، وجرح عبدالعزيز في جنبه، وتبع العجمان المنهزمين يقتلونهم أنى وجدوهم[3] بقسوة عظيمة، وحاصروا الأحساء، وساعدهم اشتداد القيظ والمحل تلك

= جبل حوله موارد مياه قريبة من وجه الأرض، وهناك سلاسل أكمات اسمها البرق».

(١) زاد في النسخة ب: «وكانت لهم عيون وجواسيس من أهل البلاد نفسها».

(٢) زاد في النسخة ب: «وأوقدوا في بعضها النيران للإيهام بأنها مسكونة، وكمنوا في المرتفعات المحيطة بها، وما كاد الجند المهاجم يحيط بالبيوت للاستيلاء عليها حتى أخذهم الرصاص من كل جانب».

(٣) زاد في النسخة ب: «وعاد عبدالعزيز إلى الهفوف فتحصن بها انتظاراً لاعتدال الطقس ووصول الإمداد من الكويت والرياض، وأحاط العجمان بأطراف نخيل الأحساء وقراها [. . .]، واستولوا على قرية الحليلة [. . .]، فأخافوا بقية القرى، وحملوا أهلها على الاستبسال في الدفاع عنها، وظلت الحرب في مناوشات ومطاردات إلى أن جاءت النجدات بعد ملاءمة الفصل».

وكتب بخط مغاير حاشية على وصول النجدات جاء فيها: «في آخر رمضان من السنة المذكورة مع محمد بن عبدالرحمن من أهل نجد، ما عدا أهل القصيم؛ لأن سعود بن رشيد أغار عليهم، وأخذ أباعرهم على الدويرة (؟) وعلى أطراف القرايا كلها».

السنة في تأخر المدد من نجد إلى أن جاءت النجدات بعد ملاءمة الفصل، فكرّ عليهم، ورماهم بالمدافع، فشتت شملهم[1]، وانهزموا لاجئين بالكويت ورئيسهم إذ ذاك ضيدان بن حثلين ربيب نعمة آل سعود ورضيع لبانها، [. . .]، ولم تكن الإقامة لتحلو لهم بغير النقرة، ولا تطيب لهم بلد سوى الأحساء، فهم يحنون إليها حنين النيب.

وكانت مطير قد دينت، وابتنت الأرطاوية، وأخذت الدعوة تنتشر في البادية، فاضطر العجمان، وركبوا إلى عبدالعزيز طائعين يطلبون العفو والأمان، فعفا عنهم، فدينوا، وعين لهم ماء الصَّرَّار وهو موضع شمالي الأحساء (من النقرة) غزير المياه، فابتنوا فيه هجرتهم الكبرى، وتولى الإمارة فيها ضيدان بن حثلين.

---

(١) من هنا إلى نهاية الفقرة لم يرد في النسخة ب وجاء مكانه: «فأشملوا قاصدين الكويت، وبلغهم أن العوازم وبني خالد على ماء اسمه مريخ في النقرة بالقرب من جزيرة العماير، فهاجموهم ليتقووا بما لديهم، ولكنهم انهزموا شر هزيمة. وفي هذه الوقعة قتل العرافة [بخط مغاير: فهد بن سعد بن سعود] وعلى إثر هزيمتهم تلك التجئوا إلى الكويت، فآواهم حاكمها مبارك الصباح؛ مما صار له الأثر السيئ في نفس عبدالعزيز؛ لأن اعتداءهم على مبارك من أكبر أسباب حربه معهم في ذلك الوقت الحرج، وكاد يعلن الحرب على مبارك الصباح لولا أن موت مبارك في ٢٠ محرم سنة ١٣٣٤ وضع حداً، وحلت الترحمات موضع الغضب، أما العجمان فقد خضعوا للأمر الواقع وأخلدوا للسكينة ينتظرون الفرص، وقد دَيَّنوا مع من ديَّن من القبائل، واتخذوا هجرهم العديدة في وادي المياه، وصاروا من أركان ثورة الإخوان فيما بعد، كما سيأتي مفصلاً».

ووقعت حرب الحجاز فدعيت العجمان للاشتراك في مناوبة القبائل الغازية، وركب ضيدان على رأس جمع من قومه يؤمون الحجاز على مهل وتؤدة، يرعون ماشيتهم، ويقيمون على المياه، حتى قضوا في طريقهم ثلاثة أشهر ونيف [. . .]، فاستاء جلالته من تباطئهم، واستغنى عنهم، وأمرهم بالأوبة، ليثبت لهم أنه في غنى عن مساعدتهم كما أثبت ذلك للدويش، فعادوا محسورين لما حرموا منه [. . .].

ومن آل حثلين نايف أبو الكلاب، وهو ينازع ابن عمه ضيدان الإمارة، ويتزلف إلى عبدالعزيز بالحط منه والوقيعة فيه، وانقسم العجمان بينهما فرقتين مع أن الأكثرية لحزب ضيدان، وأخذ أبو الكلاب ينتهز كل فرصة للوثوب به، ولما استوحش عبدالعزيز من ضيدان قَرَّب خصمه، وكاد يوليه على العجمان كافة منتظراً الفرصة، وما كان أبو الكلاب من المنتظرين.

عتيبــــة

عتيبة هي هوازن، ومساكنها بين الحجاز والعارض وجبل النير (في طريق الحجاز) معقلها وحصنها الذي تأوى إليه، وهي من أكبر قبائل العرب، وبطونها كثيرة أكبرها الروقة(١)، وفيهم الرئاسة في بيت آل ربيعان، وبرقاء(٢) التي أنجبت محمداً [محمد] بن هندي بن حميد، فاستأثر بالزعامة، وبَذَّ آل ربيعان، وكان أشجع فرسان العرب في زمنه، والمثل يضرب بشجاعته، ومات متردياً عن ناقته.

وتولى بعده ابنه نايف(٣)، ولكنه لم يكن في السياسة والشجاعة كأبيه، فنافسه على الزعامة ابن عمه سلطان بن بجاد بن حميد، وكان نايف لسوء تبصره من جملة من قاوم الدعوة الدينية، فساعد عبدالعزيز سلطاناً، وولاه على عتيبة، وفرّ ابن هندي إلى العراق، وكان سلطان ساذجاً متعصباً متهوراً تعوزه الحنكة والمهارة، وليس له من مزايا حليفيه الدويش وضيدان شيء، لولا قوة عصبته في معشره، ومن أهم مواقفه وقعة تربة، وإن كان الفضل فيها يعود إلى حنكة الشريف خالد بن لؤي، ثم اشتراكه بالقيادة مع خالد بن لؤي أيضاً في فتح الطائف، وكانت حادثة الطائف التي أنبه عليها جلالة الملك بصفته قائداً مسئولاً [مسؤولاً]، وهذا التأنيب أورثه الحقد

---

(١) زاد في النسخة ب: «جمع روق».

(٢) في النسخة ب: «وتلي الروقة برقاء».

(٣) في النسخة ب: كتب فوقها بخط مغاير: «وتولى بعده ابنه سلطان، ومات قبل ثورة الإخوان».

الذي أظهره فيما بعد وكان ما كان.

ولعتيبة كثير من الهجر، وأكبرها الغطغط على مقربة من الرياض، وهي أكبر مدن الإخوان تكاد تضاهي الأرطاوية وتبزها، وفيها مقر زعيمها سلطان بن بجاد.

اجتمـاع الأرطاويـة

بعد انتهاء حرب الحجاز ومغادرة الشريف علي لجدة وقفول الإخوان إلى أوطانهم مـر الدويش في طريقـه - من الرياض إلى الأرطاوية - على الغطغط زائرًا، فاجتمع بابن بجاد، ودعاه لزيارته في الأرطاوية - لقرب الغطغط من العاصمة - وضرب له موعدًا.

وفي الوقت نفسه كتب إلى ضيدان بن حثلين يستزيره أيضًا، فاجتمع الثلاثة[(١)] عند الدويش في الأرطاوية، وحضر اجتماعهم كثير من زعماء العشائر الذين يثقون بهم، وقد غلى مرجل كل واحد منهم من الغيظ يحرقون الأرَّم[(٢)] على عبدالعزيز، فقد كانوا يريدون منه أن يستبيح الحجاز، ويبيحه لهم ينهبونه، ويقتلون أهله، بل يريدون ما هو أكبر من ذلك، ولما كانوا يعتقدون أنهم فاتحو الحجاز فيجب أن يكون غنيمة باردة لهم، ونسوا ما كان يمطرهم به عبدالعزيز من العطايا وما يموّنهم به من الزاد حتى كفاهم مؤنة [مؤونة] كل شيء.

نسوا حالتهم السابقة، ونسوا أنهم لو تولوا أنفسهم لما تمتعوا بما كانوا يتمتعون به؛ لأنهم لا يحسنون إدارة البلدان والمدن، فزين لهم الشيطان أعمالهم، ووسوس لهم حتى ضلّوا وأضلّوا[(٣)].

(١) في النسخة ب بخط غير الأصل: «الظاهر أن ضيدان ماحضر معهم».

(٢) **الأرم**: الأضراس. ويقال: فلان يحرق عليك الأرم إذا تغيظ فحك أضراسه بعضها ببعض. ابن منظور، لسان العرب ج ١٢ ص ١٤ (مادة: أرم).

(٣) زاد في النسخة ب: «كان سلطان بن بجاد يمني نفسه بولاية الطائف على الأقل إذا لم يلحق بها مكة وجدة [. . .]».

تشاكوا وتباكوا، ثم تعاهدوا على أن يكونوا يداً واحدة في الثورة على مليكهم، فوضعوا خطط الثورة، وراسمها داهيتهم الدويش، وهو رأسهم المفكر، فصورت لهم أنفسهم الفوز، ورأوا أنهم قوة هائلة لا يستهان بها. عتيبة في عددها وعديدها، والعجمان في غلها وغليلها واتحادها، ومطير، والدويش هو مطير[1]. وتنحصر خططهم في نقطتين هامتين:

الأولى: إثارة بقية الإخوان، واستمالة من عندهم منهم في الداخل ببث الدعايات ونشر الشبهات والتنكير عليها باسم الدين:

١ - في إنكار وسائل المدنية التي أخذ عبدالعزيز يستعملها، كالسيارات والطيارات وآلات البرق اللاسلكي، وعدها من نوع السحر المحرم استعماله، وتكفير من يستعملها؛ ليموِّهوا بها على السذج من أتباعهم.

٢ - تحريم إيرادات الدولة من الجمارك وغيرها؛ ليربكوا ماليتها، ويوجدوا لها المشاكل والأزمات.

٣ - الاعتراض على أهل الأحساء والقطيف وعدهم من الكفار[2].

وهناك كثير من المطالب أنكروها باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛

---

(١) في هامش النسخة أ: «قصة راكان وسلطان الدويش عن الخيل والرمك. وقول فيصل لأبيه: لم تنكح عجمية؟ أي أمه الشقحاء».

(٢) في النسخة ب: «وإجبارهم على الدخول في الإسلام من جديد».

ليتسنى لهم إغواء الأغرار من الإخوان واستجلابهم.

الثانية: إيقاع عبدالعزيز في مشاكل خارجية مع جيرانه، وهم يعلمون حق العلم بما هنالك من معاهدات بينه وبين العراق، وشرق الأردن، والإنكليز، وما فيها من تعهدات تضمن حسن الجوار وعدم الاعتداء من الجانبين، فإذا قاموا بإثارة الاضطرابات على الحدود تسنى لهم خلق المشاكل في الخارج[1]، وهم يعرفون أتم المعرفة طباع البدو وميلهم

---

(١) في النسخة ب «٢- حمله على فتح المتاجرة مع الكويت متجاهلين الأسباب الاقتصادية التي حملت نجد على سدّ باب الكويت وفتحه من جهة الأحساء والجبيل، معللين الأمر من الوجهة الدينية فقط. أي لماذا تقاطع الكويت إن كان أهلها مسلمين؟ ولماذا لا تحارب إن كانوا غير ذلك؟».

وكتب المؤلف حاشية عن الحصر الاقتصادي - أمام كلمة: من جهة الأحساء والجبيل - جاء فيه:

«إلى سنة ١٣٤٠هـ كانت الكويت تموّن نجداً بالضروري والكمالي، ولم يكن يرد إليها عن طريق مواني العقير والقطيف والجبيل إلا الشيء القليل لدخولها بدون ضرائب، وفي الوقت الذي انتشرت فيه هجر الإخوان أصبح من المتعذر على الحكومة أن تضع لها دوائر استيفاء الرسوم على تلك البضائع، فطلب عبدالعزيز من حكومة الكويت أن تسمح بنقطة تستوفي الرسوم الجمركية على تلك البضائع، فلم توافق على ذلك لاعتقادها أنه يمس باستقلالها؛ مما اضطره إلى منع المتاجرة من الكويت وتحويلها إلى مواني نجد؛ مما أدى إلى ازدهار التجارة هناك وعمران المواني، وخصوصًا الجبيل، عمرانًا منقطع النظير على أنه بعد القضاء على ثورة الإخوان وتمكن الحكومة من زمام الموقف تأسست الدوائر في الحفر وقرية، وحصل الاتفاق التجاري بين نجد والكويت، وعادت المياه إلى مجاريها سنة» انتهى. ولم تحدد السنة.

الفطري إلى الغزو، وبعد فتح الحجاز لم يبق ما يدعو إلى امتشاق الحسام، فإذا أعلنوا الجهاد وزحفوا على العراق انخدع أولئك الأغرار بأقوالهم وصدقوهم، وتهيب بهم غريزتهم إلى سرعة تلبية الغزو، ومن الذي يمنعهم عن الجهاد؟ تتولد إذن مشكلة أخرى يصعب على عبدالعزيز التغلب عليها.

على هذا تم اتفاقهم وتعاهدهم في اجتماع الأرطاوية، ولزيادة إحكام الروابط تصاهر الدويش مع ابن حميد.

***

أسأت إلي فاستوحشت مني ولو أحسنت آنسك الجميل[(١)]

وفعلاً استوحش الثلاثة من عبدالعزيز، وانقطعوا عن المجيء إلى الرياض برغم الوسائل التي بذلها لإرضائهم وإزالة سوء التفاهم، ولم يزدادوا إلا عتواً واستكباراً وجاهروا باعتراضاتهم حسب الخطة المقررة، ونسبوا كل الوسائل المدنية إلى السحر، وتهور كثير من أتباعهم بالمجاهرة والمكابرة.

وكان عبدالعزيز في معاملتهم حكيمًا، وقد أبدى مهارة فائقة في إحباط خططهم وفضح نواياها وإظهارهم بمظهر الماكر الذي يسعى لأغراضه من وراء ستار.

---

(١) البيت في الدر الفريد غير منسوب ج٢ ص ١٢٧.

كانت السيارات قد انتشرت بكثرة هائلة في أنحاء الحجاز ونجد، وصارت تنقل الحجاج من جدة إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة، واتصلت المواصلات بها ما بين الحجاز ونجد، وأخذت الحكومة تقتني السيارات المدرعة والطيارات الحربية، وتفكر في تعميم اللاسلكي على سائر أنحاء المملكة؛ وكل هذا ضربة قاضية يوجهها عبدالعزيز إلى أولئك الذين يتبجحون ويمنون، وقد لا يتسنى لهم إظهار الخلاف إذا تم تعميم الآلات في سائر المملكة، لأنه يستطيع إخضاعهم بسهولة، ويتيسر له تتبع حركاتهم وإخمادها وهي لا تزال موضعية في مهدها قبل أن تستفحل بواسطة سرعة تبادل الأخبار والنقل بخلاف ما إذا كانت وسائل المواصلات على الإبل بالطرق القديمة، فقد يتحكمون في بعض طرق المواصلات، ويترصدون لقطعها وعرقلة الحركات التأديبية.

فأخذوا يغررون بعقول السذج بأنها سحر ومن صناعة الكفار، ويطلعون الزعماء منهم على الحقيقة، ويروهم الخطر مجسمًا أمامهم، فينقادون لهم، ويرددون أقوالهم، وقد استصدر عبدالعزيز عدة فتاوى من كبار المشايخ والعلماء، ونشرها على الإخوان، وللمشايخ عندهم الكلمة العلياء، وقد فاتهم أن البنادق التي بأيديهم وكثير من أدوات مرافقهم هي من صنع الكفار صانعي السيارات، وما ذاعت تلك الفتاوى حتى تلقاها كثير من الإخوان السذج بالقبول، فأخلدوا إلى الراحة وانصاعوا لأقوال رجال الدين.

ولكن عقدة العقد هي الغزو وخرق المعاهدات باسم الجهاد، والغزو هو الوتر الحساس في البدوي، ولا قيمة للمعاهدات عنده على أن الزعماء الثلاثة استطاعوا أن يجمعوا حولهم كثيراً من قبائلهم وإن خالفهم البعض، وهناك آخرون ظلوا متذبذبين[1] بين داعي الغرض وداعي الضمير.

(١) في الأصل: متذبذين.

بُصَيَّة

إن المادة الثالثة من بروتوكول العقير[1] تقول: «تتعهد الحكومتان كل من قبلها ألاَّ تستخدم الآبار الموجودة على أطراف الحدود لأي غرض حربي، كوضع قلاع عليها، وألا تعبئ جنوداً في أطرافها». ولكن حكومة العراق لأمر ما حاولت تفسير هذه المادة الصريحة، فبنت لها مخفراً على ماء (بُصَيَّة)؛ لتجعل فيه حامية على الحدود، فاحتجت حكومة نجد على خرق بروتوكول العقير المعزز بمعاهدة بحرة، وكانت تسوية الخلاف ممكنة بالمفاوضات الودية، ولكن الدويش رأى الفرصة سانحة لتعكير الصفو، فأرسل ابن عمه نايف بن مزيد ومعه ركب من الإخوان إلى بُصَيَّة، فهاجموا المخفر، وقتلوا من فيه من الجنود والعملة، ثم أعلن عزمه على الجهاد؛ مما جعل حكومة العراق تهتم أكثر من ذي قبل، فتحصن المركز، وتجهزه بالقوات اللازمة، ثم تعززه بمخافر أخرى متذرعة بالدفاع عن هجوم الإخوان.

كل هذا وهم لخبثهم لم يعلنوا الانفصال ولا تظاهروا بالثورة، ولكنهم يبغون الجهاد، وجعلوا مسألة المخافر في رأس قائمة حججهم، وما كان من جلالته إلا أن أعلن حكومة العراق وجيرانها، وأخطر الدولة المنتدبة عليهم بتمرد الإخوان؛ ليكونوا على حذر إلى أن تسمح الظروف

(١) وضع بروتوكول العقير لتحديد الحدود بين الحكومتين العراقية والنجدية، وهو ملحق للاتفاقية المنعقدة بينهما في المحمرة بتاريخ ٧ رمضان ١٣٤٠هـ. وزارة الخارجية، مجموعة المعاهدات ص ٥، ٦.

بتأديبهم مستنداً على معاهدة المحمرة التي تنص على: «أن يعاقب كل من الحكومتين من يتعدى من العشائر التابعة للحكومة الأخرى، وأن تتذاكر الحكومتان إذا حالت الظروف دون قيام إحداهما بالتأديب اللائق في إمكان اتخاذ تدابير مشتركة طبقا للصلات الحسنة السائدة بينهما»[1].

ومن جملة تلك الظروف حجة الإخوان في مخفر البُصَيَّة والمخافر الأخرى، وأهم من ذلك تلك الاتفاقية التي علقتها «معاهدة بحرة» وهي الخاصة بشأن تسليم المجرمين.

وفي قبول العراق لكثير من مجرمي عشائر نجد وإفساحه الصدر لالتجائهم وإيوائهم ما يجعل حكومة نجد تتأنى في ضرب الإخوان خشية أن يلجئوا [يلجؤوا] فيما بعد إلى العراق الذي اعتاد أن يقبل أمثالهم [. . .]، فالأولى أن تتريث الحكومة، فكانت أجوبتها على احتجاجات العراق جعل هذه المسالة شرطًا أساسيًا لا يقبل تأويلاً ولا تفسيراً.

وهذا الموقف الحكيم الذي وقفه جلالته أمام هذه المعضلة لم يخرج عن نصوص المعاهدات كما يظهر ذلك جليًا، وأي ظرف يمنع من القيام بالتأديب أكبر من إيواء العراق [. . .] إذا ضيق عليه الخناق فر، والتجأ إليها، وبقي بمأمن من العقوبة ناعمًا بالإكرام والضيافة، وهو لم يؤدب إلا لأجل العراق، أما إعلان حرب أهلية داخلية هذه نتيجتها فلا.

(١) وزارة الخارجية، مجموعة المعاهدات ص ١.

وقد عززت حكومة العراق مخالفتها لبروتوكول العقير بمخالفة أخرى صريحة للمادة السادسة من اتفاقية بحرة التي تقول: «لايجوز لقوات العراق ونجد أن تتجاوز حدود بعضها البعض بقصد تعقب المجرمين إلا برضى الحكومتين»[(١)]؛ فقد هاجمت الطيارات المتعقبة للإخوان هجرة (اللصافة) وأمطرتها وابلاً من القنابل، ومن جملة ما دمرته مسجدها الجامع، فهاج هائج الإخوان واحتجت حكومة نجد على هذا العمل المخالف للاتفاقيات.

ولم يكن جلالته ليفسر عن ساعد الجد في تأديب العصاة ما لم يتأكد من صدق نية جيرانه في معاونتهم له عليهم ومنعهم من المسابلة والامتيار، بله الإمدادات السرية فيما إذا أعلن عصيانهم وتظاهر بتأديبهم وأخذ التعهدات الصريحة بعدم إيواء أحد منهم.

وأكبر دليل على أن تخوف جلالته كان في محله ما صارت إليه حالة الثوار بعد خروجهم، وتلك المساعدات المادية والأدبية التي تلقوها، والتجاء الدويش ومن معه إلى الإنكليز وبقاؤه عندهم زهاء عشرين يومًا لولا ما أبداه جلالته من الحزم والتصلب.

---

(١) وزارة الخارجية، مجموعة المعاهدات ص ١٠.

٤

الجمعية العمومية

(ص ١١٢)

الشورى الإسلامية في إدارة الشئون [الشؤون] المهمة ومعالجة الحوادث الكبيرة موجودة في نجد بأدق معانيها وأجلى مظاهرها، وحكم عبدالعزيز صورة واضحة جلية تمثل لنا ما كان عليه الخلفاء الراشدون في عصرهم الزاهر المجيد، وعبدالعزيز لا يختلف في حكمه عن الملوك الدستوريين إلا شكلاً؛ لأن النظم الغربية لا يمكن تطبيقها في بلاد العرب وخصوصًا في البادية منها، وخير ما يوافقها النظام العمري أو نظام الشورى الشرعية[١].

والملك الدستوري هو من يتقيد بالقوانين، وما الدستور إلا قانون معناه أن السلطة للأمة، وقانون عبدالعزيز الذي يتقيد به هو القانون الإلهي المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لا يتطرق إليه التعديل ولا يعتوره التبديل، هو الشرع الشريف كتاب الله وسنة نبيه، والقرآن في نصوصه لا يبقي ريبًا في أنه أرقى النظم في العالم.

---

(١) في النسخة ب: «وهؤلاء الرؤساء والكبراء الذين يدعون لاستشاراتهم، وتعقد المجالس بعضويتهم ليسوا في رئاستهم معينين من قبل الحكومة، بل هم رؤساء على أقوامهم بطبيعتهم؛ أي برضى جماعاتهم واختيارها، والحكومة تعتمد عليهم لأنهم يمثلون جماعاتهم خير تمثيل، وعلى ذلك فهم يمثلون الأمة بكل معنى الكلمة».

وعبدالعزيز فوق الديمقراطية في حكمه العادل، فهو بسيط في عاداته ومجالسه، صريح في سياسة حكومته، وفي استطاعة أي فرد من رعاياه أن يناقشه، ويصارحه برأيه، لا يحول دونه حجاب، ولا يخشى في ذلك عقابًا، وهو متواضع إلى حد لايتصوره أحد، فلا يصدر إلا عن شورى وتبصر، ويزيد على الملوك الديمقراطيين بتحمل المسئولية [المسؤولية] التي هم في راحة منها، وما المنشورات التي يذيعها كل وقت إلا بمثابة خطابات العرش التي يبسط فيها الملك سياسة حكومته على أنها تكون في منشورات جلالته صريحة حقيقية لا تصدر إلا لتنفذ، ولا يقصد منها الإغراء والتغرير وخدع الرأي العام كما تفعله الحكومات الأخرى.

أما إذا حدثت حادثة مهمة تترتب عليها مسئوليات [مسؤوليات] كبرى فحينئذ تنعقد الجمعية العمومية تأتيها الوفود من كافة بلدان المملكة؛ لتتناقش، وتقرر ما تراه صالحًا، وهو ينفذ قراراتها.

وحينما نفدت الوسائل التي اتخذها جلالته لتسكين أولئك [. . .]، وأيقن أن لا سبيل إلى تسكينهم إلا بالقوة، ويترتب على ذلك اتخاذ الوسائل الفعالة وسفك دماء بعض المسلمين، وهو ما يتحاشاه ويبذل دونه كل تضحية ممكنة، وهذه المحاذرة من أكبر أسباب تريثه في تأديبهم راكنًا إلى اتخاذ الوسائل السلمية والمفاوضات والإقناع بالتي هي أحسن إلى أن بلغ السيل الزبى وطفح الكأس[1]، وليت شعري ما الذي يحملهم على

(١) الأنسب والأعف لو قال: طفح الكيل.

الخلاف وإحداث الاضطرابات والفتن وشق عصا الطاعة ومخالفة الجماعة لولا أن هناك أغراضًا في نفوسهم لا سبيل إلى إظهارها وإيقاف الناس على حقائقها حتى يعذر الإمام على تأديب أهل الخلاف، فرمى آخر سهم في كنانته في سبيل السلام.

هم حاقدون على شخصه فليحتكم إلى الأمة، ولكي يضع حدًا فاصلاً لادعاءاتهم الباطلة أمام الأمة، أرسل الدعوة إلى كافة الإخوان والقبائل يدعوهم بها إلى عقد الجمعية العمومية في الرياض، وصرح لهم على عادته أنه ينوي التنازل إذا كان ذلك فيه صلاح للمسلمين، ولهم أن يختاروا ملكًا سواه بكل حرية، فلبى الناس الدعوة من كل فج، وأمّوا الرياض زرافات ووحدانًا، وعجّت العاصمة بالوفود القادمين حتى ضاقت بهم البلد، وامتلأت أرجاؤها بخيامهم ومضاربهم، وكان رؤساء العصاة عالمين بما يجره عليهم هذا الاجتماع من الخذلان وفضح ما انطووا عليه من خبث وسوء نية، فاتفقوا على مقاطعته وعدم حضوره، فقامت بذلك الحجة عليهم، وكان الدويش أكثر من زملائه مرونة ودهاء، فأناب عنه ابنه عبدالعزيز معتذرًا بكبر سنه وعجزه، متنازلاً عن الرئاسة لابنه[1].

(١) في النسخة ب: «ومع أننا التزمنا جانب الاختصار في سرد الوقائع الماضية لشهرتها وكثرة ما كتب عنها، ولكننا هنا نود أن نذكر أسماء من حضر هذا المؤتمر القومي العظيم بالنظر لأهميته، وهذه أسماء رؤساء الوفود بغض النظر عن اتباعهم». ثم سرد أسماءهم في نحو ثماني صفحات. وقال بعدها في الهامش: «نقل تفصيل الأسماء من محضر الجلسة المنشور بأم القرى عدد ٢٠٨».

وحضر الجمعية كثير من رؤساء مطير وعتيبة والعجمان، وتم انعقادها في العشرين من جمادى الأولى سنة [١٣٤٧][1]، فقررت بالإجماع عدم قبول تنازل جلالته؛ لأن ذلك يضرّ بصالح المسلمين لاستحالة اجتماع الكلمة على غيره، ووافقت الجمعية، وأقرّت جميع المسائل التي اعترض عليها العصاة بعد أن أدلى العلماء بأدلة إباحتها الشرعية، وأوكلت إلى جلالته معالجة الأمور الخارجية، ومنها مسألة المخافر بالوسائل السلمية، واعتبار كل من يشذّ عن هذه القرارات مخالفًا للإمام، خارجًا عن الجماعة يجب تأديبه، وبايعوا جلالة الملك على ذلك، وعلى أن يكونوا معه يدًا واحدة لتنفيذ قرارات الجمعية ومحاربة الباغي إلى أن يفيء إلى الرشد، وكان عبدالعزيز بن فيصل الدويش من جملة المبايعين المعاهدين بصفته رئيس عشائر مطير، ولكنه لم يكن من الصادقين.

أما ضيدان بن حثلين فقد تظاهر بالإجابة، ولكنه نكص على عقبه، وعاد من منتصف الطريق.

فكانت الجمعية العمومية ضربة قاضية على ادعاءات الإخوان العصاة، وبذلك انحلت أعقد العقد الداخلية، وبطل ما كانوا يدعونه من حق إعلان الجهاد بدون إذن من الإمام، وصار المخالف حلال المال والدم.

---

(١) في الأصل: (١٣٤٦). وهو خطأ والتصويب من النسختين أ و ب.

وبقيت العقدة الخارجية وهي الحصول على تعهد صريح من الحكومة الإنكليزية المنتدبة على الحكومات المجاورة[1] بعدم إيواء اللاجئين إليها من العصاة المجرمين، وقد كان الإنكليز يحاولون التملص من إعطاء هذا التعهد لولا أن جلالته اضطرهم بتماديه في الكف عن منع العصاة وترك الحبل لهم عن الغارب حتى كثرت غاراتهم وتعددت غزواتهم على قبائل العراق، واضطرب حبل الأمن في حدود انتداباتهم بدون أن يكون جلالته مسئولاً [مسؤولاً] عن ذلك ما دامت الظروف ومن جملتها (هذه التعهدات) لا تسمح له بتأديبهم، وقد ألقى مسألة التأديب على عاتق تلك الحكومات وفي داخل حدودها فقط.

هذا هو الموقف الحكيم الذي يدل على ما لجلالته من يد طولى في السياسة والحكمة، فأصبح ما يعلقه الإخوان على غاراتهم من أهمية إرباك جلالته مع جيرانه في مشاكل سياسية باسم الجهاد لا شأن له ولا تأثير، وليس لجيرانه حق في الاحتجاج على سطوات الإخوان ما دامت حكومتهم تعتبرهم عصاة، وتطالب المحتجين بعدم إيوائهم إذا حاولت تأديبهم، فلم يبق للإنكليز مناص من حسم تلك المادة المعلقة في معاهدة بحرة على ما يرتضيه الجانب النجدي.

والحقيقة أن تلك الظروف السيئة نفعت نجداً أكثر مما أضرت بها، فقد مثلت فيها حكم الشورى للعالم الخارجي بأحسن صورة، وقضت على

(١) في النسخة ب: «على حكومتي العراق وشرق الأردن».

[. . .] أولئك [. . .] الذين تلبسوا بالولاء ودخلوا في الدعوة الإصلاحية الدينية متعصبين لها في الظاهر [. . .]، وكادوا يسيرون مقاصدها الحسنة لمصالحهم الخاصة[1]، وتلك الحوادث ميزت الخبيث من الطيب، وكشفت القناع عن كل متلبس قد يغتنم ظروفًا في المستقبل لا تسمح بتأديبه، وقد يشق شقًا يصعب رتقه، كما أنها قد برهنت للناس كافة وللإخوان خاصة أن الانتصارات التي أحرزها الإخوان يرجع الفضل فيها إلى عبقرية عبدالعزيز وحسن تدبيره ومهارته في اغتنام الفرص والضرب على مواضع الضعف من خصومه، وأنهم لولا ذلك لم يكونوا شيئًا مذكوراً.

وهنا مسألة على جانب من الأهمية لولا هذه الثورة لظلت أداة صالحة بيد الأجانب يستثمرونها، ويستثمرها أعداء البيت السعودي في كل فرصة تسنح، تلك المسألة هي الرأي العام العراقي، والأكثرية من العراقيين شيعة المذهب، والمذهب الشيعي لا يتفق مع الدعوة الوهابية، وذكرى غزوة سعود الكبير لكربلاء لا يزال أثرها باق [باقيًا] في نفوس الشيعة والعراقيين خاصة، على أن تنور الأفكار فيهم وانتشار فكرة القومية العربية والوحدة العربية كافية للقضاء على تلك البغضاء والنفور لو وجدت لها جواً ملائمًا لوقوف الناس أخيراً على حقيقة المذهب الوهابي بعد زوال الدعاية التركية،

(١) لواكتفى المؤلف بإقامة الحجة على قادة الإخوان، بأنهم فارقوا الجماعة، ولم يمتثلوا طاعة ولي الأمر، ولم يراعوا فتاوى ونصائح العلماء، ولم يلتزموا بمقررات الجمعية العمومية، لأغناه عن الخوض في أعراضهم والدخول في نواياهم، وهو منهيٌ عن ذلك، والرسول ﷺ يقول: «**هلا شققت عن قلبه**»، ولكن المؤلف وقتها كان واقعًا تحت تأثير الرأي العام.

وبفضل ما بذله الملك عبدالعزيز من الوسائل الكثيرة، وما تم على يديه من الاصلاحات العديدة في الحجاز، كتوفير وسائل الراحة للحجاج بما لم يسبق له مثيل، ونشر الأمن في البادية بما صار مضربًا للأمثال.

كل هذا كان كافيًا لإزالة ما علق في أذهان عامة العراق لولا أن البيت المالك فيه وهو الموتور في الحجاز يعطف على ما يبعد الهوة بين الرأي العام العراقي ونجد، وللصحافة العراقية يد طولى في هذا الأمر حتى أن الحكومة العراقية نفسها اضطرت إلى نشر بلاغ للصحف؛ لكي تخفف من لهجتها - وإن تكن لم تصغ إلى ذلك البلاغ لأنه نشر[1] للمجاملة الدبلوماسية ليس إلا -، وفي ذلك اعتراف خطير من الحكومة بالحقيقة الراهنة على أن هذه العوامل لم تكن لتحول دون حسن التفاهم لو وجد الجو الملائم كما قلنا، فقد كان من سوء الصدف أن غارات الدويش وأصحابه لا تكون إلا في ظروف المفاوضات الحرجة والتعندات من جانب صاحبة الانتداب، فتضج لها الصحف، ويردد صداها الرأي العام بكيل التهم جزافًا للحكومة النجدية وتحميلها قسمًا من مسئولية [مسؤولية] تقهقر العراق في مفاوضاته[2].

(١) تكرر في الأصل كلمة: نشر.

(٢) من قول المؤلف: وهنا مسألة. إلى هنا لم يرد في النسخة ب، وجاء مكانه ما يلي: «وهي أن غارات الدويش وغيره من الإخوان كانت تؤول على غير ظاهرها، خصوصًا إذا صادفت مفاوضات بين الإنكليز والعراق، فكانت الدعاية تستغل هذه الغارات لتؤثر في الرأي العام العراقي إلى أن حصحص الحق وظهر الصبح بعد أن انبرى جلالته . . .».

إلى أن انبرى جلالته لقتال أولئك المارقين وضربهم تلك الضربة التي حولت مجرى الرأي العام العراقي فجأة وفي ساعة واحدة، إذ رأى الحقيقة واضحة أمامه لا غبار عليها، وحصل لتلك النفرة رد فعل حتى في نفوس أكثر الشيعة تعصبًا، وانهار ما بنته الدعاية العدائية في لحظة واحدة، فانقلبت الصحافة العراقية عن بكرة أبيها إلى سعودية أكثر من السعوديين أنفسهم، وحدث من النتائج الحسنة لنجد ما لو أنفق عبدالعزيز في سبيله ملايين الجنيهات لما أثمر هذا الأثر المبارك ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

أما وقد فرغنا من بسط أسباب الثورة ونتائجها، فلنبدأ بشرح وقائعها.

٥
وقعة السَّبَلة
(ص ١١٣)

أصبح العصاة بعد قرارات الجمعية العمومية أمام أمر واقع، إما الرضوخ والإخلاد إلى السكينة، أو الإصرار على التمادي في أفعالهم وإعلان عصيان ولي الأمر ومخالفة الجماعة. وبعبارة أخرى: الظهور بمظهرهم الحقيقي، وكان سلطان بن بجاد ومن معه قد التحقوا بالدويش، وجعلوا الأرطاوية مركزاً لمناوراتهم لقرب الغطغط من العاصمة، ولكون الميدان في الشمال أفسح مجالاً لقربه من العراق وشرق الأردن لتموين جموعهم أولاً، وللالتجاء إليها ثانيًا فيما إذا وقع ما لا يحمد عقباه.

أما ضيدان بن حثلين فكان بين بين، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى منتظراً ما تسفر عنه الحوادث، وكان يشن الغارات بين آونة وأخرى على عرب العراق في بادية الكويت والزبير، فهاجم اللاجئين من عرب الهكرة عند سور الكويت وأخذ يتعرض لطريق السيارات بينها وبين الزبير، و [...] كان يرسل البشائر إلى الرياض والأحساء أثر كل إغارة يقوم بها، كأنما هو مكلَّف بإقلاق الأمن باسم الجهاد الذي ينتحله.

والدويش ألقى بزمام الزعامة إلى زميله ابن بجاد [...]؛ ليلقي المسئولية [المسؤولية] كلها عليه. أما ابن حميد فلتكبره واغتراره بنفسه

وبقومه لم تكن حوصلته لتتسع لتمثيل دور ضيدان والدويش، فقد أعلن الاستنكار على مليكه إعلان الخوارج خروجهم على علي[1]، ولم يكتف بما كان يشنه من الغارات على أطراف العراق وتبريرها باسم الجهاد، بل اعتبر أهل نجد أنفسهم من الباغين الذين تجب مجاهدتهم، فقد التقى بجماعة من تجار أهل القصيم، فقتلهم عن بكرة أبيهم، واستحاز أموالهم، ثم أرسل سرية كبيرة مع فرحان بن مشهور[2]، أحد زعماء العصاة إلى جهة الشمال لإيقاع الاضطرابات، فصادف سرية صغيرة من رجال الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي، فتغلب عليها بعد أن فني نصف رجاله، ثم لم يعتم ابن مشهور أن أتته أخبار وقعة السبلة حتى فرَّ إلى جهة الكويت، ونزل الجهرى [الجهراء].

---

(١) أعلن الخوارج خروجهم على علي إثر اتفاق علي ومعاوية - رضي الله عنهما- على تحكيم رجلين لتسوية الخلاف الذي نشب بينهما بسبب مقتل عثمان، ولكن فرقة من جيش علي عارضوا ذلك، وقالوا: لا حكم إلا لله، وانسحبوا من جيش علي، وخرجوا عليه، ولذلك سموا الخوارج وذلك في سنة ٣٧هـ، وقد وصف علي كلمتهم بأنها: كلمة حق يراد بها باطل. ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٧٢. وتشبيه المؤلف هنا خطأ لا وجه له.
وقد ورد في النسخة ب زيادة جاء فيها: «فقد كتب له مرة: من سلطان بن بجاد إلى عبدالعزيز بن عبدالرحمن، وأوصى رسوله (ماجد بن خثيلة) أن لا يتظاهر بأي خضوع، وقد مثل الدور، ولكنه تلقى من التقريع ما أعاد إليه صوابه، وعاد إلى ابن بجاد ينصحه بالاستسلام قائلاً: إن عبدالعزيز اليوم هو غير ذلك الرجل المستسلم الطيّع [...]».

(٢) زاد في النسخة ب: من الرولة.

وصلت هذه الأخبار إلى الرياض فسرت سريان النار في الهشيم، وحدث لها وقع سيئ في نفوس الناس، وبدأ [وبدؤوا] يجاهرون مليكهم منتقدين خطة التريث التي جرى عليها في تأديب الطغام، وكانت أفعال ابن بجاد بمثابة إعلان العصيان والتظاهر بمحاربة ولي الأمر، وكيف يصبر الناس على ما لم يحيطوا به خبراً من أسرار السياسة.

ولحسن الحظ أن هذه الاعتداءات الداخلية وقعت بعد انحلال العقدة الخارجية، وكان جلالته قد نال التعهد المطلوب من حكومة الانتداب، فصاح داعي النفير، واستنفر جلالته حضر نجد، والتفت حوله بوادي حرب وقحطان وسبيع من الإخوان، وخرج من الرياض في ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٧ آملاً أن يتجمع العصاة في صعيد واحد؛ ليضربهم الضربة القاضية.

وكانوا قد نزلوا بجموعهم على ماء السبلة بقرب الزلفي، فجاء بجنوده المنصورة، ونزل الزلفي، ومنها رحل، فنزل أمامهم وليس بينه وبينهم إلا ربوة صغيرة، وكنانته لا تزال فيها بقية من سهام الحلم برغم تحمس جنوده حتى إنه لاقى صعوبة في كبح جماحهم، فأخذ يراسل العصاة، ويدعوهم إلى المثوبة محكمًا الشرع بينه وبينهم.

وابن حميد يعلم جيداً أن الشرع سيحكم عليه بصريح حكم الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا...﴾ [المائدة: ٣٣] إلخ.

ولكن الدويش الذي يعد نفسه بريئًا من فعلة ابن بجاد، ولدهائه وخبثه لم يرد أن تكون الحجة عليهم لعبدالعزيز، فحاول أن يتخلص بمناورة، وطلب الأمان للمقابلة، وكان قصده سبر غور عبدالعزيز والاطلاع على مبلغ ما لديه من القوى، فنال الأمان بواسطة الشيخ العنقري[(١)]، وجاء يستنكر ما أتاه ابن حميد من أعمال وما فاه به من أقوال، وقد تعهد لعبدالعزيز أن يأتيه به راضخًا لحكم الله، وإلا فهو مع الجماعة عليه، وجعل شروق شمس الغد موعدًا لن يخلفه، ولم يكن من الصادقين، وما كانوا ليخضعوا وقد بلغ بهم الغرور مبلغه واعتدُّوا بأنفسهم اعتدادًا دونه كل اعتداد.

ففي صبيحة ١٩ شوال سنة ١٣٤٧ حانت الساعة، وانفتل الناس من صلاة الفجر، وبدأت ذكاءُ[(٢)] ترسل أشعتها عمودية في الفضاء من وراء الأفق، وكانت طلائع الخيل تتطلع طلع العصاة، وتترقب قدوم الدويش في موعده الذي ضربه، ولكنها رأت على البعد جموع العصاة تأخذ أهبتها للقتال، وقد اصطفت راياتها، فعادت نذيرة.

وكان كل شيء قد وقف عند حده، فأصدر جلالة الملك أمره بالزحف، والتقى الجمعان، وكان سمو الشيخ[(٣)] محمد أخو جلالته،

(١) هو : **الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العنقري**، عالم له مؤلفات. تولى القضاء أكثر من ثلاثين سنة، انتدبه الملك عبدالعزيز لمهمات كثيرة في الصلح وتسوية الخلافات، توفي سنة ١٣٥٠هـ.

(٢) ذكاء من أسماء الشمس. ابن سيده، المخصص ج ٩ ص ٩١.

(٣) في النسختين أ و ب : سمو الأمير.

والفرم رئيس حرب على الفرسان، فضربا العصاة من خلف، ونكلا بهم، واستقبلتهم جموع الحضر، فاستحرَّ فيهم القتل، وولوا مدبرين؛ فقد تضاءلت نفوسهم، وخمدت جذوتهم، وكاد الدويش يسقط عن جواده لجرح أصابه في خاصرته لولا أن تداركه أحد جماعته، فانهزم به إلى الأرطاوية، وإليها اتجهت الفلول مدبرة لا تلوي على شيء، وقد تركوا كل ما لهم حتى إبلهم لم يستطيعوا طلاقها من عقلها.

وكانت قلوب الناس تقطر الدم غيظًا منهم وحنقًا عليهم، ولو تبعوهم إلى الأرطاوية لأثخنوا فيهم وأفنوهم، ولكن جلالته نادى برفع السلاح مكتفيًا بما أصابهم، وتأبى الشفقة أن تفارقه حتى في أشد أوقات غيظه وحنقه.

وكان ابن حميد أول المنهزمين وقد فرَّ مع جمع من عتيبة قاصدًا الغطغط، وقطع الله دابر القوم الظالمين. وما أشبه هذه الوقعة بوقعة النهروان[1] وانهزام الخوارج فيها على شدة شكيمتهم وقوة مراسهم في القتال.

(١) وقعة النهروان أو النهر بين علي رضي الله عنه والخوارج سنة ٣٨هـ. وفيها هزمهم عليّ وقتل أكثرهم. الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٧٢-٩٣. واتهام الإخوان بأنهم خوارج - وهو ما يردده المؤلف في كتابه - مسألة تحتاج إلى مراجعة؛ لأن هذا الاتهام ينسحب على الطعن في دين المسلم، وهو أمر لا يجوز المساس به دون برهان ظاهر لايقبل التأويل، أما ما وقع فيه الإخوان فهو من الجهل، الذي جَرَّ إلى عصيان وليّ الأمر والإخلال بالنظام، وإشاعة الفوضى في البلاد تحت تأثير مبدأ لم يفهم على حقيقته، وقد أدبهم الملك عبدالعزيز بعدما =

ووقعة السبلة تعد فاصلة في أمر العصاة، وكادت تكون القاضية على أعمالهم وآمالهم لولا ما تلتها من حوادث لم تخطر على بال أحد.

ولقد كان الخير في الواقع ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]؛ لأن إخلاد أولئك العصاة على مضض وحزازة في النفس وبقاءهم على ما هم عليه يتربصون الدوائر ويتحينون الفرص فيه ما فيه من الخطر، وليس أسرع من انقلابهم وعودتهم إلى ما كانوا عليه من شقاق وخلاف، وهناك أعداء في ثياب الأصدقاء أخفوا نواياهم بعد وقعة السبلة وأظهروها فيما بعد، فلولا الحوادث الأخيرة لبقوا علّة باطنة وسوسة تنخر في كيان المملكة، فاستأصلت تلك الحوادث الداء من أصله، واجتثت جراثيمه[1].

= أقام عليهم الحجة، وصبر عليهم، ونصحهم، وأرسل إليهم العلماء، وسوف يشير المؤلف إلى نحو ذلك في الهامش التالي من زيادات النسخة ب.

(١) زاد في النسخة ب ما يلي: «ومما لا يسع المؤرخ إغفاله أن من بين هؤلاء العصاة إذا استثنينا الرؤساء من هو ثائر عن عقيدة متأثراً بدسائس الرؤساء وأكاذيبهم، وفيهم من هو غارق في جهله إلى أذنيه، ومن هؤلاء بعض المطاوعة المرشدين المتعصبين ومن على غرارهم من بعض الشخصيات من الحاضرة، وفيهم من كان يؤمن بانتصار الإخوان قياساً على حروبهم الماضية فيود أن يتخذ له يداً.

كل أولئك كانوا على اتصال سراً برؤساء العصاة يكاتبونهم، ويؤيدونهم في خفاء، ويطلعونهم على العورات. هذه المقدمة لتسجيل عمل لم يسمع به أحد في عالم الحروب والسياسة، بل هو من معجزات عبقرية عبدالعزيز في سياسته لمملكته التي مكنته من القبض على نواصي الأمور، ذلك العمل الذي يعده الساسة الآخرون خطأ، ولكن الحوادث برهنت على أنه عين الصواب كما =

وعلى أثر الوقعة رحل جلالته من موضعها، ونزل بقرب الأرطاوية، فأدرك الدويش حرج مركزه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأيقن أن لا مفر له ينجيه، ولم يبق أمامه إلا باب الاستسلام والتسليم، فأُتِيَ به على النعش تحف به أطفاله ونساؤه وهن يبكين ويستغثن ويندبن.

إنه لمنظر يبعث الرحمة في القلوب فكيف وقلب عبدالعزيز معدن الحلم ومنجم العفو والشفقة، وإنه لموقف جميل موقف الظافر المنتصر يأتيه عدوه متذللاً خاضعًا، وإنها لساعة العفو اللذيذة، وما العفو إلا ما حصل بعد الاقتدار، ذلك هو العفو الحقيقي الذي لا غبار عليه، والعفو عند المقدرة.

ولقد ترقرقت[1] عينا عبدالعزيز بالدموع، ومرّ أمام مخيلته ما كان

= قال الشاعر مخاطبًا جلالته ذلك الحين:

نلوم ولكن كل ما صار شاهد   بأنك في ما أنت تفعل أصوب

بعد انهزام الإخوان عثر في خيمتي الدويش وابن بجاد على عدة أكياس (شوالات) مملوءة بالكتب والمخابرات السريّة التي يتوق الإنسان إلى الاطلاع عليها بفعل غريزة حب الاطلاع، كما أنّ الحكمة تقتضي فحصها [...] وتمييز الأعداء من الأصدقاء، ولكن عبدالعزيز أمر بإشعال النار فيها دون أن يطلع على شيء منها قائلاً: إن هذه فتنة عمَّت الجهال وقد أقدرني الله عليهم، ولا أحب أن أعادي رعاياي أو أدخر لهم أضغانًا، فقد عفوت عن الجميع، فاستعرت فيها النيران وعلامات الدهشة مرتسمة على جباه الحاضرين.

وهكذا فقد اطمأن الخائف، وآمن المتشكك، فاستلَّت السخائم من أصولها. وهذه العبقريات».

(١) في الأصل و ب: ترقرت. والتصحيح من أ.

للدويش عنده من منزلة وما أسداه عليه من معروف وإحسان، واستعرض الحوادث الماضية في ذهنه، فالتفت إلى الدويش قائلاً: «هذا فعلك بيدك». وكان الداهية يحسن الرد: «يا الإمام إن عاقبت فبذنوبنا، وإن عفوت فأنت أهل العفو». عفا عنه وما كان الناس ليصدقوا، ولكن حلم عبدالعزيز من أغرب الأشياء، ثم أعاده مع نسائه آمنًا مطمئنًا إلى الأرطاوية(١).

وكان موسم الحج قد اقترب وعلى جلالته أن يتوجه إلى الحجاز شأنه في كل سنة، فعاد راجعًا، وأرسل أخاه سمو الأمير عبدالله للتنكيل ببعض الخوارج، وفيما هو في شقراء إذ وفد عليه سلطان بن بجاد بعد أن ضاقت عليه المسالك، أتى في سابق هيئته وبزته ومعه من جماعته ثمانون وهو على عنجهيته وغطرسته. وقد لعب عليه الدويش، فزج به في المهالك، وحمّله المسئوليات [المسؤوليات] وحده، وعليه تقع تبعة قتل أهل القصيم، على أنّ جلالة الملك وإن يكن قد عفا عن دمه فقد رأى أن من المصلحة العامة القبض على رأس الحية حتى تنطفئ الفتن، فقبض عليه، وأرسله مخفوراً إلى الرياض، وأطلق سراح من معه، وقطع دابر المفسدين.

ولم يبق ما يثني عزم جلالته عن السفر إلى الحجاز، فغادر بريدة على السيارات، ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٤٧ قاصدًا المدينة.

---

(١) في النسخة ب:

«ملكنا فصار العفو منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح

ومع كل هذا فقد عاد إلى الشقاق ثانية (والذي خبث لايخرج إلا نكدا) بعد ثلاثة أشهر فقط، كما سيأتي».

٦
مقتل ضيدان
(ص ١١٥)

لم يكن ضيدان بن حثلين زعيم العجمان بأقل من زميله الدويش حصافة ومكرًا ودهاءً [. . .].

وكانت إغاراته قد تعددت على أطراف العراق والكويت كما تقدم، [. . .] لم ينضم إلى زميليه في تجمع السبلة، بل تعهد لهما بعرقلة الحركات الحربية من جهته، وفي الوقت يكاتب جلالة الملك متنصلاً منهما خصوصًا بعد إيقاع ابن حميد بتجار القصيم.

والعجمان من بدو النقرة، والنقرة تابعة في شئونها [شؤونها] لحاكم الأحساء سمو الشيخ عبدالله بن جلوي(١)، ولضيدان منافس قوي على رئاسة قومه هو ابن عمه نايف بن حثلين الملقب بأبي الكلاب، وكان يتظاهر بالإخلاص للحكومة، ويتودد بالحط من خصمه والوقيعة فيه عند أولي الأمر، وساعده على رواج أقواله انضمام ضيدان إلى حلف العصاة.

(١) في هامش النسخة ب: «توفي في ٢ شعبان سنة ١٣٥٤هـ، وتولى بعده ابنه الأمير سعود، ولا يزال شاغلاً هذا المنصب». انتهى. وفي سنة ١٣٧٠هـتم تعيين الأمير سعود بن عبدالله بن جلوي أميرًا للمنطقة الشرقية، ونقل مقر إقامته إلى الدمام، وتوفي الأمير سعود سنة ١٣٨٦هـ، وتولى بعده أخوه الأمير عبدالمحسن بن عبدالله بن جلوي. وفي عام ١٤٠٣هـتم تعيين صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن فهد بن عبدالعزيز أميرًا للمنطقة الشرقية، وما يزال إلى الآن.

وفي ٢٧ شوال سنة ١٣٤٧ جاءت البشائر إلى الأحساء بأخبار وقعة السبلة، وصدرت الأوامر بالقبض على ضيدان وتولية أبي الكلاب مكانه، وكان ضيدان قد أحسَّ بحرج موقفه بعد السبلة، فأخذت رسله تفد تباعًا، وما كانت سوى عيون له لتسبر غور الشيخ عبدالله بن جلوي الذي طلب منه أن يأتي للمقابلة، فامتنع، وأقام في الصَّرَّار جامعًا حوله عشيرته، فجهز عليه حملة بقيادة ابنه الأمير فهد بن عبدالله قوامها ستمائة من حضر أهل نجد والفداوية ومعها جملة من بدو المرة والعوازم وبني هاجر[1]، وبصحبته أيضًا أبو الكلاب ومن انضم إليه من العجمان.

خرجت الحملة تؤم الصَّرَّار إلى أن نزلت على عوينة كِنْهر[2] على مسافة أربع ساعات من الصَّرَّار، وأرسل فهد إلى ضيدان يدعوه للقدوم، وبعد لأي ما قبل أن يأتي ومعه بضعة أنفار من خواصه في ١٨ ذي القعدة سنة ١٣٤٧، وكان قد عهد إلى قومه بالمجيء إليه إذا لم يعد إليهم منتصف تلك الليلة[3]، وطلب فهد منه تسليم شوكة الحرب، السلاح والخيل، أو ما يدعى عند البدو بالخفر، وهي أكبر عقوبة للبدوي، وما يصنع ضيدان وقد وقع في اليد، فلم يسعه إلا أن يتظاهر بالقبول، وطلب الرجوع إلى

(١) في النسخة ب: «وبني خالد».

(٢) عوينة كنهر أو العيينة، ويقال لها أيضًا عيينة كنهر، قرية جنوب الصرار في وادي المياه (الستار قديمًا) يمر بها طريق الكنهري من الجبيل إلى نجد. الجاسر، المنطقة الشرقية ج ٣ ص ١٢٠٦، ١٢٥٣، وج ٤ ص ١٥١٦.

(٣) في النسخة ب: «أي الساعة ٥ بعد الغروب».

الصَّرَّار، فأبى عليه، فهد واستبقاه كرهينة عنده، وكان على علم بالموعد الذي ضربه ضيدان لقومه، فاستعد لمقابلة الهاجمين، وأوصى حراس ضيدان بقتله إذا حاول أحد من قومه إطلاقه[1].

[. . .]، وفي معسكر فهد جماعة أبي الكلاب كثير، بل وكثير من الفداوية أيضًا عجمان، وقبيل القبض على ضيدان كان أبو الكلاب يحرض فهدًا عليه، ويغريه بقتله، وما أن قبض عليه حتى بادر الفداوية منهم بإطلاق بنادقهم في الهواء تظاهرًا بالفرح وهم يقصدون إعلام قومهم بالأمر. ثارت بنادقهم وتبعهم باقي الجند، فدوى المعسكر، ورددت الأرجاء صداه، وأطلق أحدهم سراح أحد حاشية ضيدان ليخبر جماعته.

وما أزفت الساعة الخامسة[2] إلا وأهل الصَّرَّار قد أقبلوا، فصمد لهم فهد بمن معه من الحضر، وأصلوهم وابلاً من الرصاص، وبالرغم من تحمسهم لإنقاذ ضيدان فقد انكسروا، ونفذ الحراس قتل ضيدان حالما أقبل قومه، وكان البدو قد نأوا جانبًا عن المعركة، ولم يصطلها إلا الحضر وفهد من بينهم كالليث يصدر أوامره بالتقدم بعد أن تقهقر أهل الصرار.

وهنا ظهرت الغريزة العجمانية بأجلى مظاهرها [. . .] في نفس أبي الكلاب؛ لأن ضيدان قد قُتل، وبقي ميدان الرئاسة أمامه مفتوحًا لا ينازعه فيه منازع، ولكي يجمع العجمان حول رئاسته لم يشعر فهد ومن معه وقد

---

(١) في النسخة ب: «إطلاق سراحه».

(٢) في أ و ب: «بعد الغروب».

تقدموا وتركوا مخيمهم وراءهم وفيه كل الذخائر والعتادات إلا والرصاص يتساقط عليهم من ورائهم، وإذا هم بين نارين نار العجمان [. . .] أبي الكلاب وقومه، ونار العجمان الهاجمين لإنقاذ ضيدان [. . .]، فكانت ساعة هول عظيمة اختلط فيها الحابل بالنابل، وانهزم الحضر، وقتل المرحوم فهد[1] برصاصة طائشة ضحية لغدر من اصطفاه وقدمه على سائر من معه، وقد جالد بسيفه، وأتى من ضروب الشجاعة ما يعجز عنه الوصف.

وقتل في تلك الوقعة من كل جانب ما يقارب الثمانين، وبموت ضيدان انهدّ ركن من أركان الطغاة لن يسد فراغه سواه [. . .].

ولم تكن لهذه الوقعة أهمية تعيد الأمل إلى نفوس العصاة بعدما رأوه في وقعة السبلة لولا أنها جاءت في وقت توفرت لها فيه عوامل ساعدت المفسدين، فقد كان الفصل أول القيظ وقد اشتدّ حروره، وهبت سمائمه، وأشهر القيظ في صحاري جزيرة العرب أشبه شيء بالأشهر الحرم، تقف فيها الغزوات، ويقطن البدو على الموارد؛ لأن المياه لا تكفي لتموين سرية صغيرة فضلاً عن حملة كبيرة.

وكان جلالة الملك قد توجه إلى الحجاز قبل علمه بخبر الواقعة. وكأن

(١) في هامش ب: «اثبت التحقيق فيما بعد أن قاتله أحد خدامه من العجمان (فداوي) يقال له: الصفار كان إلى جانبه وقت المعركة». يلحظ أن المؤلف لا يتعفف عن استخدام عبارات النقد القاسي بين حين وآخر، وكان بإمكانه عرض الأحداث وإبداء رأيه دون إظهار عاطفته المتحاملة، وقد تم حذف بعض الكلمات الجارحة.

الظروف كانت تخدم العجمان؛ لتهيئ أسباب الثورة التي تجلّت فيها نوايا المنافقين ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[1] [الأنفال: ٤٢] صدق الله العظيم.

اجتمع العجمان صبيحة الوقعة وقد وقف أبو الكلاب يخطبهم [. . .]، فولوه الزعامة، وعرضوا تحت رايته، وضاق بهم الصرار؛ إذ لم يكونوا ليأمنوا بطش ابن جلوي، وهم على مقربة من الأحساء، فنزحوا إلى جهة الشمال بقضهم وقضيضهم ناجين، وقد علموا أن ذنبهم لا يتسع له حلم طالما وسعهم، وأصبحت الصرار خاوية على عروشها، ونزلوا الوفراء على مسافة يومين من الكويت، وتبعهم كثير من العجمان الذين لم يشهدوا الوقعة رغبة في العودة إلى حالتهم القديمة التي طالما حنَّت نفوسهم إليها، والتحق بهم أيضًا كثير من الأفاقين طلاّب النهب والسلب كالفغم وابن لامي ومن معهما من مطير، والدهينة بأناس من عتيبة، والرفدي بجمع من عنزة، وكان ابن مشهور وقومه من الرولة نازلاً على الجهرى [الجهراء] كما تقدم.

فلما أتته أخبار تلك الفئة سارع منضمًا إليها، فازداد به قوة (وهول بهول يا عجمان)[2] مثل شهير للأكاذيب [. . .]، فهبوا لنشرها بين البادية، وأخذوا يهولون ويختلقون حتى حصلوا على كثير من فلول

(١) وفي الأصل: وليهلك. بالواو.

(٢) في هامش النسخة ب: «الهول الإرجاف والمبالغة».

العصاة، والتفّ حولهم كل ناعق من المتسللين من هجر العصاة، وأصبح عددهم لا يقل عن أربعة آلاف مقاتل، حتى ضاقت بهم الوفراء، وشحّ ماؤها، وكان عليهم أن يزودوا جيشهم، وليس أمامهم إلا طريقة النهب والسلب، فأرسلوا السرايا والركبان تعيث وتفسد، ولما لم يفدهم ذلك قرروا مهاجمة القطيف أو الجبيل؛ ليجعلوها مركزاً لحركاتهم وتموينهم، وواسطة لاتصالهم بالبحر؛ حتى تتسنى لهم المقاومة، وتكثر جموعهم.

وكانت قبائل النقرة قد بدا فيها التذبذب والنفاق، ففرّ بنو مرّة إلى الجنوب حيث معاقلهم في شمالي الأحقاف. وبدت من بني هاجر على قلّتهم سوءات [. . .] مع أنهم ليسوا بالشيء المذكور، ووقف بنو خالد على الحياد، وكاتبوا العصاة يطلبون المسالمة.

ولكن هناك قبيلة يحسب حسابها لكثرتها وقوتها هي قبيلة العوازم التي بقيت موالية، ووقفت حجر عثرة في طريق العصاة.

٧

العــــــوازم

(ص ١١٦)

القبائل العربية تنقسم إلى قسمين:

١ - **الأعـارب**. وهم مجموع القبائل التي تنتمي بأنسابها إلى قحطان أو مضر، وكلها من حيث الحسب والنسب والمنزلة متساوية متكافئة، كعتيبة ومطير وعنزة وسبيع من القبائل النزارية، والدواسر والعجمان والمرة [آل مرة][(١)] من القبائل اليمانية والقحطانية، وهذه القبائل كلها تتناسب وتتصاهر ما بينها بدون أية ميزة، ولا ترى لنفسها فضلاً على الأخرى، ولا يكون تفاخرها إلا بالأفعال والوقائع.

٢ - **الهتيم أو الهتوم**. وهم المجهولو النسب رغمًا عن عروبتهم وعراقتهم في استيطان جزيرة العرب، ومنهم من لا يشك بعروبته، ولكن ربما أسقط أصله من قديم هجاء شاعر أو استيطان بلاد خارجة عن جزيرة العرب، أو لاحتراف صناعة ومهنة تعد القبائل العربية مزاولتها سبّة وعارًا، وأشهر هؤلاء الهتوم الرشايدة[(٢)] أو ذوي رشيد، ولعلهم من قبائل الحجاز في القديم، فإن كلمة ذوي لا تستعمل إلا في الحجاز، وهم من أحلاف

---

(١) زاد في النسخة ب: وشمر.

(٢) في النسخة ب: «الهتوم: هتيم والرشايدة».

مطير وجيرانهم، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم، وقبيلة مطير تعتبرهم من خدامها.

والعوازم. وهي قبيلة كبيرة لا يقل مجموعها عن عشرة آلاف ينتسبون إلى جدهم الأعلى عطا، وبه يعتزون (أولاد عطا)، ومساكنهم في نقرة بني خالد وعلى ضفاف الخليج الفارسي ما بين الجبيل والكويت[1]، وينقسمون إلى عدة بطون أهمها: البريكات، والهدالين، والملاعبة، والذويبات، والصوابر، والمساعدة، والمساحمة، ورئيسهم حبيب بن جامع[2]، وبعد أن دينوا صارت هجرهم في ثاج، وبها آثار مدينة قديمة من مدن البحرين البائدة، والحسي، والحناة، وعتيّق[3]، وهذه كانت مياهًا لهم فاستوطنوها، وقسم منهم سكن الكويت من قديم الزمان فتحضر[4].

وهم على العموم حضر بدو، ولا يكادون يتجاوزون حدود مواضعهم، وهم أهل ثروة، ولهم اعتناء بتربية الأغنام، وإليهم ينسب

(١) في النسخة ب: «وعلى خط السيف ما بين الجبيل والكويت».

(٢) في هامش النسخة ب: «توفي حبيب سنة ١٣٥٠هـ».

(٣) في النسخة ب: (والردينية) وجاء في هامشه: «الردينية: بها آثار بلد كبيرة تنسب إليها الرماح؛ لأن بدو الشمال يكتالون منها. أما أهل الجنوب فيشترونها من الخط (القطيف) فيسمونها الخطية، وقد وهم من قال: إنها منسوبة إلى امرأة كانت تثقف الرماح».

(٤) في النسخة ب: «فتحضروا، ولهم محلة خاصة اسمها (فريق العوازم) كما أن لهم قرية خاصة بقرب الكويت اسمها الدمنة، وصناعتهم صيد الأسماك».

السمن الفاخر[1]، ومن أخلاقهم عدم الاعتداء على سواهم[2]، فلا يغيرون[3]، ولكن الويل لمن يعتدي عليهم، والبدو الآخرون يشبهونهم بالحية التي لا تعتدي، ولكنها تعطب من يتعرض لها، وهذه الصفة تنطبق عليهم، وممن ذاق بطشهم العجمان في مريخ سنة ١٣٣٣، فقد أعطبوهم وكسروهم كسرة شنيعة، وكذلك القبلان[4] من مطير، قتلوا رئيسهم هابس[5]، وهزموا من معه، ولو لم تكن لهم إلا وقعتا رضى والنقاير لكفاهم فخراً.

(١) في النسختين أ و ب: «السمن العداني الفاخر».
(٢) في الأصل: سواها. والمثبت من النسختين أ و ب.
(٣) في النسخة ب: «حتى قبل الكمام» وفي هامشه: «الكمام عند البدو اجتماع السلطة في يد الحاكم».
(٤) في حاشية النسخة ب بخط غير الأصل: «العبيّات».
(٥) في النسخة ب: «هابس بن عشوان».

وقعة رضى

كان العصاة يعرفون إخلاص العوازم لجلالة الملك، وقد عجموا عودهم في الماضي، ويعرفون أنه صلب، ولا يتسنى لهم تنفيذ خطتهم إلا بعد التأكد من نية العوازم ومعرفة موقفهم تجاههم، فكاتبوهم، وأرسلوا لهم الوفود يطلبون منهم الانضمام إليهم أو الوقوف على الحياد شأن سائر قبائل النقرة، فأجابوهم إننا لا نزال على طاعة ولي الأمر، ونحن لا نتعرض لكم، ولكن إذا صدرت لنا أوامر فلن نتردد في محاربتكم.

على أن للعصاة في كثرة جموعهم واستعدادهم ما يولد لهم الغرور والاستخفاف بشأن العوازم، وكانوا إذ ذاك من على مقربة من الجبيل، وقد صمموا على ثباتهم ومقابلة الشر بمثله، ولم يبق أمام العصاة إلا أن يتخلصوا من هذه العقبة الكؤود؛ ليجتازوها إلى مطامعهم، فساروا بقضهم وقضيضهم من الوفراء إلى أن نزلوا نطاع على مقربة من الصرار[1]، وفيما هم يتآمرون في رسم خطتهم الحربية إذ جاءهم من أخبرهم أن العوازم رحلوا من محلتهم وأنهم سينزلون ماء رضى الذي يبعد عن نطاع ليلة واحدة، وستباكره طلائعهم، فوجدوا الفرصة ملائمة لمبادرة العوازم

(١) زاد في النسخة ب: «وعقدوا مؤتمراً للتشاور، فقال أبو الكلاب: أرى أن نترك العوازم، وننزل عين دار بعد أن فرّ بنو هاجر من مساكنهم، ونشن الغارات على الجبيل والقطيف والأحساء، وستجتمع علينا كل القبائل، وسيكون العوازم أول من يراسلنا في الصلح، فعارضه الفغم، واقترح مهاجمة العوازم للتقوي بأموالهم، وقد لا يؤمنون إذا تركوا وراءهم».

قبل أن يتكاملوا على الماء وهم لاهون في حفر آباره، وحينئذ يسهل القضاء عليهم، فتركوا ثقلهم في نطاع، وجدوا مسرعين فرسانًا وركبانًا، وسروا ليلتهم كلها مبادرة للفرصة.

وما أشرقت شمس نهار ١٧ محرم سنة ١٣٤٨ إلا وهم يرون طلائع العوازم وظعائنهم قد أقبلت والسابق منها نزل الماء، وبدأ بحفر الآبار، والبعض لم يصل بعد، فهجموا عليهم هجمة رجل واحد، وأموا البيوت، فاستولوا عليها، وركزوا راياتهم وسطها، ولكن الحاضرين من العوازم قاوموهم، وصمدوا لهم وراء المتاريس، وكانت أرض رضى ذات ربوات صغيرة وشجيرات صالحة لأن تترس بها، فاستطاع العوازم على قلّتهم أن يقاوموا ساعة، وكان الباقون قد أهاب بهم صوت الرمي، فخفوا إلى الموضع مسرعين، فلم يشعر العصاة إلا والعوازم قد طوّقوهم وأصلوهم نارًا حامية، فولوا الأدبار لا يلوون على شيء، وقتل منهم قريب ٣٠٠[(١)]، أما الجرحى فكثيرون، ولولا أن مخيَّمهم كان في نطاع لصارت الوقعة عليهم قضاء مبرمًا، فعادوا إليها يتلاومون وقد خابت آمالهم، وتشتتت جموعهم، وقتل كثير من شجعانهم.

والحقيقة أنّ وقعة رضى كانت أهم وأول عامل من العوامل التي أخمدت الثورة [. . .]، فقد أوقفت الناس على مقدار قوة العصاة التي كانوا يعتدّون بها، فتوقفت القبائل الأخرى عن الانضمام إليهم، وقد

(١) في النسخة ب: «قريب ٢٠٠».

استولى العوازم على راياتهم كلها وكلما [كل ما] تركوه من الإبل والذخائر، وأرسلوا البشائر إلى الأحساء، وكانت تلك الرايات بمثابة أجنحة سلام رفرفت على البادية وهي في أيدي البشراء، فلم تمر على قبيلة من القبائل على ماء من المياه إلا وأخلدت إلى السكينة وأزالت آثار الدعايات التي بثها العصاة لإغواء القبائل المسالمة وإغرائها[١].

وعادت فلول العصاة إلى الوفراء ثانية[٢]، وقد خارت عزائمهم، وبلغ بهم اليأس مبلغه لولا نكصة الدويش وخروجه وانضمامه إليهم ثانية، فقد اطمأنت إليه أنفسهم وهدأ من روعهم نوعًا ما، فطمحوا إلى أخذ الثأر وإشعال الفتنة مرّة أخرى، وكان الحر قد اشتد وتوقدت هواجره، ولكنها الفرصة إذا لم يهتبلوها في وقتها ويفرغوا كلما [كل ما] في كنانتهم وإلا حاق بهم النكال وقت الخريف، ولكل أجل كتاب.

(١) في النسخة ب: «ومن الأحساء أرسلت تلك الرايات إلى جلالة الملك، فوافته في الشعرى [الشعراء]، وقد اجتمعت عليه وفود عتيبة كما سيأتي، فصار لها مفعولاً في نفوسهم».

(٢) في النسخة ب: «بعد أن كانت نيتهم مهاجمة الأحساء والقطيف».

٨

نكصة الدويش

(ص ١١٧)

لما اجتمع العصاة في الوفراء بعد وقعة العوينة وأتاهم ابن مشهور ومن لف لفه كما تقدم بعثوا دعاتهم إلى كافة القبائل لتهييجهم، وكتبوا إلى الدويش يصفون له ما هم عليه من قوة وكثرة، ويدعونه للقدوم إليهم وتولي زعامتهم، وكان قد أبل من مرضه واندمل جرحه، وما كان العفو الذي ناله ليستل سخيمته، وما كانت الهزيمة التي ذاقها لتكبح من جماحه وتفل من غربه [. . .]، والبدوي من طبيعته عدم الاعتراف بالجميل، ولقد كانت له في السبلة عظةٌ كبرى لو اتَّعظ وزاجراً رادعًا [وزاجرٌ رادعٌ] لو ازدجر، ولكن:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

فسوَّلت له نفسه، وزيّن له مستشاروه أن يعود إلى شق عصا الطاعة، ويغتنم الفرصة للانتقام وأخذ الثأر، ففي ١٢ محرم سنة ١٣٤٨، وكان الحر على أشده، غادر الأرطاوية بمن معه من مطير، وما كان مثله ليخرج في تلك الساعة العصيبة بقضه وقضيضة متعرضًا لوهج السموم ولوافح الحرور وفي قومه الأنثى والطفل والشيخ الهرم العاجز، ولا تسل عن حالة الأنعام التي معه، ولكنه لم يبل بكل ذلك، وتغلب هواه على عقله، وخير له على الأقل لو انتظر إلى أن يؤوب الذين زينوا له الخروج من

غزوتهم تلك.

وما كاد يغادر الأرطاوية ويصل إلى اللصافة إلا وقد وافته الأخبار هناك عن وقعة رضى وانكسار حزبه وتشتتهم شذر مذر، فندم حين لا مندم، وهمّ بالرجوع، ولكن الركبان قد سارت بأخبار خروجه وتظاهره بالعصيان، فلم يكن له بدّ من التصميم والسير على الطريق الذي رسمه لنفسه؛ إما الحياة أو الموت.

فسار ميمِّمًا الوفراء، وهناك اجتمع بالفلول، فاشتد ساعده بهم كما قويت نفوسهم به، وأسندوا إليه رئاستهم وتدبير شئونهم [شؤونهم]، وقد لامهم وعنفهم على خطتهم التي فشلوا فيها، ولكن سبق السيف العذل، وكان يرى أن إحداث الاضطرابات في نجد وبث القلاقل فيها أولى من التعرض للملحقات، ومن المأثور عنه: «والله لبندق تثور في نجد أحب إليَّ من جيش أهزمه في الأحساء».

وتسامعت مطير وغيرها من قبائل العصاة بتولي الدويش الزعامة، فأقبلوا إلى الوفراء، واجتمعت تلك الفلول وتكاثرت، ولكن الروح المعنوية كانت تعوزهم، وقد أثرت وقعة رضى في نفوسهم، فحسبوا للأمور حسابها حتى إن بعضهم اقترح مفاوضة جلالة الملك بشأن التسليم على شروط تحفظ لهم دماءهم وأموالهم لولا أن الدسائس الأجنبية أخذت تنفث سمومها، وتشجع تلكم الفلول، وتعدهم وتمنيهم.

وكان الدويش طيلة تلك المدة على اتصال وثيق مع المقامات الرسمية

في بغداد، وكانت حركاته ينظر إليها بعين العطف في الجهات الشمالية، وهناك رؤساء [. . .] ضربهم الدويش أيام طاعته، ولجئوا [لجأوا] إلى بغداد أتوا إليه، وانضموا تحت لوائه، ومن جملتهم نايف بن محمد بن هندي رئيس عتيبة المطرود، وقد اتخذ إنقاذ ابن عمه (سلطان بن بجاد) حجة له وهو لو قدر عليه لقتله[1].

هذا والسيارات تتردد سرًا بين العراق ومخيم الدويش، و «ما يوم حليمة بسرٍّ»[2]، والغريب أن هؤلاء الذين أخذوا يمدون يد المساعدة المادية والأدبية إلى الدويش وقومه ويشجعونهم على ماهم فيه من عتوّ وعصيان تجاهلوا أنهم أكبر المسببين لهذه الثورة، وأن عبدالعزيز ما امتشق الحسام لكسر شوكتهم إلا لأجلهم، وعلى فرض أن الدويش نال مبتغاه وكتب له الفوز وانتصر فماذا تكون نتيجته معهم، أوَلاَ يعرفونه؟ وهل من يعصي ولي نعمته يطيع حكومة العراق؟ بل أول ما يبدأ بعدائه للعراق وبواديه، ولكن مَنْ في العراق لا يهمه إلا عبدالعزيز، ومتى أضروا به فلا يهمهم بعد سواء أن يعيش الناس بسلام أو خصام؛ أي: اقتلوني ومالكًا، واقتلوا مالكًا معي[3]. ولولا تلك المساعدات التي تهال على العصاة لما استطاعوا

(١) من هنا إلى نهاية الفقرة لم يرد في النسخة ب.

(٢) مثل يضرب لكل أمر مُتَعَالم مشهور. الميداني، مجمع الأمثال ج ٣ ص ٢٥٩.

(٣) هذه الكلمة قالها عبدالله بن الزبير أثناء وقعة الجمل سنة ٣٦هـ، عندما اشتبك مع الأشتر النخعي- واسمه مالك -، وسقطا معًا على الأرض. الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٥١٩. وقد ذهبت الكلمة مثلاً، ويمكن قراءتها كبيت شعر.

أن يقاوموا كل هذه المدة، وأن يحدثوا أنفسهم بما لا تسمو إليه، ومن يدري فقد تكون غارات الدويش على العراق أيام مفاوضات المعاهدة كانت من تلك الأيدي المتلبسة؛ لتضطر الأمة إلى الاستسلام من جهة وتسيء سمعة خصمها ابن سعود، فتصيد طيرين بحجر، وقد غر المهيِّجين والمهيَّجين صمت الحكومة النجدية إزاء حركات العصاة وتركها الحبل لهم على الغارب لأسباب اشتداد فصل الحر، وغيبة جلالة الملك في الحجاز، وما كان إلا السكون الذي يسبق العواصف.

٩

القاعية وأم رضمة

(ص ١١٨)

أخذ الدويش على عاتقه تنفيذ خطته التي رسمها، وهي شن الغارات في نجد، وقطع سبلها مدّة القيظ، ويبث دعاته المهيجين في كافة أنحائها؛ ليتسنى له التأثير على بعض القبائل المترددة، وقد يغرها إقدامه فتنضم إليه.

وكانت حرب ملتفة حول الفرم رئيسها في هجرة (قِبَه) جِبْبَه وعندهم الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي ومن معه من حضر شمَّر، وأهل العارض، وقبيلتا سبيع والسهول المخلصتان، قد نزلتا على القاعية بقرب [العرمة][1]، ولديهم سرية صغيرة من الحضر يقودها ابن عرفج.

(١) في جميع النسخ فراغ بمقدار كلمة، وألحقت كلمة العرمة بين قوسين باعتبارها أشهر مكان قرب القاعية، والقاعية منهل من مناهل شمالي العرمة. ابن خميس، معجم اليمامة ج ٢ ص ٢٦٤.

القاعيــة

ففي منتصف ربيع الأول سنة ١٣٤٨ جمع الدويش كل قواته تاركين أهليهم على الوفراء والصبيحية، وجدُّوا السير للإغارة على سبيع والسهول في القاعية[١] مجنبًا الاصطدام مع ابن مساعد والفرم لكثرة من معهما من الجنود، وكانوا يرقبون ما يأتيه عن بعد، فسار يستبق الأخبار، ويواصل سرى الليل بسير النهار برغم شدة الحر، فقطع الدهناء، وتجاوز المظامي، ولكن النذر كانت قد سبقته إلى أهل القاعية، فنقلوا جميع أموالهم وإبلهم إلى مكان حريز، وأحاطوها بشوكة الحرب.

ولم يبق في القاعية إلا سرية ابن عرفج ومن لا راحلة لديه، فهاجمهم الدويش، وكانت السرية على قلَّتها قد تحصنت وتترَّست بالروابي المحيطة بآبار الماء، وكان على الدويش أن يرد أو يموت عطشًا، إذ لا ماء إلا في[٢] آبار القاعية، وقد نفد ما عنده من الماء وجفَّت القرب، فاستمات قومه في الهجوم، ودامت المعركة من شروق الشمس إلى ما بعد منتصف النهار، وأبلت السرية بلاء حسنًا، وفي الأخير تغلب الدويش وقومه لكثرتهم وتهالكهم في سبيل ورود الماء، وقتلوا كل من قبضوا عليه صبرًا لحنقهم، حتى الشيوخ والأطفال الذين في البيوت قتلوهم تشفيًا وانتقامًا لإفلاسهم من المال الذي كان الدويش يمني به قومه، ويعللهم بالاستيلاء عليه، ولم

(١) في النسخة ب: «على قاعدة عنتر [عنترة] المشهورة، ليضرب الضعيف ضربة يطير لها قلب القوي».

(٢) في الأصل: «إذ لاماء إلا ماء إلا في» والتصحيح من النسختين أ و ب.

يجد إلا قطعانًا من الغنم ليس في إمكانه نقلها؛ لأنها تحتاج إلى الماء والمسافات ما بين المياه بعيدة، فظل يذبحها جزافًا، وأقام على القاعية ستة أيام.

وكان يحاذر أن يخلفه ابن مساعد على أهله في الوفراء، مع أن ذلك القائد المحنك تربص له، وأخذ يراقب خطواته، ولعله يشيع تخوفه ذلك ليحمل ابن مساعد على المجازفة وقطع الدهناء فيقع في الشرك، ولكن شيئًا من هذا لم يقع، إذ لم يكن ابن مساعد أقل منه مهارة في رسم الخطط الحربية، وكانت النتيجة أن تفوق عليه، فضربه تلك الضربة التي كادت تكون هي القاضية.

من الفوز ما يكوّن خيبة، ومن هذا الضرب فوز الدويش في القاعية، فهو [في][1] الحقيقة خيبة؛ لأنه أفلس من بغيته وفاتته طريدته، ولم يبق أمامه إلا بلدان نجد ودونها خرط القتاد، أو ما يقوله البدو: «جدار ونار»، وليس في وسعه محاربة عقبان[2] نجد وراء حصونهم، وأي تقهقر يصيبه يقضي على سمعته التي هو بحاجة إلى إظهارها بمظهر القوة، أما الإغارة على قبَة وفيها من فيها، فهو الانتحار بعينه، وهو ما يعرفه الدويش حق المعرفة.

فأخذ الدويش يدير الرأي، ويدبر الخطة لإثارة القبائل، ولما كان يعلم

---

(١) زيادة توضيحية من النسختين أ و ب.

(٢) في النسخة ب: أسود.

أن قبائل الجنوب كقحطان والدواسر مخلصون في طاعتهم لجلالة الملك، وجه فكره إلى قبائل الشمال شمر والظفير وعنزة؛ لأنها وإن كانت موالية وباقية على ولائها فلا تخلو من عناصر وأقليات تنزع إلى الخلاف إذا حصل من يكدر صفو الأمن ويحدث الاضطرابات والقلاقل، وليس من السهل عليه أن يسير بجموعه إلى أمكنة بعيدة كأطراف الشمال.

وكان البرهَان أو (بريه) وهم بطن من مطير على الحياد يرقبون سير الحوادث وثقة الحكومة فيهم ضعيفة، وهم أشبه شيء بالمتذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومنزلهم على حفر الباطن، والسبب في إخلادهم وعدم اشتراكهم مع إخوانهم علوة [علوا] والقبلان يرجع إلى أن أغلب أموالهم من الغنم، ولا يستطيعون قطع الدهناء بها، وإذا تظاهروا بالخلاف فلا يأمنون جانب ابن مساعد، ففضلوا التريث والانتظار، ولما رحل الدويش من القاعية نزل عليهم في الحفر، وطالبهم بالانضمام إليه، فأصبحوا أمام أمر واقع، فلم يسعهم إلا الرضوخ لمشيئته[1]؛ لئلا يستبيحهم.

(١) في الأصل والنسخة أ: لمشيئه. والمثبت من ب.

أم رضمــة

بعد أن انضم البرْهَان إلى الدويش انتخب دعاته وزبانيته، فأرسل محمداً الدهينة العتيبي إلى عتيبة في الغرب؛ ليثيرها بنشر الدعوة وترويج الأكاذيب والإشاعات فيها[١].

ثم انتخب خيرة من معه من الأبطال والشجعان وذوي الشخصيات البارزة المشهورين بالصبر والشجاعة وتحمل الأخطار من سائر القبائل التي معه، فبلغوا سبعمائة وتسعة أنفار[٢]، فولّى عليهم ابنه عبدالعزيز[٣] وهو لا يقل عن أبيه [. . .] ودهاء، ويفوقه بقوة الشباب وعزيمته، وأرسلهم إلى الشمال؛ ليغيروا على عربانه ويثيرون [ويثيروا] من يستطيعون إثارته منهم، وعاد هو إلى الوفراء ينتظر نتائج خطته، ويتنسم[٤] أخبار ابنه، ويعلقّ عليها الآمال.

أغَذّ[٥] ابن الدويش السير، وأغار على عدة مياه وعليها أقليات من قبائل متعددة إلى أن انتهى إلى الحزول شمالي حائل وعليها جمع من الظفير

(١) في النسختين أ و ب: «والدامر وأبو وذين [تنفرد ب: وسحمان] من العجمان للتشويش في شرقي الدهناء ونواحي الأحساء».
(٢) في النسخة ب: «فوق الألف».
(٣) في النسخة ب: «عزيّز».
(٤) **النسم**: النفس، وفي المجاز قولهم: تنسمت الخبر. وتنسمت أثر فلان حتى استبنته. وتنسمت منه علما: أخذته. الزمخشري، أساس البلاغة ص ٦٣١.
(٥) في الأصل والنسخة و أ: (أغد) بالدال المهملة، والمثبت من النسخة ب. وأغذ: أسرع في السير. ابن منظور، لسان العرب ج ٣ ص ٥٠١ (مادة: غذذ).

وشمر، فاستباحهم، وانتهب ما لديهم، وكان مالاً كثيراً، فقسمه بين قومه، وأقام على الحزول أسبوعًا كاملاً؛ ليستريح، ويقسم الغنائم، وبلغت أخباره إلى ابن مساعد، فاستعد لقطع خط الرجعة عليه، وكان الطريق من الحزول إلى الوفراء تعترضه مظامئ قفراء، ولا بد للسائر من ورود مياه معينة معروفة، وأخصر الطرق وأقصدها هو: الحزول - لينة - الجهراء - الوفراء، على خط مستقيم وهو الطريق العادي، أما طريق القاصد إلى نجد، فمن الحزول إلى أم رضمة؛ لأن أم رضمة تقع غربي لينة وعلى بعد يومين، ولكن عبدالعزيز بن مساعد يعلم أن ابن الدويش على حذر منه، وأنه سيجنب لينة خوفًا من أن يكون عليها كمين وأنه ولا ريب سيسلك طريق: أم رضمة - الرقعي - الوفراء تعمية وتضليلاً، وهذه خطة جديرة بالإعجاب، وحدس أصاب كبد الحقيقة، وذلك الداهية بلي بأدهى منه.

تربص ابن مساعد للدويش على أم رضمة برغم إلحاح بعض رؤساء البدو الذين لا بصر لهم بالأمور[1].

---

(١) في النسخة ب: «وكان عزيز الدويش قد قرر الرجوع على الطريق الذي قدره ابن مساعد، وخالفه فيصل بن شبلان وجماعته، وقالوا: إن ابن مساعد سوف يحسب حسابك هذا (واقرب من الخوف تأمن) فخالفهم، فانشقوا عليه، وقالوا: نحن منكفين [في الهامش: انكف من الغزوة: رجع إلى أهله] والوعد الوفراء، وسلكوا طريق لينة، فكانوا من الناجين، وكان ابن مساعد قد تباطأ الدويش، وخشي أن يكون سلك طريق لينة، وإزاء إلحاح رؤساء من معه من البدو رحل من أم رضمة».

على أن إقامة ابن الدويش على الحزول تلك المدَّة الطويلة أوجدت الرّيب والشك، فأشار عليه من حضر بالرحيل عن أم رضمة خوفًا أن يجنبها ابن الدويش، فرحلوا من الماء صباح يوم ٥ ربيع الثاني سنة ١٣٤٨، ولما تعالى النهار نزلوا (مضحى)[1] وإذا بابن الدويش قد أقبل والعطش مستولي [مُسْتَوْلٍ] على قومه بعد أن نفد ما عندهم من الماء لبعد المسافة بين الحزول وأم رضمة، فأصلوه نارًا حامية، وهجم بقومه هجوم المستميت؛ لأنها مسألة موت أو حياة، فاكتنفته الجموع من كل جانب، واعتورته الأبطال من كل جهة، واشتدت المعركة برغم شدة حرارة الشمس ولوافح السموم المتوهجة، وصار العصاة بين موت السيف أو موت العطش في الفلاة، وكلاهما مر:

أشرب بكأس كنت تسقي بها أمرّ في الحلق من العلقم

قُتل ابن الدويش وجميع من معه، ولم ينج إلا بضعة أفراد كتبت لهم النجاة بأعجوبة بعدما ذاقوا الموت مرارًا من شدة العطش إلى أن وصلوا الرقعي، ولا يقل من قُتِل منهم عن السبعمائة، واستعاد ابن مساعد كل ما معهم من المنهوبات.

وهذه الوقعة قضت على آمال الدويش، وكاد يجن من الحزن على ابنه الذي هو في الحقيقة لا يقل عنه في السياسة والتدبير فضلاً عمن قتل معه

(١) في هامش النسخة ب: «المضحى: الاستراحة وقت الضحى. والمعشا: للعشا. والمصفار أو التصفيرة: للنوم ليلاً».

وهم نخبة قومه وخيرة جنوده، وفيهم خمسة عشر رجلاً من الدوشان، واستولى على الدويش وعصابته يأس قاتل، وأيقنوا أنهم في تباب.

١٠

النقاير[١]

(ص ١١٩)

خاب العصاة في نجد كما خابوا في النقرة، وكانت خيبتهم في أم رضمة أشد منها في رضى، إذ فقدوا القوتين المادية والأدبية، وذهبت خيرة رجالهم، وزاد الحنق بالدويش بعد أن فقد ابنه، وفقد دهاءه وتدبيره[٢].

وكان العوازم قد استخفوا بالعصاة، ولم يعودوا[٣] يحسبون لهم حسابًا ما، فقدموا بجموعهم إلى جهة الشمال غير مبالين بما أمامهم، وكانت معهم سرية صغيرة يقودها محمد السهلي أحد خدام سمو الشيخ عبدالله بن جلوي، وكان سمو الأمير سعود ابن جلالة الملك قد قدم الأحساء، وجهز سرية أخرى بقدر خمسمائة مقاتل برئاسة[٤] عبدالله بن عبدالعزيز بن تركي، وسارت تقصد العوازم، ولكنها فقدت كثيرًا من رواحلها لشدة الحر وقلة المرعى، فتأخرت في سيرها، وانتهى التقدم بالعوازم إلى أن وردوا نقير على مسافة يوم من الوفراء، فزحف العصاة

(١) في هامش النسخة ب: «نقير والنقيرة ماءان معروفان في الشمال الشرقي من قرية العليا على بعد يوم من الوفراء».

(٢) زاد في النسخة ب: «إذ استولت عليه حالة عصبية تقارب الجنون».

(٣) في الأصل: «يعودون». والتصويب من النسختين أ و ب.

(٤) في النسخة ب: «الأمير».

لملاقاتهم، ونزلوا الخليلين[1] قبالتهم.

وتراءى الجمعان غرة جمادى الأولى سنة ١٣٤٨، وتناوشوا القتال، واستحر الطراد بينهم، ومع العوازم أهلهم وأموالهم، ومع أن العصاة يفوقونهم كثرة وعدداً لم يبالوا بهم. وفي اليوم الخامس صمم الدويش على الهجوم العام لعله يفوز بكسر العوازم، فيشدد عزائم قومه، فأمر العجمان ومن لفّ لفهم بالهجوم على العوازم وسط النار المشتعلة، وجعل حصته سرية السهلي [...]، فقد كانت السرية على طرف وهي لا تتجاوز المائة، فقصد الدويش تخفيف وطأة الحرب عن مطير، ومتى فرغ من سرية السهلي يكر على [العوازم][2] بحركة التفاف من ورائهم، فيجعلهم بينه وبين العجمان.

هجم العصاة هجمة رجل واحد، وقابلهم العوازم بثبات مدهش وشجاعة فائقة، وما هي إلا جولة حتى انكسر العجمان ومن معهم شر كسرة، وولوا الأدبار لا يلوون على شيء.

أما الدويش فقد صدم السهلي وسريته صدمة قوية قاومته على قلتها، وكانت في موقفها أصبر من حلفائه العجمان، ولم تقهقر إلا بعد أن فني غالب رجالها، وبعد أن انهزم العجمان أمام العوازم[3]، وما كاد الدويش

---

(١) **الخليلان**: جبلان صغيران متجاوران. يقعان في منخفضات أرض السودة، بين النقير والنقيرة، شمال غرب مدينة النعيرية.

(٢) في الأصل: العجمان. والتصويب من النسختين أ و ب.

(٣) في النسختين أ و ب: «ففسدت خطة الالتفاف».

يولي وجهه شطر [العوازم][(1)] إلا وقد استقبلوه، فعرف النتيجة، وأيقن بحبوط خطته وزوال آماله، فداخله الرعب والخوف، وانعطف عنهم جانبًا، وبعبارة أخرى: انسحب بانتظام، وانتحى ناحية، وتركه العوازم وشأنه؛ لأنهم أيضًا قد تعبوا، وأخذ منهم الجهد مأخذه، وتحاجز الجيشان، وكانت راية الدويش من جملة ما غنمه العوازم، فأرسلوها إلى الأحساء ومنها إلى الرياض[(2)].

وجرت المفاوضات بين الدويش والعوازم لعقد الهدنة والاستراحة من القتال، وكانوا قد تعبوا وهم في حاجة شديدة إلى الهدنة للم شعثهم، وتفقد أموالهم وقتلاهم، فأجابوه إلى ذلك، وكان رئيسهم حبيب بن جامع عند الأمير سعود في الأحساء، ومن العجائب أن يتنازل الدويش إلى طلب الصلح من العوازم صلح الند للند، وقد كان لا يعدهم شيئًا أنفة واستكبارًا[(3)].

***

(1) زيادة توضيحية من النسختين أ و ب. وفي النسخة أ تعديل من المؤلف على النص فيه: «... أمام العوازم، ففقدت خطة الالتفاف إذ ما كاد الدويش ...».

(2) في النسخة ب: «فأرسلوها إلى ولي العهد بالأحساء، فأرسلها إلى أبيه».

(3) زاد في النسخة ب: «وكان ابن تركي في الطريق قادمًا لإنجاد العوازم، فبلغته أخبار الصلح والإبل التي معه ضعيفة، فقرر الرجوع إلى الجبيل لقربها من الموضع الذي هو فيه، وكان الدويش قد علم بهذه السرية فقرر أن يهاجمها [...] وهو قائدها انتقامًا لابنه، فأخطأ طريقها، ووصل في سيره إلى الأطولة وهي لا تبعد إلا يومين عن الأحساء، وشاهد سيارات للأمير سعود تستطلع =

هذه أهم وقائع العصاة في نجد والنقرة، وهناك غزوات العصابات التي شكلها الدويش لقطع الطرق والإخلال بالأمن وإهاجة الخواطر بالعيث والفساد بقيادة خالد بن حثلين (سحمان)، والدامر، وأبو أذين، وكلهم من العجمان، ولكنها كلها لم تؤثر الأثر المطلوب، وما كانت إلا عصابات تلصص ليس إلا، ضربنا الصفح عن ذكرها.

= أخبار العصاة والإخوان، فنكص راجعًا، ولم تقم له قائمة بعدها إلى أن استسلم كما سيأتي».

١١
الروقــة وبرقــاء
(ص ١٢٠)

تقدم عند الكلام على عتيبة أنها تنقسم إلى عشيرتين كبيرتين: برقاء ومنها ابن حميد رئيس عتيبة، والروقة ومنها ابن ربيعان، وكانت الرئاسة في آل ربيعان إلى أن اغتصبها منهم تركي بن حميد. ومن رؤساء الروقة[١] الهيضل و (أبا العلاء)، وكلهم كانوا من الموالين لجلالة الملك أيام السبلة والثورة الأولى إلى أن قبض على سلطان بن بجاد وسجن في الرياض[٢]، ثم اضطربت النقرة بالعجمان والدويش ومن معهم، فكانت برقاء حانقة صاخبة لاعتقال رئيسها، ولم تخل الروقة من أناس خالفوا زعماءهم على أن الأمر كان كامنًا في النفوس كمون النار في الحجر، ومن الخطر جدًا أن تظل تلك النفوس على ما هي عليه من الغل الذي تغلي مراجله، ولم يكن جلالته واثقًا حتى بالرؤساء أنفسهم ما عدا ابن ربيعان.

وكان جلالة الملك بعد رجوعه من الحجاز نزل الدوادمي، ودعا إليه سائر رؤساء عتيبة، وعقد اجتماعًا حضره كثير من علماء نجد للنظر في الحالة الحاضرة، وعاهدهم وعاهدوه على أن يكونوا جميعًا يدًا واحدة في إخماد أنفاس الثورة، وألا يؤوا أحدًا من رجالها، وأن يقاتلوا أيًا كان في

(١) في الأصل طمس كلمة الروقة، وكتب بخط مغاير: برقاء، وهو الصواب.

(٢) زاد في النسخة ب: «وأطلق سراح زميله الدويش».

سبيل ذلك، وفي ذلك اليوم وصلت بشائر وقعة رضى إلى جلالته في الدوادمي ومعها الرايات التي غنمها العوازم، فكانت كالماء ألقي على النار.

وكان الدويش بعد وقعة القاعية أرسل محمداً[1] الدهينة - وهو من النفعة[2] عشيرة ابن حميد، وكان شابًا متهوراً مجازفًا - إلى عتيبة؛ ليدعوها إلى خوض غمار الثورة، ويحرك أوتارها بنغمة سجينها في الرياض، [. . .]، فأيقظ الفتنة التي كانت خامدة ما بينها، وافتتح عمله بالإغارة على ناس من الروقة، فقتلهم، وأخذ أموالهم، وكانت فعلته بمثابة الشرارة في مخزن البارود، أوقعت عتيبة في ارتباك عظيم وقلاقل وفتن، وانقسمت إلى ثلاث فرق: فرقة تطارد الدهينة، وأخرى تؤويه، وثالثة وهي الكبيرة على الحياد. وجهز جلالته سرية بقيادة سمو الأمير خالد[3] ابن أخيه محمد لمطاردة الدهينة وتأثره[4]، فكان [. . .] يفر فرار الزئبق، ويختل ختل الثعلب، وهو يغزو ويقتل ويفسد إلى أن ضاقت عليه نجد بما رحبت، فعاد أدراجه إلى الدويش على أثر وقعة النقاير، وقد كان هو الأمل

---

(١) في الأصل والنسخة ب شطب بخط مغاير على اسم محمد. وكتب مكانه اسم: مقعد، وهو الصواب.

(٢) زاد عليها في الأصل بخط مغاير: من برقاء.

(٣) في هامش النسخة ب: «مات الأمير خالد في حادث سيارة وهو في الصيد في الصمان سنة» كذا، لم تحدد السنة.

(٤) تأثره: أي تتبع أثره. ابن منظور، لسان العرب ج ٤ ص ٥ (مادة: أثر).

الوحيد الباقي للدويش؛ لأن اضطراب عتيبة قد يشغل الملك عنه، أو على الأقل يخفف الضغط قليلاً، ولما عاد وأطلعه على الحقائق أيقن بالبوار، فكان قدوم الدهينة مصهارةً ميزت الغش من سواه، وكان الأمير خالد قد انتهى من تأديب أتباع الدهينة، وكتب إلى عمه يرتئي رأيه فيهم، فقدم جلالته إلى الشعرى [الشعراء]، وصادر شوكة الحرب ممن قام مع الدهينة، ونصفها ممن آواه، وعفا عن أموالهم ودمائهم.

وإنّ الذي صادرته منك أصله   وأنت لهم أضعاف ذلك توهب

وفي الحقيقة إن الذي صادره هو ماله، وعلى الأخص السلاح. فقد كان يعطيهم العطايا بلا حساب، ويقلدهم أفخر السلاح وأطيبه من بنادق وسيوف وغيرها(1).

---

(1) تحدث المؤلف بعدها في النسخة ب عن اجتماع الشعراء في خمس صفحات، بدأه المؤلف بما يلي: «كان الأمير خالد بن محمد قد انتهى من تأديب اتباع الدهينة، وكتب إلى عمه يرتئي رأيه فيهم، فأمر جلالته على الصادقين من عتيبة وحرب وقحطان وجنود خالد أن يجتمعوا في قرية الشعرى [الشعراء] [في الهامش: الشعراء: قرية بين الرياض ومكة، يبعد [تبعد] عن الرياض ٢١٦ ميلاً، وعن مكة ٣٩٠]، وأمر خالد بن لؤي، ومحمد بن سحمي أن يتركوا جنودهم على ماء (ابحار) وأن يحضروا بأهل الرأي فقط إلى الشعرى [الشعراء]، وقدم جلالته إليها وفي معيته أخوه سمو الأمير عبدالله وبعض رجال حاشيته وحراسه، فوصلها في ٣٠ ربيع الثاني سنة ١٣٤٨هـ، وكان رؤساء القوم قد وصلوا واجتمعوا للسلام على جلالته»، ثم أشار المؤلف إلى كبار الحضور، وإلى خطبة الملك عبدالعزيز، ثم مقررات الاجتماع وأكثره منقول بتصرف من جريدة أم القرى العدد ٢٣٩ في ١٤ صفر ١٣٤٨هـ، والعدد ٢٤٠ في ١٩ صفر ١٣٤٨هـ.

عاقبة المفسدين[1]

بعد أن تمكن جلالة الملك من القضاء على روح الاضطرابات والفتن في عتيبة صمم على استئصال شأفة الدويش ومن معه، وكانوا قد ضاقت بهم الأرض، وأيقنوا أن قد دنت ساعة الحساب حتى أنَّ بعضهم حدثته نفسه بالاستسلام، ولكن فظاعة جرائمهم تُخوِّف من الإقدام على التسليم بلا قيد ولا شرط - على الحسنى والسيئة -، ولم تكن لهم من الأهمية ما يوجب خروج جلالته بنفسه لقتالهم، ولكن جلالته ما زال في ارتياب من تلك الوعود التي قُطعت له بعدم إيوائهم إذا حلّت بهم النكبة، وهو السياسي الحكيم الذي مارس السياسة وعجم عودها وخصوصًا السياسة

(١) زاد في هامش النسخة ب: «اعتمدنا في هذا البحث على ما نشر في جريدة أم القرى بتصرف»، ثم كتب هذا الفصل بأسلوب مغاير بدأه بقوله: «لقد صمم جلالة الملك أن يمضي بنفسه للقضاء على بقايا العصاة، والضرب على أيدي البغاة حتى لا تبقى لهم باقية، وكانوا قد لاذوا بحدود العراق والكويت. رأى جلالته أن يستخلف سمو الأمير سعود - أكبر أنجاله - في الرياض ونجد كافة، ولكنه رافقه إلى الشوكي موعد اجتماع الجنود». ثم أثبت في النسخة ب جميع أسماء الذين رافقوا جلالته من الأمراء والقبائل والبلدان، ثم قال: «ولكل أمير وهجرة راية، فالذين رافقوا جلالته في هذه الغزوة مائة وثمانية عشر راية، ازدانت بها السهول والآكام. كل هذه الجموع اجتمعت في الشوكي، وقدم عليهم جلالة الملك بالسيارات في ٢٨ جمادى الثانية سنة ١٣٤٨هـ». ثم ذكر المؤلف فصل من عشر صفحات بعنوان: «وفد المجرمين» وقد ذكر ملخصه هنا، وأضاف إليه خطابات الدويش إلى الملك عبدالعزيز من جانب، ثم خطاباته إلى الملك فيصل - ملك العراق -، وغلوب - المسمى بأبي حنيك - من جانب آخر.

المرنة وطريقة اللعب على الحبلين، فعرف تقلبها وانقلاباتها، فما كان ليثق بوعودهم حتى إنه صرّح وقت خروجه بأنه لا يقصد العصاة لعدم أهميتهم، وإنما قصده من يحول دونهم ودونه.

وكان قد كتب إلى كافة بلدان نجد يستنفر حضرها، فأتوا من كل صوب وحدب، وسار من الرياض على مهل وتؤدة، والجنود تتلاحق به في كل منزل إلى أن خيَّم على الشوكي[1]، وأقام عليه، وكان الجيش كالجراد المنتشر لا يرى أوله آخره، ومعه المدافع والرشاشات والسيارات المسلحة، فأرسلها ترتاد القفار، وتقتنص طلائع العصاة وعيونهم حتى انقطعت عنهم الأخبار، وكان الدويش يرسل العيون تلو العيون، فتقتنصها السيارات، ولم يعد أحد إليه، وعميت عليهم الأخبار، وكان على جهله بموضع الملك يشيع عند قومه أنه لا يزال في الرياض، وأخيراً صدق بنفسه ما كان هو يختلقه ويشيعه كقصة أشعب وتمر الصدقة، ولم يكن يتخوف إلا من ابن مساعد، فهو كابوسه المخيف، وكان الدويش قد نزل على الحدود، وأرسل رواته إلى ماء الرقعي، فصادفتهم السيارات وهم ثلاثون ومعهم

(١) في هامش النسخة ب: «هو الموضع الذي فرق فيه من جنود مبارك الصباح الذاهبة إلى الصريف سنة ١٣١٨هـ، فمشى منه للاستيلاء على الرياض أول مرة. ومن غريب الصدف أن يمشي من الشوكي أيضًا سنة ١٣٤٨هـ؛ أي بعد ثلاثين سنة لآخر المعارك في تشييد صرح المملكة؛ إذ هي آخر معركة يقودها جلالته بنفسه.

والشوكي واد يجتمع فيه مياه الأمطار وهو يبعد إلى الشمال من الرياض ١٩٥ كيلو متراً عنها».

مائة وخمسون جملاً، فأسروهم، ولم يفر منهم أحد، وكان الدويش يظنها من فعلات ابن مساعد لانقطاع الأخبار عنه بذهاب رسله ذهاب القارظين[1].

وبينما كان جلالته على الشوكي يتأهب لضرب العصاة إذ أتته حاشية أو هامش لتلك التعهدات - لعلها قد أهملت سهواً -.

ومن عجائب السياسة أن أفعالها تنقض أقوالها، تقول تلك الرسالة التي سميناها حاشية: إن الدويش ومن معه إذا التجئوا [التجؤوا] ومعهم نساؤهم وأطفالهم فكيف يمكن إرجاعهم من المنطقة بدون تعريض النسوة والأطفال للخطر - خلافًا للإنسانية - ، كأن الدويش إذا لجأ لا يستسلم إلا بقنابل الطيارات، ومسكينة هذه الإنسانية لا تتذكرها السياسة إلا متى وقعت في طريق القافية، وطالما تناستها في تأديب الثوار التي لا يحصيها عد في مختلف رقاع العالم.

أوَلا يعذر جلالته بعد هذا إذا أمعن في شكوكه، وأبدى عدم ثقته بمن ألحَّ عليه غاية الإلحاح في تأديب أولئك الطغاة الذين أضروا بهم أكثر من إضرارهم بنجد؟ ولو وافق جلالته العصاة على تماديهم في الغزو والإضرار لما كانت لهم حجة يرتكنون إليها في شق عصا الطاعة ومفارقة الجماعة، وأغرب من ذلك -وهو ما استفاض على ألسنة الخاص والعام- تلك المساعدات المادية والتشجيعات التي حصل عليها الدويش، وجعلته

(١) مأخوذ من قصة المثل: لا آتيك حتى يؤوب القارظان.

يتمادى في طغيانه، ويرفس برجليه ويديه، شأن أسير الحبالة الذي كلما أمعن في التملص زج نفسه في مآزق أحرج من الأولى، كل ذلك على مرأى ومسمع من الناس.

على أن جلالته لم يأبه لتلك الأعذار المختلقة والمراوغات المزوقة، بل صمم على تنفيذ خطته بحزم ومحاربة كل من تحدثه نفسه بإيوائهم، فرحل بتلك الجموع الجرَّارة وهي كالبحر الزاخر، وهي مزودة بأحسن الأسلحة وأطيب المأكـولات، والأرض قـد أخـذت زخـرفـها، وازينت بأنواع الأعشاب، وأضحت مراعي خصبة من تلك الأمطار المباركة.

وبرغم شدة البرد وعدم احتياج الإبل إلى الشرب إلا كل ستة أو سبعة أيام، فقد كان أشد ما يخشى على ذلك الجيش من قلة المياه، فهو من العدد والكثرة بحيث لا ترويه أغزر الموارد ماءً، ولم تر جزيرة العرب قبله جيشًا مثله - وأنى لمثل هذا الجيش أن يحارب في أيام القيظ في مثل هذه البلاد - ولكن الله قيض لهم السحاب يتبعهم أينما ساروا، ويمطرهم بوبله الهتان، فلا ينزلون إلا على غُدُرٍ طافحة بالماء الزلال كأنها بحيرات لا تحدها الأبصار، وهذا من غرائب الاتفاق وعجائب التوفيق، فإنهم لم يحتاجوا إلى تلك الموارد المعينة في برنامج السير، وكانت الخيام تضرب على ضفاف البحيرات الرائقة إلى أن نزلوا حفر الباطن، وهناك وجدوا ابن عشوان المطيري ومعه قومه يقطعون شعيب الباطن، فهاجمتهم السيارات، فقتلت منهم أربعين، وأسرت الباقين بكل ما معهم، ولم يقتل من أهل السيارات

إلا واحد، وفرّ أناس منهم، فأخبروا الدويش الخبر اليقين، فأسقط في يده، وأيقن أنه هالك لا محالة.

يشم المرء الليمونة، فيستطيب ريحها، ويضعها على أنفه، ويمتص ماءها بفمه، ثم يرمي بها إلى صندوق الكناسات، وهذا مبدأ السياسة التي تسير عليه، وتدين به.

وقف بنا قليلاً لنرى وجه السياسة وقد أسدلت برقعها وتنكرت للدويش وجماعته بعد أن نفضت يدها منهم، وأيقنت أن لا فائدة ترجى من ورائهم، ولقد مضى للدويش قبل ذلك اليوم سبعة أشهر لم يوصد دونه باب، ولا وقف في وجهه حجاب، فالرسل متواصلة، والمودة متبادلة، فماذا جرى ياترى؟ حدود تحرس بالدبابات والمصفحات وطيارات محلقات وإخطارات وتهديدات، وهذه طيارة محلقة تنذر الدويش بالرحيل عن حدود الكويت، وعهدنا بالبدو يتقون الطيارات أو يرمونها وهي ترتفع عنهم قدر الإمكان، ولم نسمع أن طيارة دنت من البدو حتى تمكن قائدها من رؤية يد الدويش تومئ إليه بالسلام والاستسلام، ولكن الأمر قضي بليل.

حامت الطيارة، ثم تمايلت، وحطت وأتاها الدويش معه أبو الكلاب، فصافحا قائدها، وامتطياها، وما بال ابن لامي يكون ثالثهما وهو ليس في العير ولا في النفير، وفي القوم من [هو][1] أكبر مركزاً منه

(١) زيادة من النسخة أ.

وأعز خطراً شملهم العفو العام، ولكنه لسوء حظه قدَّم نفسه باسم: «رئيس القبلان يا صاحب»، وما ذلك إلا لما سمعه من حديث صاحبيه وما تواطآ عليه قبل مجيء الطيارة عن التسليم، وما أعد لهما من نعيم ومقام كريم، وذكر أسماء البلاد والجنيهات، فاستهوت لبه، واستولت على قلبه، فأشرك نفسه معهما، وطارت الطيارة بالثلاثة ٨ شعبان سنة ١٣٤٨ إلى مطار أم شداد بالبصرة[١].

* * *

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] صدق الله العظيم، وأعدل الجزاء ما كان من جنس العمل، وأشد ما يلاقيه المنافق المرائي اكتشاف أمره وافتضاح سره بارتكاب ما ينهى عنه واجتناب ما يأمر به، فتلكم النزغات التي قام بها الدويش وجماعته ليست إلا لأهواء في نفوسهم، فاتخذوا دين الله مطية لرغائبهم، وآلة ينفذون بها أغراضهم، ويستخدمونها لنيل مآربهم وغاياتهم، ولو كان فيه شيء من ذلك التعصب العظيم حقيقة لآثر

(١) زاد في النسخة ب: «في العاشر من شعبان سنة ١٣٤٨هـ وردت برقية من المندوب السامي في العراق يخبر فيها أنه قد اعتقل فيصل الدويش، ونايف بن حثلين، وجاسر بن لامي في باخرة بريطانية. فأرسل جلالته كتاب إلى المندوب السامي يطلب تسليم أولئك [. . .] إنفاذاً لتعهدات الحكومة البريطانية. وفي ١٧ شعبان سنة ١٣٤٨هـ جاءت سيارات من الكويت ومعها كتاب من رئيس معتمدي بريطانيا في الخليج بأن الحكومة البريطانية كلفته بأن يترأس البعثة التي قررت الحكومة إرسالها لمفاوضة جلالة الملك بشأن العصاة اللاجئين، وطلب أن يسمح له بالقدوم بالطيارات مع بعثته».

الاستسلام إلى إخوانه في الدين، أو يموت في دفاعه عن غايته، ولفضّل الموت على التسليم لمن كان يكفِّرهم، بل يكفِّر من لا يكفِّرهم ويستحل دماءهم، ولكن أبى الله إلا أن يفضحه، ويهتك ستره، فقد كان ينكر على مليكه ركوب السيارات، فركب الطيارات، وينقم عليه استخدام السوريين والمصريين، فزامل الإنكليز وجالسهم، ويَزْوَرُّ جانبًا، ويصدُّ مقطبًا عن رد سلام لابس العقال الأسود، فصافح لابسي البرانيط والسيدارات.

ولقد بلغ من شدة تعصب الدويش ونفاقه أنه حرَّم الترنم بالشعر حتى على حادي الإبل، وكان ترجيع الصوت والترنم عنده جريمة لا تغتفر، ولكنه لما أقلته البارجة إلى خليج الكويت كان يجلس مع زميليه إلى مدام القومندان وعندها فونوغراف يستمعون إلى نغماته، ويقضون نهارهم حوله يتضاحكون، وتارة يستمعون عزفها على البيانو، ولعلهم نسوا وهم يسامرون تلك المرأة الأجنبية التي يعتبرونها كافرة ويصغون إلى ما لديها مما يسمونه سحرًا تنكيرهم على السيارات واللاسلكي ولابس العقال ومسبل الثوب، فأين أقوالهم من أفعالهم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

ومن ذلك أن ابن مشهور لما قدم إلى الجهراء هاربًا بعد وقعة السبلة اجتمع بكثير من الأكابر وأخذ يتظاهر بالتمدن والميل إلى أحواله، ولقد قال علنًا: عفا الله عما سلف [. . .].

أبطل السحر حين انتفخ السحر، وحلل للدويش ما كان محرمًا على سواه، وجاءت الفضيحة مزدوجة عليه وعلى أنصاره الذين سلّم لهم كما يقولون بدون قيد ولا شرط، وما كان عليهم إلا أن يوصدوا أبوابهم في وجهه، ويتركونه وشأنه، وهب أنهم قبلوا استسلامه لإنهاء الاضطراب وحبًا بالسلام، فلم لم يسلموه بوقته، ويعيدوه إلى حضيرته [حظيرته]؟ وأين تلك العهود والتعهدات؟ وهل يريدون ثمنًا لتسليمه؟ إن هذا لغز عويص.

(إذا لم تستح فاصنع ما شئت)[1] فقد استسلم الدويش في ٨ شعبان، وأقام في أم شداد مدة وجيزة، ثم نقل إلى بارجة إنكليزية رست به أمام الكويت، وكانت السياسة لم تيأس بعد من إقناع الملك لتركه وشأنه متذرعة بضروب من الحجج وأفانين من البراهين التي لم يصغ إليها، وطالت المخاطبات والأخذ والرد إلى أن أيقنوا أن قناة جلالته لن تلين لغمزاتهم، وأنهم ملزمون بحكم الواقع بتسليمه إليه.

ففي اليوم الثامن والعشرين من شعبان سنة ١٣٤٨ أنزلوا الدويش وزميليه من البارجة إلى دار القنصلية، وأقلتهم طيارة كبيرة ومعهم معتمد بريطانيا في الكويت الميجر دكسون، وحطَّت الطيارة على المخيم الملكي في خباري وضحاء، وهناك أخمد آخر نفس للثورة بتسليم الثلاثة.

(١) جزء من حديث رواه البخاري في كتاب الأدب، باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت، وقبله: إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: . . . ابن حجر، فتح الباري ج ١٠ ص ٥٣٩.

- هل وفينا؟ قال دكسن.

- نعم، وهذا ما أتوقعه حسب العهود. أجابه عبدالعزيز[1].

إنها لرهيبة تلك الساعة التي أدخل فيها رؤساء العصاة على جلالة مليكهم الذي طالما أسدى عليهم منه ومعروفه، وأغرقهم في بحور إحسانه وعطائه.

تصور وجه أبي الكلاب ولو كان حجراً صلداً وهو يعرف جريمته وانقلابه على الحملة التي سارت لمناصرته وتمليكه. والدويش بعد أن نال العفو وعاهد على الإخلاص بماذا يجيبان.

ظل الثلاثة منكسي الرؤوس وقد ملك الخجل كل مشاعرهم، وكان الدويش أرزنهم وقاراً، تعلو صوته حشرجة الحياء والخجل، وتتخلل عباراته بلعمة الخوف والوجيب، فيخفف عما به بنحنحة خفيفة لا يلبث أن يعيدها ثانية.

أعاد عبارته التي قالها في الأرطاوية وهو على النعش: «يا عبدالعزيز، والله ما أبقينا شيء نقدر عليه ما فعلناه، واليوم إن تؤاخذ فبذوبنا، وإن تعف فأنت محل العفو» يا لها من كلمات خلاّبة اعتاد الدويش تكريرها، وطالما أثرت، وسرى مفعولها فعفا، وعفا، وعفا،

(١) يقصد دكسون هنا الالتزام بمواد الاتفاقية المعقودة مع بريطانيا حول تبادل تسليم المطلوبين. وقد سجل دكسون مذكراته مع الإخوان بتوسع في كتابه الكويت وجاراتها ص ص ٣٨١-٤٢١.

و **(لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)**[1]. وبعد فماذا جرّ عفو الأرطاوية.

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى[2]

وإذا كان ولا بد فجدران المصمك أولى به وأحفظ، وإلا فكان حقه القتل.

أما نايف أبو الكلاب فلم تغير الحوادث من طباعه [. . .]: «والله يا عبدالعزيز، ما على وجه البسيطة من هو أحب إليّ منك وأنت أغلى عندي من عشيرتي وعيالي!!».

يا ترى أي نوع من الحب هذا الذي يخالج ضمير أبي الكلاب؟ ونكل إلى علماء النفس تحليل هذا النوع من الحب. هو النفاق بعينه، مع أن أبا الكلاب لم يجد تمثيله هذه المرة، ولعله فقد شعوره من هول تلك الساعة، فأخذ يهذر ويهذي، وقوله هذا بعد أن عثر الحراس على مسدس عنده قد استدخله تحت ثيابه، ولعله كان ينوي أن يمثل مأساة أخرى من مآسيه العديدة. اثنان وثالثهما. . .[3] ابن لامي، كبّلوا بالحديد، وأرسلوا

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. ابن حجر، فتح الباري ج ١٠ ص ٥٤٦.

(٢) البيت للمتنبي في ديوانه بشرح البرقوقي ج ٢ ص ١١.

(٣) النقط من وضع المؤلف.

مخفورين إلى الرياض؛ ليقيموا في المصمك إلى ما شاء الله، وقضى الدويش نحبه في السجن[(١)].

(١) يضيف دكسون تفاصيل مهمة عن سبب وفاته، فيذكر أنه توفي في ٣ أكتوبر ١٩٣١م بسبب تمدد في الأوعية الدموية للقلب، وكان يعاني قبلها بشهر من آلام نتجت عن تورم في الجانب السفلي من البلعوم، وفي ٣ أكتوبر أثناء سيره في ساحة السجن مع ابن حثلين سقط على الأرض فجأة والدماء تنزف من فمه. دكسون، الكويت وجاراتها ص ٤١٥.

وقد توسع المؤلف في النسخة ب في ذكر بعض الوقائع التي لها صلة بأحداث الإخوان، ثم حركة حامد بن رفادة وأكثرها منقول - بتصرف - من جريدة أم القرى، كما أشار إلى ذلك المؤلف، وننقلها هنا مع طولها كما جاءت في النسخة ب لصلتها بالموضوع، ولأن كثيراً من نصوصها نقلها الزركلي عن هذه النسخة، وهي كما يلي:

«**اجتماعات خباري وضحا** : في العشرين من شعبان نزل جلالته على خباري وضحا نزول المقيم الذي لا يريد قتالاً؛ لأن السيوف قد ردت لأغمادها، وقدم إليه الكرنل بيسكو - رئيس معتمدي بريطانيا في الخليج الفارسي - والكرنل دكسن - المعتمد السياسي في الكويت - والكومندور برنت - معاون قائد الطيران في العراق - يرافقهم بعض التراجمة والكتاب على متن (٦) طائرات بريطانية، وبرفقتهم الشيخ حافظ وهبة قادمًا من الكويت، وجرت المفاوضات في جوّ ودي، وقام بها الشيخ حافظ وهبة والشيخ يوسف ياسين بإشراف جلالته، ودامت أسبوعًا، وانتهت على اتفاق تام حيث برت بريطانيا بوعودها، فسلمت المعتقلين من المجرمين، وأعادت العصاة الموقوفين. وقد أرسل جلالة الملك في الحال سيارات نقلت بعض نساء العجمان ومطير وأطفالهم من الكويت.

وفي الساعة الخامسة في الثامن والعشرين من شعبان سنة ١٣٤٨هـ هبطت طيارة في المخيم كانت تقل الكرنل دكسن وقائد الباخرة التي تقل المجرمين ومعهما فيصل الدويش ونايف أبا الكلاب وجاسر بن لامي. =

= وقد تشرف الكرنل دكسن وقائد الباخرة بالسلام على جلالة الملك، ثم استؤذن للثلاثة بالدخول، فدخلوا وسلموا. وبعد أن تناول الجميع القهوة استأذن دكسن وصاحبه بالانصراف، فانصرفا، فالتفت جلالته إلى الدويش، وقال: «أما تخاف رب العزة! ما الذي حملك على هذه المخازي؟». فبكى، وقال: «لم يبق شيء من الخزي إلا فعلته، وماذا تريد أعظم من هذا الخزي، وهذا الجزاء أمام سائر أهل نجد؟».

وتكلم نايف أبو الكلاب مظهراً محبته لجلالة الملك، وأنه يغليه أكثر من نفسه، وجاراه في مثل كلامه ابن لامي، ولم يشأ جلالته أن يطيل عتبهم وتأنيبهم، فأفرد لهم سرادق خاص، وبعدها أرسلوا بالسيارات إلى الرياض، ومنها أرسلوا إلى الأحساء، حيث قضوا نحبهم في السجن، فالدويش مات في الرياض سنة ١٣٥٠هـ، وابن حميد وأبا الكلاب وابن لامي ماتوا في الأحساء سنة ١٣٥٣هـ.

أما أتباعهم من العجمان ومطير فقد قادتهم الطيارات والدبابات البريطانية إلى حدود نجد، حيث استقبلتهم سرية من سرايا جلالة الملك بإمرة عبدالرحمن الطبيشي، واستلمتهم، وقادتهم إلى مخيم جلالة الملك حيث تشرف بمقابلته كبارهم، فأمن روعهم، وأمرهم بأوامره التي قبلوها طائعين.

وكان ذلك آخر جذوة لهذه الفتنة أخمدت في ذلك المكان إلى حيث لا تعود.

وتواردت الوفود إلى جلالته من الكويت والزبير والبصرة وبغداد، يهنئونه بهذا النصر المبين حتى غص المخيم من كثرتهم، وهم يقابلون بما يليق من الإكرام والتكريم بالخلع والهدايا، فصار مجتمعًا يمثل الإخاء العربي بكل معانيه.

* **اجتماع الملكين**: إن حكومة العراق كانت أول من اقترح الاجتماع، وأبلغت ذلك الاقتراح بواسطة الحكومة البريطانية، وقد حبذ جلالة الملك الاقتراح وأعرب عن سروره ورغبته في الاجتماع. وكانت حكومة العراق اقترحت أن يكون الاجتماع على الرخيمية - في المنطقة المحايدة بين نجد والعراق - ولكن هذا الاقتراح لم يرد إلا وجلالة الملك في مكان بعيد عن الرخيمية جداً =

= ويتعذر الوصول إليها، واقترح جلالته أنه بالنظر لأن جلالة ملك العراق سيقدم بطيارة، فمن السهل وصوله للوفراء المكان المتحايد بين نجد والكويت، فلم يوافق ملك العراق بحجة أن الدعوة كانت للاجتماع في الحدود النجدية العراقية، ولا يمكن أن يجري المقابلة بعيداً عن حدوده. وورد اقتراح من الحكومة البريطانية بعقد الاجتماع على سفينة بريطانية في البحر خارجًا عن حدود الملكين، فوافق جلالته على ذلك رغبة في حسن العلاقات مع العراق، وتحدد أن يكون الاجتماع في العشرين من رمضان سنة ١٣٤٨هـ.

ونظراً لأن الغرض من الاجتماع هو التوادد والتآخي؛ فقد رأى جلالة الملك أن تكون الأبحاث مع جلالة الملك فيصل مقتصرة على ذلك الموضوع المهم وحده؛ لأن الدخول في مناقشات ومفاوضات بين الملكين قد يحدث فيه اختلاف بين وجهات النظر ينتج عنه عكس المراد الأصلي من الاجتماع. لذلك اقترح جلالة الملك عبدالعزيز أن يعقد اجتماع تمهيدي من مندوبي الحكومتين في الكويت يبحث فيه في المواضيع المعلقة لإنهاء البحث فيها حتى لا يظل غير إبرامها من قبل الملكين.

وبالفعل قُبل هذا الاقتراح من حكومة العراق، فانتدبت وفداً برئاسة ناجي شوكت - وزير الداخلية -، وانتدب جلالة الملك فؤاد حمزة وحافظ وهبة وإبراهيم بن معمر للمفاوضة في ذلك الشأن، وكان اجتماع المندوبين في الكويت في ١١ رمضان سنة ١٣٤٨هـ، ودارت الأبحاث حول عدة مواضيع، ولكن لم يتم الاتفاق على شيء؛ لأن مندوبي العراق لم يكونوا مزودين بالتفويض الكامل للبت في القضايا المبحوث فيها.

رحل ركب جلالة الملك من خباري وضحا، فضبع، على السيارات، فوصل الجبيل في ١٩ رمضان سنة ١٣٤٨هـ بعد أن قطع من ضبع ٢٦٦ كيلو متراً، وفي ٢١ رمضان ركب جلالته على زوارق بخارية إلى رأس تنورة حيث تنتظره الباخرة البريطانية "باتريك ستيورات" لنقله إلى محل الاجتماع على الطرادة "لوپن" في البحر بالقرب من مصب شط العرب. =

....

= وصلت الباخرة "باتريك ستيوارت" وكانت الباخرة "نرجس" التي تقل جلالة الملك فيصل، والطرادة "لوپن" التي تقل المندوب السامي في العراق قد أخذت كل منهما موقعها المقرر حسب البرنامج، وحال رسوها قدم السكرتير الشرقي للمندوب السامي للمذاكرة في برنامج الحفلة الأولى، فتم الاتفاق عليه، ولما حان الوقت المضروب، ركب جلالة الملك عبدالعزيز على زورق بخاري، وركب معه من رجال حاشيته الدكتور مدحت شيخ الأرض، والشيخ فؤاد حمزة والشيخ حافظ وهبة والشيخ يوسف ياسين ومرافق جلالته الشيخ عبدالرحمن الطبيشي، ولما اقترب الزورق من "لوپن" رفع عليها علم مملكة الحجاز ونجد وملحقاتهما، وأطلقت إحدى وعشرين مدفعًا، واستقبل جلالته على السلم المندوب السامي وقائد الطرادة ورجال معيتهما، ثم وقف جلالة الملك مع المندوب السامي يتحدثان ريثما وصل جلالة ملك العراق حيث رفع علم العراق بجانب علم الحجاز ونجد، وأطلقت ٢١ مدفعًا للتحية. وبعد أن صعد إلى ظهر الطرادة استقبله على الدرج المندوب السامي وقائدها، وسعى كل من الملكين للقاء صاحبه فتصافحا، ثم تعانقا، ثم تبادلا ألفاظ السلام، ثم قدم جلالة الملك فيصل رجال معيته إلى جلالة الملك عبدالعزيز، وكان في مقدمتهم ناجي باشا السويدي - رئيس الوزراء - ورستم حيدر - رئيس الديوان - والكرنل نوركواليس [كورنواليس] - مستشار وزارة الداخلية - وتحسين قدري - مرافق جلالته - وعبدالله المسفر المضايفي. وقدم الملك عبدالعزيز رجال معيته إلى الملك فيصل وهم من ذكرنا آنفًا.

وبعد هذا التعارف دخل الجميع إلى غرفة البارجة فابتدأ الملك فيصل شاكرًا الحكومة البريطانية والمندوب السامي البريطاني سعيهم لحصول هذا الاجتماع الذي سيكون فيه التآخي بين العرب.

ثم تكلم جلالة الملك عبدالعزيز، فقال: إن الحكومة البريطانية وفخامة المندوب السامي يُشكَرون على هذا السعي، ولكن الواجب على العرب وأمرائهم أن يسعوا سعيًا متواصلاً للاتحاد والاتفاق بينهم. ثم أفاض في هذا الموضوع مبينًا التقصير الذي كان من العرب نحو أنفسهم. =

=

ثم تكلم فخامة المندوب السامي معربًا عن سروره وسرور الحكومة البريطانية بعقد هذا الاجتماع الذي تنتظر من ورائه الخير الكثير للبلاد العربية.

ثم أديرت كؤوس القهوة، واختلى الملكان؛ ليبث كل منهما لأخيه ما بنفسه؛ ليحدث من بعد ذلك التصافي والتآخي المنشود، فأقاما برهة، ثم استدعيا السويدي وكورنواليس ورستم حيدر وفؤاد حمزه وحافظ ويوسف ياسين.

وابتدأ الملك فيصل الكلام في القضايا التي هي موضع البحث، والظاهر أن حكومة جلالته لم تطلعه على المخابرة السابقة في أن اجتماع الملكين سيكون موضوع التصافي الشخصي بين شخصيهما. وبعد بحث لم يطل في هذا الشأن تقرر أن يبحث رجال الحكومتين في الأمور التي ينبغي البحث فيها.

وقد تناول الملكان الغداء على مائدة المندوب السامي. وفي المساء أعدت مأدبة فاخرة في باخرة جلالة الملك عبدالعزيز، ولما أقبل الملك فيصل استقبله الملك عبدالعزيز على سلم الباخرة، وحضر الوليمة المندوب السامي وحاشيته وحاشيتا الملكين. وفي اليوم التالي لبى الملك عبدالعزيز دعوة الملك فيصل إلى طعام الغداء على الباخرة "نرجس" وكانت الحفلة جميلة بنظامها. وبعد الغداء وبعض الأبحاث تودع الملكان على ظهر الباخرة.

وفي ٢٥ رمضان سنة ١٣٤٨هـ أقلعت الباخرة "باتريك ستيورات" ميممة الجنوب، وكان المقرر أن ينزل جلالة الملك عبدالعزيز في ميناء البحرين في الزوارق البخارية إلى العقير، ولكنه رأى برغم بعض المعارضات الدبلوماسية أن يزور سمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، ويسلم عليه؛ لأنه بمقام والده، ويجله الإجلال الذي لا حد له، فتلقاه والدموع تترقرق في عينيه فرحًا بلقائه، ولقد قال الشيخ عيسى بعد ذلك: «لا أبالي الآن متى مت بعد أن حصلت على رؤية عبدالعزيز بهذه الحالة». وبعد المقابلة القصيرة توجه جلالته على الزوارق البخارية إلى العقير، فالأحساء. وقد أقام في الأحساء إلى ٥ شوال، وغادرها على السيارات إلى الرياض، فوصلها في الثامن من شوال سنة ١٣٤٨هـ.

والحمد لله رب العالمين.

=

....

= * **فتنة ابن رفادة :**

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

لم تكن ثورة ابن رفادة إلا كالطفل الذي يموت أثناء ولادته، وهي في حد ذاتها لا تستحق أن تدون أو يشار إليها كحادثة ذات بال لو لا أنها أعادت الصواب إلى ناس وسوسوا لها، وخنسوا، وبنو عليها علالي الآمال، فعاد كيدهم إلى نحورهم.

لم يكن حامد بن سالم بن رفادة سوى رئيس قبيلة بلي في شمال الحجاز، ولما تولى جلالة الملك الحجاز وضرب على أيدي البدو وقطاع الطرق، حاول ابن رفادة أن يقوم ببعض الأعمال العدوانية، فضرب ضربة هرب منها إلى مصر، فأقام فيها.

وكان بعض المتربصين قد أعدوا خطة لإثارة قبائل الحجاز في الشمال في وقت يقوم به الأدارسة بثورة مقابلة في الجنوب، ففاتحوا ابن رفادة في هذا الشأن، وأمدوه بالنقود وبعض المعدات، فانخدع بالوعود والأماني المعسولة، وتصور أن القبائل الحجازية ستثور معه وتتلقاه بالترحاب، فاستعد لذلك ومعه محمد بن عبدالرحيم بن طقيقة ومسعود الدباغ، فسافروا من مصر في أوائل محرم سنة ١٣٥١هـ مزودين بجانب كبير من المال إلى النصب، ومنه إلى الخفر، ثم إلى درب الزلفة، واتخذوا الطريق الساحلي بين الساحل والجبال، حتى انتهوا إلى طابة نهاية الحدود المصرية، ومنها اجتازوا الحدود. وتعدوا العقبة إلى الشريح بالقرب من العقبة، وأقاموا هناك يبثون سمومهم في القبائل ويستميلونهم، والأرزاق والعتاد يرسل إليهم باستمرار.

وكان الاتفاق قد تم أنه بينما ابن رفادة يقوم بالزحف إلى المدينة ومكة، يقوم الأدارسة بثورة في الجنوب، ليضطروا الجيوش السعودية إلى القتال على جبهتين.

وكانت الحرب الكلامية أسرع من الحرب الفعلية، فقد أخذت البلاغات الرسمية تصدر تباعاً والجرائد تنشر المقالات بتصوير ابن رفادة بطلاً من الأبطال، وتعظيم أمره وأمر ثورته وجنوده . . . إلخ. =

١٢

ولتحـــي [١]

(ص ١٢٢)

حلم عبدالعزيز من العجائب التي يضرب بها المثل، ويسجلها؛ التاريخ لتكون مُثُلاً عليا يقتدي بها من يفتح الله على بصيرته من الملوك. والحلم غريزة فيه، والغريزة لا يحورها التطبع، ولا يتغلب عليها التصنع، وإلا فالعلل والأسباب التي يبرر فيها المرء أعماله لضميره متى أراد إشفاء غليله كثيرة لا تعد ولا تحصى، وهي في الحوادث الأخيرة جد متوفرة، تزلزل أرزن الحلوم، وتحرك أثبت العقول، ولو أراد عبدالعزيز أن يتذرع بها

= وقد أخذت الحكومة السعودية عدتها لهؤلاء العصاة، وأرسلت الجيوش من عدة نقاط لتلتقي محدقة بابن رفادة ومن معه.

وكان ابن رفادة قد تقدم من الشريح إلى الحقل فالبدع فالخريبة فرشيم. وقد كتب إبراهيم بن سليمان بن رفادة - رئيس قبيلة بلي - وعدة قبائل من عرب الشمال يستهجنون عمل حامد بن رفادة، ويستأذنون في حربه، فطلب منهم أن يكاتبوه لإغرائه بالتقدم حتى يقع في الفخ.

وقد تكاملت احتشاد الجيوش السعودية في ضبا، ولما علم بها ابن رفادة انسحب من موقعه، ونزل في سفح جبل شار، وهناك أحيط به من كل جهة، وقُتِلَ حامد بن رفادة وابناه فالح وحماد، وسليمان بن أحمد أبو طقيقة، ومحمد بن عبدالرحيم أبو طقيقة، والسيد مسعود الدباغ، و (٣٥٠) قتيلاً آخرون، وقمعت هذه الفتنة بمهدها. وكفى الله المؤمنين القتال» انتهى. وهذا آخر ما في النسخة ب.

(١) هذه الفقرة لم ترد في النسخة ب.

ويسل الحسام ويقطع الرقاب لما رأيت من يلومه، وكلهم تتوفر عليهم عقوبات القتل والشنق، والناس يحبذون معاقبتهم، وهب أننا حملنا ذلك على محمل الذنب المشترك الذي يغطيه إعلان العفو العام، فعلى ماذا نحمل عفوه عن ابن حميد، والدويش، وأبي الكلاب الذين أثاروا الفتنة العمياء، وتسببوا لإراقة الدماء؟ أما كانت أقل عقوبة تصدرها أية محكمة على مثلهم لا تقل عن الإعدام.

ولو أنهم أهل للثقة والوفاء بالعهود إذا عاهدوا لاكتفى بتقريعهم:

نلوم ولكن كلما صار شاهد بأنك فيما أنت تفعل أصوب

أين من يدَّعي الرحمة والرأفة ويتغنى باسم الإنسانية والمدنية، ليرى كيف تؤدب الشعوب، وكيف تعالج الجروح الدامية، وكيف تستل السخائم من الصدور.

ينهزم العصاة في السبلة مدبرين أشد ما كانوا صلفًا وعنجهيَّةً، والناس تتميز صدورهم من الغيظ والحنق عليهم، فيقوم بنفسه يدفع عنهم جنده، وينادي بأعلى صوته: المنع، المنع. ولولا ذلك لما وصل الأرطاوية منهم عشر معشار، وما حال الرجلي المنهزم إذا تبعته الخيل، ويتلو ذلك عفوه عن الدويش وإعلانه العفو العام بعد ذلك، ولا تسل عن المواساة التي أسداها إلى أهل الفلول المنكوبين، فقد كساهم وزوَّدهم ورحَّلهم إلى أوطانهم، وفيما تقدم من سيرته من غرائب الحلم والجود ما لم يسبق لأحد قبله.

(الله عودني الجميل، والغادر يأخذه الله) هذه الجملة هي شعاره في جميع الحوادث، وهكذا فقد عوده الله الجميل، وإلا فمما تقدم يظهر ما كان عليه أولئك الرؤساء الثلاثة، فقد ولاهم وأيدهم وعززهم، ولولاه لما استطاعوا أن يتمتعوا برئاستهم لقوة مناوئيهم، وللمعاند أن يقول ما يشاء، ولكن مما لا ريب فيه أنهم غرس نعمته، فيجب أن لا [ألاَّ] يخونوه ولا يغدروا به، وما كانوا قبل عبدالعزيز إلا رؤساء عشائر لا قيمة لهم، وما عهد محمد بن رشيد عنا ببعيد، وهم هم الذين كان أكبرهم يأتي إلى ابن رشيد وافدًا، فيعطيه قعودًا وعباءة مشهدية ثمنها أربعة ريالات وثوبًا قطنيًا، فيعود شاكرًا حامدًا، وجوائزهم لديه لا تتجاوز الخمسين ريالاً.

وهذا فيصل الدويش شيخ علوا ومطير يخنع لعامل مبارك الصباح(١)، فيسجنه مكبلاً في خيمته في وسط عشيرة مطير، فلم يحرك ساكنًا(٢)، فرفعه جلالة الملك حتى رنَّ اسمه في الخافقين.

وزميله سلطان بن بجاد لولا جلالته لما استطاع أن يترأس يومًا واحدًا؛ لأن رئاسة عتيبة كانت لنايف بن محمد بن هندي.

أما العطايا والمرتبات فحدث عنها ولا حرج، وإذا كانت الحكومات

---

(١) زاد في النسخة أ: «صقر الغانم».

(٢) زاد في النسخة أ: «وقد شاهدته بنفسي في أسواق الكويت وفي (الصيهد) مناخ البدو ينبطح على بطنه فوق التراب مع سائر البدو، وليس عليه إلا عباءة برقاء غليظة».

تنفق على الجنود فقط، فعبدالعزيز ينفق على الإخوان كلهم الشاكي منهم والأعزل، فلكل واحد مرتب من النقود في الصيف والخريف، ومقابل ذلك له عدة أكياس من الرز، وكمية من التمر كل على قدره، أما رؤساؤهم فقد أثروا ثراء مدهشًا، وصبٌّ عليهم الذهب صبًا، ومتى وفد أحدهم ألبس من الخلع ما لم يره طول عمره من أقبية (زبنات) الحريروالكشمير والترمة وعباءات الوبر المقصبة، وكوفيات الشال المثمنة، بله الخيل المطهمة، والإبل العمانية، وبعد ما يهال عليه هذا الجود الواكف يأتيه كاتب الديوان، فيقول له: «اكتب حوائجك»، فعندئذ تصور بدويًا جلفًا له تلك النفس الجشعة الطماعة التي لا تقف عند حد والتي لا تعرف الحياء ولا الاحتشام يملي على الكاتب بعنجهيته، ويبلغ بعض كبارهم درجة من خسة النفس إلى حد بعيد، فيكتب جميع ما يحتاج لمجلسه من دلال وأدوات، ومطبخه من قدور وما شاكلها، ومضيفه من مفروشات وأثاثات وخيله وإبله وأهل بيته، فتقضى حوائجه كلها، وبعد هذا كله نراهم يقومون بما قاموا به.

إن ما ذكرته حقائق لا غبار عليها، وقد اقتصرت عن ذكر أشياء أغرب خوفًا من التبذل في الموضوع، ومن هذا نحكم بحق بأن جلالته مثال الكمال، والله عوّده الجميل.

المصادر والمراجع

(١) **القرآن الكريم.**

(٢) ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد. **الكامل في التاريخ**. بيروت: دار الكتاب العربي، ط٦، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٣) الأصفهاني، أبو الفرج. **الأغاني**. شرحه وكتب هوامشه: عبد أ علي مهنا، وسمير جابر. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

(٤) انطونيوس، جورج. **يقظة العرب : تاريخ حركة العرب القومية**. ترجمة د: ناصر الدين الأسد، ود. إحسان عباس. بيروت: دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٧٨م.

(٥) ابن أيدمر، محمد. **الدر الفريد وبيت القصيد**، أصدره فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م (طبع بالتصوير عن مخطوطة ١٧٦١ مجموعة فاتح، مكتبة السليمانية، إستانبول).

(٦) البرقوقي، عبدالرحمن. **شرح ديوان المتنبي**، بيروت دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

(٧) البرقوقي، عبدالرحمن. **شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري**، دار الكتاب العربي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٨) ابن بسام، عبدالله بن عبدالرحمن. **علماء نجد خلال ستة قرون**، مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ط١، ١٣٩٨هـ.

(٩) البستاني، بطرس. **محيط المحيط**. لبنان: مكتبة لبنان، إعادة طبع ١٩٩٣م.

(١٠) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. **عنوان المجد في تاريخ نجد**، تحقيق: عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبدالله آل الشيخ، ط٤، الرياض: مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٢هـ[١].

(١١) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. **عنوان المجد في تاريخ نجد**، تحقيق: عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبدالله آل الشيخ، ط٢، وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية، ١٣٩١هـ.

(١٢) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. **عنوان المجد في تاريخ نجد**، ط٣، الرياض: مطابع القصيم، ١٣٨٥هـ.

(١٣) البغدادي، عبدالقادر بن عمر. **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تحقيق: وشرح عبدالسلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(١٤) البلادي، عاتق بن غيث، **معجم معالم الحجاز**. دار مكة للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(١٥) ابن بليهد، محمد بن عبدالله. **صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار**، د.ن، ط٣، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(١٦) الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة. **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي**. تحقيق: وشرح أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار الحديث، د.ت.

---

(١) هذه الطبعة هي المعتمدة أثناء التحقيق، وفي حالة الرجوع إلى طبعة أخرى من هذا الكتاب فيشار إلى بيانات نشره في موضعه.

(١٧) أبو تمام، حبيب بن أوس. **الحماسة**. تحقيق: د. عبدالله عسيلان. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(١٨) الجاسر، حمد. **شمال المملكة (ضمن المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية)**، الرياض: دار اليمامة، ط١، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

(١٩) الجاسر، حمد. **معجم قبائل المملكة العربية السعودية**. الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(١٩) الجاسر، حمد. **المنطقة الشرقية (ضمن المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية)**، الرياض: دار اليمامة: ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٢٠) الجبرتي، عبدالرحمن. **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**. بيروت: دار الجيل، د.ت.

(٢١) ابن جنيدل، سعد. **عالية نجد (ضمن المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية)**، الرياض: منشورات دار اليمامة، د. ت.

(٢٢) حليم، إبراهيم بيك. **تاريخ الدولة العثمانية المعروف بكتاب التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية**. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(٢٣) خزعل، حسين خلف. **تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب**. بيروت: مطابع دار الكتب، د.ت.

(٢٤) خزعل، حسين خلف. **تاريخ الكويت السياسي**، ط١، ٦٢ - ١٩٦٥م.

(٢٥) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. **مقدمة ابن خلدون**. تحقيق: د. علي عبدالواحد وافي، مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٣، د. ت.

(٢٦) ابن خميس، عبدالله بن محمد. **معجم اليمامة (ضمن المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية)**، الرياض: مطبعة الفرزدق، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٢٧) **دائرة المعارف الإسلامية**. يصدرها باللغة العربية أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبدالحميد يونس. [بيروت]: دار الفكر، د.ت.

(٢٨) الدخيل، سليمان. **القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد**. ملحق بكتاب "نبذة تاريخية عن نجد للأمير ضاري بن فهيد" الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٦هـ.

(٢٩) ديكسون، هـ. د. ب. **الكويت وجاراتها**، ترجمة: د. فتوح عبدالمحسن الخترش، ط١، الكويت. ذات السلاسل، ١٩٩٥م.

(٣٠) **ديوان أبي تمام (شرح)**. ضبطه وشرحه: شاهين عطية. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٣١) **ديوان أبي نواس،** تحقيق: أحمد عبدالمجيد الغزالي، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٣٢) **ديوان زهير بن أبي سلمى (شرح شعره)، صنعه أبي العباس ثعلب،** تحقيق: د. فخر الدين قباوة، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(٣٣) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. **تاريخ الإسلام.** تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري. بيروت: دار الكتاب العربي [يصدر تباعًا]، ج٣، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٣٤) الرحلات الملكية. **رحلات جلالة الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض،** المنشورة في جريدة أم القرى ٤٣ - ١٣٤٦هـ. الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٦هـ.

(٣٥) الرشيد، عبدالعزيز. **تاريخ الكويت،** بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٧٨م.

(٣٦) الرشيد، الأمير ضاري بن فهيد. **نبذة تاريخية عن نجد،** كتبها: وديع البستاني، الرياض: دار اليمامة، ١٣٨٦هـ.

(٣٧) الرويشيد، عبدالرحمن بن سليمان. **قصر الحكم في الرياض،** ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٣٨) الريحاني، أمين. **تاريخ نجد وملحقاته،** ط٥، الرياض: منشورات الفاخرية بالاشتراك مع دار الكاتب العربي في بيروت. ١٩٨١م.

(٣٩) الزركلي، خير الدين. **الأعلام**، ط٧، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٦م.

(٤٠) الزركلي، خير الدين. **شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز**، ط٣، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٥م.

(٤١) الزركلي، خير الدين. **الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز**، بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٤م.

(٤٢) الزمخشري، محمود بن عمر، **أساس البلاغة**، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٤٣) الزيد، خالد سعود. **خالد الفرج : حياته وآثاره**، ط٢، الكويت: شركة الربيعان للنشر والتوزيع، ١٩٨٠م.

(٤٤) ابن سعد. **الطبقات الكبرى**. بيروت: دار صادر، د. ت.

(٤٥) السعيدان، حمد محمد. **الموسوعة الكويتية المختصرة**. ط٣، ٩٢-١٩٩٣م. طبع بدعم مالي من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي.

(٤٦) **سنن أبي داود**، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد. إستانبول: المكتبة الإسلامية، د. ت.

(٤٧) ابن سيده، علي بن إسماعيل. **المخصص**. بيروت: المكتب التجاري للطباعة، د. ت.

(٤٨) الشناوي، د. عبدالعزيز محمد و د. جلال يحيى. **وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر**. مصر: دار المعارف، ١٩٦٩م.

(٤٩) الشويعر، د. محمد بن سعد. **شقراء**. الرياض: دار الناصر، ط١ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

(٥٠) الصباح، عواطف خليفة العذبي. **الشعر الكويتي الحديث**. الكويت: جامعة الكويت. ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

(٥١) الطاهر، د. علي جواد. **معجم المطبوعات العربية، المملكة العربية السعودية**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥م.

(٥٢) الطبري، محمد بن جرير. **تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر: دار المعارف، ط٤، د.ت.

(٥٣) الظاهري، أبوعبدالرحمن بن عقيل. **العجمان وزعيمهم راكان بن حثلين**، الكويت: ذات السلاسل، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(٥٤) العبادي، محمد يونس. **الأمير شاكر بن زيد (١٨٨٥-١٩٣٤م) سيرته ومسيرته من خلال الوثائق التاريخية**. الأردن: وزارة الثقافة، ط١، ١٩٩٦م.

(٥٥) العبودي، محمد بن ناصر. **معجم بلاد القصيم**. ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(٥٦) العسكري، أبوهلال. **جمهرة الأمثال**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش. القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، ط١، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

(٥٧) العسكري، أبوهلال. **الأوائل**. تحقيق: د. وليد قصاب ومحمد المصري. الرياض: دار العلوم، د. ت.

(٥٨) ابن عيسى، إبراهيم بن صالح. **تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان (من ٧٠٠هـ إلى ١٣٤٠هـ)**، ط١، الرياض: دار اليمامة، ١٣٨٦هـ.

(٥٩) ابن عيسى، إبراهيم بن صالح. **عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في أواخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر**- ذيل به على كتاب «عنوان المجد في تاريخ نجد» لابن بشر - تحقيق: عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية. د.ت.

(٦٠) غربال، محمد شفيق. **الموسوعة العربية الميسرة**. دار الشعب ومؤسسة فرانكلين: د.ت.

(٦١) الغزاوي، عباس. **عشائر العراق**. مطبعة بغداد، ج١ سنة ١٣٦٥هـ.

(٦٢) ابن غنام، حسين. **تاريخ نجد، المسمى روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام**. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

(٦٣) ابن غنام، حسين. **تاريخ نجد**. حرره: د. ناصر الدين الأسد، ط٣، ١٤٠٣هـ.

(٦٤) الفرج، خالد محمد. **أحسن القصص، أو سيرة جلالة الملك عبدالعزيز**، ط١، قطر: الشؤون الدينية، ١٩٨٢م.

(٦٥) الفرج، خالد. **ديوان خالد الفرج**، تحقيق: خالد سعود الزيد، ط١، الكويت: شركة الربيعان، ١٩٨٩م.

(٦٦) الفرج، خالد. **ديوان النبط - مجموعة من الشعر العامي في نجد**، الرياض، المكتبة الأهلية، د.ت.

(٦٧) فاسيلييف، إليكسي. **تاريخ العربية السعودية**، طبعة منقحة ومزيدة، ط١، بيروت: شركة المطبوعات، ١٩٩٥م.

(٦٨) فلبي، سنت جون. **أرض الأنبياء، مدائن صالح**؛ تعريب: عمر الديراوي. بيروت: المكتبة الأهلية، د.ت.

(٦٩) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. **القاموس المحيط**، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(٧٠) القثامي، د. حمود بن ضاوي. **شمال الحجاز**، بيروت: العصر الحديث للنشر، ط٣، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

(٧١) ابن كثير، إسماعيل بن كثير. **السيرة النبوية**. تحقيق: مصطفى عبدالواحد، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٧٢) كشك، محمد جلال. **السعوديون والحل الإسلامي**، ط٤، القاهرة: ١٤٠٤هـ.

(٧٣) اللخمي، محمد بن أحمد ابن هشام. **الفوائد المحصورة في شرح المقصورة**. تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار. بيروت منشورات دار مكتبة الحياة، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٧٤) المازني، إبراهيم عبدالقادر. **رحلة الحجاز**. [مصر]: مطبعة فؤاد بعطفة عبدالحق السنباطي رقم ٢٠ بميدان الأوبرا. د.ت.

(٧٥) المقري، أحمد بن محمد. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**. تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(٧٦) **المنجد في الأعلام**، [بيروت]: دار المشرق، ط٩، ١٩٧٨م.

(٧٧) ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**. بيروت: دار صادر، د.ت.

(٧٨) **موسوعة السياسة**، أسسها: عبدالوهاب الكيالي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٧٩) **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**. الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

(٨٠) مؤلف مجهول. **تراجم أعيان المدينة المنورة في القرن «١٢» الهجري**، تحقيق: د. محمد التونخي، جدة: دار الشروق، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٨١) الميداني، أحمد بن محمد بن أحمد. **مجمع الأمثال**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: عيسى البابي الحلبي، د.ت.

(٨٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**. تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي. بيروت: دار الخير. ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٨٣) وزارة الخـارجيـة [المملكة العـربيـة السـعـودية]، **مجموعة المعاهدات من ١٣٤١-١٣٧٠هـ/ ١٩٢٢-١٩٥١م**. جدة: معامل البنوي، الطبعة الخامسة، د.ت.

(٨٤) الوهبي، عبدالكريم بن عبدالله المنيف. **بنو خالد وعلاقتهم بنجد (١٠٨٠-١٢٠٨هـ / ١٦٦٩-١٧٩٤م)**. الرياض: دار ثقيف للنشر، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

(٨٥) ياقـوت الحـمـوي. **معجم البلدان**. تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

الصحف والمجلات:

(٨٦) **جريدة أم القرى**. تصدر بمكة المكرمة عن مطبعة أم القرى، أعداد مختلفة.

(٨٧) **حولية كلية الإنسانيات**، بجامعة قطر.

(٨٨) **مجلة الكويت**، يصدرها عبدالعزيز الرشيد، سنة ١٣٤٨هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة